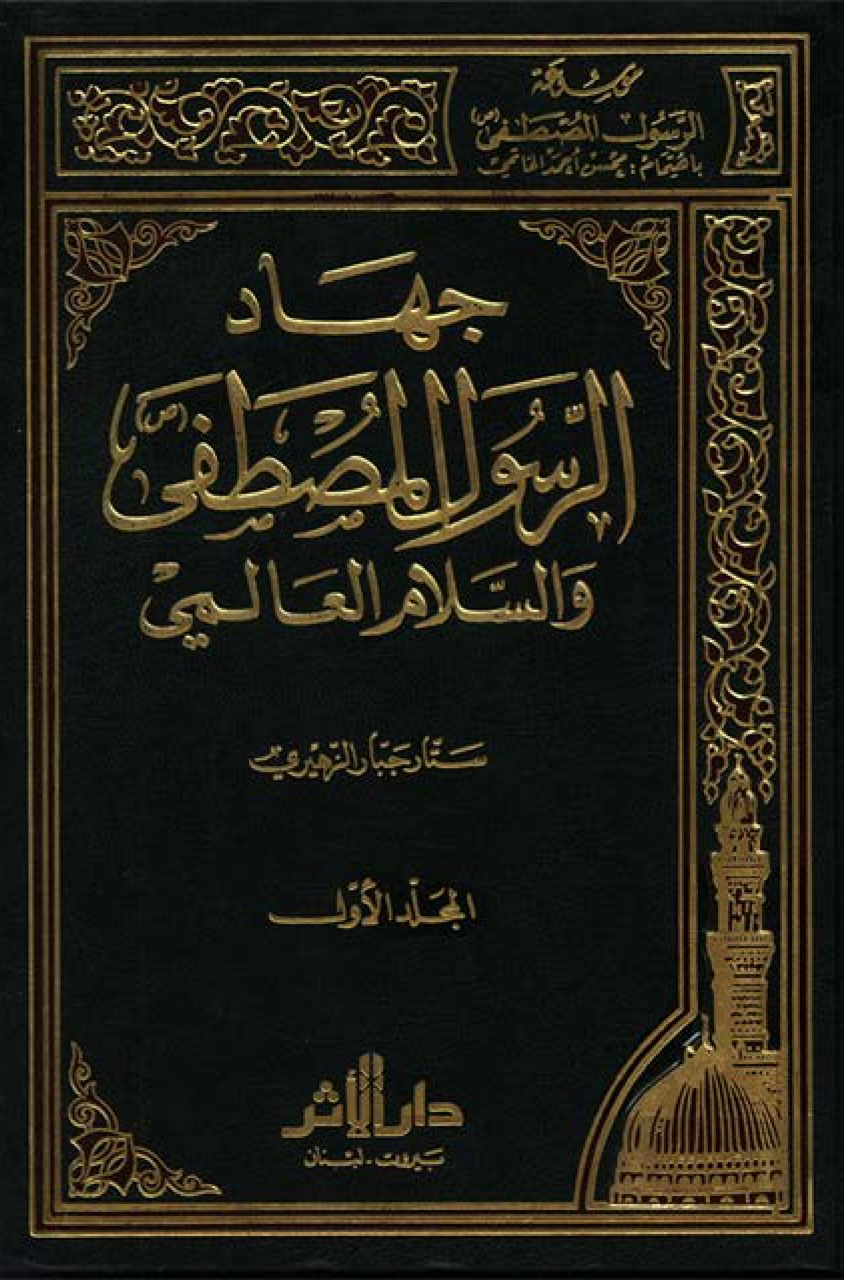

موسوعة
الرسول المصطفى (ص)
جهاد
الرسول المصطفى (ص)
والسلام العالمي
ستار جبار الزهيري
المجلد الأول
دار الأثر
بيروت - لبنان


جهاد
الرسول المصطفى
والسلام العالمي



موسوعة
الرسول المصطفى (ص)
باهتمام : محسن أحمد الخاتمي

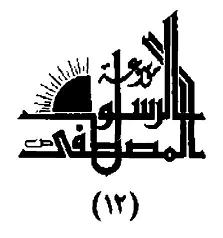
جهاد
الرسول المصطفى
والسلام العالمي

ستار جبار الزهيري

المجلد الأول

دار الأثر
بيروت - لبنان





(١٢)

العنوان البريدي في لبنان:
بيروت - الغبيري ص.ب. ٢٥/١٣٨

العنوان البريدي في إيران:
مشهد - ص.ب. ٩١٣٧٥/٤٤٣٦

الفاكس:٢٢٢٢٤٨٣ (٥١١ - ٠٠٩٨)

البريد الإلكتروني: e.mail
almawsouah@hotmail.com
almawsouah@yahoo.com

الموقع في الإنترنت:
www.almawsouah.org

مركز التوزيع والنشر في لبنان: دار الأثر

مركز التوزيع والنشر في إيران: إنتشارات ژرف

تهران - خيابان انقلاب - خيابان فخر رازى - شماره ١١١. هاتف: ٦٤٠١٧٢٧ (٢١ - ٠٠٩٨) ص.ب: ٥٣٣ - ١٣٤٤٥

الطبعة الأولى: ١٤٢٣ - ٢٠٠٢

توزيع ونشر دار الأثر
بيروت - بئر العبد - شارع دكاش - بناية شحرور
هاتف: ٠١/٢٧٠٥٧٤ - ٠٣/٣٤٩٣٣٧



E-mail: alathar2002@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝

صدق الله العلي العظيم

الأحزاب ٤٥ - ٤٦



كلمة الموسوعة

أن تصنَعَ من الحروب التي هي لغة الدمار والتخريب، حالةً أخلاقيةً سامية وتحوّلها من وسيلةٍ للفتك والإبادة إلى عنصر أساس في عملية التطهير الاجتماعي وبناء مجتمع سليم، ولا تستفيد منها إلاّ في الضرورات القصوى التي تصل بك إلى حالة من الإلجاء والإكراه الشديدين، وتركّز في تلك الحالة الخاصة أيضاً على كل جوانب الالتزامات الأخلاقية والإنسانية وتحوّلها من ميدان للانتقام والثأر المجرد إلى مدرسة للهداية وإنقاذ الأعداء من براثن الجهل والعصبية، فذلك أمر لم يتحقق أبداً طيلة تاريخ البشرية إلا على يد رسول الرحمة والسلام، الرسول المصطفى ﷺ.

مع كل هذا فقد اتّهمه أعداءُ الإسلام من بعض المستشرقين ومن غيرهم، بأنه رسول الفتك والدم، وانطلت هذه الكذبة الحاقدة على بعض البسطاء هنا وهناك، حتى كأنهم نسوا قولته المتكررة المشهورة التي يعتذر بها عن قومه متوسلاً إلى الله تعالى لأجلهم بقوله ﷺ: **«اللهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون»**.

أو كأنهم نسوا صرخته المدويّة في سماء الإنسانية عندما فتح مكة بانتصار ساحق، وتوقّع الجميع منه أن يضع السيف فيهم ويبيدهم عن بكرة أبيهم ـ وهم أعداؤه وأعداء الدين الألدّاء ـ ولكنه قام فيهم خطيباً وقال ﷺ: **«إذهبوا فأنتم الطلقاء»**.

أو كأنهم تناسوا كيف عامل ﷺ هند آكلة كبد عمّه حمزة، التي ما

فتنٌ ماضية مستمرة، تُؤلِّب العرب على محاربة الرسول ﷺ، فعفى عنها وتلطَّف لها، بل وخصّ زوجها المحارب أبا سفيان ـ ليتألّفه ـ بكرامةٍ قائلاً: «من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن».

أو كأنهم لم يدرسوا تاريخ حروب الرسول ﷺ ليروا كيف أنه وضع للبشرية أُسس الحرب الأخلاقية النظيفة وقواعد التعامل السامي مع الأسير، ولم يبدأ في حياته قطّ أحداً بقتال.

أو كأنهم لم يطالعوا التاريخ النبوي الشريف ليتلمّسوا بأنفسهم كيف أن الرسول المصطفى ﷺ قد أسّس للعالم قواعد حقوق الإنسان في أعلى مراتبها السامية وأرقى ملاكاتها النبيلة، وكيف عالج مشكلة التخلف الفكري آنذاك، ونظر إلى الإنسان بما هو إنسان، من دون اعتبار اللون أو اللغة أو الدم، وكيف كان يعامل أهلَ الكتاب من سائر الأديان بلطف وإرشاد وتوعية.

نعم .. إنه في كل تلك الحالات، كان يزرع أيضاً روح البطولة والبسالة والتشوّق إلى الجهاد، لإعلاء كلمة الله في الأرض، وترسيخ عزّة المسلمين وبثّ روح المقاومة والصمود في وجه التحديات الصعبة التي كان يمر بها المسلمون آنذاك.

وعندما كانت الوداعة والموعظة المرشدة تفقد أثرها العلمي، وكان الأعداء سواءً من مشركي قومه أو من اليهود ـ زُمَر الأنانية والعُقَد والخيانة ـ كانوا يجهّزون العَدَد والعُدَد لمحاربته، كان بطلاً مغواراً ومجاهداً باسلاً ومدافعاً متفانياً في سبيل إرساء قواعد مدرسته الفكرية التي ناضل حتى الموت في سبيل إبقائها وتركيزها وحثُّ أصحابه على التصدي والصمود والمقاومة للدفاع عن النفس والعقيدة.

لدراسة كل هذه الأمور والكثير غيرها، بشكل تحليلي مفصّل، يضع النقاط على الحروف، حاول أخي الفاضل ستّار الزهيري في كتابه: جهاد الرسول المصطفى ﷺ والسلام العالمي، بمجلداته الثلاثة، أن يقترب من

تلك المعالم الوضّاءة في تاريخ جهاد الرسول والذي يُعتبر ﷺ بحق رجل السلام العالمي، لا لعصره فقط بل لكل العصور المتلاحقة من بعده ..

أسأل الله للمؤلف الفاضل ولنا وللمسلمين جميعاً العزّة والتوفيق لما يحب ويرضى إنه سميع مجيب.

محسن أحمد الخاتمي

١ / شعبان / ١٤٢٣هـ

٨ / تشرين الأول / ٢٠٠٢ م



إهداء واعتذار

إليك ياصفوة الخلق، ومحور الوجود .

إليك يامن أخلصت العبودية لله تعالى فوهبك الشموخ، والعز، والهيبة، والنصر أبد الدهر، ووهبك البقاء الخالد في الدنيا الزائلة، والمقام المحمود في الآخرة.

إليك ياأيها المصطفى المنقذ، والمجتبى الأطهر، وأنت تستسلم الى الباري في ضراعتك الخاشعة..في ابتسامتك الإنسانية الحانية..في جهادك المرير في دروب مكّة والطائف، تطاردك حجارة الأغبياء، وسخرية الملجئين الطغاة، وسفه العابثين.

إليك وأنت تجمع شتات الضائعين، وتلم جهد المستضعفين فتجعل منهم تلك الأُمّة الخالدة، وتلك الحضارة الزاهرة بعدما كانوا قليلاً يخافون أن يتخطفهم الناس.

إليك وأنت تحمل الإسلام لواءاً، والسلام ربيعاً تنشره على دنيا الوجود؛ لتنقذ الإنسان من براثن أخيه الإنسان.

إليك يارسول الله الأعظم الأكرم ﷺ، باكورة عَمَلي الفِكري هذا،

راجياً أن يَصلَ في خدمةِ جَنابك المُقَدَّس الشريف مَقبولاً مُدَّخَراً لِيوم القِيامة والدين ثواباً من باعثك الأقدس تبارك وتعالى، وشفاعةً منك ـ إليَّ ووالديَّ وذريتي ـ لدخول الجنّة في يوم الدين.

ثم اعتذر إليك من ذكري لتجاوزات القوم عليك، وجسارتهم على قداسة وجودك المبارك، وماكان بودّي أن أذكرَ ماقالوه وفعلوه معك ـ سيّدي المُفَدى ـ لولا أنه لابد من ذِكره (والعذر عند كرام الناس مقبول).

وأنت أصل الكرم ومعدنه.

إمامه ومعينه.

مبتداه ومنتهاه.

صلّى الله عليك وعلى آلِك الكِرام وسلّم تسليما كثيراً كثيراً...

ستّار الزُهَيري

توطئة

مفهوم الجهاد في القرآن الكريم

الحمد لله أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على نبينا سيد الرسل وأكرم الخلق محمد وآله الشهداء السعداء، الأبرار الأخيار.

لاشكّ ولا ريب أنّ الإسلام وجّه عناية المسلمين وشطراً عريضاً من اهتماماتهم إلى مسألة الجهاد ومفهوم المقاومة بكل أنواعها المعروفة، وجعل قضيّة الجهاد من أولوياته المقدّسة، والّتي احتلّت من القرآن الكريم «كتاب المسلمين المقدّس» مساحة واسعة، وركّزت في جملة من آياته على ضرورة الجهاد في سبيل الله والكفاح من أجل الحق، ومن أجل ترسيخ مفهومه ومفاهيم عديدة أخرى - كالعدل والانعتاق نحو الحريّة - في أعماق نفوس المسلمين.

وكحالة صحية وردّ فعل طبيعي لأي دعوة تريد أن تعانق الشمس علوّاً، وتبسط نفسها على البسيطة عدلاً وإنصافاً، وتتفتح مع الأوراد لطفاً وحنوّاً على بني الإنسان، من الطبيعي أن تُواجه - من أولئك الذين لايَروق لهم إلاّ الظُلم وإذلال الخلق - تحدّيات وموانع ضخمة، وفي نفس الوقت لابدّ لها من تجاوز تلك العقبات، واقتحام تلكم الموانع؛ تحقيقاً للهدف الأسمى، ووصولاً للغاية الأنبل.

وإذا كان هذا كلّه يستدعي المواجهة وحسم أطوار الصراع في هذا المعترك الممتد، والمتحشّدة فيه كلّ القوى لِوَئد الرسالة الفتيّة وطليعتها

المنوّرة، فلا بدّ إذن من خوض الغمار ومواجهة الأخطار، تحت شعار: الجهاد في سبيل الله.

ولأهمّيّة هذا الدور، وكونه الرائد في حفظ الرسالة والرساليّين؛ كان من الطبيعي أن يُثاب عليه الإنسان الجنّة، وأن يتفنّن القرآن الكريم والرسالة المشرّفة في تعظيم مقامه وإجلال دوره في بناء الحضارة الإنسانيّة، والتأكيد على عمق ورفعة موقع المجاهد في بنية المجتمع البشري أجمع.

فالشهيد أعطى الله كلّ شيء، فأعطاه الله كلّ شيء، والشهداء أمراء أهل الجنّة، والشهادة تحفة السماء لما وصل اليه المجاهد في ذروة صراعه مع الباطل والفساد.

فلقد كان من الطبيعي أن يمجّد القرآن الكريم الجهاد والمجاهدين بهذا المستوى، ويكرّمهم بهذا التكريم، الذي لا نهاية له.

والحقّ إنّ كلّ الأفكار منذ فجر البشرية وحتى هذا اليوم تعتبر الجهاد نقطة انطلاق لا بدّ منها ولا انحياز عنها، إذ هو مرتبطٌ بتلك الأفكار، بأصل وجودها ثمّ بقائها واستمرارها، وتركز على أبطالها المغامرين، وتبقيهم رموزاً معشوقة في خيال المريدين لتلك الأفكار والمقتفين لها.

بل خلق الأوّلون وألّفوا الأساطير في ذلك؛ لشعورهم بأنّ الرمز النضالي أمرٌ مطلوب، فهو المحفّز للوثوب وهو العنوان للعز والفخار، فضلاً عن كونه مستأهلاً لكلّ أنواع التكريم والإقتداء.

ويجب أن لا ننسى أن غاية هذا الجهاد المقدس عند المسلمين ومؤداه هو نقطة مركزية مهمة ومقدسة ألا وهي قيادة العالم الإنساني أجمع إلى حالة السلام.. إلى حالة الوفاق والاطمئنان، وإلى حالة الأمن الذي يُبعد الانسان عن المنغصات وعن أهوال الأفكار المتوحشة والنفوس المفترسة.

إنه هدف سامٍ وغاية رفيعة تلك التي يطمع إليها الإنسان عند جهاده في سبيل الله، إنها نشر راية السلام العالمي في ربوع جميع البسيطة، وترسيخ حالة الأمن لجميع البشر.

فمن أجل أن ننظر إلى الجهاد عند المسلمين من خلال كتابهم الغيبي المقدّس «القرآن الكريم» وأهميّة وقداسة هذا المفهوم عندهم، نذهب والقارئ الكريم في جولة قرآنيّة بين آيات الله المباركة وأحاديث النبي ﷺ المشرفة؛ لنستجلي منها المعاني، ونطوف معها في رُؤى الإقدام والمبارزة، ونتلمّس فيها صور الحسّ الإنساني والرعاية الربّانيّة للنوع البشري، ونقف على عظيم الجهد الّذي قدّمة الرعيل الأوّل، ولا يزال يقدّمه المسلمون؛ من أجل هداية البشر، والأخذ بأيديهم إلى مرافئ الحقّ المطلق.

حيث الانفتاح نحو الغيب، والتبشير بإشراقة النفس في مناخ التقوى، والاعتصام بحبل الله وعروته الوثقى؛ وصولاً للإنقاذ الأكبر في يوم الدين، وذلك من أعظم ثمرات الجهاد الّذي يخوضه المسلمون في مراحل صراعهم التاريخي في حلبة الحياة المزدحمة بأنواع الباطل وضروب الظلم. إلى أن تهدأ أنفاس المهتدين في جنّة الخلد والنعيم. والله الموفق لكل خير وصلاح.

وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب.



أوجه
المشروعية للحرب



أوجه المشروعية للحرب

بإمكاننا أن ندعي هنا أن حروب الرسول الأعظم ﷺ كانت حروب دفاعية أو حروب وقائية، لما يستشعره الرسول المصطفى ﷺ من تهديد خارجي ومن تحركات مقصودة، ومن نوايا معروفة لدى أعدائه آنذاك.

ويمكننا القول أيضاً إن من حق الرسول الأعظم ﷺ أن يبادر في القتال حتى بدون هذه المبادرات الهجومية من العدو، وحتى بدون معرفة نواياهم وتحركاتهم المشبوهة على وجه الدقة، ونحن لا نقصد التراجع هنا، لنقول أن الرسول ﷺ كان مدافعاً، لعدم قدرته الهجومية، أو لنخاف من دعاية كون الرسول رجل سيف وحرب ودماء.

لا بل الذي يهمنا ونقصده وندعوا اليه، هو تحري الحقيقة، مهاجماً كان الرسول الأعظم ﷺ أومدافعاً، أما إذا أخذت الأدلة بأعناقنا لنحو إحديهما، فليكن.

وربما يسأل سائل ماهي أوجه المشروعية التي سوغت للرسول أن يشن الحروب، وبعبارة أدق يتصدى بالسلاح للآخرين ويرديهم في سوح القتال جثثاً تكرع بالدماء.

ونحن هنا نبين غلطة هذه النظرة، وقساوة هذا المنحى في التفكير والتي تجري مجرى التهمة على ألسن الغواة، بل ومانحتويه من الزيف والتخريف، في ضمن مانبينه هنا من وجوه المشروعية، وضمن مايأتي من كلام في طيات هذا الكتاب.

الوجه الأول:

الناحية الشرعية

فكونه ﷺ رسول من الله، وكونه يعمل بأحكام الغيب، وينفذ إرادة المولى تبارك وتعالى من جهة كونه عبداً تجب عليه الطاعة، ويتمثل الالتزام الإلهي دون تردد وضعف وإشكال وسؤال.

وعليه أن يبادر أشد المبادرة، لممارسة التوجيه الإلهي بكامل تفاصيله على نحو التسليم والقبول، وإن استدعى ذلك حصول كل المحتملات السلبية والضاغطة على شخصه الكريم ﷺ.

فالحرب بالحقيقة من جهة كونها تطبيق لذلك التوجيه، إيجابية بكل خصوصياتها، فما هو وجه الاعتراض على رجل، هو عبد الله، ومطيع بحكم تلك العبودية لمولاه، ولا يمكنه بحال مخالفته، لفرض كونه رسولاً، فضلاً عن كونه عبداً، كما هو مُسَلّم في القرآن الكريم: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾[2].

وغيرهما الكثير من آيات الله في كتابه الكريم.

أما الاعتراض فقد يرد في أصل رسالته ﷺ يعني كونه حقاً رسولاً لله أم لا وبالواقع هذا مطلبٌ آخر، ولكن له نوع ربط بموضوعنا هنا.

فنحن نتكلم على فرض المفروغية من كونه ﷺ مبعوثاً من المولى تبارك وتعالى بالنبوة والرسالة العالمية، وهنا لا بد من الرجوع إلى علم الكلام (العقائد) للاستدلال على صحة دعوى بعث الرسول وصحة

---

(١) النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨.

(٢) الحاقة: ٤٤ ـ ٤٥ .

رسالته.

والملاحظ أن الأدلة كثيرة، ويتوجب على الإنسان المُحتَرِم لعقله وذوقه، والمتصدّي لنقد أفكار الآخرين، واعتقاداتهم، أن يكون قد أتم دراسة عقائد أولئك الناس، وفرغ من استيعاب أدلتهم عليها، لكي يكون نقاشه، ونقله، علمياً موضوعياً مُستَدلاً، لا كلاماً طائشاً لا أولَ له ولا آخر.

فعند ما نتمسك بالمسيحية كدين يجب أن يتوفر لنا الدليل التام على كونه ديناً غير منسوخ بديانة أُخرى لاحقة، وعندما نتمسك بالإسلام كونه ديناً ناسخاً لما سبقه من أديان الله لا بد لنا من الدليل التام على صحة هذهِ الرؤية، وإلاّ فلا قيمة واقعية لاعتراضنا على أهل الديانات الأُخرى، وتوجيه اللائمة عليهم في عدم إتباعهم لديننا.

نحن بصدد الدليل، الدليل على كل شيء.

هل محمد ﷺ حقيقة تاريخية، أم أنه وَهمٌ من صناعة الوضّاع، وبدع كتّاب الأساطير، وإذا كان حقيقة تاريخية ثابتة بالدليل كوجود شخصي فعلي، فهل هو فعلاً نبي أم هو مدّعٍ للنبوّة؟ وما أكثر أدعياءها، أم لا هذا ولا ذاك.

وإذا كان فعلاً نبياً فما الدليل على ذلك، وإذا ثبت ذلك بالبرهان العقلي والنقلي، فما الدليل على استمرارية رسالته، وكونها خاتمة لبقية النبوات، وما هو وجه الإلزام لأهل بقية الأديان أن يلتفوا متمسكين بنبوة الرسول الأعظم ﷺ.

وإذا ثبت ذلك كله فما هو المرجع الصحيح لأفكار محمد ﷺ بعد هذه الشقة الزمنية وكثرة الخطوط الممثلة له ﷺ وعدد المذاهب الملتمسة لملامح منهجه.

ثم ما الدليل على صحة هذا المذهب دون غيره، وإذا كان هو

الصحيح فما مقدار التوجه والالتزام المطلوب من قبل المؤمن به.

كل هذه التساؤلات بالإضافة إلى مشروعيتها فهي داخلة في صميم بحث الباحث عن الحقيقة والطالب لها.

إن الذين يصفون الرسول الأكرم ﷺ بأوصاف يمجها الطبع الإنساني، وينكرها الذوق الأدمي ويستسخفها كل منصف له مِسكة عقل وباقة إحساس نبيلة أشد الاستسخاف، أُولئك لفي ضلال بعيد، وبعيد جداً.

إن رجلاً في أشد مظاهر العبثية والتشتت الذهني، واللاأُبالية، وفقدان الحس والعقل، والتهتك بكل قيمة، ومن المتسكعين في كل قارعة، لا يوصف بمثل ما وصف به النبي محمد ﷺ في بعض نتاجات الفكر الغربي وأدبياته.

وهذه من أشد مظاهر الوحشة والوحشية في عدم عرض الحقيقة وكتابتها بالأُصول المعتبرة، والعلمية النابهة، والأمانة المرجوة، بل غرست تلكم الكتابات هذا الفهم الخاطئ، وهذا المزاج الحاد ما بين الديانتين المسيحية والإسلامية، وكرست حالة الحرب الباردة والحارة بينهما طيلة القرون الماضية.

بالوقت الذي لا الدين الذي كتبوا عنه هو ديننا ولا النبي الذي كتبوا عنه هو نبينا، إذ أن النبي محمداً ﷺ على عكس ذلك بالتمام والكمال، كما يعترف بذلك المنصفون منهم.

ولا المطلوب منهم ذلك على فرض كونهم أهل دين متنورين، ضاربين ـ بذلك ـ عرض الجدار كل الحقائق التاريخية المُوثّقة من خلال نفس النصارى الذين عاصروا الرسول الأعظم ﷺ كالراهب بحيرا، وورقة بن نوفل، وملك الحبشة النجاشي وغيرهم الكثير.

فتراهم يصفون النبي ﷺ ـ وحاشاه من ذلك كله ـ بأقبح الأوصاف وأقذع الشنائع، ويوصمونه بالعار والشنار، ومالا يطيق اللسان ذكره بما فيه من القرف والتجرء على مقام الرسول الشامخ، والتسور الهمجي الأحمق لكيانه السامي، وقد اختصر لنا الجهد في عرض ذلك الكاتب ميل در منغم في كتابه (حياة محمد)، على ما في كتابه من المؤاخذات الكثيرة جداً.

ولكن نختار منه بعض ما يخص المقام باعتباره ينقل آراء الغربيين في النبي ﷺ كانسان معترض على تلك الآراء وغير راضٍ عنها، وندع ما نريد نقده ومؤاخذته عليه إلى فرصة أُخرى بمشيئة الله.

قال في صفحة ١٤٠: (ولما نشبت الحرب بين الإسلام والنصرانية في قرون كثيرة اشتدّ سوء التفاهم بين الديانتين بطبيعة الحال، وعلينا أن نعترف بأن الغربيين كانوا أسبقَ من المسلمين إلى إحداث هذا الخلاف.

فبعد أن استخفَّ رجال الجدل من البيزنطيين بالإسلام وازدرؤوه من غير أن يكلّفوا أنفسهم مؤنة دراسته ـ خلا يوحنا الدمشقيّ على ما يحتمل ـ جاء دورُ الكتّاب والشعراء الطّوّافين، فصاروا يحاربون المسلمين بأسخف المثالب).

الى أن قال: (ووصف الإسلام بأنه مجموعة إلحاد وبأنه من عمل الشيطان، وبأن المسلمين من الوحوش، وبأن القرآن نسيج من الأباطيل، فكان هؤلاء يعتذرون عن البحث الجدي في موضوع هذا مبلغ سخافته.

وأوعز بطرس المحترم، الذي ألّف أول رسالة في الغرب ضدّ الإسلام، بترجمة القرآن إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر مع ذلك، وتوسع بطرس بسكال في دراسة الإسلام في القرن الرابع عشر، وعد البابا أينوسان الثالث محمداً عدوّاً للمسيح).

ونقل كلاماً يطول في وصف النبي ﷺ عند الغربيين بما لا يقدر

الإنسان على نقله هنا، وإن كان مانقلناه صعباً على النفس ثقيلاً على القلم.

ونترك للقارئ الكريم التعليق على هذا الصلف والغرور والإجحاف، وانعدام الأدب في تناول سيرة سيد الخلق أجمعين، ومن بشروا هم به قبلنا، وأُمروا باتباعه.

وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة انجليزي: أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بالخط الحميري قبل بعثة النبي ﷺ، وفيها يقول المسيح: (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد)[1].

فهذه الشاكلة من الردود، لا تسمّى ردوداً فكرية، نعم إنها هجومات لفظية غاية ما تعبر عنه هو تعبيرها عن روح الانتقام والكراهة والحقد الجائر على رجل أراد للسلوك البشري الاستقامة، وأراد أن يحيي المسيحية واليهودية، لا بما ذهبوا إليه فيما لديهم من الخرافات، وشطحات، وخروقات، بل بما هي متحلية بالمفهوم الإسلامي، ومنصهرة بالمعنى القرآني.

فموسى القرآن يختلف عن موسى التوراة، وبكل تأكيد فإنّ مسيح الإنجيل يختلف عن مسيح القرآن. وكذا بقية الأنبياء، بل بقية أحداث التاريخ من آدم عليه السلام إلى نبينا الأكرم ﷺ.

وكذلك فإنّ عرضاً نقياً من هذا النوع، وتوحيداً كالذي جاء به محمد ﷺ وحقيقة ناصعة نظيفة كالتي هتف بها محمد الرسول ﷺ، لا تروق العقول الخرقة، والأذهان المتحجرة، والأقلام الوسخة.

ولعل ذلك من جملة الأسباب التي جعلت الرسول محمداً ﷺ في نظرهم إلى مثل ما ذهبوا اليه، وما يدريك لعل تحريم الإسلام للخمر

(١) نظرات في إنجيل برنابا لمحمد على قطب.

والزنا والمكائد وغيرها لم يجعل برائن قريش تبتعد عن وعي الرسالة ونداءاتها الطاهر، والداعي إلى نبذ القبائح والمحرمات فقط.

بل كان ذلك الداعي للنصارى واليهود كذلك في عدم اعتناقهم الإسلام، بل والاعتراض عليه ومحاربتهم إياه إلى يومنا هذا.

وفي المقام الكلام يجر الكلام.

فإن كلاماً من هذا النوع لا يصلح رداً ولا يؤخذ دليلاً، ولا يستند إليه في مقام الاحتجاج، فعليهم أن يهدموا أركان الدين الإسلامي، وقواعد الفكر الديني عند أئمة الأمة كي يكون كلامهم مقنعاً، ومنهجهم مقبولاً، والرجوع إلى الديانات السابقة مشروعاً.

أما أن نرمي أعظم شخصية عرفتها الإنسانية على مر التاريخ بالتهم ونقذفها بما تجود به الغرائز الوحشية، والنـزوات العفريتية، فهذا أمر غير جائز، وقسمة ضيزى، لا حق فيها ولا عدل.

إذن فالرجوع إلى الأدلة التامة في نبوة محمد ﷺ ولوازم تلك النبوة، وكل ما يبحث حولها، يوفر لنا الفرصة الكاملة في الإثبات أو النفي.

وهي طبعاً موجودة في مظانها، ومبثوثة في الكتب المختصة لذلك ويمكن مراجعتها بيسر، ولولا أن ذكرها يطيل بنا الكلام لذكرناها هنا، وهي بالإضافة إلى ذلك ليست من اختصاص هذا الكتاب.

إذن مع المفروغية من كون النبي محمد ﷺ هو رسول الله، فلا أرى وجهاً للإشكال عليه ﷺ، سواء كان هو مبادراً للحرب، أو كان مبادراً للسلم، أو قتل فلاناً، أو لم يقتل، أراق دماً أو لم يرق.

والخلاصة أن كل ما يأتي به ﷺ مقبول لأنه مشروع، ومشروع؛ لأنه من الله تبارك وتعالى، اللهم إلاّ أن نعترض ـ والعياذ بالله ـ على الله في تنفيذ إرادته على عبيده، فهذا أمر لا شأن لكتابنا به.

نعم نقبل ذلك كله منه ﷺ لأنه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[1] و ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[2] وكلامنا هذا كله من الناحية الشرعية، وهو الوجه الأول.

الوجه الثاني:

الناحية العقلية

والجانب الشرعي الذي ذكرناه معتضد بالناحية العقلية حتى لو لم يكن الرسول مأموراً بالقتال، وكان ذلك من تصرفه وتخطيطه الشخصي، ولو أن هذا الفرض محال، لكنّ فرض المحال ليس بمحال.

يقول السيد العاملي في الصحيح من السيرة: (إذا كان ضرر الانحراف لا يقتصر على نفس من يمارسه، بل يتعدّاه إلى غيره، فإنه يكون من حق ذلك الغير أن يدفع ذلك الضرر عن نفسه، وهذا ما يحكم به العقل والفطرة، حتى ولو لم يكن ثمة شرع أصلاً، ولكن الشرع لم يكتف بالإعتراف بحق الدفاع عن النفس هذا، بل زاد على ذلك؛ فأوجبه عليه، حين حكم بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل أحد.

وذلك من أجل الحفاظ عليهم أوّلاً، وحتى لا يتسرب ذلك الانحراف إلى غيرهم ثانياً).

وأضاف: (وعلى هذا فليس من حق من تنهاه عن المنكر، أو تأمره بالمعروف أن يقول لك: وماذا يعنيك؟، أو أنا حر، أو ما شاكله، إذ أن الأمر

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) الأحزاب: ٣٦.

يعنيك حقاً وهو ليس حراً إلا بمقدار لا يعتدي فيه على غيره، بأي نحو من أنحاء الاعتداء، ولا يضر بحريته، والانحراف هو أخطر أشكال الاعتداء وأبشع أنواعه.

وواضح:

أنه في مقام دفع أخطار الانحراف، والقضاء على المنكر، لا بد من مراعاة مقدار الضرورة، فلو أساء ولدك نهيته أولاً، وبيّنت له خطأه، ثم لمته، ثم تهدده، ثم ضربته، ثم طردته... كل ذلك بحكم الشرع والعقل وقضاء الفطرة).

وواصل كلامه قائلاً: (وحين يعتبر الإسلام، والعقل، والفطرة، المسلمين كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى، بل إن الإنسانية جمعاء أيضاً كذلك، فإن المنحرف عقائدياً، وسلوكياً، وأخلاقياً لا بد من استئصال انحرافه أولاً، بالدعوة بالحكمة، والموعظة الحسنة، ثم بالإنذار، ثم بالشدة والعنف، حتى إذا أفلست كل تلكم الوسائل، فإن آخر الدواء الكيّ.

وحيث يكون الداء خطيراً وخبيثاً، فإنه لا بد من الإستئصال أيضاً، ويكون عدم قطع هذا العضو الفاسد والمفسد خيانة للأمة، وللأجيال، وللإنسانية جمعاء.

بل إن خطر الإنحراف الديني والعقائدي يفوق خطر المرض الجسدي؛ فإن مرض الجسد ربما لا يتعداه إلا في نطاق محدود جداً، أما المرض العقائدي والديني والفكري، والانحراف الأخلاقي، فقد يتسبب في تدمير الجسد، والمال، والجاه، والإنسان، والقيم الأخلاقية، والإنسانية، والمجتمع بأسره، ويؤثر على الأجيال الآتية أيضاً.

وذلك عندما لا تبقى لدى الإنسان المنحرف أية روادع تمنعه من

ارتكاب أية جريمة، والمبادرة إلى كل عظيمة... حينما يكون المقياس عنده، والمنطق له هو مصالحه الشخصية، ولذاته الفردية، ولا شيء سواها؛ فلا يهتم لرضا الله، ولا لمصلحة الأمة، ولا لأحكام الشرع والدين، ولا حتى للعقل والمنطق.

وهكذا، فإن الجهاد من أجل منع الانحراف ومنع وقوع الكارثة، يكون من الأحكام العقلية والفطرية، فضلاً عن الشرع والدين.

وبعد كل ما تقدم فإننا نستطيع أن نقول بكل جرأة[1]: إن الإسلام لو لم يستعمل السيف، لم يكن دين الحق والعدل، ولا دين الفطرة والعقل، ولكان خائناً للمجتمع، بل والإنسانية جمعاء على مدى التاريخ) [2].

فالعقل يدرك بالضرورة أن المحافظة على خط التوازن الأخلاقي والقيمي واستمرار النمو الطبيعي والسليم للإنسان فكرياً كان أو روحياً أو جسدياً أو اجتماعياً يتطلب قدراً كبيراً من التحصين لهذا الكائن من جميع التهديدات المحيطة به وخصوصاً من بني جنسه.

ولمعرفة الإسلام قيمة هذا المعنى وسمو قيمة الإنسان في نظره والربط بين هذين المعنيين، عمل ويعمل من أجل الدفاع عنهما، أو عن الإنسان الممتدة به هذه المعاني.

وبهذا إن كان هناك من يريد أن يلقي الخطوط التي يراها العقل ضرورية الوجود كما يراها الشرع، الذي هو دين العقل والفطرة، فلا بد له من أن يجاهد محارباً بكل الوسائل للحفاظ عليها، وعلينا أن نقبل بذلك إذا قبلنا بحاكمية العقل، ودوره الرائد في حسم التقاطعات بينه وبين عالم النفس، والشهوة، والغريزة والقوى المحتربة في كيان الإنسان، وما يبرز منها

---

(١) ونحن نقول معه (المؤلف).

(٢) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ ٤: ٣٢٠-٣٢٢.

بشكل مفرط في أشرار الناس وطواغيتهم.

وإذا انتصر الإسلام بالعقل فلا مجال لأن يرد حكم العقل، وذلك بحكم العقل.

وسيأتي الكلام التفصيلي بذلك في ملاكات الحرب عند رسول الله ﷺ

الوجه الثالث:

الناحية التاريخية

ثم لماذا نبالغ في الاعتراض على الرسول ﷺ ونحن نعلم أن تاريخ الأنبياء من قبله مليء بأحداث المواجهة، والحروب، والصدامات المسلحة التي حدث فيها قتل وقتال، وفي القرآن ما يؤيد ذلك.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1].

وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[2].

---

(١) آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) البقرة: ٢٤٦.

فهنا كما هو الظاهر قتال وقتل، ويرون أن هناك مشروعية لهذا القتال، وللمطالبة به ويرون هذة المطالبة عقلية أيضاً، لوجود المظلومية في إخراجهم من الديار وأبنائهم...

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[1].

فهذه الآيات الشريفة أقل ما تحمل لنا أن الأنبياء السابقين قاتلوا الظَلَمة، وكانوا مأمورين بذلك، وكانوا يُنَفذون إرادة الله، وكانت المِلل تتبعهم بذلك على تفاوت درجات الإستجابة.

ثم إن في التوراة ما يحمل هذا المعنى: (إذا خرجت إلى الحرب على عدوك ورأيت خيلاً ومراكب قوماً أكثر منك فلا تخف منهم لأن معك الرب إلهك الذي أصعدك من أرض مصر.

وعندما تقربون من الحرب يتقدم الكاهن ويخاطب الشعب، ويقول لهم اسمع يا اسرائيل. أنتم قربتم اليوم الحرب على أعدائكم.

لاتضعف قلوبكم. لا تخافوا ولا ترعدوا ولا ترهبوا وجوههم؛ لأن الرب إلهكم سائر معكم لكي يحارب عنكم أعداءكم ليخلصكم)[2].

وفي مقطع آخر من التوراة: (وحين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح.

---

(١) المائدة: ٢٢ ـ ٢٤.

(٢) العهد القديم / التثنية / الإصحاح العشرون / الفقرة ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤.

فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها.

وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف.

وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك.

هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما)[١].

ولنستمع لهذه الدعوة الصاخبة، الدعوة إلى القتل وتحكيم السيف برقاب الشعوب لمجرد انقلابهم العقائدي عن الديانة اليهودية.

ولنستمع الى أنواع العذاب الجهنمي الذي تلاقيه المدينة بكل ما فيها دون تميز أو شفقة، أو صبابة من رحمة، بل محوها إلى الأبد، وإلغاؤها من خارطة الوجود: (إن سمعت عن إحدى مدنك التي يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها قولاً قد خرج أناس بنو لئيم من وسطك وطوّحوا سكان مدينتهم قائلين تذهب ونعبد آلهة أُخرى لم تعرفوها وفحصت وفتشت وسألت جيداً وإذا الأمر صحيح وأكيد قد عُمِل ذلك الرجس في وسطك فضرباً تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرّمها بكل ما فيها مع بهائمها بحدّ السيف.

تجمع كل امتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك فتكون تلاً إلى الأبد لا تبنى بعد)[٢].

---

(١) العهد القديم / تثنية: الاصحاح العشرون.

(٢) التوارة ـ التثنية / الأصحاح الثالث عشر / الفقرة ١٢ ـ ١٦.

وفي مكان آخر في التوراة: (وقال صموئيل لشاول: إياي أرسل الرب لمسحك ملكاً على شعبه إسرائيل.

والآن فاسمع صوت كلام الرب. هكذا يقول رب الجنود: إني قد افتقدت ما عمل عماليق باسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر.

فالآن إذهب واضرب عماليق وحرّموا كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً، فاستحضر شاول الشعب وعدّه في طلايم مئتي ألف راجلٍ وعشرة آلاف رجل من يهوذا)[١].

ولقد وردت في الإنجيل المسيحي هذه العبارة: (لا تظنوا: أني جئت لأُلقي سلاماً على الأرض، ما جئت لأُلقي سلاماً على الأرض بل سيفاً)[٢].

وإننا إذ نرفض هذه المطاعن الموجهة للأنبياء عليهم السلام ونبرئهم جميعاً منها، ونعتبرها من وضع المحرفين، إذ الأنبياء طاقة تغييرية رحمانية اصلاحية، لا يصح التجاوز والأفتراء عليهم بحال، إلا إننا جئنا بها هنا لإدانة اليهود من باب ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم، وإلا فالأنبياء والمرسلون أجل وأرفع من هذه التخرصات والأباطيل.

ولمّا قامت الشهادة من القرآن والإنجيل والتوراة على وجود الحرب، ونشوب القتال بين بني البشر بقيادة الأنبياء الذين سبقوا نبينا الأكرم، وكذلك التاريخ يشهد بإحداثه على ذلك.

---

(١) التوراة ـ صموئيل الأول / الإصحاح ١٥.

(٢) إنجيل متي / الإصحاح ٢٠ / الفقرة ٣٤. نقلاً عن الصحيح من السيرة ٤: ٣١٦.

إذاً لماذا نستغرب من فعل الرسول محمد ﷺ وقتاله مع المجرمين الذين أرادوا لهذا الدين الزوال ولمعالم الرقي الفكري والحضاري الطمس والاندثار إلى الأبد.

مع أن دعوة القرآن للحرب ليس كدعوة التوراة المزعومة، ولا تصرف المسلمين كتصرف اليهود في القتال، ولا حتى غاية الحرب عند اليهود في توراتهم هي نفس الغاية عند المسلمين في قرآنهم.

الوجه الرابع:

الناحية الهدفيّة

ثم لا يخفى أن بعض الحروب تقوم ويراد بها السلام، ويراد بها الاستقرار، والقضاء على المتنافيات وهنا الحديث يطول، وسيأتي إن شاء الله ما له علاقة في هذا الأمر.

هذا مع عدم الإغفال بأن العالم البشري بأجمعه ولقرون طويله جداً وحتى الآن تكاد الحروب تكون منهجه الدائم، والمسيطرة على مجرى وجوده، والمتحكمة بصراعه من أجل البقاء حتى ورد في كتاب الوسيط في القانون الدولي: (وفي بحث عن (الحرب كوضع دائم) نشرت مجلة (تايم) الأمريكية منذ نصف قرن تقريباً، تبيّن أنه خلال(١٨٥)جيلاً من أجيال البشر لم ينعم بسلام مؤقت إلاّ عشرة أجيال فقط.

وفي استقصاء أجرته إحدى المؤسسات المنادية بالسلام، تبين أنه خلال دورة زمنية طولها (٣٣٥٧) عاماً شهدت البشرية (٢٢٧) عاماً من السلام مقابل (٣١٣٠) عاماً من الحروب، أي بمعدل عام واحد من السلام

مقابل (١٣) عاماً من الحروب)[١].

وعندما نبحث في الأسس والملاكات التي قامت عليها حرب الرسول ﷺ هناك سنعرف الحق الذي كان يمثله الرسول وسنعرف أن العقل يعضد تلك الاهداف، وينشد تلك الغايات ويقف بجنبها ويدعو إليها.

ونتيجة ذلك

يمكن القول إن حروب الرسول كانت جميعها دفاعية، وإن حصل في الظاهر وفي بعض الموارد أن البعض منها هجوميٌ كحمراء الأسد وغزوة بني قريظة مثلاً، ولكن هذا الذي نتخيله هجومياً، بالحقيقة ترجع أسبابه ومناشئه الواقعية المؤدية للحرب والقتال فيه إلى الدفاع.

وإن أبى القارئ الكريم الا أن يسميها محض هجوم وتعرض للعدوان، فهذا وان كان اختلافاً لفظياً لايُعبأ به، ولكن ليكن هجوماً في بعض تلك الموارد إذ ليس كل هجوم ـ كما قلنا سابقاً ـ مُسْتَنْكراً.

بل عدم التعرض والهجوم في بعض الحالات أمر غير مقبول ولا معقول وغير ممكن أيضاً، خصوصاً إذا قلنا تنزلاً أن هجومات الرسول كانت تحمل المبررات الواقعية المقبولة المقدسة لشنّها على العدو، لأن الرسول ﷺ كما هو معلوم صاحب دعوة إلهية إلى البشر.

وإذا كان يلقى موانع قوية في طريق دعوته ونشر هدايته فالعقل معه في ضرورة رفع الموانع الموضوعة في سبيله ليوصل هدايته إلى بقية خلق الله، لكي لا يكون مسؤولاً عن عدم وصولها من ناحية، ولأجل عدم حرمان بني الإنسان من فيض تلك الرحمة الإلهية من ناحية ثانية.

---

(١) الوسيط في القانون الدولي للدكتور محمد المجذوب: ٧٢٣ (الدار الجامعية).

ويمكن اضافة ناحية ثالثة، وهي: حتى لا تبقى قوى الشر متفردة تعبث في قوى ومقدرات وروح النوع الإنساني.

وهناك من يصر على أن الرسول الأعظم ﷺ لم يكن سوى رجل هجومي دموي، يريد افتراس الآخرين بكل وسيلة وقطع الطرق على الآخرين بكل وجه، وأنه ﷺ قضى عمره الشريف في تلك الهجومات والتعرضات والفتك بمن حوله.

ونحن هنا ـ وإن كان الكتاب برمته يناقش في صلبه هذه المشكلة ويرد عليها وينقضها بالمرة ـ نورد بعض الإيرادات على هذا القول وبشكلٍ مختصرٍ.

إيرادات
على القول بهجومية الرسول (ص)

الإيراد الأول:

لو كان الرسول ﷺ هجومياً لكانت افكاره استيلائية استعلائية يريد الاستحواذ على الانسان والاستيلاء على أرضه، وهتك عرضه، واستنفاذ قواه، والمعلوم أن الرسول ﷺ كان يعطي الذين أسلموا حديثاً أرضهم، ويدعوهم للمحافظة على أعراضهم، ورفع كل الحيف والإساءة عن العنصر البشري التي كان يعيشها في زمن ما قبل الاسلام، وهو معروف ـ أي ذلك الزمن ـ بكثرة الانتهاكات، ومعروف بقتل المرأة، والاستخفاف بحق الانسان، وقد جاء نبي الإسلام ليقضي على هذه الكيفية، والتعامل اللامسؤول مع المحيط البشري، وذلك بشهادة الجميع.

الإيراد الثاني:

لو كان مقصد الرسول ﷺ الدم، والثار، وتدمير الاخرين، لآثر

تقديم أصحابه في الحروب، ومناصريه وضنَّ بقرابته وأهل بيته وخاصة عترته، لأنهم موضع ثقته في المستقبل، والمُعوّل عليهم في كل شيء وفقدهم بالحروب يعني خلو ساحته من رموز التعويل، والتمثيل، والاعتماد.

وقد كان الجدير به ـ في حال كونه هجومياً ـ أن يجعل أهل بيته ممثلين له فيما يناسبهم من الأدوار الاعلامية، والسياسية فقط، ووضعهم في المراكز الآمنة الحساسة، كما يفعل بعض القادة المعاصرين، في وقتنا الحاضر.

ولكنّا نرى العكس، فإنه قدَّم أقرب مقربيه، وأفضل من لديه من أهل بيته إلى لهوات الحرب، ومطاعن الاسنة، ومطاحن الهيجا، تتناوشهم السيوف، وتنهب افئدتهم الرماح، ويمثل في أجسادهم أسوء تمثيل، إبتداءاً من علي، وحمزة، والحارث، وكلهم أقرباء الرسول ﷺ ومن بني عمه من بني هاشم في معركة بدر الكبرى، وقدّم الإمام عليّاً عليه السلام للدفاع عنه في أُحد، وقدمه في الخندق كمقاتل فذ وفارس لا يشق له غبار، وكبش للتضحية والفداء أمام بطل العدو وصنديدهم عمرو بن عبد ود العامري.

وكذا قدّمه لفتح حصن خيبر، وكان الهلاك ينتظر القادم إليه، وقد فرّ من قبله الصحابة الذين قدمهم النبي ﷺ؛ لصعوبة اقتحام الحصن وهو الخط الدفاعي الذي كان يقف على رأسه مرحب عظيم اليهود، هذا فضلاً عن تقديمه للموت في ليلة الهجرة بمبيته على فراش النبي ﷺ.

وقدّم زيد بن حارثة، وهو ولده بالتبني في كثير من سراياه وحروبه، واخيراً استشهد في مؤتة بعد أن بعثه الرسول المصطفى ﷺ مع الجيش في جملة القادة الأُمراء.

وقدّم جعفر بن أبي طالب، ابن عمه، ومن المقربين إلى نفسه، والذي عدل فرحة قدومه من الحبشة بفرحته لفتح خيبر، بل ربما أرجح؛ لما يستفاد من تردده في القول: (لما قدم جعفر على النبي ﷺ يوم فتح خيبر

قبَّل ﷺ ما بين عينيه والتزمه وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسر، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»[١] قدّمه في مؤتة فاستشهد فيها سلام الله عليه ومن هذا حصل الكثير لعترة النبي الأكرم ﷺ.

ولو كان الرسول هجومياً لكان متعصباً لا يحب الاخرين، ولا يحب أن يلقي بعترته في محرقة السيوف ومشتجر الأسنّة.

الإيراد الثالث:

لو كان الرسول ﷺ هجومياً لطلب لنفسه في هذه الدنيا مكاناً مرموقاً، واكلاً منوّعاً، ولَبنى لنفسه القصور الفخام، واستولى على بيت المال يسوقه كيف يشاء إلى ما يشاء، لكنّه كان يشبع يوماً ويجوع آخر، ويسأل الله الكفاف من الزاد والادام فقط وكذا أهل بيته كانوا يعانون الطوى وربما يشكون إليه ﷺ من شدة السغب.

قال الأربلي: وروي وأظنني ذكرته في أخبار علي عليه السلام بغير روايته عن أبي سعيد الخدري قال: أصبح علي عليه السلام ذات يوم فقال: يا فاطمة عندك شيء تغذينيه؟ .

قالت: لا والذي أكرم أبي بالنبوة وأكرمك بالوصية ماأصبح عندي شيء أغذيكه، وما كان عندي شيء منذ يومين إلاّ شيء كنت أوثرك به على نفسي وعلى إبنيَّ هذين حسن وحسين.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ق ٢ ٢: ٤٠، تاريخ اليعقوبي ٢: ٥٦، التنبية والاشراف للمسعودي: ٢٢٣، البداية والنهاية ٣: ٨١٨، بشارة المصطفى لمحمد بن علي الطبري: ١٦٣، إعلام الورى بأعلام الهدى للشيخ الطبرسي ١: ٢١٠، كشف الغمة لابن أبي الفتح الاربلي ١: ٣٨٣، السيرة النبوية لابن كثير٢: ١٦ ـ ٣٠، ينابيع المودة لذوي القربى للقندوزي ١: ٤٦٨.

فقال عليه السلام: يا فاطمة! ألا كنت أعلمتني فأبغيكم شيئا؟ فقالت يا أبا الحسن! إنّي لأستحي من إلهي أن تكلّف نفسك ما لا تقدرعليه؟.

فخرج علي عليه السلام من عند فاطمة عليها السلام واثقاً بالله حسن الظن به عز وجل فاستقرض ديناراً فأخذه ليشتري لعياله ما يصلحهم، فعرض له المقداد بن الأسود في يوم شديد الحر قد لوحته الشمس من فوقه وآذته من تحته فلمّا رآه علي أنكر شانه.

فقال عليه السلام: يا مقداد ما أزعجك هذه الساعة من رحلك؟

فقال: يا أبا الحسن خلّي سبيلي ولا تسألني عمّا ورائي.

قال عليه السلام: يا أخي لا يسعني أن تجاوزني حتّى أعلم علمك.

فقال: يا أبا الحسن رغبت إلى الله عز وجل وإليك أن تخلّي سبيلي ولا تكشفني عن حالي فقال: يا أخي أنه لا يسعك أن تكتمني حالك.

فقال: يا أبا الحسن أمّا إذا أبيت فوالّذي أكرم محمداً بالنبوة وأكرمك بالوصية، ما أزعجني من رحلي إلا الجهد وقد تركت عيالي جياعاً، فلمّا سمعت بكاءهم لم تحملني الأرض فخرجت مهموما راكباً رأسي هذه حالي وقصتي.

فانهملت عينا علي عليه السلام بالبكاء حتى بلّت دموعه لحيته فقال: أحلف بالّذي حلفت به ما أزعجني إلاّ الّذي أزعجك، وقد اقترضت ديناراً فهاكه فقد آثرتك على نفسي فدفع الدينار إليه ورجع حتى دخل المسجد فصلّى الظهر والعصر والمغرب.

فلمّا قضى رسول الله ﷺ المغرب مرّ بعلي عليه السلام وهو في الصف الأول فغمزه برجله فقام علي عليه السلام فلحقه في باب المسجد فسلّم عليه فرد رسول الله ﷺ وقال: «يا أبا الحسن! هل عندك عشاء تعشيناه فنميل معك؟».

فمكث مطرقا لا يحير جوابا حياءاً من رسول الله ﷺ وقد عرف ما كان من أمر الدينار من أين أخذه وأين وجّهه بوحي من الله إلى نبيّه وأمره أن يتعشّى عند علي عليه السلام تلك الليلة، فلمّا نظر إلى سكوته قال ﷺ: «**يا أبا الحسن! ما لك لا تقول لا فأنصرف، أو نعم فأمضي معك؟**».

قال حياءاً وتكرّماً: فاذهب بنا.

فأخذ رسول الله ﷺ بيد علي عليه السلام، فانطلقا حتى دخلا على فاطمة عليها السلام وهي في مصلّاها، قد قضت صلاتها وخلفها جفنة تفور دخاناً، فلمّا سمعت كلام رسول الله ﷺ خرجت من مصلاّها فسلّمت عليه، وكانت أعزّ الناس عليه، فردّ السلام ومسح بيديه على رأسها وقال لها: «**يا بنتاه! كيف أمسيت رحمك الله؟**».

قالت: بخير، قال ﷺ: «**عشّينا رحمك الله وقد فعل**».

فأخذت الجفنة فوضعتها بين يدي رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام فلمّا نظر علي عليه السلام إلى الطعام وشمّ ريحه رمى فاطمة ببصره رميا شحيحاً.

قالت له فاطمة عليها السلام: سبحان الله ما أشحّ نظرك وأشدّه؟ هل أذنبت فيما بيني وبينك ذنبا أستوجب به منك السخط؟ فقال: وأي ذنب أعظم من ذنب أصبتيه؟، أليس عهدي بك اليوم الماضي وأنت تحلفين بالله مجتهدة ما طعمت طعاما منذ يومين.

قال عليه السلام: فنظرتْ إلى السماء، وقالتْ: إلهي يعلم ما في سمائه وأرضه، إنّي لم أقل إلاّ حقاً. فقال عليه السلام لها: يا فاطمة أنّى لك هذا الطعام الّذي لم أنظر إلى مثل لونه ولم أشمّ مثل رائحته قط ولم آكل أطيب منه؟.

قال عليه السلام: فوضع رسول الله ﷺ كفه المباركة بين كتفي علي عليه السلام فغمزها ثم قال ﷺ: «**يا علي هذا بدل عن دينارك، هذا جزاء دينارك من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**»، ثم استعبر النبي ﷺ باكياً

ثم قال: «الحمد لله الذي أبى لكما أن تخرجا من الدنيا حتى يجريك يا علي مجرى زكريا ويجري فاطمة مجرى مريم بنت عمران»[1].

قلت حديث الطعام قد أورده الزمخشري في كشافه عند تفسير قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ الآية[2].

الإيراد الرابع:

ولو كان ﷺ هجومياً تدفعه أحلام القتل والقضاء على البشر كهتلر، وموسليني، وستالين، حيث كان همهم القضاء على كل مَن يعترض أو يحاول الاعتراض على تطبيق أهدافهم النفسية الفاسدة، وأهوائهم المريضة، إذن لزال عنه الأتباع كما زالوا عنهم، خاصةً أنه لم يكن يمنّي جنده بالمناصب والأموال كما كانوا يفعلون.

لأن الإنسان بطبعه يكره الطغيان والاستيلاء عليه فيحاول جاهداً التخلص منه بالخلاص من أصحابه، فإن أعياه ذلك انتظر الفرصة لأن يزيلهم القدر، فإن أزالهم فسرعان ما يفر بجلده طالباً حريته بعد العبودية التي كانت مفروضة عليه، وهذا ما لا نلحظه في أتباع محمد ﷺ، حتى

---

(١) كشف الغمة للأربلي ٢: ٩٧ ـ ٩٩، وهو أيضاً في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام لمحمد بن سليمان الكوفي ١: ٢٠١ ـ ٢٠٤ ح ١٢٤، شرح الأخبار للنعماني ٢: ٤٠١ ـ ٤٠٤ ح ٧٤٦، أمالي الطوسي: ٦١٦ ـ ٦١٨ ح ٨، ذخائر العقبى: ٤٥ ـ ٤٦، تفسير فرات الكوفي: ٨٣ ـ ٨٥، البحار ٣٧: ١٠٣ ـ ١٠٥ ح ٧ و ج ٤٣: ٥٩ ـ ٦١ ح ٥١ و ج ٩٣: ١٤٧ ـ ١٤٩ ح ٢٥، تأويل الآيات لشرف الدين الحسيني ١: ١٠٨، قصص الانبياء للجزائري: ٤٥٤.

(٢) انظر تفسير الكشاف ١: ١٨٧ ـ ١٨٨، في تفسير الآية ٣٧ من سورة آل عمران.

البعيدين عنه بعد أربعة عشر قرناً من دعوته المباركة.

بل على العكس نجد توسعاً لأفكاره، وأعتناقاً مستمراً لدينه، ودفاعاً مستميتاً لما كان الرسول ﷺ يؤمن به ويدعو إليه، ويرفعون ـ أولئك الأتباع ـ على الدوام لافتة (يا محمد)، أو (محمد رسول الله) تمسكاً منهم بدعوته ﷺ.

الإيراد الخامس:

إن من الملاحظ تاريخياً أن الذين قاتلهم الرسول ﷺ لم يدينوا الرسول في حروبه معهم، أو حروبهم معه ﷺ.

والحق أنه قد حصل العكس، فإنهم اعتذروا اليه وكانوا يطلبون منه ﷺ أن يدعو لهم، وأدانوا أنفسهم في تلك المواقف التي لم يخسروا فيها فقط نصرة رسولهم، بل خسروا فيها نصرة أنفسهم في عدم مقاتلتة عدوه ﷺ وذلك في حينه هو الخسران المبين.

فقد جاءه ﷺ أنس بن زُنَيم الدّيلّي معتذراً بعد أن هجاه بقصيدة، ولكنه عاد فصلّح موقفه بقصيدة أخرى، يرجوا الرسول ﷺ فيها العفو، ويطلب منه الرحمة.

وكان هذا في فتح مكة حيث القصاص من هؤلاء كان عدلاً وسهلاً، والحاجة اليهم كانت منتفية، والأمر فيهم نافذ.

وقد بلغ رسول الله اعتذاره وقصيدته:

أأنت الذي تُهدى مَعَدٌ بأمرِه ... بل الله يَهديهم وقال لك أشهدِ

وكلّمه نوفل بن معاوية الدّيلي فقال: يا رسول الله، أنت أولى الناس بالعفو، ومن منّا لم يعادك ويؤذك، ونحن في الجاهلية لا ندري ما نأخذ وما

ندع حتى هدانا الله بك من الَهلَكَة، وقد كذب عليه الرُّكب[1] وكثروا عندك.

فقال ﷺ: «دع الرُّكب، فإنا لم نجد بتهامة أحداً من ذي رَحِم، ولا بعيد الرَّحم كان أبرّ بنا من خزاعة». فأسكت نَوفل بن معاوية، فلما سكت، قال رسول الله ﷺ: «قد عَفوت عنه».

قال نوفل: فداك أبي وأمي!)[2].

وأبو سفيان أشد الناس على الإسلام، وأكثرهم عداوةً لنبي الله ﷺ، وقد قاد الجيوش، وألّب النفوس، وفعل هو وزوجته كل ما تمكنوا منه وإلى آخر لحظة؛ ليوقفوا حركة الإسلام، ويأتي أخيراً معترفاً بباطله، معتذراً منه: (يا محمد استنصرتُ إلهي واستنصرتَ إلهك، فلا والله ما لقيتك من مرة إلا ظفرت عليّ، فلو كان إلهي مُحقاً وإلهك مُبطلاً غلبتك! فتشهّد أبو سفيان أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)[3].

ولقد علمنا ما فعله ابن الزِّبَعرى الشاعر الساخر، والمستهزئ الفاجر برسول الله ﷺ في كل أدوار دعوتهِ، في مكة، وفي المدينة، وفي الحرب وفي السلم، لكنه جاء الرسول أخيراً معتذراً نادماً منكسراً، وكان بمقدور الرسول ﷺ أن يعاقبه أشد العقوبة، ولواحد من أفعاله لا جميعها، لكنه حلم الرسول، وخلقه العظيم.

يقول الواقدي: فانحدر إبن الزبعرى حتى جاء رسول الله ﷺ وهو جالس في أصحابه، فلما نظر رسول الله ﷺ إليه قال: «هذا إبن الزبعرى،

---

(١) يقصد ركب خزاعة.

(٢) المغازي ٢: ٧٩٠ ـ ٧٩١، وعنه في شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٨٣، وانظر الإصابة ١: ٢٧٢.

(٣) المعجم الكبير ٨: ٨، مجمع الزوائد للهيثمي ٦: ١٧١.

ومعه وجه فيه نور الإسلام».

فلما وقف على رسول الله ﷺ قال: السلام عليك يارسول الله، شهدتُ أن لا إله إلا الله وأنك عبدُه ورسوله، والحمد لله الذي هداني للإسلام.

لقد عاديتك وأجلبت عليك، وركبت الفرس والبعير، ومشيت على قدمي في عداوتك، ثم هربت منك إلى نجران، وانا اريد الاّ أقرب الاسلام أبداً.

ثم أرادني الله عزّ وجلّ منه بخير، فألقاه في قلبي وحبّبه اليّ، وذكرت ما كنت فيه من الضلالة، واتباع مالا ينفع ذا عقلٍ، من حجرٍ يُعبد ويذبح له، لا يدري من عبده ومن لا يعبده.

قال رسول الله ﷺ: **«الحمد لله الذي هداك للإسلام، إنّ الإسلام يجبّ ما كان قبله»**[1].

وهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، وهي من أكثر النسوة مكراً بالرسول ﷺ، بل فاق عملها عمل الرجال ولها مواقف دنيئة مشهودة، وكثيرة معلومة مشهورة، أتت الرسول معتذرة في نهاية المطاف.

قال في المغازي: (فتكلمت هند بنت عتبة فقالت: يا رسول الله، الحمد لله الذي أظهر الدين، الذي إختاره لنفسه، لتمسني رحمتك يا محمد إني امرأة ًمؤمنة بالله مصدقة، ثم كشفت عن نقابها فقالت: هند بنت عتبة)[2].

وعِكْرِمَة بن أبي جهل، الذي حرّض على رسول الله، وقاد بوجهه

---

(١) المغازي ٢: ٨٤٨، كتاب التوابين لعبد الله بن قوامة: ١١٨، شرح نهج البلاغة ١٨: ٨، سبل الهدى والرشاد ٥: ٢٥١.

(٢) المغازي ٢: ٨٥٠، تاريخ مدينة دمشق ٧٠: ١٧٩، سبل الهدى والرشاد ٥: ٢٥٥.

الجيوش، وهو الشخص الثاني الذي اقتحم جيش المسلمين في يوم أحد مع خالد بن الوليد، وغير ذلك من المواقف السيئة، وبعد ذلك أتى الرسول ﷺ قائلاً: (والله ما دعوتَ إلاّ إلى الحق وأمر حسن جميل، قد كنت والله فينا قبل أن تدعوا الى ما دعوت اليه وأنت أصدقنا حديثاً وأبرّنا برّا.

ثم قال عكرمة: فإني أشهد أن لا إله الاّ الله وأنّ محمداً عبده ورسوله)[١].

وهبّار بن الأسود الذي ما بعث رسول الله ﷺ سرية، إلاّ أمرها بقتل هبّار إن وجَدَته لسوء فعله وعِظَم جرمه حيث كان يحرّض على الرسول الأكرم ويهجوه أشد الهجاء، ولكنه جاء الرسول معتذراً كذلك: (السلام عليك يا رسول الله، إني أشهد أن لا إله الاّ الله، وأنك رسول الله، ولقد هربت منك في البلاد وأردت اللّحوق بالأعاجم.

ثم ذكرت عائدتك وفضلك وبرّك وصفحك عمن جهل عليك، وكنا يا رسول الله أهل شرك، فهدانا الله عز وجل بك، وأنقذنا بك من الهلكة، فاصفح عن جهلي وعمّا كان يبلغك عني، فإني مقرٌ بسوء فعلي، معترفٌ بذنبي.

فقال رسول الله ﷺ: **«قد عفوت عنك، وقد أحسن الله بك حيث هداك للإسلام، والإسلام يجبّ ما كان قبله»**)[٢].

الإيراد السادس:

ولكان أهل بيته وأصحابه الأبرار أصحاب دنيا، وطلاب أطماع،

---

(١) المغازي ٢: ٨٥٢، شرح نهج البلاغة ١٨: ١٠، كنز العمال ١٣، ٥٤٣، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٦٣، سبل الهدى والرشاد ٥: ٢٥٣.

(٢) كتاب المغازي ٢: ٨٥٨، المنتخب من ذيل المذيل للطبري: ٤٠، أسد الغابة ٥: ٥٣ ـ ٥٤، كتاب التوابين: ١٢١.

ولقادتهم تلك الإنتصارات إلى الغرور، والظهور على العالمين، ولظهر عليهم آثار ذلك في حياته الشريفة كذلك.

بينما دراسة مبسطة لحياة أهل بيته، وخلّص صحابته تكفيك وصولاً إلى ما كانوا عليه من الزهد والتقشف وقلة ذات اليد، وإنعدام اليسر في أكثر الأحوال.

وإنهم أنفقوا ما كانوا يجدونه في سبيل الله ورسوله، مضافاً إلى هذا، إعتراضهم الشديد على كل من لم ينتهج هذا المنهج، وهو في أعلى السلطة وقمة الهرم الحاكم.

كما اعترض كثيراً أبو ذر على الخليفة الثالث عثمان وعلى واليه في الشام معاوية بن أبي سفيان[1].

الإيراد السابع:

إنَّ القول بأن الرسول كان هجومياً في حروبه يلزم منه إلغاء جملة عريضة من حقائق التاريخ التي تؤكد أحداثه الكثيرة أن الرسول ﷺ كان:

أ: يدعو إلى الحيادية ونبذ القتال.

ب: إقامة العهود والمواثيق تجنباً لوقوع الاصطدامات العسكرية.

جـ: إجراء المباحثات السلمية قبل الحرب مهما أمكن كما في صلح الحديبية، ووثائق صلحه الكثيرة مع اليهود.

د: إتباعه لإسلوب المحاصرة إن أمكن قبل وقوع الحرب.

هـ: الدعوة إلى الله قبل وقوع السيف، وتبيان هدفه من دعوته المباركة وحربه وكذا كانت وصاياه لقادة السرايا والمجاميع المقاتلة.

---

(١) انظر اعتراضات أبي ذر على عثمان ومعاوية في الغدير ٨: ٢٩٢ - ٣٠٧.

و: الحرب والإكتساح الشامل لقوى العدو المعاند والمصر على الحرب، لأنه ﷺ كان يرى أن لا طريق لإقرار السلام إلا بإزالته.

ز: وحتى الحرب يخضعها الرسول ﷺ إن وقعت لإمور وخطط تكفل له جملة أمور، أن تكون حاسمة وسريعة، يحرص فيها على قلة القتلى، لا يجهز فيها على الجرحى ويرعى فيها جميع الحرمات، ولا يكون البادئ بها على كل حال.

وسيأتي بحث ذلك مفصلاً في طيات هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ملاكات الحرب
والجهاد
عند الرسول (ص)



ملاكات الحرب والجهاد
عند الرسول (ص)

تعريف الملاك:

من الواضح والمتسالم عند العقلاء جميعاً، أنهم لا يقدمون على إنجاز شيء من شؤون الحياة ولا يمتنعون عن شيء آخر منها، إلا بمقتضى المصلحة في الأول، والمفسدة في الثاني، وبلحاظ كونهم عقلاء فهم قادرون على تشخيص ذلك وإدراك أعماقه وجذوره.

كما أنهم يتوصلون إلى بعض آثاره وتبعاته، وطبقاً لقاعدة المصلحة والمفسدة يقدمون على شيء، ويحجمون عن آخر، وعلى هذا المبنى قُرِّرَ في علم الأصول أن الأحكام الصادرة من أي مولى عرفي، فضلاً عن المولى الحق صاحب الرأي المسؤول والموقف المعتبر وهو الرسول المصطفى ﷺ خاضعة لهذا العنوان ومنبعثة عنه.

فإذا كان مَدْرَك العقلاء في أبسط الأشياء من حياتهم اليومية هو المصلحة والمفسدة كما هي في زيارتهم لصديق ما، فهم يفكرون في أهمية هذه الزيارة، وما تدخره من قيمة، وما تستند اليه من صلة، وبالتالي منافع تلك الزيارة، وآثارها في توثيق الوشائج، وتقريب القرائح، وبناء جسور المودة، وقد يترتب عليها منافع نفسيه، ومادية، واجتماعية، كلها مدروسة في ذهن الزائر سلفاً، وإن كان ذلك مخفياً في ذهنه غير ظاهر في لفظه.

وكذا في الامتناع ـ مثلاً ـ من مداهنة إنسان ما، فهم ـ أي العقلاء ـ يلحظون المفسدة الموجودة في تطميعه وإعانته على ظلمه، كما يلحظون خسة الطبع وفساد همّة المُداهن.

والحال هي زيارة لصديق أو امتناع عنها في الحالة الأولى، وسكوت عن تصرف فلان أو مجاملته على موقف ما في الحالة الثانية، قد لا يكون بذلك الموقف المهم أو الخطير وهم يبحثون بجدية عن المصلحة والمفسدة في مجمل تلك السلوكيات.

فكيف بالأمور الخطيرة والمواقف الجليلة، فالأجدر أن تكون الدراسة فيها للمصالح والمفاسد أعمق، والرؤية أتمّ.

بل كيف إذا كان الناظر إلى تلك المواقف الخطيرة وذات الحساسية البالغة في توجيه البشر، هو سيد العقلاء، ومشرع الأحكام فمن الأولى أن تكون (المصالح والمفاسد) هي الحاكمة على الحكم، والمقننة له.

هذه التي نسميها المصالح والمفاسد يعني الأساس الذي أُتّخِذَ الحكم في القبول والرفض على وفقها، نسميها في علم الأصول بالملاكات.

وهنا استخدمنا هذا المصطلح العلمي الاصولي بلفظه.

فلكي يكون قصدنا واضحاً من كلمة المِلاك[1] في طيات هذا الكتاب عمدنا إلى هذا التوضيح.

ولو ترسلنا في الكلام في كون تلك المواقف تقتضي إراقة الدماء، وأن يتحكم السيف في حسم الصراع، وكون الإبادة الفردية والجماعية، سوف تأخذ حظها الوافر من بني البشر، فستكون المسؤولية في غاية العظمة في مقام النَظر إلى المصلحة والمفسدة، لأن الحرب معناها سفك الدماء وهتك الأعراض، وما احتاط الأسلام في شيء كاحتياطه في الدماء

---

(١) والملاكات بصيغة الجمع.

والفروج.

ففي الترغيب والترهيب أن رسول الله ﷺ قال: «أول مايُقضى بين الناس يوم الدين في الدماء» رواه البخاري وابن ماجة والترمذي[1].

وقال ﷺ: «لزوال الدنيا جميعاً أهون على الله من دم سفك بغير حق» رواه البيهقي[2].

وقال ﷺ: «لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يُصب دماً حراماً»[3].

وقد ورد في نهج البلاغة: (والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة)[4].

وفي كتاب المحاسن: (عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنما جُعِلَت التقية ليحقن بها الدماء، فاذا بلغ الدم فلا تقية)[5].

وفي كتاب المنمق بعد أن ذكر فعلة خالد بن الوليد مع المسلمين من بني جذيمة، وكيف عرض رقابهم على السيف، وجعلها للمنية غرضاً، مع إسلامهم وإقرارهم بالشهادتين، وذكر أن الرسول ﷺ بعث علياً عليه السلام

---

(١) الترغيب والترهيب ٣: ٢٩٢.

(٢) الترغيب والترهيب ٣: ٢٩٣، كنز العمال ١٥: ٣٢ ح ٣٩٩٤٧، كشف الخفاء للعجلوني ٢: ٩١ ح ١٨٥٩، الكامل لابن عربي ٣: ١٤٥، تهذيب الكمال ٩: ٢٣٧.

(٣) عوالي اللئالي ١: ١٦١ ح ١٥٥، مستدرك الوسائل ١٨: ٢٠٨ ح ٢٢٥١٥، منتخب مسند عبد بن حميد: ٢٧٠، الحد الفاصل للرامهرمزي: ٢٣٦، وسائل الشيعة ١٩: ٥.

(٤) نهج البلاغة ٣: ١٠٨.

(٥) المحاسن للبرقي ١: ٢٥٩.

ليودي القوم عن قتلاهم، وجسيم خسائرهم، قال: (وبقيت معه[١] بقية من المال، فقال لهم حين فرغ: هل لكم دم أو مال لم يود لكم؟

قالوا: لا.

قال: فإني أعطيكم هذه البقية من المال احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ومما لا تعلمون، ففعل ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.

فقال: «أصبت وأحسنت»[٢].

فإذا عرفنا هذا علمنا بالتبع أن حروب الرسول الأعظم ﷺ وغزواته، وسراياه، لا تخرج البتة عن إطار المصلحة والمفسدة وكل شيء يكون كذلك يكون مبررا قطعاً في نظر العقلاء.

إلا اللّهم أن يرد الإشكال على أصل الملاك فقد ترى شيئاً تعمله لمصلحة، ويرى غيرك عمل ذلك الشيء من المفسدة، إن لم يكن المفسدة بعينها، وعلى هذا فما هو الضابط في كون المصلحة عنده مصلحة عندي، أو عند عموم العقلاء والمفسدة عندي هي مفسدة عند العقلاء جميعاً.

وهذا الإعتراض قد يرد على حروب الرسول الأعظم ﷺ.

نعم نحن المسلمون مسلّمون له ﷺ بحكم كوننا مسلمين ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[٣].

---

(١) اي مع علي عليه السلام.

(٢) الخصال: ٥٦٣، المسترشد لجرير الطبري: ٤٩٢، البحار ٢١: ١٤١، كشف الغمة ١: ٢٢٠، كتاب المنمق للبغدادي: ٢١٧، المحلى لأبن حزم ٨: ١٦٦، تاريخ الطبري ٢: ٣٤٢، سيرة النبي لابن هشام ٤: ٨٨٤ السيرة النبوية لابن كثير ٣: ٥٩٢.

(٣) الحشر: ٧.

فبعد أن آمنا به ﷺ كونه نبي الله، ورسول السماء بالدلائل البينة، والمعجزات الحقة، والبراهين العقلية القاطعة، صار لزاماً علينا إتباعه بحكم العقل في كل شيء، إذ العاقل إبن الدليل يميل معه أينما يميل.

وعلى هذه القاعدة سار الفكر البشري من بداية إنطلاقه إلى يومنا هذا، والكل يتصافقون عليه، فالفكرة بالفكرة تقرع، والحجة بالحجة تدحض.

ولكن ما بالك بغير المسلمين فيمن ينظر إلى رسولنا كونه رسول سيف، وحرب، وغنائم، ودماء، ونساء، فليس لحرية الفكر في ذهنه مجال ولا لنسائم الدليل عنده مناخ، إنما هو يبطش بعدوه إذا ظفر به، ويهتك أنفاسه ويقمع كيانه إذا سطى عليه[1].

بهذه النظرة الدموية الظالمة يلحظون نبي الإنسانية والرحمة ورجل النبل الذي مَلئت أحداثه الشفافة، ومواقفه الروحية أحشاء التاريخ، ولعل لمن لا يعرف منهم الحق وَغُلِّفَ ذهنه بجملة الطروحات المغرضة، مع عوامل جهله، وعدم إطلاعه سعة من العذر ولو قليلة، ولكن يتطلب الأمر منا أن نبين لهم الحق ونرد الباطل على أهله.

وفي إطار الإجابة على الإشكال والإعتراض نقول:

إن عند بني آدم أموراً ثابتة لا تقبل المساس والتغير، وأخرى قابلة لذلك، وهذه القاعدة عامة مطردة، إلاّ لمن كان سقيم الذوق، رديء الطبع، منحرف المزاج، وشاذاً عن البنى الأساسية المستقيمة والمشتركة عند بني الإنسان فهذا خارج تخصصاً ـ كما يقل في علم الأصول ـ من شمول هذه القاعدة عليه.

---

(١) انظر كتاب الشيعة والحاكمون لمحمد جواد مغنيه: ٢١٤.

ولعله يرفض جملة كثيرة من القواعد العقلية، إن لم يكن جميعها في هذا المجال، فالصدق عند خلق الله محبوب مرغوب إلى النفس مشوّق إلى مد وربط علائق المجتمع بالصادق، وعلى هذا فُطِرَ الخلقُ في كافة أدوار البشر وأزمانهم، والكذب مكروه، والعدل محبوب، والظلم مستقبح عقلاً، بل قد يكون ممتنعاً على من له مسكة من عقل كاملة، وقد أخذ عقله منه بالمجامع، فهو لا يبادر أحداً بظلم، بل لا يفكر بذلك.

صحيح أن الشاعر يقول:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفّة فلعلّة لا يظلمُ[١]

لكنه من شيم النفوس لا شيم العقول.

الاترى أن اصحاب يوسف عليه السلام رجعوا اليه في تفسير الرؤيا، وقالوا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢] مع كونهم على غير ملته، ومع كونهم ليسوا من أهل الإحسان والاستقامة، وذلك لأن الإحسان بما هو إحسان محبب إلى النفس، موقر في النظر، حتى مع تباين أخلاق الناس، وتنافر طباعهم.

فإن النفس تحبّ من أحسن إليها (جبلت النفوس على حب من أحسن اليها) وذلك لأن هذه الأُمور من الثوابت فيها.

إذن: فالأمر يتطلب منا أن ندرس ملاكات الحرب عند الرسول الأعظم والتي هي بمعنى المصالح والمفاسد كما أسلفنا ونتسائل من أولئك المعترضين، أو الجاهلين وإن لم يعترضوا، أفي حربه ﷺ ضير، أم في سفكه

---

(١) للشاعر المتنبي

(٢) كما أنها محترمة عند أولاد الانبياء لذلك نلاحظ إخوة يوسف يخاطبونه بنفس الكلمة في الآية: ٧٨ من نفس السورة: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، والآية في سورة يوسف: ٣٦.

لدماء المشركين شبهة؟.

وهل هو أمرٌ خارج عن دائرة تفكير العقلاء، وأصحاب الأهداف الواسعة الجليلة، والنفوس الكبيرة، أم هي ـ أي الحرب ـ تعتبر ضرورة قائمة لا بد من خوض غمارها، والرضى بنتائجها، وفقاً لهذه المعادلة العقلية المنطقية.

وبالطبع فإنَّ دراسة مواقف الرسول ﷺ تتطلب منا مراجعة دقيقة تفصيلية للآيات القرآنية الداعية للحرب والقتال، وإلى أحاديث الرسول الأكرم ﷺ، والخروج بعوامل مشتركة فيما بينها، تكون في الوقع جواباً عن ما هو ملاك الحرب عند رسول الله ﷺ، وأُفقاً مفتوحاً ينظرُ له عقلاء الناس، لكي تلوح لهم المبررات الرئيسية للحرب مع الأعداء في ذلك العهد المنصرم.

ولو أجرينا هذه القراءة الشاملة لآيات الله في كتابه الكريم، وذلك الإستقصاء لأغلب أقوال الرسول ﷺ، وخطبه، ومواقفه في الحروب التي خاضها، والتي بدأت منذ أول دعوته المباركة، وصراعه مع قريش، الذي يتمثل فيها الشبح الطاغوتي، ويتجبر فيها أكابر مجرميها، إلى أن أغمض الرسول الأعظم ﷺ عينيه المقدستين على آخر أنباء جيش أُسامة، لوجدنا في قراءة هذه الأسفار والأخبار أن الملاكات منصبَّة على نقاط:

وبودي قبل أن نذكرها بالتفصيل أن نشير ابتداءاً إلى أنه: لا يمكن أن ندعي أن هذه الملاكات هي حقيقة الملاكات الواقعية التي ابتنى عليها الرسول جهاده، وقتاله لأعداء الله وأعداءه، وقام من خلالها بنهضته الإنسانية في مقاومة الضلال ورموز الشر والرذيلة، وقلب المعادلات الحاكمة آنذاك، وجعل قضية الجهاد تطل مع القرون كرامة متجددة، وتطأ مع الأيام عروش المستكبرين.

فمثل هذه الدعوى تعبر عن رأي غير دقيق وربما غير متورع، إذ

مستوى تفكير الرسول الأعظم ﷺ وقدسية آراءه ـ كما هو مسلم عند جميع المسلمين ـ من النضج والرفعة والقدرة بحيث لا يمكن أن يتناولها أحد من المسلمين وغير المسلمين، لما وهبه الله تعالى من تسديد، وعصمة، وأهلية للنظر في حقيقة الأشياء وقدرة للإطلاع على ما وراء مانرى ونسمع ونعلم، فإنه ﷺ يدرك بما لديه من الرعاية الإلهية ومن العصمة العقلية والنفس الشفافة القدسية، أشياء وأشياء لا يعلمها إلاّ الله.

ولكن هذا كله لا يمنع العقل البشري من البحث أو محاولة البحث عن التفسيرات الظاهرية، والتأويلات الممكنة، وإعمال الفكر في تحليل الوقائع، ودراسة الأُصول العامة التي كان يعتمدها النبي الأكرم ﷺ في حروبه، ومواقفه، واستراتيجياته، للخروج بنظرة محتملة، أو مظنونة، أو لعلها قريبة من اليقين في تفسير أصل تعامل النبي ﷺ مع ما حوله من أحداث.

ورسم الملامح بهذا الإطار إستناداً إلى المعين الذي كان يعتمده ﷺ وهو القرآن الكريم، واعتماداً على ما صدر منه ﷺ من حديث مع كون الفارق في المستوى الفكري، والروحي، والإدراكي كبيراً جداً بين الرسول ﷺ وأهل الرأي.

وإنطلاقاً من عدم المانعية في البحث العقلي يمكن أن نقول أن ممارسة الرسول ﷺ للحرب وخوضه تلكم الغمار كان بالملاكات العقلية المتصورة التالية:

يمكن تقيسم الملاكات الحربية إلى قسمين رئيسيين هما القسم الأول: الملاك الدنيوي، والقسم الثاني: الملاك الأخروي، يتفرع منهما مجموعة من الملاكات المتداخلة الكثيرة والمكونة بالمحصلة النهائية لهما.

وسنشرح باذن الله في المجلد الأول والثاني من كتابنا القسم الأول الى أن نتفرغ في المجلد الثالث لشرح القسم الثاني إن شاء الله.

القسم الأول:

الملاك الدنيوي

وهو بمجموعه يبين أن الحرب في نظر القرآن الكريم - الذي هو كلام الله المجيد، والذي هو دستور المسلمين، وهو دستور رسول الله ﷺ ومصدر قراراته - إنما هي ليست لخلق الكوارث البشرية، وإرهاب الخلق، وزعزعة وجودهم المستقر، بل لبناء كياناتهم في أجواء هادئة وهادفة، وإن كان طرق المرور لها صاخباً وعنيفاً وهذا ما نبين كيفيته لاحقاً[1].

وهذا الملاك يقسم إلى ثلاثة محاور:

المحور الأول: بناء المجتمع البشري

الركن الأول: في الجانب الأخلاقي

الأخلاق: هي غاية الإسلام في البناء والإصلاح، والتي يؤثر إصلاحها وبناءها بالطبع على سائر الموجودات الإلهية، فإن جميع هذا الكون وبالذات إنسانه عرضة للفساد والتفسخ، وعرضة للإلتهام من قبل الأمراض الأخلاقية.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾[2]، وهذا

---

(١) في المحور الثالث (عمران الارض).

(٢) العلق: ٦ - ٧.

الإنسان عرضة للإلتهام من قبل أدوات التزيف، وعوامل الجرف الأخلاقي نحو حضيض السوء إن لم يكن حَذِراً مدركاً لمصالحه عاملاً فاعلاً لأجلها.

إن الذين يريدون أن يمارسوا مشروعاً ما، لا بد وأن يعمدوا لأخلاق الناس فيجعلونها متناغمة وطبيعة ذلك المشروع، وبما أن الإنسان قاصر وغالباً ما يتبع مصالحه ومطامعه وأغراضه المريضة الدنيئة إلا من رحم الله وقليل ما هم، فتأتي نظرياته هدامة للأخلاق زاخرة بمختلف مفردات التميع الروحي، والتذويب الغريزي.

وتلك مراحل لا بد منها كمقدمات في ترويض نفوس الناس لقبول ما يملي عليهم أصحاب تلك النظريات في ما بعد، والتي سيكون وضعهم الأخلاقي الجديد جزءاً من جوانبها العملية التطبيقية.

وهكذا بدء الأوائل مخططاتهم بإزاء ما يريدون، فبدأوا بالقتل، وهتك الحرمات وإباحة الأعراض، وسلكوا طريق التحايل، والكذب، والخديعة كأسباب سهلة في وصولهم إلى أهدافهم، ولانقول إن الإنسان بطبعه يحب الفوضى والإسترخاء وجلب المنافع بالطرق اللامشروعة وإنما نتمكن من القول:

إن الإنسان إذا قُتل أو قَتل في داخله عوامل القوة، ومصادر الخير، وإرادة الصلاح فإنه يكون وبطريقة آلية مهيّئاً للإنسجام وتلك المفردات الشاذة.

وحيث تُقتَل عنده تلك المواقع النيرة، وتجهض تلك الإرادات الصالحة في نفسه فإنه ينحدر دون توقف إلى الحضيض وقعر السوء فيأتي بكل رذيلة، ويَمارس كل فاحشة، ويسطو على كل فرج، وينهب كل حق دون أدنى عفة أو ذمة، فيخرج من حدِ الإنسانية إلى حضيرة أوحش الوحوش، وأكثرها إفتراساً وأقواها في ملاحقه البراءة والإعتدال والفضيلة.

بهذا أصبح الإنسان طاغية في نفسه، وفي مجتمعه، وفي نوعه، وفي كل أفكاره وأخلاقه، لأنه تجاوز الحَد بَل كل الحدود، ويصبح طبعه الراسخ، وهمه المهيمن عليه كيف يغذي نفسه بأقذار الجريمة ويلبس أطمار الفضيحة، فينفق لذلك ماله، ويستهين من أجله بعرضه، ويكوّن له من شاكلته عصابة يقومون له بمهماته، ويجعل نفسه في مهب الريح العاصفة طيشاً وابتذالاً.

ومن هنا ندرك السرَّ في محاربة الطغاة لمكارم الأخلاق، وفضائل السلوك، لأنهم يرونها خلاف نـزعتهم الهائجة، وإعتراضاً على تمردهم الأهوج، فلا يستقر لهم قرار، حتى يَعدموا الفضائل ويطاردوا المكارم، ويمزقوا العفاف شر ممزق، إنها سُنّة الطغاة، وهذا الأمر ملحوظ بوضوح في التاريخ، ولعله في التاريخ المعاصر أوضح لقربه منا.

فكم عملت الشيوعية على إباحة الفساد الأخلاقي، وسحق حق التملك الفردي، ومحاربة أجواء الإستقامة، وكم قتلت في ساحتها الحمراء بموسكو من بني الإنسان الذي تدّعي أنها تريد إنقاذه.

ثم زحفت لباقي الشعوب بهذا الأخطبوط السياسي الموحش، فهاجمت، وقتلت، وذبحت، وعملت ماعملت، من أجل أن تقول إن نظريتها هي الباقية، والحاكمة، وليذهب الجميع إلى بحر الظلمات.

ورأينا افكار هرتزل، وأفكار المدرسة الوجودية التي تتخذ من الفوضى، والإباحية الجنسية، طريقاً لها في الحياة ولاترى الدنيا بأكملها.. الحياة بأكملها إلا بهذا المنظار، منظار كونها عديمة الفائدة ولا جدوى فيها.

ورأينا القائمين على الحربين العالميتين والمنفذين لهما، والمدمرين للشعوب، والسافكين دمائهم، وكذا رأينا طواغيت كثر في المعمورة.

الكل يعملون ضد الأخلاق، ضد العدل، والحياء، والصدق، والإستقامة،

ويحاربونها جميعاً، لأنهم أصحاب نظريات سخيفة يرون ضرورة إنعاشها في الحياة، ولكن لا وجود لها إلا بسحق الأخلاق أولاً.

ومن هنا أيضاً ندرك أهمية وعظمة الأخلاقي، وتأثير دوره في إرساء الحالة القيمية في الحياة وكم هو جدير بحمل أوسمة الحب، والإعتزاز، والتأسي؛ لأنه يحارب هذه القوى وإن لم يبارزها بالسلاح.

نعم إن وجود الإنسان الذي يجسد الأخلاق يعتبر حرباً ضارية عليهم، وإن لم يحمل البارود والرشاش... حرباً ضد هؤلاء وأفكارهم، وسلوكياتهم، وغاياتهم، ومن هنا نلمس قيمة موقعه في المجتمع، ومن هنا نلمس خطورة تصديه لأغياره من بني الإنسان.

وعلى هذا يمكن القول إن البشرية كانت ولا تزال بحاجة إلى قدوات أخلاقية عالية تبهر الخلق جميعاً بعطائها الأخلاقي، وتجذبُ الخليقة إلى سلوكها المتوازن الحكيم الرائع، وتخطف أبصار الأمم لما تتجاوزه من نفسها لحو تأكيد مفهوم أخلاقي أو مفردةً خيرة كريمة يريد ذلك الأخلاقي بثها في بني الإنسان وتعمير قلوبهم بها، وتطهير نفوسهم بوجودها الحي في أوساطهم.

فكان لطف الله علينا بالأنبياء، وخصوصاً سيدهم، وخاتمهم، وأعظمهم أخلاقاً الرسول محمد ﷺ الذي جاء قائلاً معلناً: **«إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق»**[1]، ومدحه القرآن الكريم أيما مدح ورفعه أيما رفعة،

---

(١) بحار الانوار ١٦: ٢١٠، مسند الرضا عليه السلام: ١٣١، مكارم الاخلاق للشيخ الطبرسي: ٨ ووردت في المصنف لابن أبي شيبة الكوفي ٧: ٤٤٠ **«إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»** وكذا في الأدب المفرد للبخاري: ٦٧، مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا: ٦، مسند الشهاب لابن سلامة ٢: ١٩٢، وفي الجامع الصغير للسيوطي ١: ٣٩٥، كشف الخفاء للعجلوني ١: ٢١١.

عندما قال عنه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١] فهو ليس على خلق فقط، وإن كان هذا كافٍ للتعبير عن جلال شخصيته، وعن مرادنا في توضيح أهمية الدور الذي أدّاه بل قال: على خلقٍ عظيم.

ووجود مثل هذا الرمز الأخلاقي الفذّ من شأنه أن يحصّن البشرية من الإنحراف والإنحدار الذي يمسخ إنسانية الإنسان، ووجوده أيضاً يستدعي السعي من جميع الخلق للمحافظة عليه، وتهيئة السبل له كي يديم نشر مفاهيمه الأخلاقية، ويمارس دوره الرائد في تثبيت أركانها للخليقة على مر الدهور.

أجل.. هناك مصلحون، وهناك عاملون من أجل الإنسان، أما أن يصل إنسان ما إلى دماثة خلق محمد النبي ﷺ، وحنوه، وسعة صدره، وطهارة نفسه ﷺ فهذا أمر بعيد ولا نعدوا الحق إن قلنا إنه مستحيل.

وقد قال ﷺ: «أدبني ربي فاحسن تأديبي»[٢] فقد تجاوز الخطوط، والمسافات والحدود الزمنية، كي يتربع متفرداً على عرش الأخلاق موجهاً، ومنظراً، وممارسا، وتربوياً بالدرجة التي يعز على آدم وحواء أن ينجبا مثله على مر العصور إلى يوم القيامة.

فلقد كان سلوكه أخلاقياً مع ربه تبارك وتعالى ومع أهله، وصحبه، ومع نفسه وأعداءه، ومحبيه، حتى عشقوه وهاموا به وضحوا من أجله بكل شيء ولا يسأل أحدهم وهو على مشارف الموت إلا عن محمد ﷺ.

لقد خلّف لنا التاريخ تراثاً ضخماً يحفظ لنا من مواقف النبي محمد ﷺ مآثر خالدة، ودرراً لامعة يتيمة، إنه ﷺ أخلاق تمشي على الأرض، والأنق

---

(١) القلم: ٤.

(٢) بحار الانوار ١٦: ٢١٠، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١: ٢٣٣، الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي ١: ٥٠، كشف الخفاء للعجلوني ١: ٦٩.

من ذلك هو أخلاق الله بين عباده.

الحق أنّه النبي الذي يدعوا قومه للصلاح فيرمونه بالحجارة ويدمون قدميه الشريفتين ويقول: **«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»**[١].

وهو الذي يجابهه قومه بالتكذيب والإبعاد، والحصار، والطرد، والمحاربة بكل وجه، ثم يأتيهم يوم الفتح فيقول ﷺ لهم - وهم أذلاء خاضعون بمقدوره أن يهشّم رؤوسهم بالسيف وهم لذلك أهل على ما فعلوه به، وبصحبه، وأهل بيته، وعلى ما مارسوه من أقذر الأدوار اللاأخلاقية معه ﷺ، من إلقاء السلى عليه في صلاته وغيرها - يقول لهم: **«ما ترون إني فاعل بكم؟»**

قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخٍ كريم.

قال ﷺ: **«اذهبوا فأنتم الطلقاء»**[٢]، وقد كان بمقدوره أن يثأر لنفسه ويثأر لتاريخه ويقتص منهم بما يستحقونه، وهو الزعيم الكريم، والفاتح الظافر، معه الجيش، والسلاح، والأتباع، ومفاتيح المدينة ومكة، والمدن الأخرى في المستقبل القريب.

إلاّ إنه ذلك الأخلاقي الذي لا يرضى لنفسه إنفلاتاً عن الشهامة، ولا إنغماساً بالتشفي... إنه الفاتح المظفر القادم لبناء الكيان الأخلاقي في بنية الكيان الإجتماعي، لذلك قال ﷺ لهم بكل وثاقة وشفقة: **«اذهبوا**

---

(١) إقبال الأعمال ١: ٣٨٤ و ٣٨٥، الطرائف: ٥٠٥، البحار ٩٥: ١٦٧، مسند أحمد ١: ٤٤١ و ٤٥٣، صحيح البخاري ٤: ١٥١، مجمع الزوائد ٦: ١١٧، فتح الباري ٦: ٣٧٨، المحلى لابن حزم ١١: ٤١١ المصنف لابن أبي شيبة الكوفي ٨: ٢٢٩، مسند أبي يعلي ٨: ٤٠٩، المعجم الكبير ٦: ١٦٣، جامع البيان لابن جرير الطبري ١٢: ٤١٧.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ١٣٢، تاريخ الطبري ٢: ٣٣٧، مجمع البحرين ٣: ٥٨.

فأنتم الطلقاء!».

إنّها الرحمة الإلهية المبعوثة لترجمة تلك القيم العزيزة دون خوف أو توان ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1]، والحديث في ذلك طويل الذيل ـ كما يقال ـ ولكن إليك باقة من تصرفه ﷺ مع أعدائه، فالأخلاق تتجلى أكثر ما تتجلى في المواقف الصعبة.

وهل أصعب من تآمر الأعداء على سيد الأنبياء! هاك طرفاً من حديث العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي في كتابه (محمد في مرآة الاسلام) وتحت عنوان العفو والمغفرة: (كان ﷺ يَغُضّ الطرف عمن يُسيء اليه شخصياً، ولم يحمل في نفسه حقداً على أحَد ولم يسع للانتقام من أحد. كانت روحه القويه أرفع مستوى من الإنفعالات النفسية والعقد الداخلية، فكان العفو عنده أسبق من الإنتقام.

لم يكن تأثره بالمنغصات يتعدى الحزن والاسى.

في حرب أُحد وعلى الرغم من القسوة والوحشية اللتين عومل بها جسد عمه حمزة بن عبد المطلب، وعلى الرغم من شدة تألمه لذلك، لم يلجأ إلى المقابلة بالمثل بالنسبة إلى جثث قتلى قريش.

وبعد ذلك عندما وقع في يديه أولئك الذين ارتكبوا تلك الوحشية ومنهم هند زوجة أبي سفيان، لم ينتقم منهم، بل إنه منع أبا قتادة الأنصاري من شتمهم وسبهم[2] وبعد فتح خيبر، أرسل اليه نفر من اليهود الذين كانوا قد ارسلوا طعاماً مسموماً، فعلم بمؤامرتهم وسوء نيتهم، ولكنه أطلق سراحهم[3].

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) امتاع الاسماع للمقريزي ١: ٤٢٥.

(٣) صحيح البخاري ٤: ١٠٠.

ومرة اخرى سعت يهودية إلى أن تدس له السم في الطعام فعفى عنها[١].

كان عبد الله بن أبي رأس المنافقين، قد أمن الموت بأدائه الشهادتين، ولكنه كان في باطنه يعادي رسول الله ﷺ لأن هجرته ﷺ إلى المدينة قد قوضت كل أطماعه في تزعم المدينة، فكان على صلة باليهود والمنافقين، لم يأل جهداً في النميمة والحقد وبث الأراجيف على رسول الله ﷺ.

إنه هو الذي قال في غزوة بني المصطلق أنهم إذا عادوا إلى المدينة فسوف يطردون تلك الطفيليات الحقيرة ـ يقصد المهاجرين ـ من دورهم.

أما أصحاب النبي الذين كانوا ممتلئين غضباً عليه، فلطالما استاذنوا رسول الله ﷺ في أن يوصلوه إلى حيث يستحق، ولكن النبي لم يكن يرفض ذلك فحسب، بل كان يعامله بكل لين، حتى إنه عاده في مرضه ومشى في جنازته وصلى عليه[٢].

كان جمع من المنافقين قد تآمروا على حياة رسول الله عند عودته من غزوة تبوك، ذلك بأن يخزوا مطيته عند مرورها بشفا جرف فيهوي إلى القاع، ولكنه عرفهم على الرغم من أنهم كانوا ملثمين، ومع ذلك لم يفش أسماءهم ولم يقتص منهم[٣])[٤].

حقاً إن مثل هذه النماذج من المفردات الأخلاقية تأخذ باشعاعها ثلة من الناس فيلتفون حولها التفاف الفراشة وهيامها وسط النور وهو وَهُم حتماً يتصدون بكل قوة لكل مظاهر اللاأخلاق واللاإنضباط، إنطلاقاً من

---

(١) صحيح مسلم ٧: ١٤.

(٢) امتاع الاسماع للمقريزي ١: ٤٩٦.

(٣) امتاع الاسماع للمقريزي.

(٤) محمد في مرآة الإسلام للعلامة الطباطبائي: ٨١ ـ ٨٣.

مسؤليتهم الأخلاقية، ونفوسهم العالية فتجد أنها محاربة للظلم والسوء والطغيان، وكل المفردات المنكرات العابثة في قريش وغيرها.

فكان الصراع التاريخي الدامي والعنيف، هذا عن الأخلاق والطهر، وهذا عن الرذيله والعهر، وكان يندفع الرسول ﷺ بدافع حقه في المقاومة للدفاع عن أي حق يراه مغصوباً أو مضيعاً بأيدي أولئك الباغين.

فكان الجانب الأخلاقي والذي يؤدي الإعتناء به والدفاع عنه إلى بناء المجتمع البشري بناءاً سليماً صالحاً موفقاً، واحداً من أهم الملاكات التي قامت عليها الحرب آنذاك.

وهذا الجانب ـ الجانب الأخلاقي ـ مرتكز على أسس ثلاثة:

الأساس الأول:

اجتثاث مادة الفساد والفتنة

إن إصلاح ما فسد ودرء الفتن المحدقة بالإنسان، هو الشعار الذي لازم النبوات وَهَتَفَ به الأنبياء وَرَصّع تاج مساعيهم على طول مسيرتهم.

إن القرآن الكريم يناقش الفساد والفتنة ويعرضهما بنوع من الترابط العضوي، وبينهما وبين الردع والتصدي لهما بالحرب أيضاً ترابطاً واضحاً، فلا يمكن أن تجد فتنة إلاّ وقواعدها التي أُرسيَت عليها الفساد، ولا تجد فساداً إلاّ وقواعده التي يستمر عليها الفتنة.

ولا يمكن أن يُقضى على أحدهما دون إقامة الحرب عليه، وإن القضاء على الفساد يعني بحال القضاء على الفتنة والعكس بالعكس.

فقد قال تعالى محذراً المسلمين في حال عدم عملهم بأوامر الله ونواهيه بأنهم سيقعون في ما لا تُحْمَد عقباه، قال تعالى: ﴿إِلاّ تَفْعَلُوهُ

تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[١].

فالفتنة واقعة لا محالة، والفساد الكبير وليس فقط الفساد واقع لا محالة أيضاً، بصرف النظر إن كانت تلك الإلتزامات صغيرة أو كبيرة.

قال الطبري: (حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنا الحجاج قال: قال إبن جريج في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ قال: إلاّ تعاونوا وتناصروا في الدين تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)[٢].

وقال أيضاً في نفس المصدر: (وقال آخرون: معنى ذلك: إلاّ تناصروا أيها المؤمنون في الدين تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)[٣].

وقال: (حدثنا إبن حميد قال: ثنا مسلمة، عن إبن اسحاق، قال: جعل المهاجرين والأنصار أهل ولاية في الدين دون من سواهم، وجعل الكفار بعضهم أولياء بعض.

ثم قال: إلاّ تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير أن يتولى المؤمن الكافر دون المؤمن)[٤].

ومعلوم من سياق القولين أن حرب المؤمنين واحدة، وسلمهم واحد، ومعلوم أنه إذا تعرض أحدهم إلى خطر لا بد من دفعه ولو كان ذلك مؤداه الحرب الضروس، فعدم النصرة وعدم التعاون فيما بينهم يعني وقوعهم في المحذور المنهي عنه وهو الفتنة في الأرض والفساد الكبير.

---

(١) الانفال: ٧٣.

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري ١: ٧٣ ١٢٧٠٩.

(٣) نفس المصدر ١٠: ٧٣.

(٤) نفس المصدر ١٠: ٧٣ / ١٢٧٠٨.

وفي تفسير زاد المسير مايتمم أو يوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾[1] أي: إن استنصركم المؤمنون الذين لم يهاجروا فانصروهم إلاّ أن يستنصروكم على قوم بينكم وبينهم عهد فلاتغدروا بأرباب العهد، وقال بعضهم لم يكن على المهاجر أن ينصر من لم يهاجر إلاّ أن يستنصره كفروا بعضهم أولياء بعض إلاّ تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)[2].

والغاية من نقل هذه المعاني هو توضيح الترابط بين الفساد والفتنة وهو محل الشاهد من كلامنا المتقدم.

وقد عبر عن هذه المعاني السيد الطباطبائي ببيان واضح وأسلوب معاصر قائلاً: (قوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ إشارة إلى مصلحة جعل الولاية على النحو الذي جعلت.

فإن الولاية مما لاغنى عنها في مجتمع من المجتمعات البشرية سيما المجتمع الإسلامي الذي أسس على اتباع الحق وبسط العدل الإلهي، كما إن تولي الكفار وهم أعداء هذا المجتمع يوجب الإختلاط بينهم فتسري فيه عقائدهم وأخلاقهم، وتفسد سيرة الإسلام المبنية على الحق بسيرتهم المتبقية على اتباع الهوى وعبادة الشيطان، وقد صدّق جريان الحوادث في هذه الآونة ما أشارت إليه هذه الاية)[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ

---

(١) الانفال: ٧٢.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٣: ٢٦٢.

(٣) تفسير الميزان ٩: ١٤٢.

يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾[1].

فهذا الخطاب المتشدد وذو اللهجة الحارة في القرآن الكريم إنما المراد منه ملاحظة الفساد بكل شعابه وفروعه، ومحو جميع آثاره والتصدي لأهله بأشد العقوبات، وقد جئنا بالآية للتدليل على مقت الإسلام لمظاهر الفساد ومواجهتها بالأجتثاث والقمع.

فالفساد لا يظهر إلاّ على أيدي هؤلاء الذين ملئوا الآفاق من شرورهم وانفلاتاتهم حتى تجاوزوا ما يمكن تصوره إلى حدود البر والبحر وهما كناية عن سعة الإنتشار، وصعوبة الإنحسار، وكله بأيدي أشرار الملل، ومفاسدهم القبيحة، ما ظهر منها وما بطن قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2] فعدم وجود الضوابط كما أسلفنا يعني استهتار الإنسان بكل ما يعني بناء ووجود الإنسان من الجنبة الأخلاقية، والإجتماعية؛ لأنه إنفلات.

وخصوصاً إذا كان له أمرٌ ونهي وولاية تمكّنه من الخوض في الباطل بما يشاء، واسترقاق خلق الله عبيداً لشهواته ونزواته.

فيريدون من لا يريد الله، ويعملون بما لا يعمله الصالحون من عباد الله ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[3].

---

(١) المائدة: ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) الروم: ٤١.

(٣) البقرة: ٢٠٥.

وكُتِبَ عليهم الشقاء والهلاك كنتيجة طبيعية لممارسة التخريب الدائم لقنوات هذا الكون، ومحاولة تغيير سننه الطبيعية، والمعروف إن الذي يسبح عكس تيار البحر يُحتمل أن يغرق، وتبتلعه الأمواج العاتية.

إن القوانين الطبيعية هي التي تتحكم بقيادة زمام الكون، وهذه القوانين أودعها المقنن الحكيم الذي أراد لهذا الكون أن يسير وفقها.

قال وتعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١).

أما أن يأتي الإنسان ويغير تلك الثوابت من القوانين، فليبشر بالهلاك والزوال وأنْ تُطبّق بحقه قوانين السماء الصارمة والتي لا تعرف اللّين إلاّ برحمة الله ومشيئته وعَفوه.

قال تبارك اسمه: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٢).

قال تبارك تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (٣)، فلا هلاك ولا منع ولا نقمة مع الإصلاح والتقوى والإنضباط وفق إرادة المولى الجليل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ (٤).

---

(١) الملك: ٢٢.

(٢) هود: ١١٦.

(٣) هود: ١١٧.

(٤) الأعراف: ٩٦.

والتشديد في منع الفساد ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[1].

بل من الطريف أن فرعون على خبثه وطغيانه، يرى نفسه في وقفته بوجه الدعوة الموسويّة، أنه يدعوا للصلاح ويخشى من ظهور الفساد في الملة، وهذا يُظهر لنا أن الثوابت القيميّة التي ذكرناها في مقدمة البحث في كونها ثابتة عند جميع الخلق نظر له مايؤيده.

صحيح إن فرعون يسيء إستخدامها، أو له أغراض في بثها كدعاية مضادة لنبي الله موسى عليه السلام، ولكنه إعتراف صريح من قبل أعتى طواغيت الأرض في عصره بأن الفساد أمرٌ مرفوض، الفساد بمعنى تغير السائد وتحويل أنظار الملة وتخريب الديانة المتبعة وإن كانت باطلة من الناحية الواقعية.

إن فرعون بصلفه وتكبره وغروره هذا يعبر بالواقع عن هاجس مدمر في داخله، ووسوسة لا تنفك عنه مما يُحْدِثُه موسى عليه السلام من تغيرات هامة في تزكية المجتمع، ومن طرح جديد من شأنه أن يُلْغي نظرية ويثبت أخرى في مسالك العقول.

لذلك يطالب فرعون بسرعة القضاء عليه، خشية من سرعة زوال عَرْشه وربوبيته، ويمسي موسى عليه السلام صاحب الديانة الإصلاحية مفسداً في الأرض، ويحاول الطاغية ملاحقته وفق هذه المادة الفرعونية المختلقة والباطلة.

قال عزَّ وجل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[2].

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) غافر: ٢٦.

ولِنرى ما هو الرد الموسوي، وما الذي شخص لنا في شخصية فرعون من مناشيء هامة تعتبر الأساس في الوقوف أمام التيار الموسوي وتصلب فرعون في موقفه باتجاه موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[1].

والمعاني واضحة ظاهرة لكل أريب لبيب.

وعودٌ على بدء:

أنَّ في الآيات الأولى من سورة المائدة التي سقناها شواهد على رفض الإسلام العظيم لدواعي الفساد والإخلال بأمن العباد وضوحاً تاماً لذلك، وَلنقِفْ على بعض وجوهها من الناحية التفسيرية.

قال السيد الطباطبائي في قوله تعالى: (﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ فساداً: مصدر وضع موضع الحال ومحاربة الله وإن كانت بعد إستحالة معناها الحقيقي وتعين إرادة المعنى المجازى فيها ذات معنى وسيع يصدق على مخالفة كل حكم من الأحكام الشرعية وكل ظلم وإسراف.

لكن ضم الرسول اليه يهدي إلى أن المراد بها بعض ما للرسول فيه دخل، فيكون كالمتعين أن يراد بها ما يرجع إلى إبطال أثر ما للرسول عليه ولاية من جانب الله سبحانه كمحاربة الكفار مع النبي ﷺ وإخلال قطّاع الطريق بالأمن العام الذي بسطه بولايته على الأرض.

وتعقب الجملة بقوله تعالى: ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ يشخص المعنى المراد وهو الإفساد في الأرض بالإخلال بالأمن وقطع الطريق دون

---

(١) غافر: ٢٧.

مطلق المحاربة مع المسلمين، على أن الضرورة قاضية بأن النبي ﷺ لم يعامل المحاربين من الكفار بعد الظهور عليهم والظفر بهم هذه المعامله من القتل والصلب والمثلة والنفي.

على أن الإستثناء في الآية التالية قرينة على كون المراد بالمحاربة هو الإفساد المذكور)[١].

ويخلص إلى هذه النتيجة: (فالمراد بالمحاربة والإفساد على ماهو الظاهر هو الإخلال بالأمن العام، والأمن العام إنما يختل بإيجاد الخوف العام وحلوله محله، ولا يكون بحسب الطبع والعادة إلا باستعمال السلاح المهدد بالقتل طبعاً.

ولهذا ورد فيما ورد من السنة تفسير الفساد في الأرض بشهر السيف ونحوه) [٢].

ويسند السيد الطباطبائي كلامه هذا برواية ينقلها من مصادر في تفسير الطبري: إن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه أنس يخبره: إن هذه الآية نزلت في أولئك النفر من العرنيين وهم من بجيلة.

قال أنس: فارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعي، واستاقوا الإبل، وأخافوا السبيل، وأصابوا الفرج الحرام فسأل رسول الله ﷺ جبرئيل عن القضاء فيمن حارب فقال: (من سرق وأخاف السبيل، واستحل الفرج الحرام فاصلبه) إلى غير ذلك من الروايات[٣].

---

(١) تفسير الميزان للطباطبائي ٥: ٣٢٦.

(٢) تفسير الميزان ٥: ٣٢٧، انظر جامع البيان للطبري ٦: ٢٩٤، تفسير ابن كثير ٢: ٥٣٠، الدر المنثور ٢: ٢٧٧، فتح القدير ٢: ٣٦.

(٣) تفسير الميزان ٥: ٣٣٣.

أمّا في تفسير القرآن للصنعاني فقد قال بتصريح لا يشوبه أي غموض في إعلان الحرب على نار الفتنة ومستنقع الفساد بقوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

قال: كان ناس من المشركين يأتون فيقولون لا نكون من المسلمين ولا مع الكفار فأمرهم الله تعالى إمّا أن يدخلوا مع المسلمين وإمّا أن يلحقوا بالكفار.

وقال أيضاً: إن النبي ﷺ أخذ على رجل دخل في الإسلام فقال تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت وتصوم رمضان وإنك لا ترى مشركاً إلاّ وأنت له حرب)[١].

وهنا ـ وبعد ماتقدم ـ نتناول الموضوع في نقطتين:

النقطة الأولى:

تعريف الفتنة

ف ت ن: الفتنة الإختبار والإمتحان نقول فتن الذهب بالكسر فتنة ومفتوناً أيضاً إذا أدخله النار لينظر ما جودته، ودينار مفتون أي ممتحن وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: حرقوهم وَيُسمى الصائغُ الفتان، وكذا الشيطان وفي الحديث: «المؤمن أخو المؤمن يسعهما الماء والشجر ويتعاونان على الفتان»[٢].

---

(١) تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني ٢: ٢٦٢.

(٢) الصحاح ٦: ٢١٧٥، مختار الصحاح لمحمد بن عبد القادر: ٢٥٥، والحديث عن الرسول الأكرم ﷺ.

النقطة الثانية:

أنواع الفتنة

ناقش القرآن الفتنة من أكثر من بعد، ولنأخذ بعض النُتَف التي توضح أهمية موضوعها ومدخليته في صميم البحث.

من الواضح أن الفتنة على أنواع كثيرة ويمكن تصوير أنواعها كما يلي:

النوع الأول: فتنة الله

وكون الفتنة من الله فهو أمر طبيعي إذ الأشياء كلها منوطة بقدرة الله، وحتى مايتبقى من الأقسام فإنها ترجع بنحو من الأنحاء إلى الله تبارك وتعالى.

قال عز إسمه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾[2].

وقال جل جلاله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾[3].

---

(١) الحج: ١١.

(٢) الإسراء: ٦٠.

(٣) القمر: ٢٧.

وقال جل شأنه: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾[1] الآية.

وقال عز من قائل: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[3].

وتفسير إنما نحن فتنة يصب في هذا المعنى ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ قال: إمتحان للعباد وليطيعوا الله فيما يتعلمون[4].

وفي الميزان: (ولاضير في ذلك ؛ لأنهم فتنة وامتحان إلهي)[5].

---

(١) الصافات: ٦٢ ـ ٦٤.

(٢) الزمر: ٤٩.

(٣) البقرة: ١٠٢.

(٤) التفسير الاصفي للفيض الكاشاني ١: ٥٨، نور الثقلين للحويزي ١: ١٠٧ وفي تفسير كنز الدقائق للميرزا محمد المشهدي ١: ٣١٠. (إنما نحن إبتلاء)

(٥) تفسير الميزان للسيد الطباطبائي ١: ٥٢٣.

وفي زاد المسير: (قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ أي: إختبار وابتلاء)[١].

ولو أخذنا آية ثانية تدلك على هذا المعنى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٢] ففي جامع البيان، عن عبد الله بن بريرة، عن أبيه قال: (رأيت رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان، فنزل رسول الله ﷺ فاخذهما فرفعهما فوضعهما في حجره ثم قال: «صدق الله ورسوله، ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ رأيت هذين فلم أصبر» ثم أخذ في خطبته)[٣].

وقد قال في مفردات غريب القرآن: (وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فقد سماهم ههنا فتنة إعتباراً بما ينال الإنسان من الإختبار بهم)[٤].

وعلى كل حال فالإنسان المؤمن عرضة للبلاء والفتن من قوى عديدة ما دام حياً، إنسجاماً مع كون الدنيا دار غرور وفناء، وإختبار وبلاء يُمَحص فيها المؤمن حتى يَصفى وَيَتخلص ويكون أهلاً لدخول الجنه المختصة بأهل الصفاء والطهر.

---

(١) زاد المعاد لابن الجوزي ٦: ١٢٣، ١: ١٠٨، وانظر فتح القدير للشوكاني ١: ١٢٠.

(٢) الأنفال: ٢٨.

(٣) جامع البيان لابن جرير الطبري ٢٨: ١٦٠، وهو أيضاً في تفسير الثعالبي ٥: ٤٤٠، تفسير الصافي للفيض الكاشاني ٥: ١٨٥.

(٤) مفردات غريب القرآن للراغب الاصفهاني: ٣٧٢.

وقد صرح القرآن بعدم كفاية إطلاق اللسان بأداء الشهادتين لكي يكون من الثلة المؤمنة، إنما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[1].

النوع الثاني: فتنة المنافقين

ونقصد بها أن المنافقين يسعون لزرع الفتن في الوسط الإيماني الديني، إنطلاقاً من نزعاتهم المريضة، وأفكارهم التخريبية، ليفتنوا الجمع، ويفرقوا الكلمة، وينتزعوا ثمرة ذلك خلافاً مستديماً، وصراعاً سائداً، بما يضعف كلمة الله والإرتباط به ويحل أواصر الإعتقاد.

إنه النفاق الذي أعتمده هؤلاء، وسبُله الخبيثة التي سلكوها بما يصنع الفتنة ويجاهر بها، ولقد بيّن تعالى موضحاً سعي هؤلاء، ودرجة خطورتهم على عموم المسلك الديني، حيث قلوبهم عليلة مترددة، ونواياهم مشوبة فاسدة، وسعيهم يُفقِدُ المحاربين المؤمنين روحهم المعنوية، ويعرضهم للإحباط والهزيمة.

قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾[2].

إنهم إنهزاميون لا يملكون سوى ألسُن حداد، وإرادة فساد، ولا يألون

---

(١) العنكبوت: ٢ ـ ٣.

(٢) الأحزاب: ١٩.

جهداً في فت العضد القوية، وإحالتها إلى يد هزيلة مشلولة.

إنهم الفئة الأكثر خطورة على المجتمع والأحق بالردع والإقتلاع، وحيث إن المؤمنين يستأذنون رسول الله بالخروج، يستأذنون هم الرسول بالبقاء والقعود.

قال تعالى: ﴿لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[1].

ولقد بين المفسرون الفتنة المقصودة في الآية فقال بعضهم إنها المحنة، واخرون وبالإضافة إلى تسليمهم بهذا المعنى يضيفون لها أن الفتنة الكفر، وآخرون قالوا الشرك وأضافوا إلى هذه المعاني الإفساد وغيره.

وكل هذه المعاني واردة في المقام والفتنة تحتملها جميعاً، ومن هنا يُعلم شدة خطورة الفتنة ووجوب وقوف المؤمنين بوجهها، لغرض التصدي والقمع، وإلاّ فهي مؤدية الأدوار وباعثة على الأخطار.

قال العلامة الطباطبائي في قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا

---

(١) التوبة: ٤٤ ـ ٤٩.

زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ. . .﴾ الآية، هو الفساد واضطراب الرأي والإيضاع الإسراع في الشر، والخلال البين والبغي هو الطلب. فمعنى يبغونكم الفتنة أي يطلبون لكم وفيكم الفتنة على ما قيل.

والفتنة هي المحنة كالفرقة واختلاف الكلمة على ما يناسب الآية من معانيها والسماع السريع الإجابة والقبول.

والآية في مقام التعليل لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ امتناناً، ولذا جيء بالفصل من غير عطف والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي أقسم لقد طلبوا المحنة، واختلاف الكلمة، وتفرق الجماعة من قبل هذه الغزوة وهي غزوة تبوك كما في غزوة أحد حين رجع عبد الله بن أبي بن سلول بثلث القوم وخذل النبي ﷺ.

وقلبوا لك الأمور بدعوة الناس إلى الخلاف وتحريضهم على المعصية وخذلانهم عن الجهاد، وبعث اليهود والمشركين على قتال المؤمنين والتجسس وغير ذلك حتى جاء الحق، وهو الحق الذي يجب أن يُتبع، وظهر أمر الله وهو الذي يريده من الدين وهم كارهون لجميع ذلك)[1].

وقال الجصاص: (قوله تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ قال الحسن: ولأوضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات بينكم، وقوله تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ فإن الفتنة ههنا المحنة باختلاف الكلمة والفرقة ويجوز أن يريد به الكفر، لأنه يُسمى بهذا الإسم لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ وقوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾)[2].

---

(١) تفسير الميزان ٩: ٢٩٠.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣: ١٥٥.

وقال القرطبي: (﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ مفعول ثاني، والمعنى يطلبون لكم الفتنة، أي الفساد والتحريض. ويقال: أبغيه كذا اعنته على طلبه وبغيته ذا طلبته له. وقيل: الفتنة هنا الشرك)[1].

وكل هذه المعاني موجبة للمواجهة والقتال عقلاً وشرعاً.

النوع الثالث: فتنة الناس أو فتنة المشركين

لم يُترك مؤمن أقر بالشهادتين وأعلن الإيمان بهما إلا ويواجه من قبل قومه وغيرهم بالرد والتثبيط، والزجر والتهديد، وقد يتفاقم الأمر ويتصاعد الموقف سلبياً فيواجه العذاب والمطاردة ومحاولات القتل.

لذلك ترى من الصعوبة الوقوف على كلمة التوحيد أمام هذه الموانع وقبال هذه الرشقات اللفظية والفعلية اليومية، من إخافة الظالمين وحصارهم الذي يؤدي بالمؤمن إلى العزلة، والوحدة، والجوع، والفاقة، والعطش، وشلّ الحركة، وعدم القدرة على ممارسة الأدوار الحياتية العامة التي كُيِّف لها كمخلوق إنساني، وتغييبه عن موقعه كموجود فاعل ومؤثر.. حي متحرك.

فيهبط بعضهم فاقداً صبره، ويسمو البعض الآخر متجاوزاً المحنة، ولقد تزعمَ المشركون لعب هذه الأدوار، وخاضوها مع أهل الإيمان والتوحيد.

ورد في تفسير ذلك: (﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ قال القمي: إذا آذاه إنسان، أو أصابه ضر أو فاقة أوخوف من الظالمين، دخل معهم في دينهم، فرأى إن ما

---

(١) تفسير القرطبي ٨: ١٥٧، ويذهب إلى مضمون هذه الاراء في الجمله صاحب تفسير الميزان، و صاحب تفسير جامع البيان ابن جرير الطبري، وصاحب تفسير احكام القرآن الجصاص، والقرطبي في تفسيره.

يفعلونه هو مثل عذاب الله الذي لا ينقطع)[١].

قال العلاّمة الطباطبائي: (ويلوح من سياق آيات السور وخاصة ما في صدرها من الآيات أن بعضاً ممن آمن بالنبي ﷺ بمكة قبل الهجرة رجع عنه خوفاً من فتنة كانت تهدده من قبل المشركين.

فإن المشركين كانوا يدعونهم إلى العود إلى ملتهم ويضمنون لهم أن يحملوا خطاياهم إن اتبعوا سبيلهم فإن أبوا فتنوهم وعذبوهم، ليعيدوهم إلى ملتهم.

يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ الآية، وقوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ الآية.

وكان في هؤلاء الراجعين عن إيمانهم من كان رجوعه بمجاهدة من والديه على أن يرجع، وإلحاح منهما عليه في الإرتداد كبعض أبناء المشركين على ما يستشم من قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية)[٢].

النوع الرابع: فتنة الإنسان نفسه وغيره

فقد يحاول الإنسان نفسه إلى لبس الحق بالباطل، وتأويل الشيء بما لا يصح تأويله به، وإعتماده على ذوقه في معرفة الأشياء، والحال أن ذوقه لا

---

(١) تفسير القمي ٢: ١٤٩، وعنه في التفسير الاصفى للفيض الكاشاني ٢: ٩٤١، والآية ١٠ من سورة العنكبوت.

(٢) تفسير الميزان ١٦: ٩٨، وكذا في تفسير نور الثقلين للشيخ الجزائري ٩: ١٥٣، وجامع البيان لابن جرير الطبري ٢: ١٦١ وزاد المسير لابن الجوزي ٦: ١٢٣.

يعتبر مقياساً للصحة والخطأ، فضلا عن كونه المعيار بين الحق والباطل.

أو يؤوّل الأشياء اتباعاً لهوى نفسه وأغراضها السقيمة، فيحرف الحق عن محله ويأتي بالباطل مكانه، ويدعي أمام الاخرين أنّ ما بَلَغَهُ هو الحق الصراح، وما بعد الحق إلاّ الضلال فَيَضِلُّ بنتائجه هذه ويُضَلِّل.

يَضل نفسه ويضلل الآخرين عن الصراط السوي، ويذهب بهم بعيداً عن أهداف الحق وغاياته.

وخطورة هذا الشيء تكمن في كون الإنسان يقنع نفسه بصحة شيء ما بالأدلة الزائفة المغلوطة، ويأتي غيره فيقتلي به فيكون صاحب سنة ضلال، ومنهج انحراف وعليه طائلة عمله وأعمال القوم وأوزارهم: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [(١)].

وسبب هذا بالاضافة إلى أغراض الدنيا وأهواء الذات وحب الأنا وغيرها، هو الابتعاد عن أهل الحق، والقائلين به، والعاملين لأجله.

والأَمَرُّ من ذلك كله أن الذين يؤتون الحق ويغلفونه يدركون بعملهم هذا بطلان ما ذهبوا اليه، وعدم أحقيتهم في إعطاء ما هم ليس له بأهل ويقع هذا كثيراً في تأويل آيات الله المتشابهة إبتغاءاً للفتنة وزعزعة العقائد والأمور التي تهم ذوي الدين وأهله.

وكتاب الله لم يطرح من قبل الغيب في درجة واحدة ومرتبة ثابتة لكل الناس، فهو يفهم وفق تفاوت الناس في الوعي، والاستيعاب، والقدرة العقلية وإن كان بالنحو العام يمكن أن يُفهم من الجميع وهذا الفهم العام لا يمنع من وجود المرتبية في الفهم.

في كتاب الاحتجاج للطبرسي قدس سره عن أمير المؤمنين عليه السلام

---

(١) يس: ١٢.

حديث طويل وفيه: (ثم إن الله جل ذكره لسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدثه المبطلون من تغير كلامه، قسم كلامه ثلاثة اقسام فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل، وقسماً لا يعرفه إلاّ من صفا ذهنه ولطف حسه وصح تميزه ممن شرح الله صدره للإسلام، وقسماً لا يعرفه إلاّ الله وأنبياؤه والراسخون في العلم.

وأنما فعل ذلك لئلا يدعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول الله ﷺ من علم الكتاب مالم يجعله الله لهم، وليقودهم الإضطرار إلى الايتمار لمن ولاه أمرهم، فاستكبروا عن طاعته تعززاً وافتراءاً على الله واغتراراً بكثرة من ظاهرهم وعاونهم وعاند الله عز وجل ورسوله ﷺ)[1].

ولكن رغم هذا الحجب في القرآن الكريم لبعض علومه عن فهم العامة، واختصاص ذلك بالله وأنبيائه، والراسخين في العلم إلا أنك تجد المتلاعبين المبطلين تأخذهم الأهواء والسياسات الحاكمة للقول فيه وتأويل ما لا يعلمون تأويله.

يقول صاحب كتاب علوم القران: (لأن الذين في قلوبهم زيغ كانوا يحاولون أن يحددوا صورة معينة لمفاهيم الآيات المتشابهة إثارة للفتنة؛ لأن كثيراً من الآيات المتشابهة تتعلق معانيها بعوالم الغيب، فتكون محاولة تحديد تلك المعاني وتجسيدها في صورة ذهنية خاصة ـ مادية أو منسجمة مع هوى ورأي المؤول ـ عرضة للخطر والفتنة)[2].

وذلك في غضون إشارته إلى تفسير إبتغاء الفتنة وإبتغاء تأويله من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ

---

(١) الإحتجاج ١: ٣٧٦، وعنه في تفسير الصافي ١: ٣١٨، تفسير نور الثقلين للشيخ الحويزي ١: ٣١٣، تفسير كنز الدقائق ٢: ١٦.

(٢) علوم القرآن للسيد محمد باقر الحكيم: ٢٣٠.

أمُّ الْكِتَابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاّ اللَّهُ والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إلاّ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾[1].

وهذا رأي علماء التفسير: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾: طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه)[2].

وفي تفسير كنز الدقائق: (ابتغاء الفتنة: طلب أن يفتنوا أنفسهم والناس عن دينهم)[3].

وعلى هذا فإن هناك أنواعاً من الفتنة واجهها المسلمون وعلى أيدي مختلفة من الناس.

ومما يسترعي الإنتباه أن هذه الفِتَن تشقُّ عمقَ العقيدة، وتُحول كيان الدولة الحاكمة وتحيلها إلى ركام، وتأتي على الأخضر واليابس عمياء صماء، فتشيع الباطل، وتُنَمّي المنكر، وتزيد في البلوى وهل بعد هذا كله إلاّ المواجهة وحمل السيف.

علماً إن المؤمن ـ ولعله بما للفتنة من أخطار ومداهمة ـ يلجأ بكل ثقله إلى الله تبارك وتعالى، ويطلب منه أن لا يكون غرضاً للفتنة، أويكون هدفاً لأهلها ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ

---

(١) آل عمران: ٧.

(٢) التفسير الأصفى للفيض الكاشاني ١: ١٣٨، تفسير الميزان للسيد الطباطبائي ٣: ٢٣، تفسير أحكام القرآن للجصاص ٢: ٤.

(٣) كنز الدقائق للميرزا محمد المشهدي ٢: ١٧.

الظَّالمين﴾[1]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2].

وسيأتي في نهاية البحث في الجانب الأخلاقي هل فعلاً هناك فساد وهناك فتنة إضطر الرسول ﷺ لمواجهتما بالقتال وخوض الحروب، ثم كيف كان ذلك، وهل أعطى ثماره أم لا.

الأساس الثاني:

في ردع الظلم والبغي والطغيان

أعتقد أنّ من الواضح كم هي كراهية الإسلام للظلم، وكم هو مقته للظالمين، وكم هو صارم معهم في التعامل، وفي إصدار الأحكام، وفي الموقف الأُخروي.

إن العقل البشري يقبل باتخاذ أشد العقوبات مع الممارسين للظلم؛ لأنه مما يستقبحه، ويستفظعه، ويأنف الرضى به، والإقرار بسلوك الفاعلين له.

وإن المطالع للقران الكريم يجده مشحوناً في ذم الظلم، حيث يَعرِضُه بأشكال متعددة تستوجب تركه وعدم الدنو منه، بل والوقوف بوجه أهله أجرء المواقف وأكثرها خشونة، ولو تناولنا الآيات القرآنية وطالعنا معانيها في الجملة لوجدنا أن القرآن الكريم يمقته أشد المقت، ويعلن عليه الثورة العارمة ويدعو إلى اجتثاث شامل له، ويبين لنا السلوك الذي يجب أن تسير عليه البشرية، وخصوصاً المؤمنين بالله.

وبودنا أن نستوضح هنا عدّة نقاط:

---

(١) يونس: ٨٥.

(٢) الممتحنه: ٥.

النقطة الأولى: التحذير من الظلم

فالقرآن الكريم يعرض لنا مقدار الرعاية الإلهية للمجتمع البشري، بوصفه كاشفاً عن المفهوم أو الحكم الإلهي، وكاشفاً ولو تلميحاً عن بعض نقاط القوة والإخفاق في المسار التاريخي للإنسان.

فقد وضّح لنا القرآن أن المولى تبارك وتعالى راعى العنصر الإنساني، وحذره من الوقوع في الظلم في أول وهلة من وجوده، ولَعَلَه أول تحذير لأول مخلوق هو تحذيره من الوقوع في الظلم.

والتحذير نفسه بما هو تحذير، وعن الظلم بالذات كاشف لنا عن حجم العناية الربانية، والمقدار الذي تسترعي فيه الذهن البشري، والنفس الإنسانية الإنتباه إلى هذا المعنى وبخصوصية عالية.

وفي الواقع كل الآيات التي تحدثنا عن الظلم، تحمل معنى التحذير منه بشكل من الأشكال، وأن القارئ للآيات التي تحدثنا عن الظالمين وكل ما هو متعلق بمفهوم الظلم يتوجس في نفسه خيفة من الظلم، ومن أن يكون من الظالمين ويتراجع ويستغفر الله في ما لو كان مارس الظلم بدرجة ما.

ويعتقد أن الآيات تخاطبه بلسان التحذير والتخويف والإنذار الشديد، نعم كل الآيات تحمل هذا المعنى تقريباً، لكنه قد نلمس هذه المعاني وهي أكثر تركيزاً في التحذير والتخويف عند ما نقرء الآيات على وجه خاص.

منها: آيات التحذير المباشر من الوقوع في الظلم:

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

---

(١) البقرة: ٣٥.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٣).

وغيرها من الآيات المباركة التي تحمل عنوان التحذير من الظلم. ونحن نرى التنوع في هذه الآيات الخمس المباركة وعلى إختلاف المخاطبين فيها.

ففي الأولى: كان الخطاب موجهاً لأول أنبياء الله وأول مخلوقاته البشرية، وإلى زوجته، إنه خطاب إلى آدم النبي وحواء القرينة والزوجة.

---

(١) البقرة: ١٤٥.

(٢) يونس: ١٠٦.

(٣) النساء: ٩ ـ ١٠.

والآيات الثانية والثالثة: موجهة إلىخاتم الأنبياء أو إلى البشرية من خلاله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[1] إنها موجهة إلى أكمل خلق الله وسيد رسله، تحذره من الوقوع في الظلم ولو على سبيل أن يدعو ﷺ ـ وحاشاه ـ من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره. نعم فهذا وحده كافٍ في القائه بخندق الظالمين.

والآية الرابعة: الخطاب فيها موجه إلى عموم المؤمنين محذراً لهم من أن يظلموا أنفسهم بمجرد أن يتصرفوا خلاف الحدود الشرعية المنـزلة، وذلك بعلائقهم مع المرأة بما هي زوجة، ثم يُراد طلاقها، فلابد من رعاية حق الله فيها، وإلاَّ فالوقوع في المستقبح المحرم.

وفي الآية الخامسة: خطاب أعم من الذي قبله وهو صالح لمخاطبة البشرية بأسرها في ضرورة رعاية اليتيم القاصر حتى يتم عقله ويكمل بلوغه.

إذن جميع فصائل الخلق مخاطبة، النبي والرسول، والمؤمن والمؤمنة، وكل الخليقة باختلاف مراتبها العقلية، ومستوياتها الإجتماعية مخاطبة بنبذ الظلم، والإحتراز منه، والفرار من محيطه.

وعلى مختلف المجالات التطبيقية له إن كان عبادة لغير الله، أو دعوة لذلك المعبود الباطل، أو الوقوع في مصائد الشيطان وحبائله ولو كان أكلاً من شجرة كما في قصة آدم وحواء، أو كان أكلاً لمال اليتيم بالباطل، أو إتباع طريقة باطلة وقبلة صنعتها الأهواء، أو الإمساك بامرأة ضراراً بها.

كل هذه الأمثلة المتنوعة والموحية أن بعدها أمثلة كثيرة موجبة للظلم جميعاً ويجب الحذر منها والإبتعاد عن التمثل بها.

---

(١) سبأ: ٢٨.

إنها آيات مشبعة بالتحذير من الظلم، ومصرحة به وملزمة للناس في ضرورة الهرب من ظله أو مجاله.

النقطة الثانية: اتخاذ العبرة من الظلم والظالمين

والقرآن الكريم إذ يوجه الناس إلى إجتناب الظلم، ويحقر الظالمين في أعينهم، يدعوهم في الوقت نفسه إلى متابعة آثار الظالمين، والوقوف على خربة أعمالهم، وأطلالها الفانية؛ لكي يكون ذلك أدعى في الإعتبار وأولى في الإتعاض وقبول الرشد الإلهي.

فالإنسان بطبعه تستفزه الأشياء وتثيره بقايا الهالكين، وتوقظ عنده الإحساس بالمراجعة، فإن كان عَمِل سُوءاً ندم، وإن كان خيراً سَلِم، ولعل هذا الأسلوب القراني نافع لذوي الميل المادي، والنـزعة التجريبية، والراغبين في مباشرة الأشياء بالحس، فضلاً عن أصحاب النفحات الروحية والقلوب الصافية، قال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾[1].

فالآثار الشاخصة للظالمين كافية لأن تدعوهم، وكافية لأن تُشبِع حسَّهم، وكافية لأن تتجاوب مع نـزعتهم، تلك الآثار التي تكمن ورائها أحداث، وبجريات، وتاريخ طويل، يكمن ورائها عائلة مشردة، وبريء معدوم، وآخر سلب حقه بغير حق.

وأناس نهبوا، واخرون قتلوا، وعذارى إفتضت، وصبيّة شرقوا بالموت الزؤام، وعجائز وشيوخ أكبّهم الهضم والذل على جثث قتلاهم، وعلى ركام حقهم المنتهب.

ويقف فوق كل ذلك طاغٍ يرقص جذلاً بظلمه، وبهلوان يعزف له

---

(١) ابراهيم: ٤٥.

أكاذيب المترفين، إنه الظلم الذي يغلق آذان الظالمين عن كل حقيقة وتعزف عنها بعلم أو دون علم، ويصد بطغيانه عن آلاء الله فاعتبروا يا أولي الألباب.

ويؤكد المولى سبحانه في مقطع آخر: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[1].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[3].

وقد لا تكون للظالمين آثار، ولكن لدينا منهم أخبار فليكن اتعاضنا بما نرى من آثارهم، وبما نسمع من أخبارهم.

قال عزّ وجل: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[4].

---

(١) يونس: ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) القصص: ٣٨ ـ ٤٠.

(٣) النمل: ٥٢.

(٤) آل عمران: ١٤٠.

النقطة الثالثة: عدم عذر الظالمين يوم الدين

وقد كان هذا النوع من التعبير القرآني وهو التعبير بالآيات التي تمثل الظالمين يوم الدين وهم نادمون معتذرون، ولكن لا يُقبل لهم عذر، ولا تؤخذ منهم فدية، ولا يعطون أي مجال لتغير الحال.

ونعتقد أنها من أبلغ المواعظ القرانية فالإنسان قد يخطئ فيعتذر ويقبلُ عذره، ويرتكب الجريمة وقد يقبل منه العذر، فقبول العذر يكون أحياناً طريقاً للإستخفاف بارتكاب جريمة أخرى وضياع للحق الأول المرتكبة بحقه تلك الجريمة.

أما عندما يفقد الأمل من وجود سبيل للعفو عنه، أوقبول أعذاره فإنه سيكون حذراً جداً في إطار الإقدام على أي ممارسة تخالف الوضع القانوني المفروض، فكيف لو كانت العقوبة إلهية ودائمة وأخروية ولا يُقبَل فيها عذر وهي من العنوان البغيض عند الله، فسوف تكون آيات عدم قبول عذر الظالمين بالغة التأثير في نفوس الناس بإزاء الجريمة والظلم وعدم قصده أو المساهمة في أدناه.

لأنه لاعذر فيقبل، ولا طاقة بالعذاب فيحمل، إلى الحد الذي يرجوا أهل الأعراف وهم في أقبيتهم وماأودع في نفوسهم من طمأنينة يرجون الله تبارك وتعالى أن لا يجعلهم مع القوم الظالمين، والحال هم من أهل الخلد المنعمين، مما يستدعي التأمل بأن ما يجري من العذاب على الظالمين في غاية الشدة.

وكذا ما هم فيه ـ أي أهل الأعراف ـ من النعيم ورغد العيش بحيث يخافون من أن يفقدوه ولو على سبيل التصور، كل ذلك في الحوار الذي يصوره القرآن عن أهل الأعراف.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ

وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1]. وهنا من الواضح أن أصحاب الأعراف نادوا أصحاب النار جميعاً بأنهم ظالمون، مما يعني أن كل مخالفة ومهما كانت، هي في الحقيقة ظلم بالمعنى الأعم.

النقطة الرابعة: نفي الظلم عن ساحة الرب الجليل

وكونه منتفياً عنه سبحانه فهذا يعني أنه قبيح، إذ لا يجتمع جمال العدل مع قبح الظلم في ساحته الشريفة هذا من جهة.

وكونه ـ أي الظلم ـ منتفياً عنه تعالى فيه إشارة واضحة لكافة خلق الله بأن لا يمارسوه إذ هو ليس من أخلاق الله، وقد ورد في الأثر: «**تخلقوا بأخلاق الله**»[2].

وفيه من جهة ثالثة الرضى والإطمئنان إلى ذات الله؛ لأنه تعالى يستقبح الظلم فيفرح بذلك المظلوم لأن الله تبارك اسمه سيثأر لظلمه.

وفيه التخويف والوعيد للظالم، لأن الله تبارك إسمه سيؤاخذه على ظلمه، وفيه على كل الأحوال أبلغ المواعظ وأشدها تحذيراً للعباد من الظلم، لأنه لو كان فيه خيراً لما خلت ساحة الله تعالى منه، ولكن لاخير فيه ولا بركة إذ هو محض شر وضر وأذى.

ثم لا يصح أن يعاقب الظالمين على ظلمهم مع افتراض كونه ـ حاشاه ـ

---

(١) الأعراف: ٤٦ ـ ٤٧.

(٢) كتاب المباهلة للسيد عبد الله الحسيني: ٧٢، بحار الأنوار للمجلسي ٥٨: ١٢٩، مجموعة الرسائل للشيخ لطف الله الصافي ٢: ٤٥٣.

ظالماً لأن هذا قبح آخر غير الأول الّذي هو قبح الظلم بذاته، ثم لايكون قيمة لكلامه تعالى في ردع الظلم واستنكاره، مع كونه سبحانه يمارسه.

والقرآن الكريم يطرح هذه المسألة بوضوح، وينفيها عن الله بقوة، ويمكن أن نقول بجزم أنه لاموضوعية للظلم عند الذات الإلهية المقدسة، إذ موضوع الظلم متحقق عند الإنسان بلحاظ كونه ضعيفاً يخاف من فوات الأشياء المرغوبة لديه، ولأسباب أخرى كان بها ظالماً طاغياً، أما القوي الجبار والمدرك والذي لاتدركه الأبصار فلا معنى لأن يكون ظالماً.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١).

وآية اخرى تؤكد هذا المعنى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (٣).

---

(١) آل عمران: ١١٧.

(٢) هود: ١٠١ ـ ١٠٢.

(٣) هود: ١١٧.

وقال جلّ وعلا: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ (٣).

وقال عزّ من قائل: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (٤).
وكثيرة هي الآيات التي تنفي الظلم عن المولى تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة وهي أيضاً من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى مزيد بحث وتأمل.

إذن فالعقل بما هو عقل وعند أي إنسان كان، يحكم بقبح الظلم، وإنما يكون حكم العقل بقبح الظلم وأمثاله لأنه من جملة الثوابت في العقل البشري، وهذا الذي ذكرناه في مقدمة البحث في التعريف بالملاكات.

وقلنا عنه أن هناك ثوابت عند العقلاء لا يختلف عليها اثنان فالعدل حسن عند الجميع، والظلم قبيح عند الجميع، والأحداث كثيرة تلك التي جرت في التاريخ والتي استنكرها الناس لأنها ظلم، وثاروا عليها في عهود غابرة، وحاولوا جاهدين تغييرها ولو أتينا عليه لاحتجنا إلى مُؤَلَّفٍ خاص بها.

---

(١) آل عمران: ١٠٨.

(٢) غافر: ١٧.

(٣) غافر: ٣١.

(٤) الزخرف: ٧٦.

وخلاصة هذه النقاط السابقة هو ضرورة بيان السلوك الذي يجب أن تكون عليه البشرية، وخصوصاً المؤمنين بالله تعالى، وبيان عظيم إستقباح الدين المحمدي للظلم، وسعيه لمكافحتهِ، وإزالة أسبابه وقمع أصحابه؛ لتخلص بهذه النتيجة الهامة.

وهي دعوة الإسلام الصريحة إلى محاربة الظلم، وإيقاف كيد الظالم وشل جميع مساعيه، وهذه الدعوة جاءت على سبيل الوجوب الشرعي، والأمر الإلهي المتشدد.

والمتخلف عنها أصاب كبيرة تدخله النار، ويستحق عليها العار والشنار.

إذن الإسلام أعلن الحرب، نعم الحرب الحقيقية ضد الظلم وأعطى الصلاحية للمؤمنين في استخدام السلاح لقلع جذوره بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1].

مما سوف يأتي تفصيله إن شاء الله تعالى وعندها سنعلم أن المسلمين لّما قاتلوا؛ إنما قاتلوا لرد الظلم الذي أصابهم وأصاب البشر بسبب وجود ظلاّم قريش وظلمهم المستمر للمؤمنين بكل صنوف الظلم والإعتداء.

الأساس الثالث:

في صدّ النفاق وردع المنافقين

قبل أن ندخلَ في مبحث النفاق لا بد لنا أن نعرّف النفاق لغوياً، لكي يكون المقصود من كلامنا حول النفاق والمنافقين واضحاً.

قد جاء في كتاب العين: (والكفر أربعة أنحاء: كفر الجحود: مع معرفة

(١) الحج: ٣٩.

القلب كقوله عز وجل: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ وكفر المعاندة: وهو أن يعرف بقلبه، ويأبى لسانه. وكفر النفاق: وهو أن يؤمن بلسانه والقلب كافر. و كفر الإنكار: وهو كفر القلب واللسان.)[١].

وقال عنه الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة مُعرفاً أهل النفاق ومحذراً منهم: (أُوصيكم عباد الله بتقوى الله. وأحذركم أهل النفاق فانهم الضالون المضلون، والزالون المزلون. يتلونون ألوانا ويفتنون إفتناناً، ويعمدونكم بكل عماد، ويرصدونكم بكل مرصاد.

قلوبهم دوية، وصفاحهم نقية، يمشون الخفاء، ويدبون الضراء وصفهم دواء، وقولهم شفاء، وفعلهم الداء العياء.

حسدة الرخاء، ومؤكدة البلاء، ومقنطو الرجاء. لهم بكل طريق صريع وإلى كل قلبٍ شفيع، ولكل شجو دموع. يتقارضون الثناء ويتراقبون الجزاء.

إن سألوا ألحفوا، وإن عدلوا كشفوا، وإن حكموا أسرفوا. قد أعدوا لكل حق باطلا، ولكل قائم مائلا، ولكل حي قاتلا، ولكل باب مفتاحاً، ولكل ليل مصباحا.

يتوصلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم، وينفقوا به أعلاقهم، يقولون فيشبهون، ويصفون فيموهون. قد هونوا الطريق، وأضلعوا المضيق.

فهم لمة الشيطان وحمة النيران، أُولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون)[٢].

---

(١) كتاب العين للخليل الفراهيدي ٥: ٢٥٦ وكذا النهاية في غريب الحديث ـ لابن الاثير ٤: ١٨٦، والآية ١٤ من سورة النمل.

(٢) نهج البلاغة ـ خطب الإمام علي عليه السلام ٢: ١٦٦.

لقد كان المظهر النفاقي الذي مارسه بعض مَن حُسِب على الإسلام في زمن رسول الله ﷺ من المكيين والمدنيين، والمدنيين بشقيهم من مسلمي المدينة ومن يهودها، له أبلغ الأثر على طبيعة الحركة الرسالية واستقرار الدعوة الالهيّة.

لقد انتقل الرسول وهاجر من مكة ـ حيث عداء المشركين وتآمرهم كحالة معلنة ومعروفة ـ إلى المدينة، حيث عداء المنافقين وكثرة دسائسهم وبشكل معلن ومفضوح.

إن التجربة التي خاضها الرسول مع مشركي مكة في المواجهة والتحمل واحتواء الوضع وتسيير الأمور بما يوافق المصلحة السياسية الإسلامية، هي نفسها التي يخوضها في المدينة، ولكن مع أناس يحملون عنواناً آخر، هو في الحقيقة أخطر من الأول بكثير.

كان النفاق يعني التهديد الدائم لكل مخططات الرسول وكل برامجه الإصلاحية والتغييرية، التي يريدها أن تشيع وتنتشر في العالم أجمع، ووجود المنافقين يعني وجود طابور خامس يهدد المدينة بمسجدها وأهلها، بديارها وقائدها، بجندها ونظريتها، وبكل ما فيها من معالم الاسلام الذي يجدّ الرسول في رسمها ليل نهار.. بنشاط وهدوء، يهدّد ذلك جميعاً بالدمار والتخريب.

فاذا كان المشركون قد نالوا من جسد رسول الله وجسد أصحابه في مكة وهم يتلذذون بهذا العذاب في جنب الله وإن كان مؤلماً فانهم ـ أي المنافقين ـ ذهبوا إلى مبلغ آخر في المدينة وإلى مدى أوسع إيلاماً وأذى، والأكثر من هذا إنهم ينالون من نفوس المؤمنين وينخرون طاقاتهم بمساعيهم الخبيثة.

إن أشد ما واجهه الرسول ﷺ ليس من التحالف القريشي مع الغير فهو أمر معروف، وواضح، ومطروح في ساحة المواجهة وعلى كل صعيد، وليس

من تلك الجيوش الغازية المُعَدّة، وليس من محاولات الغدر الخارجي.

إنما هو بكل تأكيد من أولئك الذين يشتغلون بخفاء وسرية، وبتخطيط مبرم مع اليهود والمنافقين والمشركين، دون علم أحد بهم، ودون معرفة واقع تحركهم. فالمنافق حتى لو كان مكشوفاً كمنافق لكنه قد يصعب كشف ما ينوي عمله في سلسلة براجحه النفاقية.

وهذا كان أشد وطئاً على رعيل الايمان، وأبلغ في رسم الآثار على أرض دولة الرسول الفتية، مما يعني صرف همة الرسول الأكرم عن خارج مدينته، وإشغاله عن غايته في إصلاح الناس، بل محاولة إيقاعه في كل ما من شأنه أن يخلط عليه الأوراق، ويقبر جهده ويزيل دولته إلى الأبد.

وفاتهم أن الرسول الأعظم ﷺ مسدد، ومفرط الذكاء، وقدرته فوق عقولهم المنكسة في النفاق، أو ربما حاولوا أن يقنعوا أنفسهم أنه ليس أفضل منهم في شيء، ولم يكن له الحق في شيء وإن لم يفتهم أنه نبي.

خاصة أن رأسهم المدبر كان ـ قبل قدوم الرسول مهاجراً إلى المدينة ـ مرشحاً لقيادة يثرب، وتَسَنُّم كرسي الأمر والنهي فيها وهو عبد الله بن أُبَي بن سلول زعيم الخزرج، وحليف بني قينقاع من يهود المدينة.

ولا نقول إن كل ذلك كان شراً في وجه الرسول الكريم ﷺ، ولا خير فيه ولا نفع، بل نقول فيه ما يصطلح عليه قرآنياً: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[1].

فهذا النفاق فتح عيون المسلمين على طبيعة تعامل جديدة وأمراض خطيرة قد تصيب الجسم الإسلامي، وفتحت عيونهم في كيفية التعامل معها ومعالجتها وأضافت لهم خبرة في معرفة النفس الإنسانية بكل

---

(١) البقرة: ٢١٦.

تعقيداتها الموحشة.

بل لعل وجود المنافقين كان سبباً في تثبيت الكثير من المفاهيم الدينية وتمحيص الدولة الجديدة وإرساء أساسها على ركن ركين.

ولعل الحديث يطول في مجال التفصيل بذلك.

إن القرآن الكريم أنـزل سورة كاملة بإسمهم مما يعني مقدار المساحة التي يشغلونها في الواقع والمجال الذي يتحركون فيه بالمستقبل، إن الآيات التي ذكرت المنافقين وبالذات سورة المنافقون تعتبر إدانة تاريخية باقية إلى يوم الدين لعمل هؤلاء.

فسورة المنافقون جاءت تتكلم بصيغة الفضح للمنافقين، وتبيين مسالكهم وتكذيب اقوالهم وتحذير الرسول منهم، وتقصيهم مِن دائرة الإسلام والإيمان بالله، وتُفْشِل إدعاءاتهم، وهي تفصّل في ذلك من بداية السورة المباركة إلى النهاية المحذرة للمؤمنين من بعض الأفعال التي لها صلة بخُلُق المنافقين الآنفة في السورة الشريفة.

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [1].

---

(١) المنافقون: ١ ـ ٤.

وتوالت الآيات والتنبيهات على رسول الله ﷺ، بقدر تلك الطموحات التي كانت تشغل ذهن المنافقين، والاحلام التي تدغدغ خيالهم المريض، بقدرها لا أقصد بعددها أو حجمها.

وإنما أقصد أن القرآن طارد هؤلاء وحاصرهم من كل الجهات بالوقت الذي يسعون فيه بجد لإتعاب الرسول الأكرم ﷺ وإنهاء اطروحته المباركة.

ولقدناقش القرآن الكريم مسألة النفاق والمنافقين باستفاضة وتفصيل وسنحدد بعض مباحثه بالعناوين التاليه:

المبحث الأول:

توضيح ملامح شخصيات المنافقين ومميزاتهم السلوكية

إن تحديد شخصية ما ومعرفة قيمتها في الجانب العقيدي والاجتماعي يتوقف على النظر إلى سلوكيات تلك الشخصية وأُطروحاتها ولياقتها الأخلاقية في جميع أدوارها الحياتية، إلى غير ذلك مما نحتاجه في مجال التقييم لها.

ولقد كان القرآن يوضح المنافقين من خلال ذلك كله، مطعّماً قوله بتوثيق بعض سلوكياتهم والإشارة الى المفارقات فيها؛ للتدليل على الحالة النفاقية المستحكمة فيهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾[1]، مبيناً ما يربض في اعماقهم من تعالٍ وتكبر على الله ورسوله، وهم الذين يعلنون ولائهم لهما في الظاهر: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[2].

---

(١) النساء: ٦١.

(٢) آل عمران: ١١٨.

إنهم يصدون عن الرسول ﷺ وهو الحاكم والقاضي بين المسلمين وكهفهم في حل مشاكلهم؛ لكي يؤكدوا عدم ارتباطهم به عملياً، وعدم رغبتهم بقبول أحكامه.

إنه الانفصال المبدئي غير المعلن، وقد أكد القرآن ذلك بالمفعول المطلق: ﴿صُدُودًا﴾ الذي يفيد التأكيد وفق قواعد اللغة العربية، وذلك في الآية الآنفة الذكر من كتاب الله الجليل والتي كان سبب نـزولها كما قال الشيخ الطبرسي في مجمع البيان: (كان بين رجل من اليهود، ورجل من المنافقين، خصومة، فقال اليهودي: أحاكم إلى محمد، لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة، ولا يجور في الحكم.

فقال المنافق: لا بل بيني وبينك كعب بن الأشرف، لأنه علم أنه يأخذ الرشوة، فنـزلت الآية، عن أكثر المفسرين)[1].

والحرمة كما هو معلوم ليس فقط في الصدود عن رسول الله والذهاب إلى غيره في الحكم، وقد أمروا بالرجوع إلى رسول الله في نـزاعاتهم وأن لا يجدوا في انفسهم حرجاً من قضاء الرسول ﷺ فيما بينهم فضلاً عن قبوله.

قال الله تبارك تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[3].

وإنما في حرمة الرشوة في الحكم، وقد قبل المنافق حكومة كعب بن

---

(١) مجمع البيان للشيخ الطبرسي ٣: ١١٦.

(٢) النساء: ٦٥.

(٣) النساء: ٥٩.

الأشرف لأنه يقبل الرشوة. وقد ورد أيضاً عن الشيخ الطبرسي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾: (سمى الله كعب بن الأشرف طاغوتاً لإفراطه في الطغيان وفي عداوة رسول الله ﷺ، أو على التشبيه بالشيطان والتسمية به.

أو جعل سبحانه اختيار التحاكم إليه على التحاكم إلى رسول الله تحاكماً إلى الشيطان بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾)[1].

ويترجم القرآن حالة الصدود أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[2].

ومن صفاتهم أنهم كانوا يلمزون المؤمنين، أي يعيبونهم ويبتزونهم بالقول، وكأنهم غاصوا في أعماقهم واستكشفوا نواياهم التي لا يعلمها إلاّ الله ورسوله، فهم يتهمون البعض بالرياء، والآخر بالشح، أو الإقلال كما حدَّث عنهم تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

---

(١) تفسير جوامع الجامع للشيخ الطبرسي ١: ٤١٢، والآية في سورة النساء: ٦٠.

(٢) المنافقون: ٥.

(٣) التوبة: ٧٩.

وأحسب إن هذا النوع من السلوك والاتهام للمؤمنين إنما جاء للتغطية على شحهم وبخلهم ونفاقهم، خصوصاً أن الآية السابقة كانت تتكلم في إطار هذا المعنى.

قال جل جلاله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[1].

إذن هم أصحاب المعاناة الحقيقية، والابتلاء الأكيد، بخصلة الخسة والبخل[2]، والمخالفة لعهد الله وبالكذب والتولي مع الاعتراض، ولكن رأوا أن أفضل السبل للابتعاد عن الشبهات أن يلصقوها بالمؤمنين برسول الله ﷺ وإن كانوا صادقين بالعطاء، ولا يؤتون به إلاّ بطرق صعبة، وبعمل منهك وإن كان عطاءاً قليلاً.

هذا مع الالتفات بأنهم لم يشخصوا جميعاً بعد: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[3].

---

(١) التوبة: ٧٥ ـ ٧٨.

(٢) وقد وصفهم القرآن في موضع آخر بقوله: ويقبضون أيديهم، وفوق هذا يرون أيدي المؤمنين مع قلة المال مفتوحة سمحة سخية، فتمتلىء قلوبهم بذلك نكداً وسخطاً.

(٣) التوبة: ١٠١.

فقد ورد في مجمع البيان في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ﴾: (المعنى: ثم وصفهم الله بصفة أخرى، فقال: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ أي يعيبون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتطوعين بالصدقة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويطعنون عليهم ﴿فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ﴾ أي: ويعيبون الذين لايجدون إلاّ طاقتهم فيتصدقون بالقليل.

قيل: أتاه عبد الرحمن بن عوف بصرّة من دراهم تملأ الكف، وأتاه عقبة بن زيد الحارثي بصاع من تمر، وقال: يا رسول الله عملت في النخل بصاعين، فصاعاً تركته لأهلي، وصاعاً أقرضته ربي.

وجاء زيد بن أسلم بصدقة، فقال معتب بن قشير، وعبد الله بن نبتل[1]: إن عبد الرحمن رجل يحب الرياء ويبتغي الذكر بذلك، وإن الله غني عن الصاع من التمر، فعابوا المكثر بالرياء، والمقل بالإقلال)[2].

وهنالك ميزة أو ميَز أخرى يعرض لها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[3].

ففي هذه الآية عرض لخصائص مادية وخصائص أُخرى معنوية، فهم

---

(١) وهما من المنافقين.

(٢) تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي ٥: ٩٦وانظر التبيان ٥: ٢٦٦، تفسير مجاهد ١: ٢٨٤.

(٣) المنافقون: ٤.

ذوو أجسام متكاملة في البناء وذوو فصاحة ونطق كامل البيان، فأجسامهم تعجب الناظرين، وكلامهم يعجب السامعين، فهم على منظرٍ مليح وباطن قبيح.

وبالوقت نفسه يشخص القرآن الكريم وبروعته المعهودة، أنهم يعانون من اضطراب عميق ودائم، وهو أنهم يتوقعون كل ما يقال إنما هو بخصوص المنافقين فهم معنيون به، ويمزقهم هاجس الخوف من نـزول قرآن فيهم يفضح أمرهم، ويكشف سرهم.

ولعل هذا الخوف المتواصل والذي سماه القرآن: ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ ساعد لا في كشفهم فقط، بل والتمكن منهم أيضاً، لأن التمكن من المكشوف الخائف ليس كالتمكن من المكشوف غير الخائف.

وأعلن القرآن أخيراً ـ أي في ختام الآية ـ قتاله ومتابعته لهم، أو قتال الله لهم بتعبير أدق.

وورد في تفسير الميزان للطباطبائي في قوله تعالى: (﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ...﴾ الخ، الظاهر أن الخطاب في ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ و﴿تَسْمَعْ﴾ خطاب عام يشمل كل من رآهم وسمع كلامهم، لكونهم في أزياء حسنة وبلاغة من الكلام، وليس خطاباً خاصاً بالنبي ﷺ.

والمراد أنهم على صباحة من المنظر وتناسب من الأعضاء، إذا رآهم الرائي أعجبته أجسامهم، وفصاحة وبلاغة من القول إذا سمع السامع كلامهم مال إلى الإصغاء إلى قولهم لحلاوة ظاهره وحسن نظمه.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ ، ذم لهم بحسب باطنهم والخُشُب بضمتين جمع خشبة والتسنيد نصب الشيء معتمداً على شيء

آخر كحائط ونحوه. والجملة مسوقة لذمهم وهي متممة لسابقتها.

والمراد أن لهم أجساماً حسنة معجبة، وقولاً رائعاً ذا حلاوة لكنهم كالخشب المسندة أشباح بلا أرواح لاخير فيها ولافائدة تعتريها؛ لكونهم لا يفقهون.

وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾، ذم آخر لهم أي إنهم لإبطانهم الكفر، وكتمانهم ذلك من المؤمنين، يعيشون على خوف ووجل ووحشة، يخافون ظهور أمرهم وإطلاع الناس على باطنهم، ويظنون أن كل صيحة سمعوها فهي كائنة عليهم وإنهم المقصودون بها.

وقوله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾، أي هم كاملون في العداوة، بالغون فيها فان أعدى أعدائك من يعاديك وأنت تحسبه صديقك.

وقوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ، دعاء عليهم بالقتل وهو أشد شدائد الدنيا وكأن استعمال المقاتلة دون القتل للدلالة على الشدة وقيل: المراد به الطرد والإبعاد من الرحمة)[١].

ويضيف ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾: (يقول جل ثناؤه: يحسب هؤلاء المنافقون من خبثهم وسوء ظنهم، وقلة يقينهم كل صيحة عليهم، لأنهم على وجل أن يُنزل الله فيهم أمراً يهتك به أستارهم، ويفضحهم ويبيح للمؤمنين قتلهم وسبي ذراريهم، وأخذ أموالهم.

فهم من ذلك كلما نزل بهم من الله وحي على رسوله، ظنوا أنه نزل بهلاكهم وعطبهم)[٢].

---

(١) تفسير الميزان للسيد الطباطبائي ١٩: ٢٨٠ـ ٢٨١

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري ٢٨: ١٣٧.

وميزة رابعة تشير إلى مخالفاتهم إلى سنة الله ورسوله بالجملة، فيسعون وراء كل منكر ويأمرون به ويتوقفون عن كل معروف، وينهون عنه، وبذلك يكونون من أشد المبارزين لله ورسوله ولشرعه وحكمه، وأكثر الأعداء تجرؤاً على هدم الإسلام وتحطيم قواعده الأخلاقية والدينية أجمع.

وهم مع هذا يكمّل بعضهم عمل بعض ويتعاونون على توحيد جهودهم في هذا المجال لأن النفاق بعضه من بعض، والمنافقون المنفذون له كذلك.

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1]: (يقول تعالى ذكره: المنافقون والمنافقات وهم الذين يظهرون للمؤمنين الإيمان بالسنتهم ويسرّون الكفر بالله ورسوله بعضهم من بعض يقول: هم صنف واحد، وأمرهم واحد، في إعلانهم الإيمان واستبطانهم الكفر.

يأمرون من قبل منهم بالمنكر، وهو الكفر بالله وبمحمد ﷺ وبما جاء به وتكذيبه، وينهون عن المعروف يقول: وينهونهم عن الإيمان بالله ورسوله وبما جاءهم به من عند الله)[2].

والحق أنّ هناك الكثير من أمراضهم وسوؤاتهم الأخلاقية والنفسية لم يكن قصدنا هنا عرضها جميعاً.

---

(١) التوبة: ٦٧.

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري ١٠: ٢٢٢، وانظر قريباً منه في التبيان للطوسي ٥: ٢٥٣.

والقرآن الكريم والسنة المحمدية المباركة فصَّلا لَنا ذلك، إنما اكتفينا هنا بالإشارة إلى بعضها للتدليل عليها، وحسبنا ذلك.

المبحث الثاني:

تحذير القرآن منهم وتحذيرهم أنفسهم

لقد حذر القرآن الكريم والرسول الأعظم ﷺ من المنافقين ووجه أنظار المسلمين إلى غائلتهم وشرورهم في أكثر من آية ومن موقف، وجاء التحذير الإلهي للرسول مباشرة: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [1].

ومعلوم إن العدو يُحذر منه ولكن لا نقول إن كلمة ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾ تحصيل حاصل، لأنهم بهذا المقدار من استحكام العداء والإندفاع في الإيذاء، بحيث يؤكد القرآن على رسوله ضرورة الحذر منهم، وعدم التفريط بسقطاتهم.

وذلك لانهم شائبة غريبة على المحيط الديني، وثغرة خطيرة في الصرح الإيماني تريد كسره والنيل منه، والذي يُخاف منه ويدعوا إلى القلق هو قدرتهم في إضمار ما يريدون، وتلبيسه بما يخالفه، مما يدعوا إلى عدم معرفته الاّ بطرق صعبة قد لا يتيسر ذلك للمسلمين معرفتها بسهوله، أو تدخلهم في مداخل أُخرى موجبة لأمور هم في غنى عنها.

وهذا الخفاء يتوقع من خلاله أن يبادروا الدين ببادرة الطعن فيه، والتمزيق له. ثم إنهم لم يكونوا وجوداً طارئاً يمكن أن يزول ميكانيكياً، إنما له امتداد واسع، وصدى مسموع، وخصوصاً بالنسبة لمجتمع المدينة المحصور والقليل العدد، ولانهم على تماس مع المؤمنين بفعل الإمتزاج الإجتماعي، والوحدة المكانية، كان القرآن يخشى على المؤمنين أن يكتسبوا

---

(١) المنافقون: ٤.

أو يصابوا بأمراض المنافقين.

ونقول إنه لا يستبعد وجود ارتباطات سرية بين المجموعات المُعلنة للإسلام نفاقاً من اليهود وبين اليهود، الذين لم يدخلوا في الاسلام أو النصارى.

ونلاحظ ذلك في قصة بناءهم المسجد بذي أوان كما جاء عن ابن كثير: (وذكر ابن إسحاق كيفية بناء هذا المسجد الظالم أهله وكيفية أمر رسول الله ﷺ بخرابه مرجعه من تبوك قبل دخوله المدينة، ومضمون ذلك أن طائفة من المنافقين بنوا صورة مسجد قريبا من مسجد قباء وأرادوا أن يصلي لهم رسول الله ﷺ فيه حتى يروج لهم ما أرادوه من الفساد والكفر والعناد، فعصم الله رسوله ﷺ من الصلاة فيه.

وذلك أنه كان على جناح سفر إلى تبوك، فلما رجع منها فنزل بذي أوان ـ مكان بينه وبين المدينة ساعة ـ نزل عليه الوحي في شأن هذا المسجد وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[(1)] الآية.

أما قوله: ضراراً فلأنهم أرادوا مضاهاة مسجد قباء، وكفراً بالله لا للايمان به، وتفريقاً للجماعة عن مسجد قباء وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وهو أبو عامر الراهب الفاسق قبحه الله وذلك أنه لما دعاه رسول الله ﷺ إلى الأسلام فأبى عليه، ذهب إلى مكة فاستنفرهم، فجاؤوا عام أحد فكان من أمرهم ما قدمناه، فلما لم ينهض أمره ذهب إلى ملك الروم قيصر ليستنصره على رسول الله ﷺ.

وكان أبو عامر على دين هرقل ممن تنصر معهم من العرب وكان

---

(١) التوبة: ١٠٧.

يكتب إلى إخوانه الذين نافقوا يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا، فكانت مكاتباته ورسله تفد إليهم كل حين.

فبنوا هذا المسجد في الصورة الظاهرة وباطنه دار حرب ومقر لمن يفد من عند أبي عامر الراهب، ومجمع لمن هو على طريقتهم من المنافقين. ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾)[١].

ولا يبعد أن يكون إسلامهم الظاهري هذا قد جاء على وجه التنسيق والتآمر ضمن تخطيط مسبق فصاروا مسلمين في الظاهر لتمثيل هذا الغرض.

قال ابن خلدون: (وتجهز الناس على ما في أنفسهم من استثقال ذلك وطفق المنافقون يثبطونهم عن الغزو وكان نفرٌ منهم يجتمعون في بيت بعض اليهود فأمر[٢] طلحة بن عبيد الله أن يخرب عليهم البيت فخربها)[٣].

ولا يبعد أن يكون إسلام بعض المسلمين في مكة والمدينة قد جاء على هذين الوجهين كما أثبتته الأحداث فيما بعد.

وعليه فلم يُحذِّر القرآن الكريم منهم فقط وإنما حذّرهم أشد التحذير بقوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾[٤].

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٧.

(٢) أي رسول الله ﷺ.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢٥ / ٢: ٤٩.

(٤) الأحزاب: ٦٠.

المبحث الثالث:

آثار المنافقين على المجتمع الديني

لقد ترك المنافقون آثاراً واضحة كثيرة في المجتمع الاسلامي آنذاك لأنهم قاموا بمهمات خطيرة تركوا من خلالها لمساتهم التحريفيّة على تاريخ المسلمين، وعلى طبيعة أحداثه، وادّت بشكل أو بآخر إلى إضعاف المسلمين، وتضعيف اندفاعهم وحماسهم في سوح المواجهة.

وبقيت ـ تلك الآثار ـ ولحد الان مجالاً لصراع المحققين، والمؤرخين، والمفكرين، فقسم يرى بعضهم أهل دين وإيمان، وآخر يراهم أهل كفر ونفاق وتجرئ على رسول الله ﷺ وعلى المولى تبارك وتعالى، إذن حتى نحن البعيدين عنهم زمنياً لم نسلم من آثار نفاقهم وسلوكياتهم الملتوية تلك.

فالذي يستقرئ تاريخهم في زمن الرسول ﷺ، ويطالع أحداثهم سوف يقف على ما تركوه من أثر على نفسية المسلمين فهم قاموا بمايلي:

أ: إثارة الشكوك حول رسول الله ﷺ

وحول صلته بالغيب ومحاولة الطعن بنبوته والإستهزاء بأخباره وقوله، وخصوصاً إن بعض المنافقين كانوا بالأصل يهوداً بل من أحبار اليهود.

فقد تحدث إبن كثير حول أساليبهم مما ينفعنا هنا في مجال تشكيكهم واثارة الضباب حول شخصية الرسول الأعظم ﷺ: (ثم ذكر إبن إسحاق من أسلم من أحبار اليهود على سبيل التقية فكانوا كفارا في الباطن فاتبعهم بصنف المنافقين وهم من شرهم، سعد بن حنيف، وزيد بن اللصيت وهو الذي قال حين ضلّت ناقة رسول الله ﷺ يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ: **«والله لا أعلم الا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها فهي في هذا الشعب قد**

حبستها شجرة بزمامها» فذهب رجال من المسلمين فوجدوها كذلك)[1].

فلو كان هذا مطمئناً إلى صدق رسول الله ﷺ، وإلى رعاية الغيب له وأنه نبي من أنبياء الله، وأنبياء الله في توفيق الله وتسديده، لَما قال ما قال، وقد صاغ كلامه بألفاظ وأُسلوب يدل على كونه مستنكراً على رسول الله ﷺ نبوته، ومعرفته واطلاعه، وضمَّنها في تساؤل ساخر واضعاً تلك المفارقة التي يريد لها الرفض وهي (خبر السماء).

أنظر ماذا قال: (يزعم) ولم يقل، يقول محمد، أو يتحدث محمد، أو ينقل محمد بل قال يزعم، وهي لفظة مشعرة بتكذيب القائل والرد عليه. و(يزعم محمد) من دون قوله رسول الله، أو نبي الله، أو غير ذلك مما يشعر بالإستهانة وعدم التقديس اللازم لمقام النبوة وجلال الرسالة.

ثم يُكمِل: (خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته)[2] على أن تساؤلاً من هذا النوع ـ وحتى لو كان مطروحاً بأسلوبٍ مؤدب، وبيان جميل ـ يحمل صفة الإعتراض على النبي الأقدس فما بالك وهو يطرح بصيغة الاستهزاء من الرسول الأكرم ﷺ، لذلك لا يصح من المؤمن بحال.

لأن المؤمنين معروفون في التسليم لما يقوله الرسول، والقبول منه بكل شيء وعدم الرد أو النقض عليه ﷺ، وبذلك يُسْمَون مؤمنين مسلمين.

ولننظر إلى رجل آخر من المنافقين والذي ذكره صاحب البداية والنهاية:

---

(١) البداية والنهاية تحت عنوان: (في إسلام بعض أحبار يهود نفاقاً) ٣: ٢٩٤، سيرة ابن هشام ٢: ٣٦٩، عيون الأثر ١: ٢٨٠، السيرة النبوية لابن كثير ٢: ٣٤٩، ومثله في موسوعة التاريخ الاسلامي ٢: ٥٨٩.

(٢) وقد جاء في كتاب المغازي٣: ١٠١، قول إبن اللصيت لما وجدوا ناقة الرسول ﷺ على ما وصف هو ﷺ لكأني لم أسلم الاَّ اليوم! قد كنت شاكاً في محمد).

(كذلك الجلاس بن سويد بن الصامت الأنصاري وفيه نـزل: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾[1].

وذلك إنه قال حين تخلف عن غزوة تبوك لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شرٌ من الحمر، فنماها إبن إمرأته عمير بن سعد إلى رسول الله ﷺ فأنكر الجلاس ذلك وحلف ما قال فنـزل فيه ذلك)[2].

فهو إلى الآن لم يدرِ أصادق محمد ﷺ أم ـ حاشاه ـ كاذب، وهذا الشك هو التكذيب بعينه إذ ليس لدينا في مسألة تصديق النبي وتكذيبة منطقة وسطى، أما أن يصدقوا وأما أن يكذبوا: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[3].

وبهذا التكذيب استحق الطرد من العصبة الدينية، والإنفكاك من العروة الإسلامية، حيث يقول عنه تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾[4].

ب: إثارة التهم على المسلمين

وهذا نوع آخر من الدروب التي سلكها المنافقون، ولون من ألوان تعاملهم مع الحاله الإسلامية، بل الإسلامية القتالية وهي دروب كثيرة لكن أشدها أذى حتماً، والمسلمون يخوضون المعارك وينازلون الأعداء،

---

(١) التوبة: ٧٤.

(٢) البداية والنهاية ٣: ٢٩١، السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٣٤٤، وانظر سيرة ابن هشام ٢: ٣٦، عيون الأثر ١: ٢٧٨.

(٣) يونس: ٣٢.

(٤) التوبة: ٧٤.

وهناك حيث صليل السيوف وتقاذُف الحتوف.

والأمر بعدُ غير محسوم، ولصالح من سيكون النصر أو الهزيمة؟ وهؤلاء ينتهزون الفرص لإثبات الذات، وإيذاء المسلمين، يتهمون هذا ويبتزون ذاك وينالون من ثالث نيلاً، ويخططون في كيفية قصم شوكة الدين وكسح المسلمين.

ففي غزوة تَبوك حيث ذهب المسلمون للحرب وتجهزوا لها (وخلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلفه الا إستثقالاً له وتخفيفاً منه.

فلما قالوا ذلك أخذ علي عليه السلام سلاحة ثم خرج حتى لحق برسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف فأخبره بما قالوا.

فقال: **«كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك أفلا ترضى ياعلي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلاّ إنه لا نبي بعدي»**، فرجع علي ومضى رسول الله ﷺ في سفره)[١].

وقد أُخرج الحديث بطرق كثيرة وبصور عديدة كلها تجمع في الخلاصة إن الرسول قال لعلي: **«أنت مني بمنـزلة هارون من موسى ولكن لا نبي بعدي»**[٢].

---

(١) البداية والنهاية. لابن كثير ٥: ١١، سيرة النبي ﷺ لابن هشام الحميري ٤: ٩٤٦، ارشاد المفيد ١: ١٥٦، البحار ٣٧: ٢٦٧، الثقات لابن حبان ٢: ٩٣، تاريخ مدينة دمشق ٢: ٣١، عيون الأثر ٢: ٢٥٥.

(٢) معاني الأخبار: ٧٤ و ٧٥، فضائل الصحابة: ١٣ و ١٤، صحيح مسلم ٧: ١٢٠ ، سنن الترمذي ٥: ٣٠٢، مستدرك الحاكم ٣: ١٠٨ و ١٣٣، السنن الكبرى ٩: ٤٠، مجمع الزوائد ٩: ١٠٩ و ١١٠ و ١١١، تحفة الأحوذي ١٠: ١٥٧، مسند أبي داود الطيالسي: ٢٩، المنصف لعبد الرزاق الصنعاني ٥: ٤٠٥، وغيرها من المصادر.

ولا يعترض أحد بأنه ماكان لعلي أن يفعل هذا مع إيمانه بمحمد ﷺ.

ونحن نقول كان عليه أن يفعل ما فعل وذلك لإيمانه بمحمد ﷺ فإن دعاية من هذا النوع ستأخذ طريقها إلى العقول، والأذهان، وإلى التاريخ وبطون الكتب، وأفواه أعداء علي ﷺ، ومنابر معاوية المعاصر للإمام علي ﷺ ومن لم يعاصره، ان لم تُرَد بهذا الرد.

نعم علي بن أبي طالب ﷺ عالم بما يفعله الرسول المصطفى ﷺ وعالم في سبب تخليف الرسول له وعالم برده ﷺ لو سُئِل ﷺ ماذا سوف يكون، وهو بعلمه هذا كان عليه أن يتحرك حتى لا يُعطي مجالاً للمرجفين في المدينة أن يتشدقوا بما يحلو لهم من التهم، ويُميعوا قيمة عظماء المؤمنين، وأن ينصرفوا لاهين آمنين بادوارهم الظالمة الساخرة في بيوت المسلمين.

إنما عليه أن يقطع الفتنة من جذورها، ويقف بوجهها ولا يُبقي لها دابراً، فعمد للّحاق برسول الله ﷺ كي ترد دعواهم عليهم، وسأله ﷺ كي يلقمهم حجرا، إذ كان الجواب خلافاً للدعاية والتهمة بل جاء: (كجلمود صخرٍ حطّه السيل من عل) صك به وجوه المنافقين، وجذع به أنوف المرجفين.

ولولا علم علي ﷺ بذلك كله لما فعل ما فعل، فهم ليسوا كعلي ﷺ ومركزه من رسول الله ﷺ، حتى يتمكنوا أن يطعنوا بعلي ﷺ والدليل قول الرسول الأعظم ﷺ: **«أنت مني بمنزلة هارون من موسى»** وهذه المنـزلة كفيلة أن تجعل علياً ﷺ ذا بصيرة بما يفعله معه النبي محمد ﷺ وبما يفعله هو مع النبي ﷺ.

والمنافقون لم يتحركوا الاّ لعلمهم بقيمة هذه المنـزلة، فأرادوا خدشها، ومحوها، وإنما جاء جواب رسول الله ﷺ ليضيف لها لمعاناً وكبراً وتثبيتاً، ولتخيب أراجيف المنافقين والمبطلين.

بل كانوا يتهمون النبي الأكرم ﷺ بأنه أُذن، ويعيبوه على ذلك، وهذه الصفة الدالّه على رحمة الرسول ﷺ، وشديد تواضعه للمؤمنين بحيث يَسمع أخبارهم ويتفَهم أقوالهم، حوّلها المنافقون في المدينة إلى تهمة، وسبّة يُشنّعون بها على رسول الله ﷺ، ليقلعوا هذا التعايش الرحيم، والعطف النبوي الجليل على أتباعه وجنوده: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [1] و ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [2].

فالرسول بالحقيقة وبالاضافة إلى إنسانيته وسعة قلبه ورقته، إنما يعمل بوصايا الله تبارك وتعالى، الذي يميزه كقائد للإنسانية، ويريده رائداً لحسن السلوك فيها، ومربياً لاجيالها، لذلك كان الرسول الأعظم ﷺ يقول على صاحب هذه الدعاية إنه شيطان، وهو من المنافقين أيضاً.

قال ابن كثير: (ونبتل بن الحارث وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: **«من أحب أن ينظر إلى شيطان فلينظر إلى هذا»** وكان جسيماً أدلم ثائر شعر الرأس، أحمر العينين، أسفع الخدين، وكان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ، ثم ينقله إلى المنافقين.

وهو الذي قال: إنما محمد أُذن، من حدثه بشيء صدّقه) [3].

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) الشعراء: ٢١٥، وورد كذلك في سورة الحجر: ٨٨ ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٣) البداية والنهاية ٣: ٢٩١، البحار ٢٢: ٣٩، مجمع البيان للطبرسي ٥: ٧٩، أسباب نزول الأيات: ١٦٨، سيرة ابن هشام ٢: ٣٦٥، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ٣٤٥ ـ ٣٤٦، سبل الهدى والرشاد ٣: ٤١٧.

جـ: تمييع معنويات المؤمنين في القتال وخذلانهم.

وكان هذا السعي في تمييع همة المؤمنين، وتخفيف حماسهم، وخذلانهم بالإنسحاب مرة، وبالفرار أخرى، وحتى بالقتل وهم في حمئة الحرب وشدة لسعها، وقد برزت هذه التصرفات من المنافقين بشكل جَماعي تشكيلي، وبشكل فردي مرة أخرى.

وذلك ما توكده المصادر التاريخية.

ففي معركة أُحد والمسلمون في طريقهم لملاقاة العدو حيث كانوا في أشد الحاجة لمن يشد على أيديهم، ويثير فيهم العزيمة، ويشحذ فيهم الهمة، ينسحب ثلث الجيش الخارج للحرب بقيادة زعيم المنافقين عبد الله بن أُبَي بن سلول.

وعبد الله بن أُبَي هذا كان قد حَسِبَ لهذا الموقف حِساباً، وإلاّ لو كان الأمر كما عليه وهو أن: ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ﴾[1] لما خرج من أول الأمر حيث كان في المدينة، ولكنه يعلم أن الأثر النفسي الذي يُخلّفه الخذلان والإنسحاب وهم في الطريق إلى أُحد، ليس بمقدار مايخلفه البقاء في المدينة دون الإلتحاق بالجيش.

وهو يعلم أيضاً أن ما يقال عنه في حال بقائه في المدينة، ليس كما يُقال عنه وهو منسحب في منتصف الطريق بين المدينة وأُحد. ففي الأولى يقال: خاف الحرب وخشي المواجهة فلم يخرج اليها.

وفي الثانية يقال: إن الرجل لبس لامة الحرب، ولم يأبه بالخروج لها، بل كان كله إستعداد لساعة الصفر حيث الاشتباك، والعراك، ولكنه عمل بقناعته ورجع بسببها، وشتان بين الأولى والثانية.

---

(١) آل عمران: ١٦٧.

وثالثة عندما يسمع العدو المشرك يكون أطيب لِنفوسهم، من أن أصحاب محمد ﷺ خذلوه في الطريق ورجعوا عنه رافضين للحرب، يعني أن جيش محمد ﷺ قد انشق وهذا ما يطرب له الأعداء، ويكون أشفى لصدر إبن أبي وأرضى لخبثه وحَنَقه.

ثم إن الحسابات الأخرى كثيرة خصوصاً غير المنظورة منها، وكل هذا يقع في دائرة الخذلان للرسول ﷺ والمسلمين. يقول إبن هشام: (قال ابن إسحاق: حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأُحد، إنخذل عنه عبد الله بن أُبي بن سلول بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نُقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس، فرجع بمن اتّبعة مِن قوم من أهل النفاق والريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام، أخو بني سَلِمة، يقول:

يا قوم، أذكركم الله الاّ تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوّهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنّا لا نرى أنه يكون قتال.

قال: فلما استعصوا عليه وأبوا إلاّ الإنصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه)[1].

وهذه الحادثة مع خطورتها ومع وهن حجج أصحابها، إلا أنها ذات مغزى هام، وهو أن المنافقين قد تبلور وضعهم وصار عملهم بشكل تيار، ويتميزون بوحدة القرار، واتباع رأس له فرض الإرادة عليهم، إذن فإنّ عملهم من النوع الجمعي المنظم.

هذا سوى ما تمثله هذه الحادثة من أمور أُخرى لا تقل خطورة عن هذه النقطة نعزف عن ذكرها هنا.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٢٧، تاريخ الطبري ٢: ١٩٠، البداية والنهاية ٤: ١٥، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ٢٦ ـ ٢٧، سبل الهدى والرشاد ٤: ١٨٨.

وكذا في الخندق لهم وقفة أُخرى حيث برز علي ﷺ لعمرو مقاتلا فصرعه في موقف معروف مشهور، يفخر به تاريخ المسلمين، ويعده من نوادر المواقف البطولية والقتاليه، إن لم يكن أندرها جميعاً.

جاء في موسوعة التاريخ الإسلامي: (وفي تفسير القمي قال له علي ﷺ: يا عمرو أما كفاك أني بارزتك وأنت فارس العرب حتى استعنت عليَّ بظهير؟.

فالتفت عمرو إلى خلفه، فضربه أمير المؤمنين ﷺ مسرعاً على ساقيه فقطعهما جميعاً، وارتفعت بينهما عجاجة فقال المنافقون: قُتِل علي بن أبي طالب! ثم انكشفت العجاجة فإذا أمير المؤمنين ﷺ على صدر عمرو قد أخذ بلحيته يريد أن يذبحه، فلم يضربه (ليذبـحه).

قال الحلبي: فوقع المنافقون في علي ﷺ، فرد عنه حذيفة بن اليمان، فقال له النبي ﷺ: **«مه يا حذيفة فان علياً سيذكر سبب وقفته»**.

وقال له عمرو: يا بن العم، إن لي اليك حاجة: لا تكشف سوأة ابن عمك ولا تسلبه سلبه.

فقال علي ﷺ: ذلك أهون شيء عليَّ، ثم ذبحه وأخذ رأسه واقبل إلى رسول الله ﷺ والدماء تسيل على رأسه من ضربة عمرو، وسيفه يقطر من الدم، والرأس بيده وهو يقول:

أنا علي وابن عبد المطلب ـــ الـموت خيرٌ للفتى من الهرب

فقال له رسول الله: **«يا علي! ماكَرته؟»** (لأن عمرو التفت إلى خلفه فضرب علي ساقه) قال: نعم، يا رسول الله، الحرب خديعة.

قال الحلبي: فسأله النبي عن سبب وقفته؟ فقال: قد كان شتم أُمي، وتفل في وجهي، فخشيت أن أضربه لحظ نفسي! فتركته حتى سكن ما بي

ثم قتلته في الله)[١].

وحادثة ثالثة تمثل سعيهم الجَماعي في ضمن خططهم النفاقية للقضاء على رسول الله ﷺ وصحبه، حادثة مسجد ضرار الذي وثقها القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

ونكتفي هنا في إيراد تفسير مقطع من هذا الكلام الإلهي الشريف يكفينا في فهم الحادثة ولو إجمالاً.

قال صاحب الميزان: (وفي المجمع في قوله: ﴿وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ قال: هو أبو عامر الراهب، قال: وكان من قصته أنه كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح، فلما قدم النبي ﷺ المدينة حسده، وحزّب عليه

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي لمحمد هادي اليوسفي ٢: ٤٩٥، مستدرك الوسائل ١٨ : ٢٨، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٨١، بحار الأنوار ٤١: ٥١، الدرجات الرفيعة: ٢٨٧، الأنوار العلوية: ١١٦.

(٢) التوبة: ١٠٧ ـ ١١٠.

الأحزاب ثم هرب بعد فتح مكة إلى الطائف فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام، وخرج إلى الروم وتنصَّر، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة.

وسمى رسول الله ﷺ أبا عامر الفاسق وكان قد أرسل المنافق أن استعدوا وابنوا مسجداً فإني اذهب إلى قيصر وآتي من عنده بجنود، واخرج محمداً من المدينة فكان هؤلاء المنافقون يتوقعون أن يجيئهم أبو عامر فمات قبل أن يبلغ ملك الروم.

أقول: وفي معناه عدد من الروايات)[1].

وذكر في البداية والنهاية: (أن طائفة من المنافقين بنوا صورة مسجد قريباً من مسجد قباء وأرادوا أن يصلي لهم رسول الله ﷺ فيه حتى يروج لهم ما أرادوه من الفساد والكفر والعناد، فعصم الله رسوله ﷺ من الصلاة فيه، وذلك أنه كان على جناح سفر إلى تبوك.

فلما رجع منها فنزل بذي أوان...وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا...﴾ الآية، إلى أن قال ذاكراً نهاية هذا المسجد وما فعله الرسول الأعظم ﷺ به لما علم من أمره ما علم، ولما جاءته الآيات تترى في شأن المنافقين)[2].

يقول إبن كثير مضيفاً: (والمقصود أن رسول الله ﷺ لما نزل بذي أوان دعا مالك بن الأخشم ومعن بن عدي ـ أو أخاه عاصم بن عدي ـ

---

(١) تفسير الميزان للسيد الطباطبائي ٩: ٣٩٢، نقلاً عن تفسير مجمع البيان ٥: ١٢٦، وانظر تفسير جوامع الجامع للشيخ الطبرسي ٢: ٩٥، تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ٤٨٨، التبيان للشيخ الطوسي ٥: ٢٩٨، فقه القرآن للقطب الراوندي ١: ١٥٩.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٥: ٢٧، السيرة النبوية لابن كثير ٤: ٣٩ ـ ٤٠ ومعلومة هي الاغراض التي بُني من أجلها المسجد من خلال الآيات السابقة.

رضي الله عنهما فأمرهما أن يذهبا إلى هذا المسجد الظالم أهله فيحرقاه بالنار، فذهبا فحرقاه بالنار وتفرق عنه أهله)[١].

بل حتى قبيل غزوة تبوك والرسول ﷺ يتجهز للحرب والخروج لبني الأصفر خرج تشكيل كبير من المنافقين يستأذن الرسول في عدم الخروج إلى الحرب.

قال الوقدي: (قالوا: وجاء ناسٌ من المنافقين يستأذنون رسول الله ﷺ من غير علة فأذن لهم، وكان المنافقون الذين استأذنوا بضعة وثمانين)[٢].

ونكص مرة أخرى شيطان المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، بنفس الطريقة التي نكص بها في أُحد ولم يخرج مع الرسول ﷺ بنفس الذرائع التي لم يخرج بها من قبل، وهو يفترض نفسه ندّ رسول الله ﷺ في الرأي، ونظيره في القرار، أو الأرجح منه في معرفة العواقب.

فهو يحلل الامور على خلاف مراد القيادة النبوية، وعلى عكس المطالب الغيبية، ويتهم الرسول بقصر النظر، وعدم معرفة ما تؤول له الأُمور.

وأضاف الواقدي: (فلما سار الرسول ﷺ تخلف إبن أُبي عن رسول الله ﷺ فيمن تخلف من المنافقين وقال: يغزو محمد بني الأصفر، مع جَهد الحال والحر والبلد البعيد، إلى ما لا قبل له به! يحسب محمدٌ أنَّ قتال بني الأصفر اللعب؟ ونافق معه من هو على مثل رأيه، ثم قال ابن أُبي: والله لكأني أنظر إلى أصحابه غداً مقرّنين في الحبال! إرجافاً برسول الله ﷺ وأصحابه)[٣].

---

(١) نفس المصادر السابقة.

(٢) المغازي للواقدي ٣: ٩٩٥.

(٣) المغازي للواقدي ٣: ٩٩٥ ـ ٩٩٦، سبل الهدى والرشاد ٥: ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

وما ذكرناه ما هو الاّ نماذج من بعض السلوكيات النفاقية التي جاءت بشكل جَمعي وفي حيز الهدف الواحد، والغاية المشتركة.

وهناك نماذج كثيرة في المساعي الخبيثة للنفاق الفردي، والذي قام به أفراد من هنا وهناك. ففي الأولى غصوا بريقهم، وعادوا بحنقهم، ولم يشربوا إلا الغيض والخزي والفشل، وسنرى في الثانية من أمرهم شيئاً.

قال ابن كثير: (وحاطب بن أمية بن رافع وكان شيخاً جسيماً قد عسا في جاهليته، وكان له إبن من خيار المسلمين يقال له يزيد بن حاطب أُصيب يوم أُحد حتى أثبتته الجراحات، فَحُمِلَ إلى دارِ بني ظفر.

فحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة فإنه اجتمع إليه من بها من رجال المسلمين ونسائهم وهو يموت فجعلوا يقولون: أبشر بالجنة يابن حاطب.

قال: فنجم نفاق أبيه فجعل يقول: أجل جنة من حرمل غررتم والله هذا المسكين من نفسه)[1].

وفي حكاية الجد بن قيس (المنافق) طرافة وجمال، وكشف عن سرائر الرجال، وسلوكهم الطرق المتعرجة، إبتغاءاً للفتنة، وطلباً لتقليب الوجوه، وصد الحقيقة، وإظهاراً لما تحمله نفوسهم الرخيصة الحقيرة من محامل الحقد والشحناء على سيد الرسل والأنبياء ﷺ.

سرد الواقدي في مغازيه هذه القصة مفصلة: (وقال رسول الله للجَدّ بن قيس: «أبا وهب! هل لك العام تخرج معنا لعلك تحتقب من بنات الأصفر؟»

فقال الجد: أوتأذن لي ولا تفتني؟ فوالله، لقد عرف قومي ما أحد أشد عُجباً بالنساء مني، وإني لأخشى إن رأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن.

---

(١) البداية والنهاية ٣: ٢٩٣، السيرة النبوية لابن كثير ٢: ٣٤٧.

فأعرض عنه رسول الله ﷺ فقال: «قد أذنت لك» فجاء إبنه عبد الله بن الجَدّ ـ وكان بدرياً، وهو أخو معاذ بن جبل لأمه ـ فقال لأبيه: لِمَ ترد على رسول الله ﷺ مقالته؟ فوالله ما في بني سَلِمَة أكثر مالاً منك لِم لا تخرج ولا تحمل أحداً!

قال: يا بنيّ، مالى وللخروج في الريح والعسرة إلى بني الأصفر[1]، والله ما آمن خوفاً من بني الأصفر واني في منزلي بـخُرْبَى[2]، فاذهب إليهم فاغزوهم، إني والله يا بُنَي عالم بالدوائر.

فأغلَظ له إبنه، فقال: لا والله، ولكنه النفاق! والله، لينـزلن على رسول الله ﷺ فيك قرآن يقرأونه.

قال: فرفع نعله فضرب بها وجهه، فانصرف إبنه ولم يكلمه، وجعل الخبيث يثبط قومه، وقال لجبّار بن صخر ونفر معه من بني سَلِمَة: يا بني سَلِمَة، لا تنفروا في الحر. يقول: لا تـخرجوا في الحر زهادة في الجهاد، وشكاً في الحق وإرجافاً برسول الله ﷺ. فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ـ إلى قوله تعالى ـ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[3].

وفيه نزلت: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾[4] الآية، أي كأنه إنما يخشى الفتنة من نساء بني الأصفر، وليس ذلك به، إنما تعذر

---

(١) وهنا يتبين النفاق: فالعلة التي أعطاها لإبنه، هي ليست نفس العلة التي أعطاها لرسول الله فتلك تمثل الظاهر المليح، وهذه تبين الباطل القبيح.

(٢) وهذه العبارة تؤكد ما ذهبنا اليه من أنّ عدم خروج المنافقين كان سببه الجبن في بعض جهاته.

(٣) التوبة: ٨١ ـ ٨٢.

(٤) التوبة: ٤٩.

بالباطل، فما سقط فيه من الفتنة أكثر، بتخلفه عن رسول الله ﷺ ورغبته بنفسه عن نفسه.

يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [١] يقول: إن جهنم لمن ورائه، فلما نـزلت هذه الآية جاء إبنه إلى أبيه فقال: ألم أقل لك إنه سوف ينـزل فيك قرآن يقرأه المسلمون؟ قال: يقول أبوه: أُسكت عني يا لُكَعُ ! والله، لا أنفعك بنافعة أبداً! والله لأنت أشد عليَّ من محمدا [٢])[٣].

بل إن بعض المنافقين إنقلب على المسلمين في حومة الميدان، وعند استعار الهيجاء، فقتلَ بعضهم وهرب، وذلك للأحَن التي في قلبه وهو (الحارث بن سويد، وهو الذي قتل المجذر بن زياد البلوي، وقيس بن زيد أحد بني ضبيعة يوم أحد، خرج مع المسلمين وكان منافقاً فلما التقى الناس عدا عليهما فقتلهما ثم لحق بقريش.

قال ابن هشام: وكان المجذر قد قتل أباه سويد بن الصامت في بعض حروب الجاهلية فأخذ بثأر ابيه منه يوم أُحد)[٤].

ونكرر إننا أردنا ذكر بعض النماذج لإثبات المُدعى، وإلاّ فالأحاديث وحكايات المنافقين كثيرة لا يمكننا هنا الإتيان عليها جميعاً.

وخلاصة الأمر أن أمراضهم التي كانت متأصلة بهم، قد مردوا

---

(١) التوبة: ٤٩.

(٢) أنظر كيف كان النبي الأكرم ﷺ ثقيلاً على هذا وامثال هذا، وكم كانوا يعانون من عظمته ﷺ، ويعيشون الامتعاض والمرارة النفسية من وجوده الشريف، بحيث يضرب هذا المنافق به ﷺ مثالاً للشدة على الذات.

(٣) المغازي للواقدي ٣: ٩٩٢ ـ ٩٩٣، سبل الهدى والرشاد ٥: ٤٣٧.

(٤) البداية والنهاية ٣: ٢٩١، السيرة النبوية لابن كثير ٢: ٣٤٥.

عليها، وليس من الهيِّن أن يتخلصوا أو يُخَلِّصوا منها، يخالطها الغش والخداع اليهودي المعروف فتكون مختمرة بأُسلوب أكثر ضرراً وأبلغ تأثيراً.

وإن هذا بجملته أقلق المسلمين وأشغلهم، ونثرَ الأشواك في طريقهم، وقد قلنا إن اليهود عندهم خصلة الأُحادية بالتعامل، أقصد أنه كانت تشغلهم الأموال والثروات وجمعها، والعمل الجاد لتنميتها وبشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة.

وهذا لا يُعطي لأرواحهم الصحوة الكاملة، كي ينتقلوا من عالم الماديات إلى الأخذ بالأخلاقيات الإسلامية، والروحانية الدينية، فكيف إذا تلبسوا بهذا السبب وبغيره من الأسباب الكثيرة بصفة النفاق.

لابل كيف إذا وجدوا من عرب المدينة ومكة من هو على مزاجهم في النفاق، والإنفصال العملي من الكتلة الدينية، وإن كان منتسباً لها بالعنوان العام. فتلك بالواقع عوامل مشجعة لهم للاستمرار بمفاسدهم وتحقيق مآربهم.

وإنك لتلمس الهزَّة العنيفة في نفوسهم في حال كونهم يُدْعَون للفتنة، والتي تطرب لها نفوسهم وينجذبون نحوها لو حدثت، الجذاب الفصيل لأمه، لأنها تحمل المشاريع المطابقة لنواياهم، بل هي هم لولا حواجز الخوف من المسلمين ومشكلة التعايش معهم، والاّ فهم كفار مع وقف القرار: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾[1].

قال العلاّمة الطباطبائي: (ضمائر الجمع للمنافقين والمرضى القلوب، والضمير في ﴿دُخِلَتْ﴾ للبيوت ومعنى دخلت عليهم دخل الجنود البيوت

---

(١) الأحزاب: ١٤.

حال كونهم دخولاً عليهم، والأقطار جمع قطر وهو الجانب، والمراد بالفتنة بقرينة المقام الردة والرجعة من الدين والمراد بسؤالها طلبها منهم، والتلبث التأخر.

والمعنى: ولو دخل جنود المشركين بيوتهم من جوانبها وهم فيها ثم طلبوا منهم أن يرتدوا عن الدين لأعطوهم سؤلهم وما تأخروا بالردة الا يسيراً من الزمان بمقدار الطلب والسؤال أي إنهم يقيمون على الدين ما دام الرخاء فاذا هجمت عليهم الشدة والبأس لم يلبثوا دون أن يرجعوا)[1].

فهذا الوضع الهش وهذا التطاير من الخوف وهذه الفورية في الإستجابة لداعي الشرك دلالة واضحة على قبح هؤلاء القوم، وضحالة نفوسهم، ومن أعظم سوؤاتهم أن التاريخ الاسلامي ظلّ يعاني من عبثهم، وفذلكاتهم النحسة البخسة.

وهذا ملحوظٌ في كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام، بل مصرح به أتم التصريح.

قال الشيخ المفيد: (ثم قام عليه السلام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن الله لما قبض نبيه قلنا نحن أهل بيته، وعصبته، وورثته، وأولياؤه، وأحق خلق الله به، لا ينازعنا في سلطانه أحد.

فبينما نقول ذلك إذ نفر المنافقون فانتزعوا سلطان نبينا منا وولوه غيرنا. وأيم الله لولا مخافة الفرقة بين المسلمين أن يعودوا إلى الكفر لغيرنا ذلك ما استطعنا.

وقد وليتمونا أيها الناس أمركم وبايعني طلحة والزبير فيمن بايعني منكم ثم نهضا إلى البصرة يفرقا جماعتكم، ويُلقيا ما بينكم الفتنة. اللهم فخذهما بغشهما لهذه الأمة وسوء بطرهما)[2].

---

(١) تفسير الميزان ١٦: ٢٨٦.

(٢) الجمل للشيخ المفيد: ٢٣٣.

فهم بقوا عقبة صلبة أمام الحق، وفي جريانه نحو أهله، وصاروا سبباً في ضياعه وفوت الفيض على المسلمين، وخَلَّفوا المسلمين يتقاتلون، ويقبعون تحت أشفار السيوف، ويفترشون الفتنة والشقاق تحت مظلة الصراع، وَخَلَّفوا هذه الثغرة الكبيرة في جدار المسلمين، وجعلوهم ينؤون بمحنة عظيمة كبيرة وابتلاء خطير عسير، لا ينجو منه ذو حصافة أو رهافة ولا ذو عسرة أو ميسرة، ولا قريب أو بعيد، إلا من عصم الله وعلى هذا فَقِس الحال مع تقلب الأحوال.

المبحث الرابع:

بيان عاقبتهم ومآل مصيرهم

لقد هدد القرآن الكريم المنافقين بالويل والثبور وعظائم الأمور، وبيّن أن الله أعدَّ لهم عذاباً شديداً ومقتاً أكيداً وإنهم مع المشركين والكفار، بل مقترنين في الذكر والعذاب، في الدنيا وفي يوم الحساب.

وإن القرآن صفع أسماعهم بكلام حاد، ووصمهم بالعار الذي يهز الصم الصلاد وجعل النار قطب عذابهم يوم القيامة، ومآلهم المحتوم اليها. كل ذلك توبيخاً لهم ومحاولة في حسر أدوارهم، أو رجوعهم إلى حضيرة الإسلام، وتخويفاً لسواهم ممن تسول لهم نفوسهم امكان الأقتباس منهم.

أو اقتفاء أثرهم أو التقمص بسننهم التي منع الله تعالى، وحرمها رسول الله ﷺ، وليحصن الفرد المسلم منهم ما أمكنه ذلك، ويجعل منهم أناساً مذعورين من الوعيد وترادف التهديد.

ولم تكن آية في القرآن موادعة لهم، أو مؤالفة لمزاعمهم، فإنَّ القرآن الكريم شن عليهم حرباً ضارية، وجعلهم أُمثولةً لاستحقاق العقاب في يوم الجزاء الأكبر، وحصرهم في دائرة السوء الذي تصبُّ فيها لعنة الله وغضبه ثم مصيرهم إلى جهنم حيث عذاب السعير وسوء المصير.

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا * وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾[2].

وتوعدهم في العذاب مرتين حيث لم يكونوا فقط منافقين بل مردوا على النفاق، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[3] وقال تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[4].

وقال عز قوله: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[5].

---

(١) النساء: ١٣٨ ـ ١٤٠.

(٢) التوبة: ٦٨.

(٣) التوبة: ١٠١.

(٤) الأحزاب: ٧٣.

(٥) الفتح: ٦.

طبعاً عذاب الدخول بالنار هذا جاء على أعقاب عذاب معنوي في يوم القيامة، وهو أن المنافقين يرون المؤمنين وقد دخلوا الجنه وَغُفِر لهم ما كان منهم، بينما هم يبشرون بالنار ويسحبون اليها: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[1].

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يضع القرآن نفس المقارنة بين المؤمنين والمنافقين، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[2].

---

(٣) الفتح: ٥.

(٢) الحديد: ١٢ ـ ١٥.

دراسة تطبيقية
في جهاد الرسول (ص)



دراسة تطبيقية
في جهاد الرسول (ص)

بعد أن استعرضنا بعض المفاهيم والأمور التي نرى طرحها مهماً في مناقشة جهاد الرسول المصطفى ﷺ نرى لزاماً ـ أيضاً ـ أن نقول: إنه بإمكاننا تقسيم جهاد الرسول المصطفى ﷺ الى قسمين مهمين أو اتجاهين .

فالاتجاه أو القسم الأول هو جهاد المقاومة ، وهو جهاده ﷺ وأصحابه الكرام في مقابل مالاقوه من قومهم أو أقوامهم في الفترة المكيّة.

فقد كان جهاداً عنيفاً، قاوم فيها ﷺوصحبه الأبرار أساليب الطغاة الظالمة وطرق البغي والتجاوز والجور عليهم، وقاوموا أساليب النفاق والمصادمة الجبرية التي كانت تتمثل بالقوة والمطاردة والتعذيب، بكل شعابه وفنونه.

فصمد الرسول ﷺ لذلك، وصمد أصحابه الميامين، وكانت شدّة الصمود تدعوا الى تنوع الأساليب في تعنيفهم وقمعهم، وكذلك تدعوا لتنوع أساليب المقاومة والدفاع عن النفس والدين.

فكانت تلك الفترة نسيجاً رائعاً من الأحداث، ومجسماً تاريخياً مستقل الملامح والظلال، أخذت من تاريخ الرسول ﷺ، وجهد الرسول ﷺ وفكر الرسول ﷺ وتخطيطه، وفنّه القيادي، واستيعابه للأحداث، وتوجيهه للأزمات الكثير الكثير.

وهي بهذه الإستقلالية، وبهذا الغنى المفهومي، والثراء المبدئي، وبما

تكشف من تاريخ المسلمين الأوائل جعلتها فترة بناء واعتماد لما يأتي من تاريخ الرسالة والرساليين، وبما تكشفه من تاريخ المشركين ومافعلوه بنبيهم ﷺ ورسالته، جديرة بحق أن تُدرس في إطار جهاد الرسول بعنوان كونها (جهاد المقاومة).

المقاومة لقريش وأساليبها وجبروتها وكل ماصنعته من سوء. والمقاومة لتثبيت المظلومية، وتصحيح الأساليب، وتغيير السائد من المفاهيم.

وفي نفس الوقت كان هذا الأسلوب من جهاد المقاومة يهدف قبل كل شيء الى إثارة روح الوعي والهداية والإرشاد للأُمة في ذلك الزمن وما يأتي بعده من الأزمان.

أما القسم الثاني فهو جهاد المواجهة أو مايمكن أن نصطلح عليه (جهاد السيف) والذي تحقق في الغزوات والسرايا النبوية المعروفة في الفترة المدنية.

وهذا هو لون ثالث من رد البغي والظلم والفتنة والنفاق، ومحاولات القضاء على طاقة الإنسان ودينه ومعتقده، فقد كان جهاد السيف محاولة من رسول الله ﷺ في رد أمواج البشر المعتدية عليه، وفَلق النوايا الكامنة ورائها.

إنّه جهاد من طراز خاص ستبرز لنا خصائصه وأهدافه وأسبابه ونتائجه في ماسنستعرضه من دراسة شاملة تفصيلية لأسباب حروب الرسول (في هذا الجزء)، وما سنعرضه من خطط الرسول الحربية (في الجزء الثاني)، وما نتكلم حوله في بقيّة الموضوعات.

إن دراسة جهاد الرسول الأعظم ﷺ بقسميه جهاد المقاومة في مكّة، وجهاد المواجهة في المدينة يغنينا عن الإطالة في هذا البيان الإجمالي.

ولنبدء أولاً بالمرحلة الأولى التي بدءها الرسول ﷺ والرساليون في الفترة المكيّة إنّه (جهاد المقاومة)، والذي سوف نذكر فيه ما تعرضوا له من أنواع الإرهاب الفكري والنفسي والاقتصادي وطرق مقاومتهم له.

الإتجاه الأول:

جهاد المقاومة

إن الدخول في أصل المطلب وهو (جهاد المقاومة) أو مواجهات الرسول ﷺ مع قومه، أو مواجهات القوم معه ﷺ يجب أن يُلاحظ فيه كون الرسول ﷺ رجلاً يعمل بما تأتيه السماء، كما ذكرنا سابقاً.

فهو رجل يُملي عليه وحيٌ ويطبق ما يريده الله ﷻ دون تردد أو توقف كما بيّن القرآن ذلك: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[1]، إذن مهمته تأدية الرسالة وتبليغ الأوامر الإلهية، ولو كانت تلك الأوامر تتطلب خوض الحرب والجهاد ومواجهة المنافقين على ما هم عليه من بالغ السوء: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[2].

فكما نؤمن أن موسى ؑ رسولٌ مناطة به مهمة مواجهة فرعون وإنقاذ أتباعه، واتّباع الأوامر الإلهية كما هي مناطة به، وإذا كنّا نؤمن أن عيسى ؑ يحمل رسالة سماوية وجب عليه أن يبلغها في مقام الامتثال للأمر الإلهي الصادر من السماء الواصل له عن طريق الوحي.

وكذا بقية الأنبياء، توجب علينا أن نسلم أن فكرة الرسول الأعظم ﷺ واجبة التنفيذ، إنسجاماً مع مقام النبوة، واسترسالاً مع تطبيق الأوامر الملزمة له من قبل السماء، والتزاماً بعدم التفريق بينه ﷺ وبين بقية الأنبياء ؑ من جهة التبليغ.

وعليه يكفينا أن نفسر أي تصرف أو سلوك أو حدث يقيمه

---

(١) آل عمران: ١٤٤

(٢) التوبة: ٧٣

الرسول ﷺ أو يمتنع عنه إنما هو عمل بإرادة السماء، وتنفيذ للوجوبات المفروضة عليه، وهذا التفسير وحده كافٍ في إعطاء المبرر التام لرسول الله ﷺ في أي تصرف يسلكه، أو أمر يُقيمه ﷺ؛ لأنه ممتثل لوجوه الطاعة وغير خارج عنها.

فهل ترى من وحشة عندما تسمع أن الرسول محمداً ﷺ نادى في بطن مكة بأن: «قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا»[1] مع كونه مأموراً وملزماً بها؟ أم نجد بعد ذلك غرابة في أنه ﷺ يعيش أقصى الاندفاع في تبليغ رسالته، حاله حال العبد المأمور الذي ينفذ كلام سيده بأتم وجه، ويبالغ في طاعته بأليق امتثال.

هذا مع صرف النظر عن الأهداف الإنسانية الواضحة في شعاره النبوي من إنقاذ البشرية وتخليصه لها مما كانت عليه، وإعطاء الإنسان موقعه اللائق به كمخلوق له دور مهم ومشرف في هذا الكون.

وإذا صرفنا النظر عن تحرّقه المستمر وفقده لطاقات كبيرة هائلة في عمليات المواجهة، طبعاً دون مقابل في إطار الحسابات المادية المعروفة، وإذا صرفنا النظر عن كونه ﷺ كان مشروعاً للاغتيال والتصفية الجسدية، وهتك الحرمة مما لا يضحي الإنسان به بسهولة، إن لم يكن منطلقاً من ثوابت عقائدية تخضعه تمام الخضوع لله ﷻ، وتطالبه أن يكون بهذه المنـزلة من العطاء اللاّمتناهي.

فكونه رسولاً يعمل بالآي الشريف والأمر الإلهي فيها، ووفق ما يُفرّغ ذمته من المسؤولية الملقاة عليه، ويوفر له المعذّرية أمام الله ﷻ كما في تعليل مواقفه الشريفة يجعل تصرفه وسلوكه خارج دائرة الاعتراض بالضرورة.

ثم لو تناولنا مواقفه مع القوم، لوجدنا بالإضافة إلى ما ذكرنا من

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤، المنتخب في المذيل للطبري: ٨٠، البداية والنهاية لابن كثير ٣: ٥٤، سبل الهدى والرشاد ٢: ٤٥١.

مشروعيتها انطلاقاً من نبوته نجدها تمثل حقّاً من حقوقه كإنسان يدعو بالاتجاه الذي يراه مناسباً، ويراه مستحقّاً للمعرفة والاتباع دون أن يرهب الآخرين أو يمتهن حرياتهم [١].

وهذا ما حصل فعلاً، وتظاهر عليه قومه لمجرد أنه ﷺ دعى إلى فكرة يراها صحيحة، ويراها آخرون ويتعبدون بها من قبله.

إنه لم يقل: سوف أفتك بكم، ولم يقل: سوف أهدم دياركم وأمنعكم حقّ الحياة المقدّس، ولا حتى حق التعبير، بل جاءهم بالتعبير، وبالرأي والدليل والحجة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٢]، دون أن يغضب أحداً بضرب، أو يذبح أحدهم، أويشنع به خفيةً أو أمام أنظار الناس، ودون أن يُعلن أنه الرّب المعبود، أو يطالبهم بالسيادة عليهم، ويأخذ نساءهم وذراريهم إماءاً ورقيقاً.

لم يفعل النبي ﷺ كل ذلك، بل قال: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [٣]، وبكل روية وهدوء وسعة صدر وقبول لكل مناقش أو محتج ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٤]مع خُلُق يشغف به الفؤاد، ويأنس به العباد، وهو فوق هذا وذاك كان معهم وليس عليهم.

ونرى أن هذا الإجمال السريع بحاجة إلى بسطٍ وتفصيل، خاصة إذا ما

---

(١) وقد ناقشنا ذلك من قبل وفي بداية البحث.

(٢) الجمعة: ٢.

(٣) غافر: ٤١.

(٤) الأحقاف: ٤.

عرفنا أن الأسباب المؤدية لحروبه مع قريش لم تكن فقط تلك الأسباب المباشرة المنظورة، إنما كانت هناك خلفيات لها دور مهم في التوجّه إلى قريش بعد أن أعلنت فظاظتها وجفوتها لرسول الله ﷺ، وهو يحمل في كفّه حقّه المهدور بأيديهم من قبل.

وسنبيّن الأساليب التي انتهجتها قريش من شتّى طرق الإرهاب تجاه الرسول الأكرم ﷺ وأهل بيته واصحابه، وردود فعل الرسول وأصحابه تجاه تلك الأساليب، وهو ما اصطلحنا عليه بجهاد المقاومة.

اساليب قريش ومقاومة الرسول (ص)

الأسلوب الأول: الإرهاب الفكري

من المعلوم لكل أحد أن الإنسان لما يستشعر الضعف وعدم القدرة في ميدان المواجهة الفكرية، ولايروق له أن يرى من يسحق عجزه هذا بقدم العبارة النافذة والحجة الدامغة، يلجأ مثل هذا النوع القاصر من البشر إلى أساليب ملتوية وقذرة في محاولة لتصفير المقابل من أدوات تعبيره وأساليب تبشيره.

فيلهج بالتهم الوضيعة ويقذف بالافتراءات ما وسعه إلى ذلك السبيل، بل يحشد كل عيون قومه وجهالهم للضرب معه في كفٍ واحدة، خاصة أولئك الذين تلتقي مصالحهم بمصلحته، وأزمتهم بأزمته، دون توقف من حياء، أو خجل من أحياء.

فيمسكون بمطرقة الإرهاب لفكر المقابل علّهم يثنوه عن عزمه أو ينكسوا عزيمته، فيكسبون جوزتين بضربة واحدة:

الأولى: أنهم نفذوا أغراضهم المريضة الجاحدة، حيث قلموا حضارية أفكار الخصم وتطلعاته.

والثانية: ظهروا بمظهر المنتصر الغالب الذي أفحم من عجز عنه غيرهم، فيكونوا رواد القوم، وصدور مجالسهم، وأصحاب الهِمّة فيهم، فيتسلقوا بزيفهم مراكز وهمية ويصلوا إلى نقاط خرافية وأقول وهمية وخرافية؛ لأنه لم يسجل لنا التاريخ في بُعدِه الغائر في عمق الزمن، إنتصاراً واحداً لمزيف على محق، وإن كان هناك تغليف أو انتصار مؤقت، إنما الحقائق تبقى متجلية منصورة بإذن الله ﷻ.

ووفق هذه المعادلة الخطيرة المراد بها شخص الرسول ﷺ وشخصيته، عملت قريش ضد رسول الله ﷺ، مُجَنِّدة كل قواها وأشرافها ورجالها ونسائها وحلفائها، بشعرها ونثرها، بنارها وحديدها، بفنها ومهارتها في الأساليب المبتكرة في إطار المواجهة.

وباختصار: بكل ما يتصور أنه له دور في حسم الجولة لهم وقمع شوكة الرسول الأعظم ﷺ فبَدأت هكذا:

القسم الأول: اتهام رسول الله ﷺ بالكذب

قد كان ﷺ بالأمس القريب الصادق الأمين الذي لا يعدو الحق إنْ نطق ولا يعدو الاستقامة إذا سلك، ولكن لما أعلن دعوته واجهه القوم بالتكذيب واتهموه بالانحراف.

روى صاحب البحار: (وعن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1] صعد رسول الله ﷺ على الصفا، فقال: «ياصباحاه».

فاجتمعت إليه قريش فقالوا: ما لَكَ؟ فقال ﷺ: «أرأيتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدقوني؟» .

قالوا: بلى.

---

(١) الشعراء: ٢١٤.

قال: «نذيرٌ لكم بين يدَي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا دعوتنا جميعاً؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ...﴾ [١].

وأبو لهب هذا لم يألو جهداً في إيذاء النبي ﷺ وتكذيبه في كل المواقف وجميع الحالات، ليؤكد صِلة الرحم به ولكن بالتي هي أسوء، فبدأ بعمله التهديمي قبل الرسول الأكرم ﷺ منذ بدء الدعوة وإعلان الرسول ﷺ لها أمام الملأ من قريش، وأمام أقرب الناس إليه عمومته وعشيرته المقربين، وحتى قبضه الله ﷻ إلى نار جهنم الذي بُشّر بها من قبل ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾، فكان يتبع الرسول ﷺ ليرميه ويكذبه ويحيطه بالأذى النفسي والجسدي.

روى الشيخ المجلسي في البحار عن طارق المحاربي: (رأيت النبي ﷺ في سويقة ذي المجاز عليه حلّة حمراء وهو يقول: «قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا» وأبو لهب يتبعه ويرميه بالحجارة وقد أدمى كعبه وعرقوبيه وهو يقول: لا تطيعوه فإنه كذّاب...)[٢].

وهناك الكثير من أفراد قريش وغيرها ممن وقف بوجه رسول الله ﷺ وكذّبه بشتى الأساليب، فهذا النضر بن حارث يخلف رسول الله في مجلسه ويبين للقوم أن محمداً ليس عنده شيء يذكر بل يدعي أنه أفضل منه حديثاً، ولايفوقه النبي ﷺ في حديثه وبيانه أيضاً في محاولة لهتك فكرة إتصال النبي ﷺ بالغيب، وإظهاره كمدعٍ لهذه الصلة.

حيث لو تم القضاء على ادعاء الرسول ﷺ في فكرة اتصاله

---

(١) البحار ١٨: ١٦٤.

(٢) البحار ١٨: ٢٠٤، وفي دلائل النبوة للبيهقي على تفاوت ٢: ١٨٦، وكذلك في البداية والنهاية لابن كثير ٢: ٣٨٣ مع تفاوت.

بالغيب، وأن ما عنده يأتيه من السماء، يكون له وللناس اتهامه بالكذب الصراح، وأي كذب أصرح من دعوى رجل يقول أن ما عندي من الله ﷻ.

والحال أن الآخرين يأتون بأحسن منه أو مثله على رغم عدم دعواهم الصلة تلك فيُستخف به ويُنبَذ في قومه.

فقد جاء في السيرة النبوية: (وكان النضر من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسبنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً يذكّر فيه بالله ﷻ، وحذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ﷻ، خلفه في مجلسه إذا قام.

ثم قال: أنا والله يامعشر قريش، أحسن حديثاً منه، فهَلمّ اليّ فأنا أحدثكم احسن حديثاً من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس، ورستم، واسبنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن مني حديثاً؟.

قال ابن هشام: (وهو الذي قال فيما بلغني: سأُنزل مثل ما أنزل الله)[١]

إذاً كان النضر بن حارث يظن أن القرآن ما هو إلاّ تسطير حكايات، ورواية أساطير، وهو بهذا المحتوى لا يختلف عن حكايات رستم واسبنديار، مع العلم أنّه حتى لو صرفنا النظر عن كل معاجز وآي القرآن، وتنوع أغراضه وتعدد أهدافه وجميع ما فيه من مختلف العلوم، وقصرنا النظر على حكاياته وقصصه.

فهي بحق قصص هادفة في كل نواحيها ابتداءاً من اختيار القصة والعبرة منها وكونها غير معروفة على النحو المروي في القرآن، وهي

---

(١) سيرة ابن هشام ١: ١٩٥، البداية والنهاية لابن كثير ٣: ١١٠، السيرة النبوية لابن كثير ٢: ٥٢.

بالإضافة الى ذلك مشبعة بالعِضَة والبلاغة والتكامل في كل الفنون المطلوبة في مثل هذا المقام، فضلاً عن كونها تهدف إلى بناء الإنسان لا إلى إلهائه وتسليته.

ولذلك تصدى القرآن لهذا الفرد ولأمثاله بكل قوة وكذّبه ووبّخه.

قال ابن هشام: (قال ابن اسحاق: وكان ابن عباس ﷺ يقول فيما بلغني: نزل فيه ثمان آيات من القرآن، قول الله ﷻ: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[1] وكل ما ذُكر فيه من الأساطير من القرآن)[2].

ولقد كان لدعاية التكذيب تأثيراً ساحقاً على قبائل العرب حيث كان من الوجيه والمنطقي عندهم أن يوثّقوا النبي ﷺ بتوثيق قريش له، ويردوه ما ردته قريش؛ لأن قريش هم حماة البيت وسادة العرب وأصحاب الخدمة للحجيج، وهم بعد كل ذلك أهله وعشيرته.

فإذا كانوا يرون بأن محمداً كاذب، بل ترى عشيرته المقربين ذلك، فللعرب أن تقول أنه لو كان صادقاً لَقَبِلَه أهلُه وعشيرته؛ لأنهم أدرى به وأعرف بشخصه، أما وقد كذّبوه وواجهوه، فالحري بنا أن نتّبعهم بالموقف، سيما وهم قريش ولِما هو معلوم من مكانتها بين العرب وتأثيرها عليهم.

وفعلاً لما كان الرسول ﷺ يدعو الناس إلى الله ﷻ كانوا يواجهونه بهذه الدعاية الظالمة دون أن يرجعوا إلى أنفسهم ويقرروا مسؤولياتهم المطلوبة إزاءه ﷺ، وكانوا يقولون: (أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك)[3] كذلك عندما ذهب إلى الطائف استخدموا معه نفس أسلوب قريش في المواجهة له ﷺ، ويتصدرها التكذيب له ﷺ دون هوادة أو روية.

---

(١) القلم: ١٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ :٣٢٨.

(٣) الطبقات لابن سعد ١: ١٧ و ١٨ و ٢١٦.

روى البيهقي: (كان رسول الله ﷺ في تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم، ويكلم كل شريف قوم لا يسلهم مع ذلك إلاّ أن يروه أو يمنعوه، ويقول: «لا أكرِه أحداً منكم على شيء، من رضيَ منكم بالذي أدعوا إليه فذلك، ومَن كرِه لم أكرهه، إنما أريد أن تحرزوني مما يراد بي من القتل حتى أبلغ رسالات ربّي، وحتى يقضي الله ﷻ لي ولمن صحبني بما شاء الله».

فلم يقبله أحد منهم، ولم يأت أحد من تلك القبائل، إلاّ أن قال: قوم الرجل أعلم به أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه، فكان ذلك مما ذخر الله ﷻ للأنصار وأكرمهم به)[١].

أرأيت كيف أن شيوع هذه الدعاية كان مؤثراً على كل فرد من أفراد العرب وجميع قبائلهم.

نعم لقد قيّض الله ﷻ له من يحميه ويدافع عنه ﷺ ويتصدى للقوم المكذبين له، ويثبت كونه صادقاً غير كاذب، في محاولة للتصدي لحملة قريش الدعائية والتكذيبية لدعوة النبي ﷺ فقد:

جاء في بحار الأنوار: روى أبو أيوب الأنصاري أن النبي ﷺ وقف بسوق ذي المجاز فدعاهم إلى الله، والعباس قائم يسمع الكلام، فقال: أشهد أنك كذاب، ومضى إلى أبي لهب وذكر ذلك، فأقبلا يناديان: إن ابن أخينا هذا كذّاب، فلا يغرنكم عن دينكم.

قال: واستقبل النبي ﷺ أبو طالب فاكتنفه، وأقبل على أبي لهب والعباس فقال لهما: ما تريدان أن تربت أيديكما، والله إنه لصادق القيل، ثم أنشأ أبو طالب:

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢:٤١٤ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، وانظر تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٦، البداية والنهاية لابن كثير ٣: ١٧١..

أنـت الأمين أمين الله لا كذب   والصادق القـول لا لهوٌ و لا لعبُ
أنت الرسول رسول الله نعلمه   عليك تنـزل من ذي العزة الكتبُ[1]

ومن الحماة الغياري عمه حمزة بن عبد المطلب فقد كان يردّ بقوّة على أعداء محمد ﷺ دون أن يأبه بجاههم ومكانتهم وسطوتهم أو قرابتهم منه، فلقد روى ابن أثير الجزري في الكامل في التاريخ تحت عنوان: (ذكر المستهزئين ومن كان أشدهم الأذى للنبي ﷺ).

قال: (وهم جماعة من قريش: فمنهم عمه أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب، كان شديداً عليه وعلى المسلمين، عظيم التكذيب له، دائم الأذى، فكان يطرح العذرة والنتن على باب النبي ﷺ وكان جاره.

فكان رسول الله ﷺ يقول: **«أي جوار هذا يا بني عبد المطلب»**، فرآه يوماً حمزة فأخذ العذرة وطرحها على رأس أبي لهب، فجعل ينفضه عن رأسه، ويقول: صاحبي أحمق، وأقصر عما كان يفعله لكنه يضع من يفعل ذلك)[2].

القسم الثاني: إتهامه ﷺ بالسحر والكهانة والشعر والجنون

وهذه محاولة ثانية تتضمن هذه المفردات (سحر، كهانة، شعر، جنون) التي أحاطوا بها الرسول الأعظم ﷺ بقصد الدعاية المضادة، وتسطيح إرادة الغيب وتعويمها، وكسر هيبة تأثيره على المجتمع القريشي ومن حوله من الأعراب.

وقد تظافرت جهودهم حقاً في محاولة لمسخ جهود الرسول ﷺ المتواصلة، واهتمامه غير المنقطع في تبليغ رسالته، فيأتي أسلوب قريش

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي ١٨: ٢٠٣.

(٢) الكامل لابن أثير٢: ٤٧.

هذه المرّة في محاولة لابتزاز الرسول ﷺ، وهزّ إيمان أصحابه المؤمنين به وإضعاف قدرتهم في المواجهة، وتوهين شخصياتهم في المجتمع وأمام الجميع.

فهي إذن حرب إعلامية ضروس، تحشد لها قريش كل ما بوسعها أن تفعله، وكل ما تراه ناجحاً في اكتساح محمد ﷺ، وتحطيم أطروحته التي أخذت تنتقل إلى بيوت قريش وتؤثر على بعض شبابها وبعض عبيدها والمستضعفين وربما بعض أشرافها وأكابرها والعيون، بما يؤشر بتصاعد الأثر المحمدي في بيوت مكة والمدينة.

وتظل قريش تفعل كل ما يرضي نَهمها وجشعها في أن تبقى سيلة الموقف، فيجتمع الأسياد ويتشاورون ويتحاورون ويقررون كيف نبغي محمداً؟

ولعلهم كانوا يستبطنون التصديق به على نحو معنى الآية الشريفة: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1].

جاء في السيرة الحلبية: (ولما نزلت هذه السورة التي هي: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ...﴾ قال أبو لهب لإبنه عتبة أي بالتكبير: رأسي من رأسك حرام إن لم تفارق إبنة محمد يعني رقية رضي الله عنها، وكان أخوه عتيبة (بالتصغير) متزوجاً ابنته ﷺ أم كلثوم ولم يدخل بها فقال: أي ـ وقد أراد الذهاب إلى الشام ـ لآتين محمداً فلأوذينّه في ربّه فأتاه، فقال: يا محمد هو كافر بالنجم: أي وفي لفظ برب النجم إذا هوى، وبالذي دنى فتدلى، ثم بصق في وجه النبي ﷺ وردّ عليه ابنته وطلقها.

فقال النبي ﷺ: «اللهمّ سلط ـ وفي رواية ـ اللهم ابعث عليه كلباً من كلابك»، وكان أبو طالب حاضراً فوجم لها أبو طالب وقال: ما كان

---

(١) النمل: ١٤.

أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة.

فرجع عتيبة إلى ابيه أبي لهب فلخبره بذلك، ثم خرج هو وأبوه إلى الشام في جماعة، فنـزلوا منـزلاً فأشرف عليهم راهب من دير، فقال لهم: إنّ هذه الأرض مسبعة، فقال أبو لهب لأصحابه: إنكم قد عرفتم نسبي وحقي، فقالوا: أجل يا أبا لهب.

فقال: أعينونا يا معشر قريش هذه الليلة، فإني أخاف على إبني دعوة محمد، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، ثم افرشوا لابني عليه ثم افرشوا حوله. ففعلوا ثم جمعوا جِمالهم وأناخوها حولهم وأحدقوا بعتيبة.

فجاء الأسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتيبة فقتله....

فقال وهو بآخر رمق: ألم أقل لكم أن محمداً أصدق الناس لهجة؟ ومات، فقال أبوه: قد عرفت والله ما كان ليفلت من دعوة محمد)[1].

فأبو لهب على ما هو عليه من عداء الرسول ﷺ بالشكل الذي يجعله في طليعة المكذبين والمستهزئين والمؤذين للرسول ﷺ بمختلف أساليب الإيذاء، يكون بالواقع خائفاً مما دعى به محمد ويطلب المعونة المكثفة، بعد بيان مهم يبين أهمية موقعه وشرف انتسابه وأحقيته على القوم، وفعلاً يعينونه ولا يغنوه.

وهذا يدل بوضوح أن كلام الرسول محمد ﷺ ودعوته قد عبثت في مشاعر أبي لهب، وسكنت في أعماق نفسه، ينتظر بكل اطمئنان حصولها على ولده في حينٍ ما، حتى قال عند موت ابنه: قد عرفت والله ما كان ليفلت من دعوة محمد.

و (قد) تفيد التحقيق مع الفعل الماضي، وقد أدّت غرضها هنا، وأتى بالقسم (والله) ثانياً، وأدّى غرضه أيضاً، نافياً بذلك التخلص والانفلات

---

(١) السيرة الحلبية١: ٤٦٨ وانظر المنتخب من ذيل المذيل للطبري: ٨٧.

من دعوة محمد ﷺ، أي هي دعوةٌ محققة الوقوع مؤكدة الاستجابة.

وحتى ابنه الذي زعم أن محمداً كاذب، وآذاه وبصق[١] على وجهه الشريف وطلّق ابنته، ومع كل هذه العجرفة والإسراف والإجحاف بحق الرسول ﷺ، تراه يكشف عن حقيقة مبطنة في نفسه، لكن متى؟ عندما داهمه الموت، ورأى دعوة النبي محمد ﷺ أسداً يفترسه ويهلكه، حيث قال وهو بآخر رمق: ألم أقل لكم أن محمداً أصدق الناس لهجة؟ ومات!!.

والالتفاتة المهمة: هي كون الأسد جاء يتشمم الجميع وكأنه يعلم أن فريسته مُعَلَّمَة برائحة خاصة وهي رائحة غضب رسول الله ﷺ عليه، وإلاّ فالأسد لا يهمه من يأكل ومن يترك إذ يهمه أن يشبع.

أما أن يبحث وينتقي فهذا معناه أن يكون سبباً في استجابة دعوة الرسول ﷺ ويؤكد للقوم إنما هو مبعوث لهذا الغرض لا لغرض الأكل والإشباع.

ولعلهم ـ أي قريش ـ اقتنعوا بعدم جدوى هذه الأساليب المفتعلة أمام محمد ﷺ قلعة الصبر الشامخة، والقمة في الأساليب المقنعة، والرائد في التأثير على نفوسهم وأرواحهم، ولمجرد لقاء واحد معهم حتى وإن حصل اتفاقاً.

محمد ﷺ الذي مهما استخدمت معه من أساليب، تعاظَم شأنه وراجت دعوته، وربما انقلب السحر على الساحر في الكثير من مقاطع المواجهة مع النبي الأكرم ﷺ.

وبعبارة أخرى، صحيح أن هذه المفردات الظالمة أثّرت نسبياً على مسيرة الرسول ﷺ في دعوته الجديدة في بطاح مكة وما حولها، لكنها كانت

---

(١) مع خالص الإعتذار الى رسول الله الأشرف الأقدس ﷺ من ذكر هذه الكلمة القبيحة والموقف القبيح.

بذات الوقت إيجابية إلى حدٍّ ما، فهي تُظهر اضطراب قريش في تقييم حالة الرسول ﷺ وعدم دقتهم في معرفة أمره، أو عدم معرفتهم في كيفية مواجهة الرسول ﷺ وأمره، ليواجهوا به القوم والعرب والأعاجم.

حتى على مستوى الظاهر لم يكونوا يدركوا كيفية التعامل مع حالة جديدة من هذا النوع ظهرت بين ديارهم، ولعل منشأ هذا الاضطراب أنهم أو ـ لا أقل ـ بعضهم كان يعرف أن كلام الرسول ﷺ لم يكن مصداقاً لهذه المفردات الأربع المذكورة.

فلا هو ﷺ فيه مسٌّ من الجنون حتى يُقال عنه أنه مجنون، فكلامه متين، وأخلاقه رائعة، وأسلوبه أخّاذ، وبيانه ماءٌ سلسبيلٌ، وسيرته اليومية تنبع عن توازن وكياسة وتعقّل ورسوخ، ثم أنه يؤثر على عقلاء الناس ويجذبهم بقوة إلى محيطه وفلكه، ويدافعون عنه بقناعة تشبهها الجبال.

وما الداعي أن يتّبع الناس وخصوصاً العقلاء منهم مجنوناً؟ وهم يعرفون ما معنى الجنون وصاحبه، وما المصلحة التي سوف يحققها لهم إنسان همّه الهذيان والولع في العبث بالإنسان؟ إنه اتهام سخيف لا قيمة له.

وكونه شاعراً فقد كانوا هم أهل الشعر ونظّامه، وأسياد البلاغة وصنّاعها، ولا يعرف أحد أكثر منهم في فنونها وأنواعها وصياغتها، وموارد الضعف والقوة والاختلاف والاتفاق فيها، ولا يجدون ما يقول محمد ﷺ من شعرهم وبلاغتهم، أنه أرفع من العروض وأبلغ من البلاغة، وإن كان مؤلفاً من حَرفِهم وكلامهم، وهذا يجعلهم أكثر حيرة في كيفية تفسير الظاهرة المحمدية الجديدة.

وهم أنفسهم لم يقتنعوا بكونه كاهناً، وإن اتهموه بذلك، لكنهم يعرفون أن في الكهانة شروطاً وأموراً لم تكن في شخصية محمد ﷺ، ولا في جوهر أفكاره وظواهر آراءه، فكيف إذن تفكر قريش في الرد على محمد ﷺ؟!.

جاء في السيرة النبوية لابن هشام: (ثم أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفرٌ من قريش، وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم وأن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا ويكذّب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس! فقل وأقم لنا رأياً نقول به.

قال: بل أنتم، فقولوا أسمع.

قالوا: نقول كاهن.

قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهّان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول مجنون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته.

قالوا: فنقول شاعر.

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول ساحر.

قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم.

قالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إنّ لقوله لَحلاوة، وأن أصله لغدق، وأن فرعه لجناة ـ قال ابن هشام: يَغْدَق ـ وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلاّ عرف أنه باطل، وأن

أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون في سبيل الناس حين قدموا الموسم، لا يقربهم أحد إلاّ حذّروه إيّاه، وذكروا لهم أمره، فأنزل الله ﷻ في الوليد بن المغيرة، وفي ذلك من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾[1])[2].

رجلٌ واحد رفض قومُه دعوتَه المفتوحة إليهم وإلى غيرهم من العرب[3] يدعوهم إلى الله ﷻ ويلقي العهدة التي في عنقه الشريف، لم يتهم قومه بشيء.. لم يتعرض لهم بسوء.. لم يعلن عليهم الحرب.. لم يحكم على أحد منهم بالسيف.. مسالم بكل أساليبه، سوى أنه بشير ونذير في كفه بشرى وفي الأخرى إنذار بين يدي عذاب شديد.

إنه لم يحذر حتى القوم الوافدين على قبيلته قريش، وقريش ملئت البطاح ومسالك الحجيج وفجاج الأرض منذرين محذرين من سطوة الروح المحمدية على نفوس القادمين.

هم جماعة وعيون وبطون، وهو ﷺ فرد، هم يتهمونه وهو بعد لم يقل شيئاً بحقهم، هم يحذّرون منه وهو يحذّر من الآخرة ويحذّر منها، وفي اجتماعاتهم يدركون الحقيقة التي عجزوا أن يصنفوها مع ما يعلنون وما

---

(١) المدثر: ١١ ـ ١٦.

(٢) السيرة النبوية ١: ٣٠٢ ـ ٣٠٣، البداية والنهاية ٣: ٧٩، عيون الأثر ١: ١٣٣، السيرة النبوية لابن كثير ١: ٤٩٩.

(٣) نعم إن الرسالة الإسلامية للبشرية جمعاء، ولكن حديثنا عن عهد الإنطلاق الأول.

يتهمون به محمداً ﷺ، فهو ليس بساحر ولا بشاعر ولا بمجنون ولا بكاهن، وذلك ضمن تحقيقهم، وبصورة أدق، ذلك ضمن ما عليه الرسالة من حق واقعي.

ولكنهم مع كونهم يعترفون بعدم دخوله بتلك المصاديق والتي من الضرورة أن يكون من غيرها إذ لم يكن داخلاً فيها، لا يجدون في أنفسهم اعترافاً بنبوته فضلاً عن نصرته، بل يسعون لوضع الحواجز أمام تياره الجليل.

ومثل هذه الرواية في البحار مع تفاوت لطيف تدلك على أن كل من يقتنع أن محمداً ليس بساحرٍ أو مجنون، أو على الأقل بإحداهن يتهم من قبل قريش بانحرافه إلى محمدٍ ﷺ ولو كان من جبابرة الكفر كالوليد بن المغيرة.

روى العلامة المجلسي: (ويروى أن النبي ﷺ لما أنزل عليه: ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ الْكِتَابِ...﴾[1] قام إلى المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فلمّا فطن النبي ﷺ لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية.

فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وأنه له حلاوة، وأن عليه لطلاوة، وأن أعلاه لمثمر وأن أسفله لمعذق، وأنه ليعلو وما يعلى، ثم انصرف إلى منـزله.

فقال قريش: صبأ والله الوليد، والله ليصبأن قريش كلهم، وكان يُقال للوليد: ريحانة قريش، فقال لهم أبو جهل أنا اكفيكموه، فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزيناً، فقال له: ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي؟

---

(١) غافر: ١ ـ ٢.

قال: هذه قريش يعيبونك على كبر سنك ويزعمون أنك زَيّنت كلام محمد، فقام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه.

فقال: تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يخنق قط؟

قالوا: اللهم لا.

قال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتم عليه شيئاً من ذلك؟

قالوا: اللهم لا.

قال: تزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه كأنه ينطق بشعر قط؟

قالوا: اللهم لا.

قال: تزعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟

قالوا: اللهم لا، وكان يسمى الصادق الأمين قبل النبوة من صدقه.

قالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكر في نفسه ثم نظر وعبس، فقال: ما هو إلاّ ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، فهو ساحر، وما يقوله سحر يؤثر) [1].

فلاحظ أن الوليد بن المغيرة لما سمع كلام رسول الله ﷺ تالياً للقرآن الكريم، اعترته الدهشة وأصابت رأسه الحيرة مما سمع فهو ليس شعراً على وجه، وليس كهانة، ولاشيء آخر مما هو متعارف من صنعتهم ومهارتهم المعروفة في فن الحَرف، وبلاغة القول، وصياغة الكلمة.

ولم يكن على زعمه في العرب من هو أضلع منه في هذه الفنون، فابتكر كلمة تنقذه من إحراج القوم في كونه لم يعرف شيئاً، وتنقذه من كونه تعاطف مع محمد ﷺ، وصبا عن دين أجداده إليه من ناحية، ومن

---

(١) بحار الأنوار ١٨: ١٦٨، وشبيهه في البداية والنهاية لابن كثير ٢: ٤١٠.

الخروج بنتيجة سلبية تكون مؤيدة وداعمة للرسول ﷺ والاستمرار في البقاء يكون هو سببها من ناحية اخرى.

فخرج بما يتفق وقصدهم في تمييع الدعوة المحمدية وشل قدرتها في مواصلة التحدي حتى لو كانت هذه النتيجة لا تتفق والحق في نظرهم، ولكنها التهمة التي استقربها الوليد من حالة محمد النبي ﷺ من بقية التهم، ورأى بها أكثر مقبولية من غيرها لوجه التشابه كما يرى هو.

لإن الإيمان بالنبي ﷺ يفرق العلاقة بين المؤمن والكافر، ويجعلها حتماً على مفترق طرق من الناحية الأيدلوجية والنفسية السلوكية، فيظهر لهم من تلك العلاقة أن يترك بل يقاتل الابن أباه كما هو الحال بين عتبة وولده حذيفة، وسهيل بن عمر مع ولده أبي جندل، والأخ أخاه كمصعب بن عمير وأخيه أبي عزيز بن عمير، وغيرهم الكثير.

فكان كلام الوليد الاقتراح المرشح للعمل دون سواه من المطاعن الموهومة المزعومة؛ لذلك اندفعوا يصرخون بوجه الرسول الأكرم ﷺ في الطرقات يا ساحر حتى ثقل النبي ﷺ بذلك.

يقول العلامة المجلسي ؒ في البحار: (أنهم لَمّا اتفقوا أنه ساحر على قول الوليد بن المغيرة لَمّا قال هو ساحر فخرجوا فكان لا يلقى أحد منهم النبي ﷺ إلاّ قال: يا ساحر يا ساحر، واشتد عليه ذلك فأنزل الله ﷻ: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ... ـ إلى قوله تعالى ـ ... إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ عن مجاهد)[1].

وبقيت الدعاية المكيّة تلذع أسماع كل من يأتي لسماع الدعوة أو يستطلع خبر المتمرد على عبادة الأصنام محمد ﷺ، وبقي هذا السوط يدفع جموع الناس عن غاياتهم في الوصول إلى الحق المحمدي المقدس، وعن إسماع نداء الوحي الغيبي، وبقي هذا السوط يرسم حدوداً لا يتجاوزها البعض

---

(١) البحار ١٨: ١٦٨.

إلاّ يشيق الأنفس.

جاء في كتاب مناقب آل أبي طالب: (وذكروا أنه كان إذا قدم على النبي ﷺ وفد ليعلموا علمه انطلقوا بأبي لهب إليهم، وقالوا له: أخبر عن ابن أخيك، فكان يطعن في النبي ﷺ وقال الباطل، وقال: إنّا لم نزل نعالجه من الجنون، فيرجع القوم ولا يلقونه)[1].

أرأيت دجل أبي لهب وافتراءه؟ إنه يزعم أنه يعالج رسول الله ﷺ من الجنون، أرأيت هذا المجنون كيف يتكلم؟ ألم يكن هذا منطق الجنون والجنوح؟ لقد كان أبو لهب أكثر تأثيراً من غيره في تكذيب محمد النبي ﷺ ؛ لذلك ينطلقون إليه عند مجيء جماعة تتساءل عن محمد ﷺ.

ولأنه معروف بمكانته في قريش من بني هاشم ومعروف من جهة القرابة من الرسول ﷺ فهو عمّه، فيكون كلامه أدعى في التصديق، ودعايته أقوى في القبول، وهكذا ابتُلي الرسول الأكرم ﷺ ببلايا ما ابتلي بها نبي غيره.

ولقد كانت تفيض كرامات محمد النبي ﷺ وتفوح معجزاته، بما يدفع الكذابين والمتهمين له فيختزنها رأس أبي لهب ويسميها سحراً تَمُدُّ دماغه بالإصرار على رفض محمد ﷺ، وليست أنواراً تهديه السبيل، وكذا يتجاذب القوم مرددين بين الرفض والقبول، وهم إلى الرفض بسبب أبي لهب وإضرابه أقرب وأميل.

جاء في بحار الأنوار في أسباب نزول قوله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾: (قال: نزلت بمكة فجمع رسول الله ﷺ بني هاشم وهم أربعون رجلاً كل واحد منهم يأكل الجذع ويشرب القربة، فاتخذ لهم طعاماً

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٥١، البحار ١٨: ٢٠٢.

يسيراً بحسب ما أمكن، فأكلوا حتى شبعوا.

فقال رسول الله ﷺ: **«من يكون وصيي ووزيري وخليفتي؟»**.

فقال أبو لهب: هذا ما سحركم محمد، فتفرقوا.

فلما كان اليوم الثاني، أمر رسول الله ﷺ ففعل بهم مثل ذلك، ثم سقاهم اللبن.

فقال لهم رسول الله ﷺ: **«أيكم يكون وصيي ووزيري وخليفتي؟»**

فقال أبو لهب: هذا ما سحركم محمد، فتفرقوا.

فلما كان اليوم الثالث، أمر رسول الله ﷺ ففعل بهم مثل ذلك، ثم سقاهم اللبن.

فقال لهم رسول الله ﷺ: **«أيكم يكون وصيي ووزيري وخليفتي وينجز عداتي ويقضي ديني؟»**

فقام علي عليه السلام وكان أصغرهم سناً، وأحمشهم ساقاً، وأقلهم مالاً، فقال: أنا يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: **«أنت هو»**)[١].

وانتقل الأمر من الدائرة الأُسرية والعشيرة المقربة إلى نطاق القوم في مجال إلقاء الحجة عليهم، وإعطاء عقولهم فرصة التأمل، ونفوسهم مجالاً للاطمئنان، حتى أتى لهم بالشجرة حيث دعاها للمجيء، واعتبرها القوم سحراً، ثم توسع عمله الإعجازي ليكون شاملاً لكل أقطار الأرض، فانشق القمر.

ففي السيرة الحلبية: (فقال رجلٌ منهم: إنَّ محمداً إن كان سحر القمر

---

(١) البحار ١٨:١٨١ـ ١٨٢ نسبها إلى تفسير القمي ٤٧٤.

ـ أي بالنسبة إليكم ـ فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها ـ أي جميع أهل الأرض ـ).

وفي رواية: (لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر هل رأوا هذا؟ فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك).

وفي رواية: (أن أبا جهل قال: هذا سحر، فسألوا أهل الآفاق).

وفي لفظ: (انظروا ما يأتيكم السفار حتى تنظروا هل رأوا ذلك أم لا؟ فأخبروا أهل الآفاق).

وفي لفظ: (فجاء السفار وقد قدموا من كل وجه فأخبروهم أنهم رأوه منشقاً، فعند ذلك قالوا: هذا سحرٌ مستمر ـ أي مطّرد ـ).

وفي لفظ: (قالوا: هذا سحر، أسحر السحرة)، فأنزل الله ﷻ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، فانتهوا هنا في النتيجة إلى ما انتهوا إليه من قبل[1].

وإنك لترى أن هذه المعجزة ـ بعد توثيق القرآن لها ـ قد جاءت ألسن الرواية بها متعددة، وهذا لا يخل في أصل الحدث؛ إذ المعنى الذي ذهبت إليه هذه الألفاظ المتعددة واحد محدد، وهو مقبول عند أهل الأصول والكلام والرجال والحديث أشدّ القبول، ويسمونه في حال كون الحديث متواتراً بالتواتر المعنوي، وهو يفيد الاطمئنان والقطع بصدوره.

وقد دافع القرآن الكريم في هذه ـ كما في أخواتها وكما هو مفترض من أن الله ﷻ يدافع عن الذين آمنوا فضلاً عن الذين أُرسلوا ـ فدفع عنه الشعر، ودفع عنه السحر والكهانة والجنون أيضاً في آياته الكريمات، بعد

---

(١) وانظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١: ٢٨١، عيون الأثر ١: ١٥٠.

أن نقل لنا أقوال القوم موثقاً لصدورها منهم.

القسم الثالث: السبّ والشتم ومحاولات أخرى

واستمرت رحلة العذاب والجهاد للرسول المصطفى ﷺ مع قومه، ولا يلقى من أشرارهم إلاّ المـزيد من الأذى والكثيـر مما يهضم صاحب الحق ويثقله، فهاهم ـ بالإضافة إلى ما كان منهم فيما سبق من الأساليب ـ يملؤون أذنيه الشريفتين بألفاظهم الجارحة حتى التخمة، ويرشقونه بوابل السباب والشتيمة حتى يثخنوه، فلا يجد رداً مناسباً لهم سوى الصمت والصبر الجميل إلى أن يحكم الله وهو خير الحاكمين.

وبلغت الجرأة فيهم أن لا يسموه باسمه الشريف (محمد) بل قلبوه إلى (مذمّم).

روى ابن هشام عن ابن اسحاق: (وكانت قريش إنما تسمي رسول الله ﷺ مذمماً ثم يسبونه، فكان رسول الله ﷺ يقول: «ألا تعجبون لما صرف الله عني من أذى قريش يَسبون مذمـّماً، وأنا محمد»)[1].

أما أمية بن خلف فكان من الجادين في شتم رسول الله ﷺ ليلاً نهاراً، بل كلما يراه أمام عينيه؛ ولأنه لا يطيق أن يرى ذلك الخلق المنيف، وتلك الطلعة البهية، وتلك القيم وهي بشر يخطو على الأرض.

كان يهمزه ويلمزه ويتعمّد إيذائه، حتى استحق بذلك البشارة بالنار مع الاستفاضة في ذكر أوصافها الغليظة في القرآن الكريم.

فقد ورد عنه في سيرة ابن هشام: (وأمية بن خلف بن وهب بن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢:١٠، قال عنه: أخرجه البخاري في كتاب المناقب ٤:١٦٢، والذهبي في تاريخ الإسلام ١٤٧.

حذافة بن جمح، كان إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾[1].

قال ابن هشام: الهمزة: الذي يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه عليه، يغمز به.

قال حسّان بن ثابت:

همزتُك فاختضعت لذلّ نفسي بقافيةٍ تلجّجُ كالشُّواظ[2]

ثم لا تفوت أبا جهل بن هشام هذه الرذيلة الأخلاقية كما لم تفته رذيلة السب والتكذيب والاستهزاء، فبادر بكل عصبيته يغيض الرسول ﷺ، يسبّه ويشتمه ويتوعده وينال منه ومن دينه.

وهو يعرف من محمد ﷺ شرفاً ونسباً، أمانةً وصدقاً، نزاهةً ولطفاً، وهم كانوا يعرّفونه بذلك، وإذا حاوروه يذكرون هذا الحق المتعارف عندهم له، فقد جاء في كلام عتبة بن ربيعة ما يلي: (فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منّا حيث علمت من السلطة ـ الشرف ـ في العشيرة والمكان في النسب)[3].

ولكن هذه المرة لم تمر على أبي جهل دون أن يلعق الذل بفعلته، ويُشَجُّ رأسُه بسوء صنيعه، ثم يُهان أمام الملأ من قريش دون أن يتمكن من

---

(١) سورة الهمزة بكاملها.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٢٣٨، سبل الهدى والرشاد ٢: ٤٦٤

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣٢٢:١.

الرد حتى ولو بكلمة واحدة.

ففي السيرة النبوية قال ابن اسحاق: (حدثني رجل من أسلم كان واعية: أن أبا جهل مرّ برسول الله ﷺ عند الصفا، فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب بدينه، والتضعيف لأمره، ومولاة لعبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه فعمد إلى نادٍ من قريش عند الكعبة فجلس معهم.

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب ﷺ أن أقبل متوشحاً قوسه، راجعاً من قَنَص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قَنصه لم يصل إلى أهله، حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على نادٍ من قريش إلاّ وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعزّ فتىً في قريش وأشد شكيمة.

فلمّا مرَّ بالمولاة، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته.

قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقيَ ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام: وجده هاهنا جالساً فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ.

فاحتمل حمزة الغضب لِما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى، ولم يقف على أحد مُعِدّاً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به.

فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس، فضربه بها فشجّه شجّة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ فردّ ذلك عليّ إن استطعت.

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبّاً قبيحاً.

وتم حمزة ﷺ على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله.

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه) [(١)].

القسم الرابع: الاستهزاء والسخرية برسول الله ﷺ

واستمر الرسول المصطفى ﷺ يعاني سفه قريش، ويعاني أسلحتهم الإعلامية التقليدية المنغّصة له، وهاهو ﷺ يقف أمام أسلوب آخر من أساليب فراعنة قريش اللاإنسانية واللاقِيَمية التي شرعت قواها المخربة بوجه رسول الله ﷺ.

فيقف جماعة منهم ـ وبكل وقاحة وصلف ـ أمام شخص النبي الأجل ﷺ؛ لكي تتلَون أوضاعهم الجسدية والخلقية حتى يكون الرسول ﷺ مجالاً لاستهزاء الآخرين وتبكيتهم بسبب هذه الفرعنة الساخرة.

وقد جاء هذا الأسلوب معارضاً لصميم الرسالة المحمدية، التي تحترم الإنسـان وتحرِّم الاستخفاف به ولو كان ذا عيوب، الرسالة التي تريد للبشر التكامل وفق جسور أخلاقية، وثوابت تربوية، من أهمها عدم المساس بالغير بما يسيء لكرامته ووجوده واعتباراته.

الرسالة التي تريد للقاصر أن يُعال، وللمصاب أن يُرحم، فضلاً عن عدم جواز إهماله وخذلانه والسخرية به، ناهيك عن السوي المستقيم الذي لا مجال للعيب فيه، فسوف يكون الأمر أشد ضبطاً واحترازاً.

إن المستخفين بالإنسان والذين لا يرون له قيمة ما دام يدعو بخلاف آرائهم فلابدّ أن يطارد بكل الوسائل، ولو كان محمداً خير الخلق وأفضل الموجودات وأكملها صلوات الله عليه وعلى آله.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١:٣٢١ـ ٣٢٢، والسيرة الحلبية ١:٤٧٧ المنمق: ٣٤٠، تاريخ الطبري ٢: ٧٢. عيون الأثر ١: ١٣٨، سبل الهدى والرشاد ٢: ٣٣٢.

قال ابن الأثير في كامله: (ومنهم الأسود بن المطلب بن أسد بن العزى بن قصي، وكان من المستهزئين، ويُكنّى أبا زمعة، وكان وأصحابه يتغامزون بالنبي ﷺ وأصحابه ويقولون: قد جاءكم ملوك الأرض، ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر ويصفرون به ويصفقون) [١].

وفي السيرة النبوية: (فقال أبو جهل يوماً يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق: يا معشر قريش، يزعم محمد إنما جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً وكِثرة، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم؟

فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [٢]، إلى آخر القصة) [٣].

يقول ابن الأثير في كامله: (فمنهم عمه أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب، كان شديداً عليه وعلى المسلمين، عظيم التكذيب له، دائم الأذى، فكان يطرح العذرة والنتن على باب النبي ﷺ وكان جاره.

فكان رسول الله ﷺ يقول: «أي جوار هذا يا بني عبد المطلب؟!» .

فرآه يوماً حمزة فأخذ العذرة وطرحها على رأس أبي لهب... إلى آخر الرواية [٤].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢: ٥٠، انظر البداية والنهاية لابن كثير ٣: ١١٢، انظر سبل الهدى ٢: ٤٦١

(٢) المدثر ٢١.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٢٠٦، عيون الأثر ١: ١٤٤، سبل الهدى والرشاد ٢ : ٣٥٠.

(٤) الكامل في التاريخ ٢: ٤٧.

الإسلوب الثاني: الإرهاب النفسي

وهكذا انتهى الكلام عن واحد من أطوار الإرهاب القريشي الذي واجهه الرسول محمد ﷺ من قومه، وإن كان ذلك متخللاً في كل الأطوار الأخرى، غير متميز عنها بفترة زمنية، إلاّ أنه يمكن القول بأن الإرهاب النفسي كان من أولويات قائمة الإرهاب السوداء التي فرضتها قريش على مسرح الأحداث في تلك الفترة الممتلئة بالأحداث والمزدحمة بالمتغيرات.

ويصح القول أيضاً:

أن الحديث عن الإرهاب الفكري يمكن أن يكون وبلحاظ ما داخلاً في الإرهاب النفسي والجسدي الذي مارسوه بحق الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين به، كما أن الإرهاب الاقتصادي بلحاظ ما يُعدّ إرهاباً نفسياً.

إلاّ أن طبيعة الأحداث التي واجهها الرسول ﷺ فرضت هذا النوع من التقسيم[(١)].

وإذا كان الرسول ﷺ يتجاوز المحن التي تواجه أفكاره بصبر تحسده عليه الجبال، وحلم لا يحمله أحدٌ من الرجال، ويجابهها بالرد الجميل، وربما بشيء من العتب القليل، أو التحريض على الرفض والسعي إلى النقض.

كما كان يقول ﷺ عندما يشتدّ به الأذى، ويحيط به الهم ويرى من القوم نزوعاً لا أخلاقياً، يتنافى حتى مع ما كانت عليه العرب من حفظ الذمة ورعاية الجار والجوار.

كان يقول كلاماً تقرأ منه لوعة الرسول ﷺ وتلمس منه مرارة

---

(١) وحسبنا أن بين كل قسيم وقسيم أوجه افتراق وتباعد تجعل منه مستحقاً لأن يكون قسماً برأسه مستقلاً عن قسيمه، وإن كانا يلتقيان من جهة أخرى: لأن جميع الأقسام يجب أن تلتقي بالمقسم الذي هو مشترك بين الجميع.

الأسى والحزن في نفسه الشريفة، كلاماً تقرأ منه تهتك القوم وتجاوزهم كل الخطوط، كلاماً يقطر له الفؤاد ألماً ويَلفُ النفس وجعاً، والروح زفرةً وغيضاً: «أيّ جوار هذا يا بني عبد المطلب».

وربما كان يتعاظم الأمر ويتفاقم فيضطر ﷺ معه للدعاء عليهم بما هم يستحقونه، وقد تحصل ـ أحياناً ـ أن يهددهم الرسول ﷺ بأن المستقبل يحمل لأمثالهم الهلاك والدمار وخراب الديار وهو يجوز الطريق، ولكن من أكَمَةٍ إلى أختها أكمةٍ أشدّ منها وأكثر ضهداً له، ولكن من كان مع الله ﷻ كان الله ﷻ معه.

ما كان محمد ﷺ على سليقة القوم، مستكثراً المال، ومتخذاً الزوجات، ولاصاحب المتع، أو الباحث عن السيادة، ليس هو الظالم ولا الطالب بغير حق، والمندفع لعملٍ ما دون ضمير، ولا المتحدّث لأجل الحديث، ولا الطامع بدنيا قريش ومجدها المؤثل.

إنما هو رجل يسبّح الله ﷻ وينـزّهه ﷻ، ولكن هذا التسبيح والتنـزيه يعارض بكل قوة آلهة الرأي، وآلهة الجشع، وآلهة الأنا، وأرباب الأصنام.

قال السيّد الطباطبائي: (وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه والديلمي عن أبي الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما أوحيَ إليّ أن أكون تاجراً، ولا أجمع المال متكاثراً، ولكن أوحيَ إليّ أن: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾**»)[1].

لذلك كان ﷺ يطوي نفسه جوعاً لشدة ما يلاقي، ويلتحف الثرى تحت وطأة الاستنكار الشديد له وإن كان في نفسه أُنسٌ بجنب الله ﷻ، وحلاوة تخفف عليه حرارة النهار ألا وهي حلاوة التعلق بالله ﷻ خير ناصر وخير معين.

---

(١) الميزان ١٢: ١٩٨.

وفي البداية والنهاية: (قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن حمادة بن سلمة عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أوذيت في الله وما يُؤذى أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة، ومالي ولبلال ما يأكله ذو كبد إلاّ ما يُواري إبط بلال») [١].

ولقد كانت مظاهر التعذيب لرسول الله ﷺ وأصحابه كثيرة، وهذا الإرهاب له وأصحابه ذو ألوان وأشكال تتناسب ونظام التعددية عند قريش، فهم أصحاب الآلهة المتعددة لا الإله الواحد، وأصحاب الرأي المتعدد لا الرأي الواحد، وهم أصحاب الأسياد وليس السيد الواحد، وأصحاب الأهواء المتعددة وليس الهوى الواحد.

فلا غرابة أن جاء إرهابهم متسقاً وأهوائهم، لنرى الرسول محمداً ﷺ يواجه هذه الأساليب جميعاً ويقف بوجهها متصدياً ما أمكنه السبيل، فمنها على سبيل الاستعراض:

القسم الأول: إلقاء الشوك والنار في طريقه ﷺ

فقد اتفقت كلمة المصادر على أن أم جميل كانت تحمل حَطَباً تضعه في طريق الرسول ﷺ إذا مشى، وتضرمه ناراً موقدة، تريد بذلك الإعلان عن رفضها لرسالة النبي ﷺ وبأبشع الصور، حتى أدانها القرآن الكريم هي وزوجها أبا لهب، ووصمهم بعار النار الخالدة إلى ابد الآبدين في قوله ﷻ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . . .وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [٢].

وقيل إنها كانت تثير القوم وتهيّج حنقهم على رسول الله ﷺ وتوقد نار العداوة والبغضاء بينهم، ففي البحار ما يؤيد هذا المعنى: (﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي

---

(١) البداية والنهاية ٣: ٦٢، السيرة النبوية لابن كثير١: ٤٧٢.

(٢) سورة المسد

لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أي خسرت يداه أو صفرتا من كل خير، وهو ابن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وامرأته وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ كانت تحمل الغَضا والشوك فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ إذا خرج إلى الصلاة ليعقره.

عن ابن عباس، وفي رواية الضحاك: قال الربيع بن أنس: كانت تبث وتنشر الشوك على طريق رسول الله ﷺ فيطأه كما يطأ أحدكم الحرير، وقيل أنها كانت تمشي بالنميمة بين الناس فتلقي بينهم العداوة، وتوقد نارها بالتهيج كما يوقد النار....)[١].

القسم الثاني: إلقاء السلى والقاذورات والدماء عليه ﷺ

وهو من أتفه الأساليب التي واجهها الرسول ﷺ ولعلها من أكثرها ثقلاً عليه، وخصوصاً أن الرسول ﷺ لما كانت تلقى عليه هذه المسميات (السلى، الفرث، الدماء) وغيرها، وهو في أوج الصلة مع المولى الأجل تبارك وتعالى على صعيد الممارسة العملية لهذه الصلة.

أي أنه كان يصلي وفي بيت الله الحرام، وهل يهون على المرء وهو في حال العبادة والانقطاع إلى الله ﷻ أن يُقذف عليه ما من شأنه أن يفك الصلة مع الله من جهة نجاسته، ومن جهة كونه مُربكاً للمصلي باعتباره اعتداء خارجي عليه، وإلقاء مادة ما عليه ﷺ حتماً ستشغله عن المتابعة التي يريدها لنفسه الشريفة.

وهو النبي الزاكي لا العابد العادي، أو الإنسان الذي يسهل عليه ترك عبادته، وهو الإنسان الذي أحوج ما يكون إلى الصلاة؛ لأنها المد الطبيعي له ﷺ والمعين الأوحد الذي يتزود منها الصبر وقدرات الاستمرار وتمكين

---

(١) البحار ١٨:١٧٥

ترسانته الداخلية النفسية لمواجهة مرارة الأحداث، ومن ثم اعتداء من ناس أهل شرك وكفر ونجس.

وفوق هذا وذاك لا يرى له ناصراً عليهم إلاّ الله ﷻ وعمّه أبو طالب وابنته الزهراء ﷺ والذي يوجع الجنان أنهم كانوا يتمايلون من الضحك، استهزاءً وسخرية بالرسول ﷺ وصلاته حتى يقع أحدهم على الآخر.

ولم ينتهوا من ذلك إلاّ على رفيف أجنحة كلمات الرسول ﷺ ودعائه عليهم هذه المرة وعلى بعضهم بالخصوص، فيهدأ الجمع وتسكن أنفاسه على التخوف مما دعى به الرسول ﷺ، والرعب مما سيجلبه لهم في المستقبل.

جاء في البداية والنهاية: (قال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق عن عمرو بن صحون عن عبد الله، قال: ما رأيت رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يوم واحد، فإنه كان يصلي ورهط من قريش جلوس وسلا جزور قريب منه.

فقالوا: من يأخذ هذا السلا فيقلبه على ظهره؟

فقال عقبة بن أبي معيط: أنا، فأخذه فألقاه على ظهره، فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة فأخذته عن ظهره، فقال رسول الله ﷺ: «**اللّهم عليك بهذا الملأ من قريش، اللّهم عليك بعتبة بن ربيعة، اللّهم عليك بأبي جهل بن هشام، اللّهم عليك بعقبة بن أبي معيط، اللّهم عليك بأبيّ بن خلف ـ أو أمية بن خلف ـ** »شعبة الشاك.

قال عبد الله: فلقد رأيتهم قُتلوا يوم بدر جميعاً، ثم سحبوا إلى القليب غير أُبيّ ـ أو أمية ـ بن خلف فإنه كان رجلاً ضخماً فتقطع.

وقد رواه البخاري في مواضع متعددة من صحيحه، ومسلم من طرق عن أبي إسحاق، والصواب أمية بن خلف فإنه الذي قتل يوم بدر، وأخوه

أُبيّ إنما قتل يوم أُحد كما سيأتي بيانه.

والسلا: هو الذي يخرج مع ولد الناقة كالمشيمة مع ولد المرأة، وفي بعض ألفاظ الصحيحين أنهم كلما فعلوا ذلك استضحكوا حتى جعل بعضهم يميل على بعض، أي يميل هذا على هذا من شدّة الضحك (لعنهم الله).

وفيه أن فاطمة لما ألقته عنه أقبلت إليهم فسبّتهم، وأنه ﷺ لما فرغ من صلاته رفع يديه يدعوا عليهم، فلما رأوا ذلك سكن عنهم الضحك، وخافوا دعوته، وأنه ﷺ دعا على الملأ منهم جملة وعيّن في دعائه سبعة، وقع في أكثر الروايات تسمية ستة منهم وهم:

عتبة، وأخوه شيبة ابنا ربيعة، والوليد ابن عتبة، وأبو جهل بن هشام، وعقبة بن أبي معيط، وأمية بن خلف، قال ابن اسحاق: ونسيت السابع.

قلت: وهو عمارة بن الوليد وقع تسميته في صحيح البخاري) [1].

وذكرها في البحار مع التصريح بأن الذي أمر بإلقاء السلا على الرسول ﷺ وهو يصلي، هو أبو جهل ابن هشام والذي استجاب له عبد الله بن الزبعرى وليس عقبة ابن أبي معيط، ثم نبّت ما حصل على أنقاض هذه الحادثة من ردود فعل للرسول ﷺ وأبي طالب عمّه.

قال ابن عباس: (دخل النبي ﷺ الكعبة وافتتح بالصلاة فقال أبو جهل: من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته؟

فقام ابن الزبعرى وتناول فرثاً ودماً وألقى عليه.

---

(١) البداية والنهاية ٢: ٣٨٧ ـ ٣٨٨، السيرة النبوية لأبي الفداء ١: ٤٦٨، وأشار لها الطبري ٢: ٣٤٣، وأشار لها في البداية والنهاية ابن كثير ٢: ٥٠٦.

فجاء أبو طالب وقد سلّ سيفه، فلما رأوه القوم جعلوا ينهضون، فقال:

والله لَئِن قام أحد جللته بسيفي، ثم قال: يا ابن أخي من الفاعل بك؟

قال: «هذا عبد الله»

ثم تابع صاحب بحار الأنوار حديثه قائلاً: (وفي روايات متواترة أنه أمر عبيده أن يلقوا السلى عن ظهره ويغسلوه، ثم أمرهم أن يأخذوه فيمّروا على أسبلتهم بذلك).

ومضى مؤكداً الرواية من مصادر أخرى:

(وفي رواية البخاري أن فاطمة ﷺ أماطته، ثم أوسعتهم شتماً وهم يضحكون، فلمّا سلّم النبي ﷺ قال: «**اللّهم عليك بهذا الملأ من قريش، اللّهم عليك أبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة وعقبة بن أبي معيط وأمية بن خلف**».

فو الله الذي لا إله إلاّ هو ما سمّى النبي ﷺ يومئذٍ أحداً إلاّ وقد رأيته يوم بدر وقد اخذ برجله يُجَرّ إلى القليب مقتولاً إلاّ أمية فإنه كان منتفخاً في درعه، فتزايل من جره فأقروه وألقوا عليه الحجر)[1].

وليس في الروايتين تنافٍ فيحتمل أن يكون مواضع الخلاف فيها من جراء نقل الرواة، ويحتمل أن تكون الحادثة متكررة مع الرسول ﷺ لأكثر من مرة، وما ذلك من قريش ببعيد، ويحتمل أن يكون الذي قام بفعل الإلقاء عقبة بن أبي معيط، وعبد الله بن الزبعرى على سبيل المشاركة والمباشرة سوية أو على سبيل التناوب، وفي نفس الحادثة.

---

(١) بحار الأنوار ١٨:١٨٧ ـ ١٨٨.

وإذا أخذنا براوية البحار فيكون عبد الله بن الزبعرى هو القائم بالعمل أو السابق له، وعلى أية حال فقد استقرت كلمة الرواة على ما فعله الملأ من قريش في طرحهم السلا والدم والفرث على رسول الله ﷺ وهو يصلي بالحرم كما تقدم في المصادر المذكورة.

هذا أولاً، وثانياً: كانوا لا يكتفون بطرح هذه القاذورات على رسول الله ﷺ إنما كانوا أيضاً يطرحونها على باب داره إيغالاً منهم في الاستهانة برسول الله ﷺ، وتأكيداً منهم على شجبهم لرسالته ﷺ، وإبرازاً منهم لخُلق جاف صعب لا يليق لأن يصدر من إنسان بإزاء عدوه. فكيف والفاعل أبو لهب عم الرسول؟ ولا يليق بإنسان أن يفعله بدار الغرباء فكيف والرسول ﷺ مجاور لهم، وللجار ذمة كما هو معروف.

ولا يليق أن يفعله الإنسان بمن يسيء له ويستهتر بحقّه، فكيف يليق بمن لم يؤذهم هم، وإنما جاء ليحفظ لهم كرامتهم وذممهم، ولا يليق أن يفعل بمن له عشير وقوم ينصرونه ويذبون عنه، فكيف يليق أن يفعل بإنسان تجرد عنه القريب والبعيد إلاّ ما شاء الله وقليلٌ ماهم ولا حول ولا قوة لهم في الدفع عن رسول الله ﷺ.

إذاً هو الوحيد الغريب في قومه، رغم كثرة عشيره وقربهم منه، ورغم شرافتهم على الجميع إلاّ أنه المستضعف الأول من بين خلق الله، وللظرافة أنهم استضعفوه لأنه أراد لهم التحرر من الضعف، واستنقاذهم من قبل سراق الإرث والتراث، وسراق الحقوق وأصحاب العقوق.

فكانوا يلطخون بابه ويضعون عليه سلا الجزور، وهو لا يلقى ذلك بأكثر من كلمات يرق لها القلب ويفرح بها السمع، معاتباً عمومته؛ لأنه ﷺ يرى أن الحق يقع عليهم في الدفاع عنه، لا أن يكونوا أول من يَهجم عليه ويتجاوز ـ وبأنكى ما يكون ـ عليه.

وحالة ثالثة: أن يلقوا هذه السلى المشؤومة بما تحمل من قاذورات

ودماء وأوساخ في قدره، وكيف لا يضيق إنسان من كل هذا فلم يكتفوا بإلقاءها على جسده الشريف.. على الدار.. على الجدار.. على الباب، وعلى القباب، بل يلقونها في قدره.

وأي امرئ لا تتقزز نفسه من ذلك، وأيهم لا يشعر بالطعنة في الصميم من هذه السلوكيات الحرجة المزعجة.

ففي السيرة النبوية عن ابن إسحاق: (وكان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبا لهب، والحكم بن العاص بن أمية، وعقبة ابن أبي معيط، وعدي بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهُذلي، وكانوا جيرانه لم يسلم منهم أحد إلاّ الحكم بن العاص.

فكان أحدهم ـ فيما ذُكر لي ـ يطرح عليه ﷺ رحِم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها في برمته [1] إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حِجراً يستتر به منهم إذا صلى.

فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى ـ كما حدثني عمر بن عبد الله بن عروة بن الزبير ـ يخرج به رسول الله ﷺ على العودة، فيقف به على بابه ثم يقول: «يا بني عبد مناف، أي جوارٍ هذا؟!» ثم يلقيه في الطريق) [2].

ولقد جاء كل هذا في فترة حرجة من دعوة الرسول ﷺ فلقد كان من بين قريش ومن بين عشيرته وعمومته من يحميه ويصد عنه، وكان هناك من يتحمل التهديد والوعيد من أجل محمد ﷺ.

وكان رجل منهم يصلح أن يقال عنه مظلّة محمد ﷺ التي تحميه بدورها، وينطلق منها لخصمه، ويأمل منها أن تكون اسماً على مسمّى، مظلة

---

(١) البرمة: القدر من الحجر.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢:٦٤.

من مجازفات قريش ومظلة من مجازفات بني عبد مناف، ومظلة من حرارة الإعراض عنه ولهيب المواجهة معه.

كان ذلك الرجل هو أبو طالب، مؤمن قريش، والمصدّق بمحمد ﷺ ورسالته، فلقد روي عنه أنه قال في يوم ما أمام قريش لما جاءته شاكية من محمد ﷺ: (والله ما كذّبتُ ابن أخي قطُّ فارجعوا) [١].

ذلك الرجل الذي فقده الرسول ﷺ وفقد معه قلعة صامدة أمام تيار الأعداء، ومتصدّياً صلباً لنواياهم في النيل من محمد ﷺ والكيد به والتجاوز عليه.

أما الآن فمحمد ﷺ يجاهد من غير أبي طالب، ويواجه القوم من غير عمه الوفي النبيل والملتزم الأصيل، الذي لم يفرّط بمحمد ولا بعلقته، ولم يهدر حقاً له، وإنما عاش معه في السرّاء والضرّاء، الجوع والعطش، الوحدة والإقصاء والغُربة، المقاطعة والتضييق، وتضييع الحق وهدر القدر.

عاش مع محمد ﷺ كل الأصناف التي واجهتها الدعوة من الأذى وكل العراقيل التي وضعت أمام النبوة، ولكن تجاوزها ببراعة وكفاءة وكِبَر وترفّع.

ومات أخيراً على دين ابن أخيه لينتقل إلى جنب الله ﷻ راضياً مرضياً، ولكن ترك محمداً ﷺ فصارت قريش من بعده تتجاسر وتشهر ضبى وحشيتها على الرسول ﷺ بكل وقاحة وعناد وإصرار.

تلقي عليه السلى وتشتمه.. تلقي عليه التراب.. تطارده وتفعل ما يحلوا لها وما تريد، فيذكر الرسول ﷺ أهمية وجود أبي طالب ـ وإن لم

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢:١٨٧. وقال عنه رواه البخاري في التاريخ عن محمد بن العلاء عن يونس وقال عنه الدكتور عبد المعطي قلعجي الذي وثّق اصول دلائل النبوة وأخرج أحاديثه وعلّق عليها: (رواه البخاري في التاريخ الكبير ٤:١:٥١).

يكن ناسياً ـ، ويقول ابن هشام متحدثاً عن سفيه من سفهاء قريش وما أصاب النبي ﷺ من ذلك:

ففي السيرة النبوية: (فلما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه التراب.

قال ابن إسحاق: فحدثني هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير قال: لّما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله ﷺ ذلك التراب دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله ﷺ يقول لها: **«لا تبكي يابنيّة! فإن الله مانع أباك»**. قال: ويقول بين ذلك: **«ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»**)[1].

القسم الثالث: تطليق بناته ﷺ

ثم في خطوة جديدة من قريش وخصوصاً أبي لهب خطاها مع رسول الله ﷺ ليبدأ بفكرة القطيعة، القطيعة غير المعلنة بشكل رسمي من قريش ببيان وإعلان وصحيفة معلقة.

لا، وإنما عن طريق بتر بعض العلائق العائلية، وإقصاء لبعض من يتعلق برسول الله ﷺ عن دائرة التفاعل بالحياة، والعمل بمشروع التأهيل، إنها خطوة تُجرّئ قريش على الرسول ﷺ أكثر من قبل، وتوسع دائرة العداء معه، وتصعد موقف الإيذاء له وتحميله كل شيء يمكن أن يربكه أو يوقفه.

فلما تحدّت السماء أبا لهب وبشرته بنار ذات لهب، ظل يبحث عن كل ما بوسعه أن يطعن النبي ﷺ به: التكذيبُ، السخرية، التأليب عليه،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٦٥، وذكرت في البداية والنهاية ٢: ٥٠٥.

إحاطته بالدعاية السلبية، الحضور الفاعل في أندية قريش للمشاركة مع أعداء رسول الله ﷺ عن كثب، تحريضه لامرأته واستثمار دورها في تعقيب الرسول ﷺ بالنار والشوك والحجارة والمساعي الخبيثة لتفسد عليه أمره، وتحريض أبناءه عتبة وعتيبة ضد رسول الله ﷺ.

كان أبولهب بمثابة القنبلة الملغومة في طريق رسول الله ﷺ، تبعث شظاياها في كل جهة يتوجهها الرسول ﷺ، فقد كان الرجل قد وظّف دخيلته الخبيثة وانتقامه الحاد في خدمة بطون قريش، وألقى بكل ثقله في معركة المواجهة.

وكانت بعض شظايا تلك القنبلة أنه أمر أولاده بتطليق بنات رسول الله ﷺ: (ولما نزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ...﴾ قال أبو لهب لابنه عتبة (أي بالتكبير): رأسي من رأسك حرام إن لم تفارق ابنة محمد ـ يعني رقية رضي الله تعالى عنها فإنه كان تزوجها ولم يدخل بها ـ ففارقها، (ووقع في كلام بعضهم طلقها لما أسلم فليتأمل).

وكان أخوه عتيبة (بالتصغير) متزوجاً ابنته ﷺ أم كلثوم ولم يدخل بها فقال: ـ أي وقد أراد الذهاب إلى الشام ـ لآتين محمداً فلأوذينّه في ربّه فأتاه، فقال: يا محمد هو كافر بالنجم: أي وفي لفظ برب النجم إذا هوى، وبالذي دنى فتدلى، ثم بصق في وجه النبي ﷺ ورد عليه ابنته وطلقها...)[1] إلى آخر الرواية التي جئنا بها فيما سبق كاملة.

ولقد أورد البيهقي الرواية بشكل أوضح، وبيان أملح: (وفيما أخبرنا أبو عبد الله، قراءة عليه، قال: كانت أم كلثوم ـ يعني ابنة رسول الله ﷺ ـ في الجاهلية تحت عتيبة بن أبي لهب، وكانت رقية تحت أخيه عتبة ابن أبي لهب.

فلما أنزل الله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ قال أبو لهب لابنيه

---

(١) السيرة الحلبية ١:٤٦٨.

عتبة وعتيبة: رأسي ورؤوسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد.

وسأل النبي ﷺ عتبة طلاق رقية، وسألته رقية ذلك، وقالت له أم كلثوم بنت حرب بن أمية ـ وهي حمّالة الحطب ـ: طلقها يا بني فإنها قد صبت فطلّقها.

وطلّق عتيبة أم كلثوم، وجاء النبي ﷺ حين فارق أم كلثوم فقال: كفرت بدينك وفارقت ابنتك، لا تحبني ولا أحبك، ثم تسلّط على رسول الله ﷺ فشقّ قميصه، فقال رسول الله ﷺ: **«أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه»**.

فخرج نفر من قريش حتى نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء ليلاً فأطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتيبة يقول: يا ويل أمي هو والله آكلي كما دعا محمد عليّ، قتلني ابن أبي كبشة وهو بمكة وأنا بالشام، فعوى عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فضغمه ضغمة فذبحه) [١].

القسم الرابع: تهديد كل من يتبعه بالحبس أو الضرب أو القتل

ولم تسلم قواعد الرسول ﷺ الإيمانية من آتون قريش بل شملتهم المحنة، وحاصرتهم يد الإرهاب، وأسلمتهم إلى عذاب شديد، رغم أن بعضهم فتية وبعضهم شيوخ، أو بعضهم نساء والبعض منهم أولاد للأكابر من قريش، وبعضهم من العبيد المستضعفين.

إلاّ أن سياط الطغاة من أم القرى لهبت الجميع والمستضعفين منهم خاصة، وكان الاختبار الصعب لإيمان الجميع بمن فيهم من لم يكن تحت طائلة قريش إذ كان داخلاً في حلبة الصراع في جهة من الجهات، وعليه أن يقف الموقف الرسالي المحمدي الرائد.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢:٣٣٩.

فلم تخلو بطاح مكة اللاهبة، وهجيرها اللافح يوماً من الأيام من صراخ المعذبين وأنين العراة الموسدين عليها، ولا تخلو تلك البطاح من غضب الناقمين على محمد ﷺ وآل محمد ﷺ وأتباع محمد ﷺ إذ كان صراخهم يملأ الفجاج:

اكفروا بمحمد واعترفوا بألوهية اللات والعزى وهبل، ولكن لا ترجع عليهم تلك الآفاق الساخنة المفتوحة إلاّ أصداء: أحدٌ، أحد.

حتى الذين كانوا في البيوت كانوا يرزحون تحت وطأة الحديد والتهديد، بل الذين هاجروا طالتهم يد قريش بالأذى، وقد نجوا بعقيدتهم وجلودهم من الافتتان ليلاحقهم عمرو بن العاص وأزلامه مبعوثين بخديعة قريش للملك الذي لا يُسلِّم جاره ولا يحط قدر من استجار به: النجاشي.

وذهب أصحاب محمد ﷺ ولم تزل بصماتهم على صحراء مكة تحكي لنا قصص العقيدة والمبدأ، ذهب أصحاب محمد ﷺ ولم تبرح لمسات أجسادهم على أديم الأرض تقصّ لنا بطولات الرعيل الأول من المجاهدين في سبيل الله ﷻ.

ذهب أصحاب محمد ﷺ ولم نزل ننشق في هواء مكة عبق العظمة الذي خلفوه هناك، ولم نزل نرى أُسطورة المواجهة تحكيها الرمال وتسطرها الصخور التي سُطِّرَت على صدور الرجال المعَذَّبين.

لقد ذهب صنّاع التاريخ ولم تذهب صنائعهم بل بقوا صوراً ترويها النفوس عندما تحس بأنغام الولاء تعزف سمفونية الخلود على أوتار التابعين ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[1].

الحق إنها قصص تنال منك شغاف القلب هولها، وتنتزع منك الدموع كِبراً وإعجاباً للصامدين في سبيل محمد ﷺ، وتوقض منك الروح

---

(١) آل عمران: ١٤٠.

لكي تستفيق على شراع الحب الذي صنعه محمد ﷺ وشائجَ أقوى من الفولاذ، وتبحر فيك إلى عمق التاريخ وهو متلاطم بأمواج الفتنة وتيارات المحنة في وهج النهار المشمس، وهزيع الليل وهو يهجر أنفاسه بخمول.

محمد ﷺ وصحبته ﷺ حديث الجميع، حديث أبي سفيان، أبي جهل، أبي لهب، حديث السياط والحجارة والطرقات، وحديث المخدَّرات في بيوت مكة، لم يبق شيء يقوى على السكوت البارد ومحمد ﷺ قد ثوَّر الجميع.

وراحت الأرض تموج تحت أقدام رجال مكة كثيباً مهيلاً غداة أصحابه ﷺ يواجهون لظى المذعورين من محمد ﷺ وسعير الخائفين على أنفسهم منه ﷺ، الخائفين على عبيدهم ونسائهم وقرارهم وهمجيتهم وفسقهم، فمحمد ﷺ نذير تغيير لابدَّ أنه سيلفهم في يومٍ ما.

وراحت قافلة المعذبين تسطر لنا ما يملأ الخافقين وحتى بطون كتب التاريخ من تلك الإرادات العَصية على العِدى، وتلك النوايا التي لم تثلمها إرهاصات أبي جهل وجهله وجهّاله.

ولكن نظرة إلى تلك الأيام، وتلك الآلام، وتلك المخطوطة التاريخية التي كتبها ركام الزمان لصحابة محمد ﷺ بماء الفتح وأريج الخلود، نرى فيها أن قريش كانت تتفنن في ألوان العذاب وانواع الممارسات الارهابية معهم، ونرى في خضم ذلك الصراع:

أولاً: إن القبائل كان موقفها موحداً تقريباً بازاء المؤمنين وكلمتهم مجتمعة في إيذائهم وإقصائهم وتعذيبهم.

جاء في السيرة النبوية: (قال ابن إسحاق: ثم إن قريشاً تذامروا فيما بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه فوثبت كل قبيلة من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن

دينهم)[1].

وقال ابن هشام في موضع آخر من سيرته: (قال ابن إسحاق: ثم إنهم عدوا على من أسلم واتّبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتدّ الحر، من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن نتيجة شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يَصلُب لهم ويعصمه الله منهم) [2]

ثانياً: عدم وقوع البعض في هذه الدائرة من العذاب لسببين:

أ ـ لأن الله ﷻ منعه بغيره وإن كان بين أظفار قريش وتحت نظرهم ولكن أفادته حَمية الأهل والعشيرة وإن كان في إطار التهديد المستمر من القوم إلاّ أنه لم يُنَل منه بالسياط، ولم يقع في ما وقع فيه إخوانه في الإيمان من ألوان العذاب.

فقد ورد في السيرة النبوية: عن ابن إسحاق: (وحدثني الزبير ابن عُكاشة بن عبد الله بن أبي أحمد أنه حُدِّث أن رجالاً من بني مخزوم مشوا إلى هشام بن الوليد حين أسلم أخوه الوليد بن الوليد [بن المغيرة]، وكانوا قد أجمعوا [على] أن يأخذوا فتيةً منهم كانوا قد أسلموا، منهم: سلمة بن هشام وعيّاش بن أبي ربيعة.

قال: فقالوا وخشوا شرّهم: إنّا قد أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٣٠١، ذكرت في البداية والنهاية ١:٤٠٥، السيرة الحلبية١: ٤٧٨.

(٢) نفس المصادر السابقة، وتاريخ الطبري ٢:٣٢٧، السيرة النبوية لأبي الفداء ١:٤٩٢.

هذا الدين الذي أحدثوا، فإنّا نأمن بذلك في غيرهم.

قال: هذا، فعليكم به فعاتبوه وإياكم ونفسه، وأنشأ يقول:

ألا لا يُقتلَنّ أخي عييش فيبقى بيننا أبداً تَلاحي

إحذروا على نفسه، فأقسم بالله لَئِن قتلتموه لأقتلنّ أشرفكم رجلاً.

قال: فقالوا: اللّهم العنه، من يغرّر بهذا الخبيث، فوالله لو أصيب في أيدينا لقتل أشرفنا رجلاً.

قال: فتركوه ونزعوا عنه.

قال: وكان ذلك مما دفع الله به عنهم) [١].

وورد أن أبا بكر أيضاً لم يُجَر على الرمضاء المحرقة؛ بسبب قومه، فقد قال في السيرة النبوية: (وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه) [٢].

ب ـ ومنهم من منعه الله ﷻ بسبب الهجرة من مكة موطن العذاب ومنازل الفتنة.

وعن ابن إسحاق جاء في السيرة النبوية: (فلمّا رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية؛ بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم».

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام) [٣]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٢١٢.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ١: ٤٣٦.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١:٣٤٩.

ثالثاً: والملاحظ أن هذا اللون من العذاب كان الرسول محمد ﷺ منه آمناً وإن كان ﷺ قد نال من قريش ما نال ـ مما ذكرنا ومما يأتي ذكره لاحقاً ـ لكن شاء الله ﷻ أن يمنعه من هذه المظاهر، وشاء الله ﷻ أن يكرم أبا طالب باعتباره سبيل الحماية والتحصين لرسول الله ﷺ وكذا بعض أعمامه وبني لحمته.

روى ابن هشام: ومنع الله رسوله ﷺ منهم بعمه أبي طالب، وقد قام أبو طالب ـ حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون ـ في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه.

فاجتمعوا إليه، وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلاّ ما كان من أبي لهب عدو الله الملعون، ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم ومكانه منهم، ليشدّ لهم رأيهم، وليحدبوا معه على أمره، فقال:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخَرٍ ... فعبدُ مناف سرها و صميمها
وإن حصلت أشراف عبد منافها ... ففي هاشم أشرافها و قديمها
وإن فخرت يوماً فإن محمداً ... هو المصطفى من سرها و كريمها
تداعت قريش غثها وسمينها ... علينا فلم تظفر وطاشت حُلومها
وكنّا قديماً لا نقرّ ظلامةً ... إذا ما ثنوا صعر الخدود نقيمها
ونحمي حماها كل يوم كريهة ... ونضرب عن أحجارها من يرومها
بنا انتعش العود الذّواء وإنما ... بأكنافنا تندى وتنمي أرومها [1]

---

(١) السيرة لابن هشام ١:٣٠٢، وفي الطبري ٢:٣٢٧ لكنه لم يذكر الشعر، وكذا ذكر منعة الرسول ﷺ صاحب السيرة النبوية أبو الفداء، انظر البداية والنهاية ٣: ٦٥، والسيرة النبوية لابن كثير ١: ٤٧٧، سبل الهدى والرشاد ٢: ٣٢٨.

جهاد الصحابة الكرام

المبحث الأول:

التعذيب الذي واجهه الصحابة الكرام

١. الإلقاء على الرمضاء مع دروع الحديد

مع كونهم يُجَرون تحت لهيب الشمس، شمس الجزيرة وهي مرجلٌ يغلي أو فرن بالنار يدوي، وعلاوةً على ذلك كانوا يلبسونهم أدرع الحديد، وما أدراك ما أدرع الحديد التي تكاد تصهر الأجسام وهي تتوهج تحت أشعة الشمس.

روى ابن كثير: (وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس) [١].

ويمكن افتراض أن هذا العذاب عام لكل من عذب في صحراء مكة؛ لأنه مكانهم المفضل البطحاء وزمانهم المفضل وقت الظهيرة، حيث تنتصب الشمس في زوالها فوق الرؤوس لتمخر الحرارة أدمغة المعذبين.

جاء في الكامل في التاريخ: (ومنهم عمار بن ياسر أبو اليقظان العنسي وهو بطن من مراد، وعنس هذا بالنون أسلم هو وأبوه وأمه وأسلم قديماً ورسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم بعد بضعة وثلاثين رجلاً.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣: ٣٩.

أسلم هو وصهيب في يوم واحد، وكان ياسر حليفاً لبني مخزوم، فكانوا يخرجون عماراً وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم بحرّ الرمضاء)[١].

وفي الكامل أيضاً: (ومنهم أبو فكيهة واسمه أفلح وقيل يسار، وكان عبداً لصفوان بن أمية بن خلف الجمحي، أسلم مع بلال، فأخذه أُمية بن خلف، وربط حبلاً وأمر به فجُرّ ثم ألقاه في الرمضاء)[٢].

٢. الإلقاء على الرمضاء مع التعذيب بالصخر والحجر المحمى

نوع آخر من التلهي بأجساد الضحايا الذين يعانون العذاب حتى الموت أو الإشراف عليه، فكلما زاد المؤمن صبراً زاد المشرك جزعاً وشراسةً وغيضاً، فيلقي بحقده صخوراً ثقالاً على أجساد الثائرين على نظام الأسياد والمنتفضين على سياط الأوغاد.

إنهم يضعون الصخور تارةً، وأُخرى يضعون الحجارة المحماة بالنار، أو يسلطون النار نفسها على أجسام الذين أعلنوا التمرد والعصيان على إرادة الطغيان السفياني القريشي.

النار، والشمس، والحجارة المحماة، كل ذلك على بساط الرمل السلخن في طقس مكة القائظ وجحيمها المستعر، إذن الحرارة مفردة التحدي لصمود المؤمنين برسالة محمد رسول الله ﷺ، وبلال فارس الميدان هذه المرة وبطله المجلي.

فقد نقل ابن الأثير: (فمنهم بلال بن رباح مولى أبي بكر، وكان أبوه من سبي الحبشة، وأمه حمامة سبية أيضاً، وهو من مولدي السراة،

---

(١) الكامل في التاريخ ٢:٤٥، وقد ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ١:٣٤٦.

(٢) نفس المصدر.

وكنيته أبو عبد الله، فصار بلال لأمية بن خلف الجمحي، فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه في الرمضاء على وجهه وظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره، ويقول: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى)[١].

وشارك عمار أخاه بلالاً بالإضافة إلى ما كان يعانيه من تعذيب قريش وبني مخزوم، شاركه في صنف التعذيب بالصخر الثقيل.

وعن ابن الأثير أيضاً: (وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة، وبوضع الصخر على صدره أخرى، وبالتغريق أخرى)[٢].

والمعروف أن عماراً كان يعاني من ضغط آخر غير ضغط الصخور على صدره، وهو أنه كان يرى أمه وأباه بين أيدي أبي جهل وأمية بن خلف، إنه ضغط لعله أثقل على النفس من ضغط الصخور على الصدر.

وكان ثالث القوم الخباب بن الأرت، وإليك تعريف بشخصه على ما ورد في الكامل في التاريخ، والى نوع العذاب الذي كان يلقى:

قال ابن الأثير: (ومنهم الخباب بن الأرت، كان أبوه سوادياً من كسكر فسباه قوم من ربيعة، وحملوه إلى مكة، فباعوه من سباع بن عبد العزى الخزاعي حليف بني زهرة، وسباع هو الذي بارزه حمزة يوم أحد، ـ وخباب تميمي ـ وكان إسلامه قديماً، قيل سادس ستة قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم.

فأخذه الكفار وعذبوه عذاباً شديداً، فكانوا يعرّونه ويلصقون ظهره على الرمضاء، ثم بالرضف وهي الحجارة المحماة بالنار ولووا رأسه)[٣].

---

(١) الكامل في التاريخ ٢:٤٥، السيرة النبوية لأبي الفداء ١:٤٩٢.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الكامل في التاريخ ٢:٤٦.

٣. التعذيب بالضرب

وكانوا يلاحقون كل من نطق بالتوحيد أو صرح بالقرآن، وذكر بين قريش اسم الرحمن، بالضرب المبرح وربما يغمى على بعضهم تحت وجع الضرب فلا ينقذه إلاّ خوفهم من مجاهيل الأمور أما لقبيلته أو لخوفهم على تجارتهم ورحلاتهم الاقتصادية، أو لأنه يتخلص منهم بنفسه وينصرف عنهم.

وفي قضية إسلام أبي ذر ﷺ ولقائه بالإمام عليّ ﷺ ما يوثق هذا الكلام ففي اليوم الأول أخذه الإمام عليّ ﷺ إلى بيته ثم كذلك في اليوم الثاني، وفي اليوم الثالث، نتابع الحديث عنه مع صاحب كتاب الاستيعاب: (حتى إذا كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك فأقامه عليّ معه، ثم قال له:

ألا تحدثني ماالذي أقدمك هذا البلد؟

قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً أن لترشدني فعلت. ففعل.

فأخبره عليّ ﷺ أنه نبي وأن ما جاء به حق، وأنه رسول الله، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك (قمت كأني) أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل معي مدخلي.

قال: فانطلقت أقفوه حتى دخل على رسول الله ﷺ ودخلت معه، وحييت رسول الله ﷺ بتحية الإسلام، فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فكنت أول من حيّاه بتحية الإسلام.

فقال: «وعليك السلام، من أنت؟»

قلت: رجل من بني غفار. فعرض علَيّ الإسلام، فأسلمت، وشهدت أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله.

فقال لي رسول الله ﷺ: «إرجع إلى قومك فأخبرهم، واكتم أمرك عن أهل مكة، فإني أخشاهم عليك».

فقلت: والذي نفسي بيده لأصوتنّ بها بين ظهرانيهم.

فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

فثار القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكبّ عليه وقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار، وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم؟ وأنقذه منهم، ثم عاد من الغد إلى مثلها، وثاروا إليه فضربوه، فأكبّ عليه العباس وأنقذه، ثم لحق بقومه، فكان هذا أول إسلام أبي ذر ﷺ)[1].

ولقد روي في أعيان الشيعة أنه ـ أي أبو ذر ـ رأى امرأة تطوف بالبيت، وتدعو بأحسن دعاء في الأرض وتقول: أعطني كذا وكذا... ثم قالت في آخر ذلك: يا أساف ويا نائلة !!.

فالتفت أبو ذر إلى تلك المرأة، قائلاً: أنكحي احدهما صاحبه!.

فتعلقت به وقالت: أنت صابئ، فجاء فتية من قريش فضربوه وجاء ناس من بني بكر فنصروه، فجاء أبو ذر إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أمّا قريش فلا أدعهم حتى أثأر منهم... ضربوني.

فخرج حتى أقام بعسفان وكلما أقبلت عير لقريش يحملون الطعام، ينفر بهم على ثنية غزال فتلقي أحمالها، فيجمعون الحنط، فيقول لهم أبو ذر: لا يمسّ أحد حبّة حتى تقولوا: لا إله إلاّ الله، فيقولون: لا إله إلاّ الله، ويأخذون الغرائر[2].

والملاحظ هنا أنهم لم يكونوا ملتفتين إلى النقطة التي أثارها العبّاس

---

(١) الاستيعاب ٤:٢١٧، ومثله في الإصابة ٧:١٠٦.

(٢) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٤: ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

حين ضربهم له أو كانوا مُلتفتين ولكن لم تدعهم العصبية الصنمية أن يَتَعقلوا، وفعلاً صدق حدس العباس وظنه فيما بعد.

ومصداق آخر يعرض علينا سخط قريش ممن التحق بمحمد ﷺ وبقرآنه، ليوسعوه ضرباً وإيلاماً:

عن ابن هشام عن ابن إسحاق: (وحدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة، عبد الله بن مسعود ﷺ قال:

اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟

فقال عبد الله بن مسعود: أنا.

فقالوا: إنّا نخشى عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه.

قال: دعوني، فإن الله سيمنعني.

قال: فقدم ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ رافعاً بها صوته ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ، قال: ثم استقبلها يقرؤها.

قال: فتأملوا فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟

قال: ثم قالوا: إنه ليتلوا بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثاروا في وجهه.

فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك.

فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً.

قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون) [(١)].

٤. التغريق بالإضافة لما سبق

فلقد تحمل عمار بن ياسر ﷺ بالإضافة إلى ما كان يلاقي من عذاب جسدي وسياط ونار ومحمى الحجار، والحديد والصخر على ضلوع الصدر، وبالإضافة إلى المعاناة النفسية القاسية من حضور في ميدان التعذيب مجاوراً أمه وأباه، وهم على تلك الحالة المروعة من العذاب المقيم؛ لانتزاع تراجعاً منهما عن محمد ﷺ ومعبوده واتباعه.

فقد كان ﷺ يؤخذ إلى الماء ويوضع فيه حتى يغرق ويغط رأسه فيختنق.

فقدنقل ابن الأثير: (وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة، وبوضع الصخر أحمر على صدره، وبالتغريق أخرى، فقالوا: لانتركك حتى تسبَّ محمداً وتقول في اللات والعزّى خيراً) [(٢)].

وعلى هذا المنوال كان عمار بن ياسر الصحابيّ الجليل أكثر الصحابة اضطهاداً، وأكثرهم تلقياً لألوان العذاب، ولعله كان كذلك؛ لأنه لم تكن له عشيرة تحميه فهو موالٍ لبني مخزوم ومعلوم أن المنتمي بالعارض ليس كالمنتمي بالأصالة.

ومن جهة أخرى لم يكن عمار ﷺ وحده مؤمناً بتعاليم محمد ﷺ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١:٢٤٢، وذكروا في الهامش مصادر أُخرى للرواية: تاريخ الطبري ٢:٣٣٤، نهاية الأرب ١٦:٢٢٨، السير والمغازي ١٨٦.

(٢) الكامل في التاريخ ٢ ـ ٤٥.

وإنما هو وعائلته، وقد كان هو السبب في إسلام العائلة، وهذا جرم إضافي يُلقى على عاتق عمار السابق للإيمان والإسلام.

ثم إنه وعائلته عائلة مستضعفة بالأصل فليس له إخوة يردون عنه الضيم، ولا عدّة يتمكن الدفع بها عن نفسه وأهل بيته، فكان إجراء تجارب التعذيب عليه أمراً سهلاً، وفرضاً ميسوراً.

٥.السجن مع ربط السلاسل في الأرجل والأطراف والعطش والجوع

وكان مجموعة من المؤمنين قد سجنوا في بيوت آبائهم وأهليهم، وكانوا لا يعطون ما يقيم الأود من الطعام، ولا يسد فراغ المعدة فيتلوون من السَغَب ويمنع عنهم الماء فتلتهب أفئدتهم عطشاً، وللمثال فقد كان أبو جندل سجيناً عند أبيه سهيل بن عمرو[١]، وكثير من مؤمني مكّة يشتركون معه بنفس العذاب.

٦. المتابعة الدعائية

أ ـ وابتكرت قريش طرقاً جديدة وفنوناً حديثة لِمن لم تتمكن أن تناله بالعذاب، فتناولته بالدعاية والسباب فقد كانت مجموعة من المؤمنين محصنة من قبل عشائرهم، لا تسلمهم لأحد ولا ترضى لأحد الهجوم أو التجاوز عليهم، فذهبوا يحطون من أقدارهم ويتوعدونهم.

جاء في السيرة النبوية: (وكان أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال من قريش، إذا سمع الرجل قد أسلم له شرف ومنعة، أنّبه وأخزاه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنغلبن رأيك، ولنضعنّ شرفك.

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٢: ٢٨١، والبداية والنهاية لابن كثير ٤: ١٩٣، تاريخ ابن خلدون ق١ ج١: ٣٢٥، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٦٣٢.

وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك. وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به)[1]، فهو تعريض بهم، وتعريض لأمنهم الاجتماعي والاقتصادي بالتزلزل والزوال.

ب ـ لِمن فرّوا منهم مهاجرين بدينهم وأبدانهم خوف الفتنة في الدين، والتمحيص في العقيدة وأن كانت الهجرة لوحدها نسخة أُخرى من سنخ العذاب النفسي، فهي مكابدة للغربة ومعاشرة غير الخلان من رسول الله ﷺ وصحبه المعذبين.

وترك مسقط الرأس وموضع القدم، ثقيل الوطأة على النفوس الحرة، ولكن لا مناص من خيار الهجرة والرضا بالبعد وإن طال الزمن واشتد الوجد بأهله.

ثم كان عيشهم في عافية من البلاء مع كونهم يعرفون ما يتعرض لهم إخوان الرسالة من شظف العيش، وفقدان الأمن، والهزاهز اليومية من بلايا التعذيب. فهذا يجعلهم منغصي الحال على كل حال.

يضاف لهذا كله أنهم يفقدون رسول الله ﷺ، ولا يسمعون لذيذ كلامه، ولا ما ينـزل عليه من وحي السماء، فإنه ﷺ كان المد المعنوي المغدق لهم والآن وإن كان وضعهم الروحي راقياً والمعنوي عالياً، لكن هناك فرقٌ بين من كان بجنب الفيض ينتهل من منابعه الرائقة شراباً زلالاً، ومن هو بعيد عنه يعيش على ادام الذكرى وخيالات اللقاء.

الغربة نوع آخر من الفتنة، وشكل آخر من المحنة، فلعل الإنسان لما يحط بديار الآخرين يحاصر بأخلاقهم ويتأثر بأفكارهم، وربما ينقلب على عقبيه تحت وطأة مغريات أو مؤثرات أو تيارات، والبعض منهم حديثو

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٣٤٧، السيرة النبوية لابن كثير ١: ٤٩٥، سبل الهدى والرشاد ٢: ٣٥٧.

الالتزام بدين الإسلام.

وفوق كل هذا لم تتركهم قريش، إنما تابعتهم بأسوء دعاية، وحاولت جاهدة من خلال واحد من رؤوس الخبث فيها (عمرو بن العاص) أن تخدع النجاشي في أمرهم وتغريه بهم، لكنه كان أكيس من دهاء قريش، وأعقل من هرطقة البطارقة، وسدد الله ﷻ منطقه من أن يغلبه وفد قريش باللف والدوران.

ولاحتواء الحديث على فوائد جمّة تخص المقام نذكره بالكامل عن السيرة النبوية وهو عن أم سلمة عن الرسولين اللذين أرسلتهما قريش للنجاشيّ: (لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعَبدْنا الله تعالى، لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه.

فلما بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلاّ أهدوا له هدية.

ثم بعثوا بذلك إلى عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدّما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلاّ دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم:

إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى

الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم.

ثم أنهم قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهم، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردوهم إليهم، فهم أعلى عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيهم.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي!

قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقاً أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاها والله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا في بلادي، واختاروني من سواي، حتى أدعوهم فاسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

الحوار الذي دار بين المهاجرين والنجاشي:

قالت: ثم أرسل أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟

قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما جاءوا، وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم

حوله، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟

قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب.

فقال له: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، كنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوّحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان.

وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قالت: فعدد عليه أمور الإسلام.

فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما حل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيعوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال النجاشي: هل معك مما جاء عن الله من شيء؟

قالت: فقال له جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ.

قالت: فقرأ عليه صدراً من ﴿كهيعص﴾

قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون)[1].

أرأيت جعفر كيف وثق مرحلة هامة من تاريخ المسلمين توثيقاً رائعاً بعبارات جزلة وانتقالات في الحديث سيالة جميلة جذابة، واحتجاجات مدعمة بالأدلة بما يسكت بها مسوخ قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة.

أرأيته وهو يستعرض بداية الرسالة وفقرات الدعوة المحمدية وكيد القوم بهم، وانتهائه إلى حيث إبكاء النجاشي وبطارقته، في مداخل سليمة وألفاظ مختارة، وطرح ملئُه الرقة والكبرياء دون ذلة أو شيء من الجزع والتّردد.

فالبكاء دليل التعاطف والميل القلبي، وهو لا يحصل مع تكذيب المتحدث أو الشك في سرده وإلقائه، بل يحصل مع التصديق به والشعور العميق بأن ما يكلم به ويفصح عنه إنما هو مطابقٌ للحقيقة وكاشف لها؛ لذا قال الملك النجاشي: (إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة)، وهذا التصديق بدوره كاشف عن مفهوم أن الذي يتعرض عليهم ويبادرهم بالتكذيب والشك أو يحاول أن يلتف على ما عندهم بالمغالطة والرشي والكيد، إنما هو كاذب البتة.

وهذا أيضاً يفسر لنا عدم رغبة عمرو بن العاص وزميله في رحلة الكيد القريشية في أن لا يكلمهم الملك أولاً، بل إنهاء الحوار معه دون

---

(١) سيرة ابن هشام ١:٣٦٢.

تكليمهم بالمرّة؛ لأن حصانة منطقهم، وصواب رأيهم وقوة عقيدتهم وأدلتهم عليها، ستنتصر على مؤامرة الخبثاء وتكشف خطل آراءهم (قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي).

لأن عمرو وصاحبه ظنّا أن المسألة ستصفى وراء الكواليس، بمجرد إغراء الملك وبطارقته بالهدايا، وتنتهي أزمة المتمردين بتصفيدهم وإرسالهم في حقب دبلوماسية عبر البحر الأحمر إلى مكة، حيث أبو سفيان.. وأبو جهل.. وأبو لهب ورؤوس التآمر هناك.

وهل انتهى كيد إبن العاص ودعايته المدروسة في أروقة القرار المكي؟ كلا لم تنته بعد فلا زال المتمردون في بحبوحة الخلاص، بل نالوا انتصاراً ساحقاً، وسحقوا الدعاية القريشية بأقدامهم، وتضامن معهم الملك، فماذا يريدون فوق هذا بعد؟.

فتهيأ مهندس المؤامرة (إبن العاص) هذه المرة لصياغة خديعة جديدة لا أدري ليخمد أنفاس المؤمنين ويستأصل جذورهم في بلاد الحبشة أم ليتَلَقى وصاحبه الضربة القاضية.

فلختار هذه المرة القناة الحساسة التي يفزع منها النجاشي ولا يرضى أن يقول أحد فيها إلاّ ما يرى أنها الجنبة العقائدية، والحق أن الإنسان ليهتم بذلك، ويُستَفَز له ولهذا عمد عمرو للضغط على هذا العصب عند النجاشي.

قالت: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل به فقراءهم.

قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد.

قالت: ثم غدا عليه من الغد، فقال: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه، قالت: ولم ينـزل بنا مثلها قط. فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟

قالوا: نقول: والله ما قال الله، وما جاء به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن.

قالت فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟

قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا ﷺ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود.

قالت: فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي - والشيوم: الأمنون - من سبكم غرِّم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبراً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم.

قال إبن هشام: دبراً من ذهب، ويقال: فأنتم سيوم، والدبر بلسان الحبشة: الجبل، رُدّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها فوالله ما أخذ الله مني من الرشوة حين رد علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه.

قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا

عنده بخير دار مع خير جار)[١].

وصاروا يفرحون لفرحه ويحزنون لحزنه ويدعون له بالغلب والنصرة إذا تعرض لمكروه خارجي فكانوا عنده في خير منـزل حتى رجعوا على رسول الله ﷺ.

ويذكر أن أبا طالب ساهم في تخفيف حِدّة الدعاية القريشية للمؤمنين وكسر شوكة الملاحقين لهم، ومهد نفس النجاشي في قبولهم، وبسط لذلك حسه ونفسه عن طريق قصيدة بعثها حين رأى من قومه من النكاية وسوء النية، والبعث ورائهم في دار الهجرة.

فخاطب الملك النجاشي في أبيات شعرية يرغبه في فضيلة حسن الجوار، ويبعده عن مزلق التنسيق مع قريش:

ألا ليت شعري كيف في النأي جعفرٌ … وعمرو وأعداء العدوّ الأقاربُ
وهل نالت أفعال النجاشي جعفراً … وأصحابه أو عاق ذلك شاغبُ
تعلم، أبيت اللعن، أنك ماجدٌ … كريم فلا يشقى لديك المجانبُ
تعلم بأن الله زادك بسطةً … وأسباب خير كلها بك لازبُ
وإنك فيضٌ ذو سجال غزيرة … ينال الأعادي نفعها والأقاربُ[٢]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١:٣٦٠ – ٣٦٢.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١:٣٦٠.

المبحث الثاني:

ردود أفعال المعذبين

إن تأثير الرسول ﷺ الفكري والروحي على أصحابه الخلّص ﷺ وتربيته لهم في تلك الأيام العصيبة أدّت إلى هذه المواقف المتحدية والصلبة من أصحابه حيث نرى ذلك عندما يقفز إلى الذهن سؤال عن ردود أفعال الأصحاب في حال كونهم معذبين، فالمعروف في مثل هذه الظروف حصول كثير من ردود الأفعال، وكثير من موارد تغير الأحوال.

كيف واجهوا حرارة الشمس؟ كيف حالهم عند الاكتواء بأدرع الحديد، والسياط، ولهب النار، والحراب المسلطة عليهم من أيدي المَكَرة وهم عراة مجردين.

لقد كانت لمواقفهم العظيمة دروس ثمينة ليست تكشف عن عظمة تلك النفوس فقط، ومقدار تمسكها بالحق، ودفاعها عن الوعي الديني الذي بثه الرسول الأعظم ﷺ، وليست تكشف تحدّيهم كل الأساليب من أجل أن يصنعوا حضارة جديدة كفيلة أن ترفع لافتات لم تألفها البشرية على ما فيها من نبوؤات، وثورات وتيارات إصلاحية، وديانات معروفة وغير معروفة من قبل.

إنما تُعلّم الأجيال عبر التاريخ كيف يجب أن يكون التفاعل مع هاتيك المعاني، والانضباط ضمن محتواها المبدئي العالي مع الجيل، وكيف يجب أن تكون روح الدفاع عنه، وكيف يجب أن يخلص الإنسان؛ لكي يعتنق حريته، ويدافع عن ذاتيته المتحققة في عقيدته، وفي طائفة من المؤمنين أشربت قلوبهم بروح تلك العقيدة نفسها، بل تعلم الأجيال كيف يستطيع الإنسان أن يُفَعِّل كل حالاته من سراء وضراء في خدمة الشريعة الحقة.

وهذا ما يمكن أن نسميه الدروس والعِبر والإفاضات المستقاة من تلك المواقف الملحمية التي كانت بتلك العظمة بسبب ما تركته ظِلال شخصية الرسول الأعظم ﷺ في نفوسهم المسكونة بحبه من قوة وإباء ورفض والتي منها:

١. الصمود على الدين

الصمود واحد من أهم العضات الرئيسية التي تبرز شاخصة في مواقف صحابة رسول الله ﷺ، وهو أكثر ما يحتاجه المعذَّب المجاهد في سبيل عقيدته، والذي أُخضع لهراوة انتزاع الاعتراف.

إن الصمود هو الغذاء الرئيسي الذي يقتاده ويعتمد عليه حتى نهاية المشوار، كي يبقى صورة حية ناطقة للصلابة النضالية، والتمثيل الصادق لروح محمد ﷺ الصامدة الصادقة التي صنعتهم.

والصمود هو ذاته الفكرة المخيفة للمُعذِّبين ـ بكسر الذال ـ وأقوى مفردات التحدي بوجوههم، فعندما يشعرون أن العِصيّ، والكي بالنار لا يجدي نفعاً فسيضطرون إلى شيئين:

الأوّل: القضاء المبرم على المعذَّب تعبيراً عن الانتقام الناجم عن اليأس.

الثاني: التراجع أما لفقدان الأمل في الوصول معه إلى نهاية هي مرادهم، مما يكلفهم الاستمرار جهداً نفسياً وجسدياً يعد في أرقام الضياع، أو ربما إعجاباً لمعالم الرجولة والملكات المعنوية، والصمود دون التسليم والثبات دون الإقرار.

مما يعني أن هذه السجية محترمة في طبيعة التكوين الفطري للإنسان حتى لو كان هذا الإنسان من أعدى الأعداء، فإن الخصال الشريفة والصفات الحميدة قادرة لوحدها أن تخلق هيبة خاصة وكياناً ضخماً للإنسان في عيون

الناس، وبدونها لا يبلغ إلى شيء حتى وإن صنعته ديباجة الكلام في وسائل الإعلام.

ولقد ذكرنا عن بلال تلك الروح الصامدة المتحدية أمراً من هذا اللون.

ففي سيرة أبي الفداء: (وكان صادق الإسلام، طاهر القلب، وكان أُمية بن خلف إذا حميت الظهيرة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى. فيقول وهو في ذلك: أحدٌ أحدٌ)[1]

ثم يذكر في البداية والنهاية ما يعزز ظاهرة الاستهانة به من قومه: (فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحدٌ احدٌ)[2].

وإذا كان الصبر والصلابة أمراً متوقعاً من رجل قد اخشوشن في الحياة، واخشوشن في الله ﷻ، وعاش حياة التحمل والمكابدة الطويلة؛ لأن ذلك جميعاً يخلق عنده قدرة على التحمل، فيساعده نوعاً ما في مجابهة العذاب، فضلاً عن كونه ينشد الحرية ولو أعطى عليها الحياة ثمناً وقد وجدها في محمد ﷺ.

بيد أن ذلك لا يمكن تصوره بسهولة مع النساء، فالمرأة أرق عوداً وأسرع خموداً شأنها شأن النبتة الغضة الطرية، فهي لا تجابه الرياح قليلة الشدّة، فضلاً عن الريح الهائجة العاصفة العتية.

أما أن تصبر هذه المرأة (زنيرة) على سياط عمر، وعمر بالذات الذي قال عنه السيد هاشم معروف الحسني في كتابه سيرة المصطفى ص١٧٠ بما

---

(١) السيرة النبوية لأبي الفداء ١:٤٩٢.

(٢) البداية والنهاية ٢:٤٠٧، والسيرة النبوية لأبي الفداء ٢:٤٩٤.

نصه: (قال الشيخ الغزالي في كتابه فقه السيرة: أما عمر بن الخطاب فكان من أول المستهزئين بالإسلام، وكان مع ذلك معروفاً بـحدّة الطبع وقوة الشكيمة، وطالما لقي المسلمون منه ألواناً من الأذى).

وكذا كان أبو جهل يعذبها وهي تقاوم تلك النقمات الجاهلية، فهذا أمرٌ يستدعي التأمل في عمق ذلك التأثر بمحمد ﷺ وبدين محمد ﷺ، وكم هي الرغبة عارمة في التمسك بمقولة النبي محمد ﷺ؛ لأنها تحقق لهم وجودهم بكل معناه والذي بدونه لا وجود لهم.

لذلك رأوا الاستهانة بوجودهم الشخصي أمراً لائقاً وطبيعياً؛ لغرض تحقيق ما أراده محمد ﷺ.

عن الكامل في التاريخ: (ومنهم زنيرة وكانت لبني عدي وكان عمر يعذبها، وقيل: كانت لبني مخزوم، وكان أبو جهل يعذبها حتى عميت، فقال لها: إن اللات والعزى فعلا بك.

فقالت: وما يدري اللات والعزى من يعبدهما؟ ولكن هذا أمر من السماء وربي قادر على رد بصري. فأصبحت من الغد وقد رد الله بصرها.

فقالت قريش: هذا من سحر محمد فاشتراها أبو بكر فأعتقها) [١].

٢. المواساة في الله ﷻ

فكان بعض الصحابة الأجلاء يرفض حالة الاستقرار النسبي التي كان فيها وهو يرى ما يمر عليه إخوانه من مجرمي المِلّة وأجلاف الحي، وتأبى له غيرته أن يكون في ذمة أحد من المشركين وهو يعلم أن الله ﷻ أعز جواراً وأمنع ذماراً.

في كتاب دلائل النبوة: (وكان عثمان بن مضعون وأصحابه فيمن

---

(١) الكامل في التاريخ ٢:٤٧.

رجع[1]، فلم يستطيعوا أن يدخلوا مكة حتى بلغهم شدّة المشركين على المسلمين إلاّ بجوار، فأجار الوليد بن المغيرة عثمان بن مضعون.

فلما رأى عثمان الذي يلقى رسول الله ﷺ وأصحابه من البلاء وعُذّب طائفة منهم بالنار والسياط وعثمان معافى لا يعرض له، استحب البلاء على العافية، فقال:

أما من كان في عهد الله ﷻ وذمته وذمة رسوله ﷺ التي اختار الله لأوليائه من أهل الإسلام، فهو مبتلى ومن دخل فيه فهو خائف، وأما من كان في عهد الشيطان وأوليائه حين البأس فهو معافى.

فعهد إلى الوليد بن المغيرة فقال: يا عم قد أجرتني وأحسنت إليّ فأنا أحب أن تخرجني إلى عشيرتك فتبرأ مني بين ظهرانيهم.

فقال الوليد: يا ابن أخي لعل أحداً من قومك آذاك أو شتمك وأنت في ذمتي فأكفيك ذاك.

قال: لا والله ما اعترض لي أحد ولا آذاني. فلما أبى إلاّ أن يبرأ منه الوليد، أخرجه إلى المسجد وقريش فيه كأحفل ما كانوا، ولبيد بن ربيعة ينشدهم فأخذ الوليد بيد عثمان فأتى به قريشاً فقال:

إن هذا قد غلبني وحملني على أن أتبرأ من جواره، وإني أُشهدكم أني بريء منه إلاّ أن يشاء.

فقال عثمان: صدق، أنا والله أكرهته على ذلك، وهو مني بريء. ثم جلسنا مع القوم ولبيد ينشدهم، فقال لبيد:

ألا كُلّ شيء ما خلا الله باطلُ

فقال عثمان: صدقت.

---

(١) يقصد من الحبشة بعد الهجرة.

ثم أتم لبيد البيت فقال: وكل نعيم لا محالة زائلُ

فقال عثمان: كذبت.

فأسكت القوم ولم يدروا ما أراد بكلمته ثم أعادوها الثانية وأمروه بذلك، فقال عثمان حين أعادها مثل كلمتيه الأوليتين، صدقه مرة وكذبه مرة وإذا ذكر ما خلا الله باطل صدقه، وإذا ذكر كل نعيم لا محالة زائل كذبه؛ لأن نعيم الجنة لا يزول.

فنـزل عند ذلك رجل من قريش، فلطم عين عثمان بن مضعون ﷺ فاخضرّت، فقال الوليد بن المغيرة وأصحابه: قد كنت في ذمة مانعة ممنوعة فخرجت منها وكنت عن الذي لقيت غنيا.

فقال عثمان: بل كنت إلى الذي لقيت منكم فقيراً، وعيني التي لم تلطم إلى مثل ما لقيت صاحبتها فقيرة، ولي فيمن أحبّ إليّ منكم أسوة.

فقال الوليد بن المغيرة: إن شئت أجرتك الثانية.

فقال عثمان بن مظعون: لا إرب لي في جوارك) (١).

٣. إستقبال الموت

والمعروف أن كثرة العذاب قد تؤدي إلى الهلاك من شدة الضغط وكثرة العنت، وعندما لا يرى المجرم إلاّ أن يستمر في تكشير أنيابه، فهذا يعني أنه سيقتضم الفريسة بنحو ما، ولقد كان ذلك في الطليعة المحمدية الأولى، ولقد كان استقبال الموت عندهم على نحوين:

الأول: إن بعضهم أشرف على الموت وإن لم يمت، لكنه لم يستسلم

---

(١) دلائل النبوة ٢: ٢٩١-٢٩٣. وفي سيرة ابن هشام زيادة بعد كلمة أسوة (وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس).

لجلاديه رغم ذلك الإشراف على الهلكة وذلك النيل منهم إلى حد النفس الأخير الذي أبقى لهم خيط الحياة ممتداً.

سواء كان ذلك تغريقاً كما في تعذيب عمار، أو وضع الصخور الصلاب الثقال إلى حد الموت كما في تعذيب بلال، أو كما كان خنقاً كما في تعذيب أبي فكيهة، (فأخذه أُمية بن خلف وربط في رجله حبلاً وأمر به فجُرَّ، ثم ألقاه في الرمضاء، ومرَّ به جُعَل، فقال له أمية:

أليس هذا ربك؟ فقال: الله ربي وربك ورب هذا، فخنقه خنقاً شديداً ومعه أخوه أبي بن خلف يقول: زده عذاباً حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره، ولم يزل على تلك الحال حتى ظنوا أنه قد مات، ثم أفاق فمر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه.

وقيل: إن بني عبد الدار كانوا يعذبونه وإنما كان مولى لهم وكانوا يضعون الصخرة على صدره حتى دلع لسانه فلم يرجع عن دينه وهاجر ومات قبل بدر) [1]

الثاني: وأن منهم من كرع كأس الموت ورواه الحتف فالتحق بربه ورفيف كلمات الشهادتين تتراقص على شفتيه، وأراح ركابه في محطة الغيب المطلق، وبقي جسده يحوم في عالم الدنيا والعذاب والتمثيل، وبقايا لهيب النار ولفح الشمس.

بينما تحوم روحه في عالم علوي بين يدي الله العليا، وقد كظموا في أنفسهم محامل الهم على رسالة محمد ﷺ، وتركوا مشاعل التأسي بهم في أيدي اللاحقين، وكانوا أول من افتتح طريق الشهادة.

جاء في الكامل: (فمات ياسر في العذاب وأغلظت امرأته سمية القول

---

(١) الكامل في التاريخ ٢: ٤٦-٤٧.

لأبي جهل فطعنها في قلبها[١] بحربة في يديه وهي أول شهيدة في الإسلام[٢]، وكان الشهيدان أول ضحايا المنهج، وأول دم يلطخ وجوه الجناة الكالحة، ويرسم لنا خطاً دموياً لا بدّ منه، حيث دُشن هذا الخط بطعنات ياسر وزوجته سمية.

ولم يكتف أبو جهل أن يقتلها وتنصرف إلى ذمة الله ﷻ ويرضي حقده وغيضه، إنما يختار القتلة التي ترضي نزقهُ وصبيانيته، فيطعنها بحربته في ملمس العفة، دون حياء أو بقايا من خجل، أو احترام لسنن العشيرة التي كانوا يعملون بها[٣]؛ لأنها رفضت أن تخضع لطلبه في سب محمد ﷺ وذكره وآلهته بـخير.

فأغلظت له القول، وانتصرت لله ﷻ ورسوله ﷺ، وكلما شدد عليها العذاب عادت إلى ما كانت عليه من الصبر على البلاء والطعن عليه، فانهال عليها ركلاً وضرباً إلى أن قضى عليها، وتوجه لزوجها يمارس معه نفس الدور ليختم المشهد بمأساة آل ياسر.

٤. الصبر إلى حد الافتتان

ومن الطبيعي أن تمل أجسام بعض الناس الضرب ولا يجد إلى التحمل سبيلاً، فيُغلب ضرباً، وحرقا، وصَهراً بالحديد والدروع،

---

(١) وهذا لا يعني أنه لم يطعنها في ما يقبح التصريح به إذ لا تنافي، ثم إن هناك روايات أُخرى تؤكد ذلك.

(٢) الكامل في التاريخ ٢:٤٥.

(٣) قال الإمام عليّ ؑ في نهج البلاغة: ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم، فإنهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول. إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالفهر أو الهراوة (الحجر والعصا) فيعير بها وعقبه من بعده. نهج البلاغة خطب الإمام علي ٣: ١٥ تحقيق: الشيخ محمد عبده.

والصخور ومشاعل النار تحت الظهر، فتنسزع نفسه نحو الخلاص من وطأة الإرهاق والشد النفسي والعذاب الجسدي، ليخلص جسده وينقذه من شراسة الحِراب ووحشية المخالب، وتبقى خصوصية الأفكار ونفحات الدين العميقة في قلبه لا تزعزعها عواصف العذاب فيؤاتيهم على بعض ما يطمعون.

عن الكامل في التاريخ: (فقالوا: لا نتركك حتى تسب محمداً وتقول في اللات والعزى خيراً، ففعل فتركوه)[1].

ثم طال الأمر النساء، على ما هُنَّ عليه من ضعف الأجساد ورقّة الطِباع: (ومنهم لبينة جارية بني مؤمل بن حبيب بن عدي بن كعب، أسلمت قبل إسلام عمر بن الخطاب، وكان عمر يعذبها حتى تفتر، ثم يدعها ويقول: إني لم أدعك إلاّ سآمة)[2]، وفي مصادر أخرى ملالة مكان سآمة[3]، (فما منهم من أحد إلاّ وآتاهم على ما أرادوا)[4].

وقد بلغ منهم العذاب مبالغ صعبة التصور، فكان يضطر أحدهم أن يقول ما لا يُرضى ولا يَرضى؛ كي يسكّن مورد الغضب في نفوسهم.

في سيرة ابن هشام: (وحدثني حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير، قال: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يُعذرون به في ترك دينهم؟

---

(١) إنما كان هذا بخصوص عمار، في الكامل ٢:٤٥.

(٢) الكامل في التاريخ ٢:٤٧.

(٣) (قوله لا يمل حتى تملوا، أخبرنا سلمة، عن الفراء يقال: مللت أمل ضجرت)غريب الحديث ـ الحربي ١: ٣٣٨، (سئمت الشيء سآمة: مللته) كتاب العين للخليل الفراهيدي ٧: ٣٢٤.

(٤) السيرة النبوية لأبي الفداء ١:٤٩٤.

قال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما يسألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم.

حتى أن الجُعل يمرّ بهم، فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداءاً منهم مما يبلغون من جهده)[1].

وهذا الأمر يكشف لنا بوضوح درجة القساوة التي تعمدها القوم في تعذيب المؤمنين، ودرجة المجاهدة الصعبة في مقابلتهم التي كان يسلكها أولئك المؤمنون، كما يكشف بالضرورة أمراً آخر ـ سوف نأتي على ذكره مفصلاً فيما بعد ـ وهو ترخيص الرسول ﷺ لهم في ذلك.

وإلاّ فهم كانوا يتحملون كل صور التنكيل والاضطهاد، ولا يرى فيهم القوم إلاّ إباءاً للذل، ونفرة من الظالمين، وصبراً لا نظير له في تحمل المشاق، وإلاّ لا يمكن تصوير قبولهم ومؤاتاتهم للقوم لمجرد فقدان التحمل للعذاب، وسيأتي كلام عن ذلك مفصلاً إن شاء الله.

أما لو سألنا لماذا كل هذا التعذيب؟ وكل هذه الصفاقة في ترويع المؤمنين؟ وهم مع كونهم أبناء العشيرة، وفتيان الحي، وأبناء قريش كل قريش بكل بطونها، وفوق ذلك كانوا قلة، فما هم إلاّ جماعة لا يصل عددها بالمقدار الذي يشكل جيشاً بوجه قريش.

ثم حتى لوكانوا كثرة، فهم إلى الآن أساليبهم سلمية، لم يعلنوا الحرب، ولم يدقوا لها الطبول، ومع الفرض أنهم كانوا يستعدون لمواجهة قريش فهم أناس لا يملكون شيئاً، أي: إنّهم عزَّل.

وحتى مع فرض ملكهم لذلك الشيء ـ أي السلاح ـ فلن يبلغوا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٣٤٧.

بوجه تسليح قريش، والعشائر الناقمة عليهم، ولن يبلغوا ثرواتهم وغناهم، ولن يتمكنوا ـ باعتبار المحاصرة لهم ـ من التنسيق مع باقي القبائل ـ حتى المناهضة لقريش ـ لكي يستعينوا بها في المواجهة.

بينما أنصار قريش كثيرون، ومن تستهويه النصرة بالأموال من الأحابيش ـ أي المرتزقة ـ كثيرة أيضاً، وهم أهل الجاه والسلاح والقرار والديار، فما الذي يغريهم بتعذيب أبنائهم العزّل القِلّة المستضعفة، وبهذا الشكل المريع[1]؟.

ولابد هنا عزيزي القارئ الكريم أن نلتفت:

أن الرسول الأعظم ﷺ ومع هذه الصعوبات التي يواجهها، والضغوطات الموجهة لشخصه الكريم ولجماعته المؤمنة، ما كان يخرج من سلميته ووداعته، وسماحة تعاليمه.

إذ كان بإمكانه تشكيل مجموعات، ولو أفراد يمكنها أن تواجه قريش بطريقة حرب العصابات وإرهاب الرموز المؤثرة في المجتمع القريشي واغتيالهم، بل بإمكانها أن تحرمهم من كل شيء حتى من لذة النوم.

ولكنه وباعتبار أنه كان ﷺ داعية سلام لم يعمد إلى تلك الأساليب ولم يقتل أحداً، ولم يروع فرداً مشركاً قط.

وهذا بحق من سمات العظمة في شخصية الرجل المصلح، وإن كنا نرى أن من حقه أن يواجه الإرهاب القريشي له ﷺ ولجماعته بإرهاب من سنخه.

بيد أن صلب مهمته التغييرية وأرادة استبدال ذلك الإرهاب

---

(١) سوف يأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى في كتاب:(الرسول المصطفى ﷺ قراءة في الدائرة الحمراء).

والعنف والتجاوز على الحقوق بأساليب الحوار والاستدلال والإقناع الحر، جعلته يربأ بنفسه عن ذلك، إنها النبوة والعصمة والسمو المهيب.

القسم الخامس: تهديد الرسول ﷺ بالاغتيال والتصفية الجسدية

لما يئست قريش في محاولاتها السابقة من إرهاب الرسول ﷺ فكرياً والطعن في دينه وتنفير قبائل العرب منه، وإغرائه ومساومته ومطاردته، وتهجير أصحابه وتعذيبهم وتجويع الجميع وخصوصاً بني هاشم.

وباءت هذه المحاولات جميعها بالفشل الذريع بفضل الله ﷻ وصبر الرسول ﷺ وحكمته وأناته وحلمه ومواصلته الدءوبة في العمل ليل نهار، لجئت قريش إلى آخر ما يمكن أن تفكر به وهو اغتياله ﷺ وتصفيته جسدياً، ظناً منها أن ذلك ممكنٌ، وأنه لو كان لقضى على رسالته وجماعته من المؤمنين.

وكانت محاولات اغتيالية كثيرة حتى في المراحل الأولى من دعوته المباركة، بيد أن العرب جمعت قواها أخيراً فأبدعت خطة لإفناء وجوده ﷺ وتضييع دمه بين قبائل العرب جميعاً، فلا يكون هناك مسؤول محدد ولا قبيلة واحدة وادية، ثم لا طاقة لبني هاشم على دفع العرب جميعاً، ولا دفع الأعراب ولا الأحابيش ولا غيرهم.

فلو تمكنوا من قَتْل الرسول ﷺ، فسوف يَذْهَل بنو هاشم ويعجزوا بأن يردوا العرب جميعاً، وأنى لها ذلك، صحيح أن بني هاشم بيت كبير وشريف، ولكن ليسوا بعدتهم ولا بعديدهم، فيلجئون إلى الصمت أو الرضا بالهزيمة والانكسار في حال المواجهة، ولعله يؤول أمرهم إلى ما آل إليه أمر ابن أخيهم محمد ﷺ وهو الموت المحتوم، وبأيدي الخصم الذي يختار طريقة الإهلاك وكيفية المثلة.

وهذا يعني فيما يعني أنه (ما هاشم إن كنت تسأل هاشم)، إنما كانوا

وسادوا وبادوا، ففي كل حال من الأحوال سوف تخسر هاشم الجولة، وتجلس جلسة الحزين المخذول، المنكسر المذهول.

وقد حققت قريش مآربها وضعّفت عدوها، وألغت محمداً وقومه، و ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[1].

ومن ثم أن قتل محمد يمثل تخويفاً وإرهاباً لكل من يحمل في نفسه القدرة على معارضة قريش وأفكارها القديمة ورؤاها العتيقة البالية التي وجدوا آباءهم عليها، ولا يفكرون يوماً في رفضها أو عرضها على العقل والتحليل والقبول والرد على وجه الإطلاق.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[2]وهذا يمنحها شرفاً جديداً في نظر القبائل حيث تمكنت من إنقاذ أصنامها من غائلة محمد ﷺ، وتمسكت بدينها ولم تدع الدفاع عنه، بل تقتل من تراه أشرفها وأحق الناس بسيادتها لو رضي بالتخلي عن أفكاره الجديدة... محمد ﷺ!!.

ومحاولات اغتيال الرسول ﷺ تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: محاولات الاغتيال الفردية

ففي قريش من لا يطيق محمداً ﷺ، يدعو بخلاف رأيه ويهدد مركزه ويستقطب الناس الحجيج إليه، ولا يطيق أن يكون لبني هاشم مجداً وشرفاً مضافاً لما هم عليه، لا يطيق أن يرى العبيد أحراراً والأذناب قادة، والمضيعين المغمورين قمماً وأعلام يشار لهم بالبنان، وهو السيد الشريف

---

(١) يوسف: ٤١.

(٢) الزخرف: ٢٣.

في قومه وصاحب الرأي والقرار، يُخَلَّف إلى الوراء ويُهَدَّد بكل شيء بسيادته وملكه وسطوته على العبيد.

يُهدَّدَ بغريزته الثائرة التي يبردها بالزانيات متى ما أراد، ويُهَدَّد بكرشه الذي كلما استغاث أغاثه بالخمر والغانيات وأكل المال بالباطل وإيتاء المحرمات وفق التشهيات.

هو الذي لايرى حرمةَ لشيء، وأخيراً يُقيَّد بأن لكل شيء حرمة، هو الذي يتحرك وفق آراء العصبية القبلية والإباحية الجنسية، يكون أخيراً قانونياً منضبطاً بلوازم المبدأ الجديد ومفاهيمه، وضوابط العقيدة القادمة من الغيب، الغيب الذي لا يروقه سماع اسمه إلاّ منقوشاً على جباه الأصنام المسكينة الميتة.

إنه لا يتحمل كل هذا ولن يتحمله أبداً، ولا يرى أن ردود قريش في التكذيب والطعن والاتهام والتعذيب كافية لردع وإخماد لهيب دعوته ﷺ، إنه يرى لابدّ من اجتثاث الجذور وتقطيع الأوصال، (فلا خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل) أو نبي جاء في خير العمل.

فتدب لنفسه العليلة وسوسة القضاء على النبي ﷺ الجسد، والنبي الفكر، والنبي الروح مرةً واحدة من دون تجزء كما فعلوا من قبل، فقد كانوا من قبل يحاربون فكره أو نفسه أو روحه ﷺ، ولا يجمعون هذا كله وبين فكرة القتل النهائي له.

فهذا أبو جهل حربة المشركين وقطب المتمردين على رسول الله ﷺ كيف يتحدث مع قومه، عن ابن عباس في قصة طويلة جرت بين مشركي مكة وبين رسول الله ﷺ:

روى في السيرة النبوية: (فلما قام رسول الله ﷺ قال أبو جهل ابن هشام: يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلاّ ما ترون من عيب ديننا، وسفّم

أبنائنا، وتسفيه أحلامنا، وسب آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلس له غداً بحَجَر، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم.

فلما أصبح أبو جهل (لعنه الله)، أخذ حجراً ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، وكان قبلته الشام فكان إذا صلّى صلى بين الركنين الأسود واليماني، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، فقام رسول الله ﷺ يصلي، وقد غَدَت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون.

فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منبهتاً ممتقعاً لونه مرعوباً، قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده.

وقامت إليه رجال من قريش، فقالوا له: ما بك يا أبا الحكم؟!.

فقال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحلٌ من الإبل، والله ما رأيت هامته ولا قَصَرَته ولا أنيابه لفحل قط، فهمّ أن يأكلني)[1].

وينبري إليه شخص آخر ينفذ أحقاده على رسول الله ﷺ ولكن هذه المرة بأسلوبٍ آخر ليس بحجر أو مدر، وإنما الخنق فيموت جسمه ويموت صوت الوحي فيه فيختنق هو، ويختنق هتاف الله ﷻ معه.

قال البخاري: (حدثنا عياش بن الوليد، حدثنا الوليد بن مسلم،

---

(١) السيرة النبوية لأبي الفداء ابن كثير ١:٤٦٤ـ٤٦٥، البحار ١٨:٢٤٠، ومثله في سيرة ابن هشام ١:٣٢٧، البداية والنهاية ٣: ٥٧، أعلام الورى بأعلام الهدى ١: ٨٦، عيون الأثر ١: ١٤٢، سبل الهدى والرشاد ٢: ١٣٩.

حدّثني الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن محمد بن إبراهيم التيمي، حدثني عروة بن الزبير، سألت ابن العاص فقلت: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟

قال: بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذا أقبل عليه عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ منكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[1])[2].

ثم ساهم عمر بن الخطاب في إحدى محاولات الاغتيال هذه، فذهب إلى رسول الله ﷺ وهو في دار الأرقم ليقتله[3].

نقل صاحب نفحات الأزهار: (لقد جاء في إزالة الخفا ما نصه: عن أنس قال: خرج عمر متقلداً السيف، فلقيه رجل من بني زهرة فقال له: أين تعمد يا عمر؟

قال: أريد أن أقتل محمداً.

قال: وكيف تأمن من بني هاشم وبني زهرة؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك؟

قال: أفلا أدلك على العجب؟! إن أختك وختنك قد صبوا وتركا دينك، فمشى عمر ذامراً حتى أتاهما وعندهما حباب، فلما سمع حباب بحس عمر توارى في البيت فدخل عليهما.

---

(١) غافر ٢٨.

(٢) صحيح البخاري ٤: ٢٤٠، البداية والنهاية ٢:١٨٩، تاريخ الطبري٢: ٣٣٣، السيرة الحلبية ٢:٤٧٢، سبل الهدى والرشاد ٢: ٤٣٦.

(٣) محمد رسول الحرية:٩٨

فقال: ما هذه الهيمنة التي سمعتها عنكم؟ وكانوا يقرؤن طه، فقالوا: ما عدا حديثاً تحدثنا به.

قال: فلعلكما قد صبوتما؟ فقال له ختنه: يا عمر إن كان الحق في غير دينك، فوثب عمر على ختنه فوطئه وطئاً شديداً، فجاءت أُخته لتدفعه عن زوجها، فنفحها بيده فدمي وجهها)[١].

وهذه في الواقع نماذج لبعض المحاولات من بعض الأفراد الذين أرادوا اغتيال الرسول محمد ﷺ، وقد أفشل الله ﷻ جميع محاولاتهم بيد الغيب الحافظة لنبيه الأعظم ﷺ.

القسم الثاني: محاولات الاغتيال الجّماعية

ولما تعاظم الأمر على قريش فهم لا يستطيعون تحمل بقاء الرسول ﷺ من جهة، ولا يستطيع أفرادهم أن ينفذوا الاغتيال والتصفية النهائية لوجوده المبارك، فكّر البعض منهم بمحاولات جَماعية ترمي لإشراك أعداد كبيرة من أنصارهم وبعض المقدمين فيهم؛ كي يأتي لهم العمل الجماعي ما لم يستطع أن يأتي به العمل الفردي، وفعلاً نفذت محاولات عديدة وبعضها مدروسه بإتقان من الناحية الاختيارية للأفراد، ومن الناحية المكانية والزمانية في التنفيذ.

وكانوا يتصورون أن هذه المحاولات وبهذا المستوى من التخطيط لن تدع النبي الأكرم ﷺ أن يفلت منها هذه المرة، واندفعوا جميعاً لاغتيال شخص النبي ﷺ وتعاهدوا الأمر بينهم ليلاً ونهاراً، ولكن.

ولكن ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[٢]، حيث احبطت جميع المحاولات

---

(١) نفحات الأزهار ٥ ـ ١٩٧

(٢) الفجر: ١٤.

وانكشفت تحت وطأة الفشل الذريع، وسنرى كيف كان محمد ﷺ منتصراً في الجميع وعلى الجميع.

فقد ذكر لنا التاريخ سعي قبيلة بني مخزوم التي لا ينقصها الشرف والهيبة والرجل والمال والإندفاع الحاقد على كيان رسول الله ﷺ وأفكاره المتحدية.

في دلائل النبوة: (وذلك أن أناساً من بني مخزوم تواصوا بالنبي ﷺ ليقتلوه منهم: أبو جهل، والوليد بن المغيرة، ونفرٌ من بني مخزوم، فبينا النبي ﷺ قائم يصلي، فلما سمعوا قرائته أرسلوا الوليد ليقتله.

فانطلق حتى انتهى إلى المكان الذي كان يصلي النبي ﷺ فيه، فجعل يسمع قراءته ولا يراه، فانصرف إليهم فاعلمهم ذلك، فأتاه من بعده أبو جهل، والوليد، ونفر منهم فلما انتهوا إلى المكان الذي هو فيه يصلي سمعوا قراءته فيذهبون إلى الصوت فإذا الصوت من خلفهم فينتهون إليه فيسمعونه أيضاً من خلفهم، فانصرفوا ولم يجدوا إليه سبيلاً، فذلك قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾[1] إلى آخر الآية [2].

ولقد ذكر في الهامش: (وفي تفسير القرطبي ١٥:٩: لما عاد أبو جهل إلى أصحابه ولم يصل إلى النبي ﷺ وسقط الحجر من يده، أخذ الحجر رجل من بني مخزوم، وقال: اقتله بهذا الحجر.

فلما دنا من النبي ﷺ طُمِسَ على بصره، فلم يرَ النبي ﷺ فرجع إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه، فهذا معنى الآية).

ثم بدأت خطوة أخرى أكثر تطوراً من أختها، فقد كان المجموع في الحالة السابقة كلهم من قبيلة واحدة، وهي مخزوم، أما هنا وفي تخطيط

---

(١) يس: ٩.

(٢) دلائل النبوة / البيهقي ج ٢.

جديد آخر رأت القبائل أن تكوّن عدّة مجاميع من عدّة قبائل لتكون بمجموعها عصابة واحدة، هم (الكوماندوز) في اصطلاح اليوم.

على أن تُحفظ في هذه المجموعة الجديدة التعددية ـ في الانتماء ـ للمشتركين والمباشرين لعملية الاغتيال إلى قبائل عدّة، مما يحفظ لهم ضياع دم الرسول ﷺ، وصعوبة المطالبة به.

فضلاً عن اشتراك كل القبائل عن طريق أفرادها في عملية تاريخية مهمة، يطمع أن يقوم بها كل واحد على حدة، فليكن الفخر في القتل موزعاً على الجميع، ومسؤولية الدفاع عن الأصنام ملقاة على الجميع، وأن يحفظ في المشاركين أيضاً الفتوة والشبابية، بما لها من قوة وغرور، واندفاع، وعدم التقيد بنظم العقل وقواعد التفكير، وأن يُحفظ في المجموعة الشجاعة حتى لا يحصل نكوصٌ أو ارتدادٌ وإحجام في لحظة التنفيذ.

ويضاف إلى هذا أن يكون كل فتى نسيباً وسيطاً، ويلزم أيضاً أن يقع الضرب منهم جميعاً، كوقوع الضربة الواحدة من الرجل الواحد، حتى يُحفظ ما خططوا له من ضياع الدم، وعدم القدرة على إدراك الثأر من قبل بني هاشم لاحقاً.

ثم إن التعددية تخفف من وطأة الدية وإن طلب بنو هاشم أمراً باهضاً، ومع افتراض الحرب فهم غير قادرين على الحرب لأسباب معروفة منها: كثرة القوم، وتعدد القبائل، مع كونهم ـ بني هاشم ـ قبيلة مقهورة من غيرها، منكوبة بفقيدها، فسوف تختار ـ لا محالة ـ الدية.

والدية مهما كان فرض ثقلها المادي فهي محلولة من قبل القتلة؛ لكثرة عشائرهم وتعدد مصادرهم، وبهذا يكون الرسول ﷺ أثراً بعد عين، وخبراً تطويه السنون.

فما هو إلاّ رجلٌ تمرد على إرادة قومه فعمدوا إليه وقتلوه، وغمدوا

سيوفهم فيه، وأراحوا الأرض وأهلها منه ـ على وفق تفسيرهم طبعاً ـ وعلى هذا ائتمروا في دار الندوة، واتفقوا على هذا المنهج، وخلصوا إلى هذه النتيجة الخطيرة والخطة الكبيرة.

روى الطبري في تاريخه: (عن ابن عباس قال: لما اجتمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا دار الندوة، ويتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ غدوا في اليوم الذي اتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى الزَّحْمَة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخٍ جليل، عليه بتٌ[1] له فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفاً على بابها.

قالوا: من الشيخ؟

قال: شيخٌ من أهل نجد، سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأيٌ ونصحٌ.

قالوا: أجل، فادخل.

فدخل معهم، وقد اجتمع أشراف قريش كلهم من كل قبيلة،....

إلى أن قال...:

فقال أبو جهل ابن هشام: والله إن لي فيه[2] لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد!

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟

قال: أرى أن تأخذوا من كل قبيلةٍ فتىً شاباً جلداً، نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتىً منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدون إليه، ثم يضربونه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه، فنستريح، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في

---

(١) الكساء الغليظ.

(٢) في أمر محمد ﷺ.

القبائل كلها، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، ورضوا منا بالعقل فعقلناه لهم.

قال: فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي لا رأي لكم غيره) [(١)].

فهل رأيت في أعقاب تلك المحاولات رداً من رسول الله ﷺ ليحاول قتل من قصده بالقتل أو إلحاق الأذى بأحدهم.

ثم هل ترى أن استحقاق المفكرين المتنورين - في عصرنا الحاضر - المطاردة والاضطهاد والتصفية الجسدية وسحق الإرادة، وخنق الحرية والتحرر.

إننا لا نرضى ذلك لرجل يريد تغيير حالة الفساد في البشر وهو إنسان عادي ليس له من المؤهلات ما للأنبياء، ونعتبر كل من يتعرض له همجياً غاشماً، صفيقاً ظالماً.

إذن كيف تكون الحال بالنسبة لمن يتعرض للأنبياء ويقصدهم بكل سوء يمكن احتماله؟ مع عدم إغفال الفارق الكبير في التشبيه.

إن الروح السلمية، والتسامح الأخلاقي الذي يملؤ كيان رسول الله ﷺ وهدفه الكبير الذي يطمح ﷺ الوصول إليه، وكونه ﷺ مبعوثاً من الله ﷻ لخلقه، كان في الواقع هو المانع الكبير الذي يمنعه من أن يقود جماعته الدينية بطريقة العصابات وقطّاع الطرق والتي يصعب على قريش أن توقف إرادتها في الإضرار لمن أرادوا السوء برسول الله ﷺ ونهجه المشرف.

إن إرادة السلام وحب الهداية للآخرين تجعلان الرسول الأكرم ﷺ ينظر إلى الناس نظر رحمة ومودة وعطف، ويرحم بهما غفلة البشر ويقيل بهما

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٣٧٠ - ٣٧٢، ومثيله في طبقات ابن سعد ١: ١٧٦.

عثراتهم وإن كانت حادة خطرة، ويحتمل أن يكون هو ضحيتها في كل حين.

ومن الأساليب المهمة التي واجهها الرسول المصطفى ﷺ خلال دعوته الدينية السلمية في الفترة المكية، أسلوب الحصار والمقاطعة الاقتصادية، هو وأهل بيته الكرام عليهم السلام وقد كان الشِعب من أبرز المصاديق وأوضحها في ذلك.

ولهذا الحصار وماله من أهمية في إبراز إرهابية قريش، وسلمية دعوة الرسول بالإضافة إلى إصراره على المواصلة والجهاد في سبيل الله ﷻ، فوائد أُخرى كثيرة نحاول في هذا البحث دارسة بعض جوانبها:

الأسلوب الثالث: الإرهاب الإقتصادي

لقد كان الأُسلوب الثالث الذي تبنته قريش وواجهه الرسول الأكرم ﷺ هو أُسلوب (الإرهاب الإقتصادي)، ويمثل هذا الأُسلوب عجز قريش في نيل الغاية بالأسلوبين السابقين، ولجوئها الى تجويع الثلّة المؤمنة ومحاصرتها إقتصادياً كطريق جديد في المواجهة.

ولكن شاء الله أن يَفشل هذا الأسلوب فشلاً ذريعاً، وينقلب الى منفعةٍ لصالح الرسول ﷺ. وسوف نرى فيما يأتي بعض تلك المنافع التي دعمت الدعوة بقوة.

اهمية الشِعب في تدعيم الدعوة المحمدية المباركة

الأهمية الأولى: الحصار...التجربة القاسية

إن قضية الحصار الإقتصادي في الشِعب كانت تجربة قاسية ساعدت في صقل شخصيات أتباع الرسول الأعظم ﷺ، وتهيئة نفوسهم إلى أدوار الدعوة الجديدة، فالجوع لا زال يلاحقهم، والعطش والعداوة والبغضاء، وكل ذلك ضمن إطار التعبير القريشي عن الإنتقام لهذه الفئة المؤمنة،

المهتدية، الصابرة في الله ﷻ.

في كتاب إعلام الورى في أعلام الهدى: (إجتمعوا[1] في دار الندوة وكتبوا صحيفة بينهم أن لا يُؤاكلوا بني هاشم، ولا يكلموهم، ولا يبايعوهم، ولا يزوجوهم، ولا يتزوجوا إليهم ولا يحضروا معهم حتى يدفعوا اليهم محمداً فيقتلونه...)[2].

إذن هي المقاطعة المطلقة في كل شيء وبهذا يطبّق تعبير الحصار الإقتصادي على الشِعب، إذ يكون الحصار بهذا المعنى ـ أي: الإقتصادي ـ هو حصاراً على البيع والشراء، وحظراً للتصدير والإستيراد.

والحال كان أعم من ذلك فهو حصارٌ اجتماعيٌ، واقتصاديٌ، ومعنويٌ وفي كل جوانب الحياة ولوازمها، ولكن باعتبار الشِعب يتضمن الحصار الإقتصادي أيضاً؛ لذا نناقشه من هذه الجهة فإنه وتحت هذه الضغوط جميعها وما تفعله بالتالي نفوس في المسلمين، نشط الحصارعندهم مفهوم الصبر عملياً، والتحمل وتهوين الأمور بجنب الله ﷻ وإن كانت مُكلفة وشاقة.

الأهمية الثانية: نشر الدعوة الإسلامية

ساهم الحصار في توسيع الدعوة المحمدية، وسماع أخبارها والنظر إليها بكونها مظلومية تعانيها جماعة من الناس، لا لشيء إلاّ لأنهم يخالفون قومهم في المعتقد ويدعون إلى الله الواحد القهار.

وفي الواقع إن هذه المظلومية لها فائدتان:

أ: عامة: وهي تعاطف الناس مع المظلوم، وهذا ما تقتضيه جِبلة

---

(١) أي: قريش.

(٢) اعلام الورى بأعلام الهدى ١: ١٢٥، قصص الأنبياء للراوندي: ٣٢٥.

الإنسان[١]؛ لقبح الظلم واستنكار النفوس، ونحن نرى آل النبي ذاقوا الويل من المشركين.

ففي تاريخ الطبري: (فأقاموا على ذلك من أمرهم سنتين أو ثلاث حتى جهدوا لايصل إلى أحد منهم شيء إلاّ مستخفياً به ممن أراد صِلتهم من قريش.

وذكر أن أبا جهل لقي حكيم بن حزام بن خويلد من أسد معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمّته خديجة بنت خويلد وهي عند رسول الله ﷺ ومعه في الشعب فتعلق به وقال:

أتذهب بالطعام إلى بني هاشم، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة. فجاء أبو البحتري ابن هشام بن حارث بن الأسد، فقال: ما لك؟ وما له؟

قال: يحمل الطعام إلى بني هاشم.

فقال له أبو البحتري: طعام لعمته عنده بعثت إليه أفتمنعه أن يأتيها بطعامها !! خلِّ سبيل الرجل.

فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه فأخذ أبو البحتري لحى بعير فضربه فشجه ووطئه وطئاً شديداً)[٢].

ولم يدخل في حلف الصحيفة مطعم بن عدي بن نوفل ابن عبد المطلب بن عبد مناف، وقال: هذا ظلم.

---

(١) قال رسول الله: (اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام لقول الله عزوجل: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين) المنتخب من ذيل المذيل ـ الطبري: ٦٩.

(٢) تاريخ الطبري ٢: ٧٤، شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٩، البداية والنهاية ٣: ١٠٩، سيرة إبن هشام ١: ٢٣٦، السيرة النبوية لإبن كثير ٢: ٥٠، الدرجات الرفيعة:٤٦.

ب: خاصة: أي ما ينعكس مباشرة على نفسية المؤمن المظلوم، فإن المظلوم نفسه يحس بدافع قوي للتعبير عن مظلوميته والدفاع عنها ـ عادةً ـ خاصة إذا كانت عوامل الدفاع ذاتية فإنها تكون قوية مؤثرة، تكرس في النفس ضرورة المقاومة والتحدي حفظاً للكرامة، وصيانة للعقيدة، واحترازاً من العار.

وبالتالي يجعلها نفوساً تغلي بالحمية والصمود أمام الظالمين، والمتجاوزين على الحقوق، وهذا بعض ما يريده الرسول ﷺ في منهجه الرامي لمحاربة الظلم والظالمين.

وبالفعل جعلت رجالاً من نفس قريش تتحسس هذه المظلومية وتساهم فيما بينها بتكوين مجموعة معارضة لقريش، ولوضعها الصحيفة في الكعبة، ومن ثم مطالبتهم الشديدة في تمزيق تلك الصحيفة، مما يعني رجوع النبي ﷺ ورهطه وصحبه ﷺ إلى الصف الجماعي منتصرين؛ وذلك لأن القوم لم يفلحوا بكسر شوكتهم وسلب إرادتهم، بل هم الذين تراجعوا عن ذلك واعترفوا بعدم جدوى هذه الأساليب.

الأهمية الثالثة: إسقاط لورقة الرهان القريشي

فإنه كان الإعتقاد السائد بأن هذا النوع من التعذيب والحصار في الشِعب، كفيلٌ بالقضاء على هؤلاء ورهطهم ـ أقصد بني هاشم ـ وتمزيق نفوسهم تمزيقاً معنوياً فضلاً عنه جسدياً، فكان الحصار بالحقيقة تمزيقاً لورقة قريش السياسية وإلغاء أسلوبهم بطريقة آلية.

ولو وَسّعنا المطلب وناقشنا على أي الأهداف كانت تراهن قريش، وبكلمة أخرى ما هي أهداف قريش من حصارها لبني هاشم في الشِعب؟ لوجدنا أن أهدافهم منحصرة في النقاط التالية:

الهدف الأول: تسليم محمد ﷺ وقتله

وهذا رأس المطالب بالنسبة لقريش فالرسول ﷺ هو المقصود أولاً وآخراً من كل هذه المناورات، إنهم يريدون إهلاك محمد ﷺ وإنهاء وجوده الشخصي، فلعلهم ـ وبشرط عدم انفكاك الحصار إلاّ بتسليم محمد ﷺ والرضى بقتله ـ يصلون إلى بغيتهم الدنيئة هذه ويَشفون حقداً اشتدَّت مرارته في الصدور، ويضعون ثقلاً طال بقاؤه على العواتق والظهور.

فقد روى صاحب كتاب إعلام الورى بأعلام الهدى: (ولا يحضروا ـ أي بني هاشم ـ معهم حتى يدفعوا إليهم محمداً ﷺ فيقتلونه، وأنهم يد واحدة على محمد ﷺ فيقتلونه غيلة أو صراحاً)[1].

فهم لا يرضون بأن يسلّم آل هاشم إبنهم الأقدس للقوم؛ لأن هذا المقدار وحده غير كافٍ في فك كماشة الحصار عنهم، إنما عليهم أن يكونوا مع قريش ومع أعداء محمد ﷺ يداً واحدة، ويساهموا في مؤامرة قتله والتخطيط السري لذلك، وتكون لهم يدٌ بالاشتراك في قتله، لا على صعيد التخطيط فقط بل صياغة السبل القذرة والغدر بفلذة كبدهم محمد ﷺ، وذلك إما غيلة أو بشكل سافر وعلني.

وبهذا كان النبي وآله ﷺ أمام أنياب جديدة ومخالب عتيدة، وأساليب لا تبتكرها الوحوش فضلاً عن الإنسان.

كان على آل هاشم أن يرضوا بالذل والمهانة مدى الدهر، والاستخفاف بقدرهم وهم أسياد مكة وأشراف قريش ـ ما عاشوا ـ لأنهم أكلوا لحومهم بأنفسهم وقبلوا تلك المخططات الرهيبة الخبيثة.

تسليم محمد ﷺ، والمشاركة في التخطيط لقتله، والمساهمة مع قريش في كل ما تريده في محاولة القتل المزعومة، هي الشروط المفروضة

---

(١) إعلام الهدى بأعلام الورى ١: ١٣٥، قصص الأنبياء للراوندي ٣٢٥.

أولاً على آل هاشم.

وهناك ـ بطبيعة الحال ـ بدائل لهذا الأمر عندما لا يستجيب آل النبي ﷺ لهذا الفرض، وهي بدائل حتمية سوف يساعد الحصار على إيجادها حتماً وهذا ما ترجوه قريش.

الهدف الثاني: أن يُهلكوا بني هاشم جوعاً وضيماً وغمّاً

وهذا فعلاً احتمال مطروح فعدم البيع والشراء يؤديان بالنتيجة إلى احتمال الهلاك الجزئي أو الكلي للقوم، وهذا أمر واقع في دائرة اهتمام قريش خصوصاً بأنهم ناظرون إلى امتداد الحصار إلى حيث تحقيق الشروط الموجودة فيه.

بل وتشددوا على ذلك فجعلوه في البيت الحرام، وختمه أربعون رجلاً من أشرافهم كلٌ بخاتمه الخاص، كل هذا يعني أنهم قادرون على تحقيق أهدافهم من هذا الحصار، لولا تلك الأرضة الحقيرة العظيمة والتي تمكنت أن تطوّح بأحلامهم، وإلاّ فان ما أرادوا لا محالة كائن....

فأموال الرسول ﷺ وبني هاشم في تناقص، وأموال خديجة في تناقص، والانقطاع النسبي للمدد الخارجي، والذي يأتيهم قليل وبطرق لا تخلو من مجازفات ومخاطر، كما أنهم ـ أي قريش ـ أخذوا احتياطاتهم لِما يمكن أن يحصل من وراء الحجاب.

ولم يكن للمسلمين بزعامة النبي الأكرم ﷺ إلاّ موسمين للخروج ولقاء القوافل، وإذا خرجوا في أحد الموسمين فلا يتمكنون أن يخرجوا بالثاني، عليهم تسليم أمورهم إلى الله ﷻ وإلى المجاهيل التي تنتظرهم، سيما وأنه سيولد لهم في الشِعب مولود، أو يتوفى منهم شخص، أو يَمرض.

هذا كله فيه لوازم معروفة تحتاج إلى الخروج من الشعب، وتحتاج إلى أموال وإلى جهود نفسية لغرض مواجهتها وحتى جسمية لغرض الاستمرار بالقيام في تدبير مهماتها وهذا مع الجوع والضعف والإنهاك للنفس والقوى، قد يكون متعذراً إن لم نقل مستحيلاً.

في قصص الأنبياء: (وختموا الصحيفة بأربعين خاتماً ختمها كل رجل من رؤساء قريش بخاتمه، وعلقوها في الكعبة وتابعهم على ذلك أبو لهب، وكان رسول الله ﷺ يخرج في كل يوم موسم فيدور على قبائل العرب، فيقول لهم: «تمنعون لي جانبي حتى أتلو عليكم كتاب ربكم، وثوابكم الجنة على الله».

وأبو لهب في أثره، فيقول: لا تقبلوا منه فإنه ابن أخي وهو كذاب ساحر.

فلم يزل هذا حالهم، وبقوا في الشعب أربع سنين، لا يأمنون إلاّ من موسم إلى موسم، ولا يشترون ولا يبيعون إلاّ في الموسم، وكان يقوم بمكة موسمان في كل سنة، موسم العمرة في رجب، وموسم الحج في ذي الحجة.

فكان إذا اجتمعت المواسم يخرج بنو هاشم من الشعب فيشترون ويبيعون، ثم لا يجسر أحد منهم أن يخرج إلى الموسم الثاني، وأصابهم الجهد وجاعوا، وبعث قريش إلى أبي طالب: ادفع إلينا محمداً نقتله)[1].

الهدف الثالث: أن يتراجعوا جميعاً بمن فيهم الرسول ﷺ عن موقفهم

أن يتراجعوا عن موقفهم، ومبدئهم، ودينهم العظيم، بل عن جهدهم الذي بذلوا، وجهادهم الذي خاضوا، والدماء التي أريقت من المسلمين في طريق الرسالة، ويتخلوا عن أمر الله الواحد القهار، فتؤويهم قريش إلى صدرها

---

(١) قصص الأنبياء للراوندي: ٣٢٥، إعلام الورى بأعلام الهدى ١: ١٢٦.

وناديها بعد طول عقاب، وتدغدغ مشاعرهم باللوم والعتاب، وهي المنتصرة في آخر السباق.

وإنّا لا نظن بعد ذلك إلاّ أن يجعلوا بني هاشم تحت طائلة الغمز واللمز، ولا يلقونهم إلاّ بالتشفي ونشوة الهيمنة، ولِمَ لا يكونون كذلك وقد اكتسحو أصلب مجموعة، وأقوى فصيل.

والآن هم يلوذون بهم يطلبون منهم الرحمة والأمان، وقد أعلنوا تخليهم عن الدين، أو عن سيد المرسلين، وجاءوا جميعاً إلى قريش تائبين عائدين معترفين لها بانحرافهم السابق، مقرّين بخطئهم الشنيع.

الهدف الرابع: أن يحصل بينهم ـ أي المسلمين ـ شقاق وافتراق

بسبب طول المدّة، وشدّة المحنة، مما يعني انفصال بعض الأفراد أو المجاميع من الشعب وانصرافهم إلى قريش، فيدخلون في الموافقة على وثيقتهم، ويأمنون على أنفسهم، ويشبعون بطونهم، فيكون حالهم كأبي لهب حيث جميعهم من بني هاشم، لكن فصلتهم المواقف والمفترقات.

وهذا أيضاً يقع في خدمة قريش، بل الاحتمالات الأربعة تخدم قريشاً في حال وقوعها، وبالنظر إلى تلك الأهداف سيكون سعي قريش حثيثاً نحو التضييق على رسول الله ﷺ وآل هاشم جميعاً.

الأهمية الرابعة: ثمرة الحصار بين الظالم والمظلوم

ساهم الحصار المفروض على رسول الله وآله الأبرار ﷺ ظلماً وعدواناً بإبراز قريش وهي المعتدية، المثيرة، الباحثة عن طريق لتهلك به أبناءها.

بينما عرضت الرسول ﷺ وهو رجل مسالم وأصحابه كذلك، مما يعمق حق الرسول ﷺ ويعمق باطل قريش، وهذا بذاته نافع لا على

صعيد المرحلة النبوية المباركة في صدر الإسلام، بل في كل مراحل التاريخ اللاحقة إلى يومنا هذا.

فنحن نلاحظ عندما نقرأ التاريخ أن الرسول الأعظم ﷺ تعرض لقسوة قريش، وبهذا الشكل المفرط، فنرق لحاله، ونقترب منه على سبيل دراسة آرائه، وقبول أطروحته، والرضى بمنهجه.

وهذه وإن كان لها ربط بفقرة المظلومية إلاّ أن الملاحظ منها هنا جهة تأثيرها المستقبلي لا الآني فقط، خصوصاً أن تشديد قريش على الشِعب ومتابعة أمره من الخارج يزيد في ألم المحاصَرين قطعاً.

فقد عمدوا إلى:

١. ملاحقة كل مساعدة يمكن أن تصلهم، كما ذكرنا ملاحقتهم لحكيم بن حزام.

٢. ملاحقة كل التجار الذين يتعاملون مع بني هاشم، أو يمكن أن يتعاملوا معهم، بالتحذير والتخدير.

فهم يحذرون القادمين إلى مكّة من البيع وإلاّ ينهبوه، ويحذرون الآخرين بالمغالاة في البيع على بني هاشم، أو إغراء التجار بالمبالغ الطائلة في شراء مبيعاتهم أو تعويض خسائرهم في حال عدم البيع، كل ذلك حتى يُحكِموا الطوق على عنق الشِعب الهاشمي.

عن بحار الأنوار: (وكان من دخل مكة من العرب لا يجسر أن يبيع من بني هاشم شيئاً، ومَن باع منهم شيئاً انتهبوا ماله، وكان أبو جهل والعاص بن وائل السهمي، والنضر بن الحارث بن كلدة، وعقبة بن أبي معيط، يخرجون إلى الطرقات التي تدخل مكة.

فمَن رأوه معه ميرة، نهوه أن يبيع من بني هاشم شيئاً، ويحذرون إن

باع شيئاً أن ينهبوا ماله)[١].

الأهمية الخامسة: وللعاطفة دور...!!

كان الشِعب تجربةً لاستقطاب بعض المتعاطفين مع الدعوة، والتعبير عن موقفهم الإنساني بإيصال ما لديهم من مؤن إلى الشِعب النبوي المحاصر، وإن كان ذلك يعني الكثير من المجازفات والخطورة كما أسلفنا، باعتبار أن قريش كانت قد حظرت كل هذه السلوكيات مع المسلمين، ومنعت عنهم كل شيء، وتعاقب قطعاً من يوصل لهم شيئاً يذكر.

كما يروى أنه: (كان العاص بن الربيع ـ وهو ختن رسول الله ﷺ ـ يأتي بالعير بالليل عليها البر والتمر إلى باب الشعب، ثم يصيح بها فتدخل الشِعب فيأكله بنو هاشم، وقد قال رسول الله ﷺ: **«لقد صاهرنا أبو العاص فأحمدنا صهره، لقد كان يعمد إلى العير ونحن في الحصار فيرسلها في الشعب ليلاً»**)[٢].

الأهمية السادسة: محمد ﷺ رجل الغيب!!

كان الحصار تأكيداً آخر على صدق دعوة الرسول ﷺ، وصدق مدعاه في الارتباط بالغيب، وإنه ﷺ منه، وذلك لما ورد من تأييد غيبي جليل، وتصديق إلهي له في فترة الحصار.

حيث أن الرقعة التي كتبت عليها قريش وثيقة المقاطعة، وبيان الحصار الظالم على رسول الله ﷺ وأهل بيته، قد أكلتها الأرضة أوهن المخلوقات، وأضعف الموجودات، ولم تبق منها سوى (بسمك اللّهمّ).

---

(١) بحار الأنوار ١٩:١، حلية الأبرار ٨٣:١، وانظر مناقب آل أبي طالب ١: ٥٨، إعلام الورى بأعلام الهدى ١: ١٢٥، قصص الأنبياء للراوندي: ٣٢٥.

(٢) بحار الأنوار ٣: ١٩. ونفس المصادر السابقة، مستدرك سفينة البحار ٧: ٤٨٣.

فهي أبقت القسم الأول لقداسته، وأكلت الباقي لدناسته ويضاف إلى إخبار النبي ﷺ بذلك دون معرفته ﷺ بها، بل دون معرفة من وضعوها به.

وتبنى أبو طالب رأي النبي ﷺ وإنباءه بالغيب وحدّث قريش بذلك وهم في غفلةٍ من أمرهم ووقف الجميع على المعجزة الجديدة للنبي الأكرم ﷺ: (وإن الله قد بعث على صحيفتهم الأرضة فأكلت كل ما فيها إلاّ اسم الله، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب، فما راع قريشاً إلاّ وبنو هاشم عنق واحد حتى خرجوا من الشعب.

فقالوا: الجوع أخرجهم، فجاءوا حتى أتوا الحجر وجلسوا فيه، وكان لا يقعد فيه صبيان قريش.

فقالوا: يا أبا طالب قد آن لك أن تصالح قومك.

قال: قد جئتكم مخبراً ابعثوا إلى صحيفتكم لعله أن يكون بيننا وبينكم صلح فيها.

فبعثوا إليها وهي عند أم أبي جهل وكانت قبل في الكعبة، فخافوا عليها السرّاق فوضعت بين أيديهم وخواتيمهم عليها.

فقال أبو طالب: هل تنكرون منها شيئاً؟، قالوا: لا.

قال: إن ابن أخي حدّثني ولم يكذبني قط، إن الله قد بعث على هذه الصحيفة الأرضة فأكلت كل قطيعة وإثم، وتركت كل اسم هو لله فإن كان صادقاً أقلعتم عن ظلمنا، وإن يكن كاذباً ندفعه إليكم فقتلتموه.

فصاح الناس: أنصفتنا يا أبا طالب، ففُتِحَت، ثم أُخرجت فإذا هي مشربة كما قال ﷺ، فكبّر المسلمون وامتقعت وجوه المشركين.

فقال أبو طالب: أتبين لكم أيّنا أولى بالسحر والكهانة؟

فأسلم يومئذٍ عالم من الناس، ثم رجع أبو طالب إلى شعبه، ثم

عيّرهم هشام بن عمرو العامري بما صنعوا ببني هاشم)[١].

وقالوا في مورد آخر: (وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة، فشلّت يداه فيما يزعمون)[٢].

فهذا الإخبار الغيبي وذلك الشلل في اليد، لم يكونا أمرين اتفاقيين، إنما نبعا من إلهام سماوي في الأول، وذلك لخطورة التحدي المطروح، فإن لم يكن صحيحاً فسوف يُكَذّب إلى الأبد من الخاصة والعامة، سيما والناقل للكلام عمّه أبو طالب، الذي اندفع مع ابن أخيه بكل ثقة وتحمس، ومن ثم يُقتل أو يُسلِّم للقتل حسبما دار الحوار بينهم.

وإنه عقاب إلهي في الثاني أي في شلل يد الكاتب للصحيفة منصور بن عكرمة، يؤيد ويعضد أمر الرسول ﷺ الغيبي وسلامة نقله عن السماء.

والحق أن هناك إلتفاتة أُخرى في أمر تمزيق الصحيفة تأتي في سياق رفض مظاهر القطيعة للرحم، وقطع الصلات مع الناس عموماً، وبغض كل المظاهر المرفوضة.

الأهمية السابعة: رجال الوادي...وادي الرجال!!

برّز الشِعب شخصيات لها من الملياقات والمواساة الكريمة لرسول الله ﷺ القدح المعلى، كأبي طالب.

فكان فارس الميدان، وفارس الشعب لمواقفه العظيمة، فهو يفقد وجوده الاجتماعي والاعتباري الظاهري في قريش، ويفقد أمواله ويتعرض

---

(١) الخرائج والجرائح ١: ٨٥ – ٨٧ ح ١٤١، البحار١٩:١٦، سيرة ابن هشام ٢:٢٩.

(٢) سيرة ابن هشام ٢:٢٩، دلائل النبوة للإصبهاني: ١٩٨، البداية والنهاية ٣: ١٠٨ و ١٢١، السيرة النبوية لابن كثير ٢: ٤٨ و ٦٩، سبل الهدى والرشاد ١٠: ٦٠، بحار الأنوار ١٩:٢١.

للعداء والتبعيد والاحتقار، ويرضى بكل ما حصل له وهو عميد بني هاشم.

ثم يعيش الجوع والوحدة والإقصاء الاجتماعي، ويبقى يذب عن رسول الله ﷺ ويتحدى معه الأخطار والحصار، وكل هذا يتجلى بوضوح في مواقفه العظيمة في الشعب[١].

وبرّز الشعب وحصاره على أهل البيت شخصية لامعة أخرى لطالما وقفت بجنب الرسول ﷺ، بل وأعطت كل حياتها بجنبه الشريف مناصرة وباذلة ومضحية منذ أن هتف ﷺ بالدعوة في غار حراء، ثم بقية حياتها حتى الموت ألا وهي شخصية السيدة خديجة الكبرى أم المؤمنين وأم العترة المحمدية الطاهرة عليها السلام.

فقد بذلت أموالها في الشعب كي تقيم أود المحاصرين وهذا ما يذكره أهل السير والتواريخ ويمكن أن يُطلب فيها.

وشخصية عملاقة أُخرى، هي شخصية الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام، وشخصيات أُخرى سواه.

الأهمية الثامنة: قريش والنهاية

وأخيراً خلق الشعب ذلك الانشعاب في وسط قريش، وذلك الانقلاب على قضية الوثيقة، وتحرك منهم مجموعة منتفضين على الصحيفة الظالمة، رافضين لها، مطالبين بإنهاء مفعولها وإرجاع بني هاشم إلى وضعهم الطبيعي.

ومجرد إعلان البراءة يعني ثلم الاتفاق، ومجرد الاستمرار في تلك الدعوة الرافضة يعني إمكان استقطاب آخرين اليها، وتحييد القسم الآخر

---

(١) سوف نذكر بعضها في كتابنا (الرسول المصطفى ﷺ قراءة في الدائرة الحمراء).

وبالتالي إحداث خلل في صلب الإجماع على الصحيفة.

والمعلوم أن الرافضين لهذه المقاطعة سيواصلون طريقهم عملياً بالرفض فيتصلون بالحاصرين، ويبيعون عليهم ما يحتاجون، ويفتحون طريق التزويج والمناكحة والإيواء لهم، وربما يدافعون عنهم، وإذا تطور الموقف ربما يواجهون قريش بمواقف متصلبة تؤدي بهم إلى الصِدام والمقاتلة.

وعلى كل حال حصل هذا أم لم يحصل، فمعناه أن الحصار جزئياً ـ إن لم يكن كلياً ـ قد فُك عن النبي ﷺ وأهل بيته وعشيرته.

جاء عن ابن هشام عن ابن اسحاق: وبنو هاشم وبنو عبد المطلب في منـزلهم الذي تعاقدت فيه قريش عليهم في الصحيفة التي كتبوها، ثم إنه قام في نقض تلك الصحيفة التي تكاتبت فيها قريش على بني هاشم وبني المطلب نفر من قريش.

ولم يُبلِ فيها أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن نصر بن جذيمة بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، وذلك أنه كان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه فكان هشام لبني هاشم واصلاً.

وكان ذا شرف في قومه، فكان ـ فيما بلغني ـ يأتي بالبعير، وبنو هاشم وبنو عبد المطلب في الشعب ليلاً، قد أوقره طعاماً حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه، ثم ضرب على جنبه، فيدخل الشعب عليهم ثم يأتي به قد أوقره بزاً أو براً فيفعل به مثل ذلك.

قال ابن إسحاق: ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب.

فقال: يا زهير، قد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث علمت، لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون

ولا ينكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي حكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبداً.

قال: ويحك يا هشام ! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها.

قال: فقد وجدت رجلاً.

قال: فمن هو.

قال: أنا.

قال له زهير: أبغنا رجلاً ثالثاً.

فذهب إلى المطعم بن عدي، فقال له: يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً.

قال: ويحك ! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد.

قال: فقد وجدت ثانياً.

قال: من هو؟

قال: أنا.

قال له: أبغنا ثالثاً.

قال: قد فعلت.

قال: من هو؟

قال: زهير بن أبي أمية.

قال: أبغنا رابعاً.

فذهب إلى البختري بن هشام، فقال له نحو مما قال للمطعم بن عدي.

فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟

قال: نعم.

قال: من هو؟

قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك.

قال: أبغنا خامساً.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقّهم.

فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟

قال: نعم. ثم سمّى القوم.

فاتّعدوا خطم النجوم ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك، فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها.

وقال زهير: أنا ابدؤكم، فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا غَدَوا إلى أنديتهم، وغدا زهير ابن أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس: يا أهل مكة، إنا نأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم لا يباع ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تُشَق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

قال أبو جهل وكان في ناحية المسجد: كذبت والله لا تُشق.

قال زمعة ابن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كتبت.

قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كُتب فيها، ولا نُقرّ به.

قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها) [١].

وفعلاً يتحقق تخليهم عن تلك الصحيفة، وينقضون الاتفاق.

ومن هنا يتبين أهمية موقف هؤلاء في تمزيق الصف القريشي وإنهاء حالة التعسف الاقتصادي، والاجحاف الاجتماعي بحق العصبة الهاشمية، وفعلاً به تم الإفراج عنهم جميعاً.

والملاحظ أن هذا الموقف القريشي الجديد والذي تزعمه نفر منهم وأعلنوا تعاطفهم مع بني هاشم ورفضهم المطلق لوثيقة قريش، إنما جاء بسبب التصلب النبوي والتماسك الهاشمي في الموقف في فترة حصار الشعب، وببركة ذلك كله أفرز هذه الحالة من الجنوح (أو الإثابة الى الحق) عند بعض المشركين، ورفضوا الصحيفة القاطعة.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢:٢٧ ـ ٢٩،البداية والنهاية ٣: ١١٩ـ ١٢٠، السيرة النبوية لابن كثير ٢: ٦٧، سبل الهدى والرشاد ٢: ٤١٣ـ ٤١٤.

الإتجاه الثاني:

جهاد المواجهة (جهاد السيف)

ثم كانت المرحلة الثانية من جهاد الرسول ﷺ، وكانت فترة المواجهة الحامية بين المسلمين والمشركين قتالاً دامياً، وحرباً مستعرةً.

ولكي نطلع على طبيعة تلك المرحلة وبغي القوم المتواصل فيها على الرسول الأكرم ﷺ وعلى أُمته الإسلامية الصغيرة الكبيرة، وعلى تسلح الرسول ﷺ بالصبر، ودعوته للسلم، وتمسكه المطلق بضرورة حفظ حقوق الإنسان، والدفاع المستميت عن حريته وحرية أفكاره وأتباعه.

نقدم دراسة تحليلية شاملة لأسباب الحروب التي خاضها الرسول المصطفى ﷺ في الفترة المدنية.

أسباب حروب الرسول الأعظم (ص)

وجدير بنا ونحن نناقش ملاكات الحرب ودواعيها وفق نظرية الإسلام وثورته التي فجرها محمّد النبي ﷺ في بطاح الجزيرة العربية، أن نأتي بالحديث والنقاش العلمي والاستدلالي على الأسباب التي هيجت تلك الحروب، وأثارت تلك الجيوش، وأدت إلى وقوع تلك المعارك.

لنتلمس عن قرب فاعليه الإسلام في التصدي الحق والملحق للعدو والعدوان، وإتّباعه لمنهج الحق وإن صعب الأخذ به، ونتلمس بطلان دور العدو، وفقده للحق في حركته وتحريكه لقطاعاته وألويته العسكرية.

ونتلمس احتياط الإسلام في دفاعه عن نفسه بوازع العقيدة، ووعي السبق للأحداث التي تحاك ضده من قريش وحلفائها قبل الفتح، ومن غير قريش وحلفائها بعد فتح مكّة.

ولنعلم أن الإسلام ما قام حرباً إلاّ كان رادعاً، ولا غزى أحداً إلاّ وهو شاعر بالتهديد، ولم يبعث السرايا إلاّ محصناً للثغور التي يحاول العدو أن يتناوشها برَجِيله وسيوفه، ويخرقها على الدوام.

ولم يردع أحداً بالسيف إلاّ لغيرته على عرضه، ودفاعه المنصف عن أرضه، أو رداً لتجاوز الآخرين.

وإننا حيث نبحث في ذلك جميعاً نلاحظ أن الإسلام لم يقفز بجيشه وعدته إلى الخطوط الأولى في الحرب بطراً أو رئاء الناس، ولم يضع جنده في خطوط الموت شعوراً منه بضرورة إقلال عدد المسلمين، أو إهلاك جزء منهم، إنما كانت الضرورة تقوده إلى ذلك، والإضطرار يفرض عليه هذا الخيار.

هذا كله مع إغماض العين عن الأمر الإلهي، والتأييد الرباني لخوض معارك الدفاع عن العقيدة وأهلها، وهم مسلمون يعملون بالحكم الشرعي.. يستجيبون للنداء الإلهي.

إن دراسة الأسباب ولو بشكل مجمل لحروب الإسلام ولو الكبيرة الأولى منها تمنحنا فرصة التفكير من جديد بطبيعة تلك الحروب، وتساعد خصومنا في الإقتراب من الإعتَراف بكونها حروباً إما دفاعية أو وقائية قامت على مقاييس الحق، ودفع الظُلامة، واستجلاب الضائعات من الحقوق.

وتمنحنا فرصة التعرف على الإسلام كونه عظيم الجانب في أخلاقه الحربية، وفي خوضه للمنازلة العسكرية، وفي تهيئة المقدمات الإقناعية للمقاتلين أو للقتال.

وعندما نخوض في تفاصيل أُخرى عن ذلك كله نرى بوضوح روعة الفكر الإسلامي، وإنسانيته حتى والسيف مشرع بوجهه، والرمح غائر في

جسده، وعظيم اللياقات الروحية التي امتلكها في سوح القتال، فضلاً عن خصائص مثالية وسجايا فاضلة، وما إلى ذلك.

بحيث يمكن لنا بعد دراسة منصفة وشاملة وموضوعية لحروب الرسول الأعظم ﷺ أن نقول:

إنه ﷺ قد أرسى بهذه الحروب الدفاعية قواعد السلام العالمي في زمانه، وأسس مدرسة جديدة إنسانية كبرى حول مفهوم الحرب والسلام، والخلق الحربي وقوانين المعاملة المثلى مع الأسرى وما شابه... .

مدرسة فريدة إنسانية مثالية تُمكِّن الأجيال المتلاحقة من الإقتداء بها والسير ورائها.

وبهذا نرى تهافت أعداءه، وخلفيات تفكيرهم، وقصور مشاريعهم، وعدم قدرتهم الفعلية على مجاراة الإسلام كحق، ومنطق، ورأي، وعقيدة، ونظام، ونية، وخطة حرب، وصلة وثيقة بالرب.

تهافتهم في الحجة، وفي تذرعهم بالباطل، وفي إصرارهم على مقاتلة الإسلام، ونقف على خلفية الحروب التي وقفت ورائها.

وأورثتنا ذلك الموروث العريض والهام لكل ما تحتاج الحروب من أدبيات في كل جوانبها المعهودة من العزة للمسلمين، والتثبيت للدين، والطرد للكفار والمنافقين.

ويمكن القول أن منفعة دراسة حروب الرسول ﷺ لا تنعكس فقط على الحروب المحتملة لما بعد الرسول وكيفيه خوضها اقتداءً بقيادة الرسول وخططه وأخلاقه وأحكامه ﷺ فحسب.

بل هي ترفد الحياة كل الحياة، بالروح الحيوية، وبالأحكام الشرعية، والسلوك الإنساني، وبالعمل في ما يغني الإنسان ابتداءاً من استعداده الذاتي لمواجهة الحياة وانتهاءاً في استعداده الروحي لاستقبال الآخرة،

وربطه في كلا الحالين بعالم الغيب والماورائية.

معركة بدر القتال أو بدر الكبرى

معركة بدر الكبرى أو بدر القتال من أهم وأخطر المعارك التي خاضها المسلمون ضد المشركين، وكانت قد تميزت بأمور خاصة حتى من بين المعارك الأخرى الفاصلة في تاريخ المسلمين كأُحد والخندق وحنين.

فهي أول المعارك وأخطر التحديات، كان المسلمون قليلي العدة والعدد فيها ولم يكونوا متهيئين لقتال، ودارت عند عين ماء تدعى بدراً وانتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً عظيماً وكان المد الغيبي فيها ظاهراً بيناً.

أسباب المعركة

السبب الأول:

كون الرسول الأعظم ﷺ يمثل مصدر قلق حقيقي يهدد مستقبل قريش، هكذا تخيلوا فدولته في المدينة المنورة سوف تتوسع وتقوى ويشتد ساعدها على حساب وجودهم المكيّ، وأيّ تهديد أبلغ تأثيراً في نفوس أزلام قريش من هذا التهديد.

فالدولة المجاورة ستكون دولة منظّمة وذات قيادة نادرة محنكة عنيدة لا تعرف للهزيمة سبيلاً، ولها الجرأة من الآن بأن تستفز مكّة بكل كبريائها المعروف فكيف في المستقبل، فحتماً ستحولها الأحداث ـ إذا استمرت على هذه الشاكلة ـ إلى قلعة محصنة لا يمكن التفكير في تحديها أو تهديدها.

إنّه هاجس الخوف من المستقبل وبالذات على ما كانوا يتحكّمون به، مكّة وأهلها وبنيتها وكل شيء فيها.

وهذا السبب البعيد لوحده كافٍ من الناحية الواقعية في أن يكون

عاملاً أساسياً في وقوع معركة بدر الكبرى، خصوصاً إذا عرفنا أنه تحقق فيما بعد وبشكل فعلي.

فكانت دولة الرسول العظمى والتي امتدت من الشرق إلى الغرب فضلاً عن مكّة المكرمة.

السبب الثاني:

وحتى لو قلنا تنزلاً أن قريش لا تخاف من نشوء دولة كاملة ونظام مستقر يهدد وجودها الفعلي في المستقبل، وحتى لو احتملنا أن الرسول ﷺ ودولته سيبقون ضعافاً، فهذا كله لا يغني في طرد احتمال كونهم سيظلون مصدر تهديد لتجارة قريش كما فعلوا الآن فإن تهديد قافلة تجارية لا يحتاج الى كل هذه الافتراضات المفترض وجودها في دولة متكاملة حتى يتم تنفيذه، بل يكفي أن تقوم به قوّة معينة وضمن شرائط ما.

وهذا بحده الأعلى موجود في مجموعة محمد ﷺ القاطنة في المدينة وبالتالي تهديد اقتصادهم الذي تمثل التجارة عصبه الرئيسي الحساس مع الالتفات بأن قريش سوف لن تجد طريقاً ينقذها من تلك المجاميع الغاضبة منها، والثائرة عليها.

إذن احتمال قريش في تهديد المسلمين المستمر لقوافلها مستقبلاً سبب ثاني لوقعة بدر، والذي ربما أدركه رجالهم وذوو الرأي منهم.

السبب الثالث:

وهناك سببٌ آخر يمكن اعتباره في الحديث ألا وهو أن بدر لم تكن التعرض الأول بين الطائفتين، أو بين المسلمين وغيرهم مما يشكل عند قريش مؤشر خطورة تنامي القوة الإسلامية.

نعم إنه التعرض الأكبر ولكنه على أي حال كان مسبوقاً بتعرضات

عدة، ومناوشات كثيرة[1] لها التأثير الكبير في تفاقم الأزمة المسلحة بين قريش من جهة والمسلمين بقيادة الرسول ﷺ من جهة أُخرى، مما ولّدت تراكما هائلاً من الأحقاد ورغبة الردّ بين الطرفين، وبشكل واسع وحاسم كما أرادتها قريش.

ومعلوم أن الأحقاد الضاغطة في صدر قريش لابد أن تتلمس لها متنفساً، فليكن في بدر، لذا جاء أبو سفيان بخيله ورَجِله يحمل شعار الردع والاستئصال لهذا الدين الجديد. ليقتل جميع أفراده أو تأسيرهم أو تخليهم عنه.

وجاء الرسول ﷺ بصحبه الميامين، من أصحابه يحمل شعار التأصيل للدين ولعقيدة المسلمين، والدفاع عنها، ومن ثم الدفاع عن النفس الذي يُعدُّ مشروعاً بحكم كل الأديان والشرائع، وبحكم كل المدارس الفكرية الأُخرى، وبحكم العقل والعرف الاجتماعي، ومن ثم التأصيل لكلمة الحق التي يحمل.

السبب الرابع:

تعرض سريّة الرسول ﷺ لقافلة قريش بقيادة أبي سفيان، وقتل عمر بن الحضرمي في سرية نخلة[2].

---

(١) كغزوة ودّان وسرية عبيدة بن الحارث، وسرية حمزة إلى سيف البحر، وغزوة بُواط، وغزوة العُشيرة، وسرية سعد بن أبي وقاص، وغزوة سفوان، وسرية عبد الله بن جحش.

(٢) (وهي سرية عبد الله بن جحش قال عنها إبن حجر: وقد تقدم في العلم البيان عن سرية عبد الله بن جحش وأنه ومن معه لقوا ناساً من قريش راجعين تجارة من الشام فقاتلوهم واتفق وقوع ذلك في رجب فقتلوا منهم واسروا واخذوا الذي كان معهم وكان أول قتل وقع في الإسلام وأول مال غنم وممن قتل عبد الله بن الحضرمي أخو عمرو بن الحضرمي الذي حرض به أبو جهل قريشاً على القتال ببدر) فتح الباري ٧: ٢١٨.

روى ابن هشام في سيرته: (فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريبا منهم، فأشرف لهم عكاشة ابن محصن، وكان قد حلق رأسه فلما رأوه أمنوا، وقالوا: عمّار، لا بأس عليكم منهم.

وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم، وهابوا الإقدام عليهم.

ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة.

وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش: أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ مما غنمنا الخمس ـ وذلك قبل أن يفرض الله تعالى الخمس من المغانم ـ فعزل لرسول الله ﷺ خمس العير، وقسم سائرها بين أصحابه.

قال ابن إسحاق: فلما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام)[1].

ولايقال أن عمل السرية هذا يأتي على سبيل قطع الطريق، ومحاولة إنزال الموت بالآخرين؛ لأن الرسول الأعظم ﷺ كما ترى قد أدان عملية القتل إبتداءا قائلاً: «ما أمرتكم بقتال».

ولو تنزلنا وقلنا أنه قبل ذلك، فإن له ﷺ مبرراته التي سوف يتبين بعضها خلال البحث، ويتبين البعض الأخر في كتابنا اللاحق إن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ : ٤٣٧.

شاء الله (الرسول المصطفى قراءة في الدائرة الحمراء).

وهذا السبب ـ وهو قتل ابن الحضرمي ـ كان هو السبب القادح للحرب، ولكنه ليس السبب الرئيسي الذي تعود له باقي الأسباب، إنما هو السبب الذي يرجع إلى غيره من الأسباب المذكورة، وناجم عنها.

وذلك لو انحصر الأمر به فقد أسقط الرسول ﷺ ورقتَهُ عندما دعاهم لعدم المنازلة والإشتجار[1].

ولأن عتبة بن ربيعة فدى الخسائر جميعها وتعهّد بإعطاء فدية ابن الحضرمي حليفه الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش، ولم يبق لهم عذر أمام عدم الحرب إلاّ الأسباب السابقة والدافعة لهم بقوة في تحطيم شوكة محمّد ﷺ وقهر عنفوان أصحابه.

السبب الخامس:

لأن قريش تعرف تمام المعرفة أن مقتضيات الحرب قائمة عند الرسول الأعظم ﷺ وفتيانه، لِما نالوا منهم عندما كانوا في مكّة، ولما طعنوا في دينهم ولما طاردوهم ظلماً وعدواناً وما فعلوه من كل الأساليب المستنكرة قبال الطليعة المؤمنة المستضعفة آنذاك بقيادة النبي العظيم ﷺ.

السبب السادس:

أرادوا أن يحطموا معنويات الجيش المُوّحِد وقائدِهِ الأعظم ويشعرونه أنه لا قيمة لابتزازاته ولا قيمة لوجوده بل الوجود الأوحد لقريش،

---

(١) وهناك بعض الاخبار تقول ان الرسول الأعظم ﷺ ودي عمر بن الحضرمي كما عن الواقدي في مغازيه ١: ١٨(فحدثني معمر، عن الزهري، عن عروة، قال: فودي رسول الله ﷺ عمرو بن الحضرمي، وحرم الشهر الحرام كما كان يحرّمة حتى انزل الله عزّوجلّ (براءة).

ولتعرف العرب كل ذلك فيرجع الرسول منتكس الراية، ممزق الشعور، فاقد العزيمة في المقاومة، لا يفكر إلاّ بفرار جيشه وندب قتلاه.

أرادت قريش أن تضع أمامه ﷺ درساً قاسياً لا يمكن بعدها أن يَقْدُم على حربها إلاّ وهو مرعوب ـ هذا على فرض بقاءه وجنده بعد الحرب ـ ويتكاثر العرب حولها ويهابونها أكثر من ذي قبل.

عن ابن هشام: (قال ابن إسحاق: ولما رأى أبو سفيان أن قد أحرز عِيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عِيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجّاها الله، فارجعوا؛ فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نَرِد بدراً ـ وكان بدر موسماً من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوقٌ كل عام ـ فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجُزُر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها)[1].

أقول: قد تكون الأسباب القادحة بسيطة متواضعة لا تستحق كل هذا الجيش الجرار لمداهمة المسلمين بالأخطار، ويمكن تبرير قتل ابن الحضرمي على أيّة حال، بالإضافة إلى كون إمكانية الفداء ميسرة، وهي قاعدة معمول بها عند العرب سابقاً وهي كفيلة بحل الإشكال، وصرف النظر عن الحرب والقتال.

خصوصاً أن ياسر أبا عمار وأُم عمار سمية قُتِلا صبراً تحت سياط فرعون قريش أبي جهل، تجعل من قضية قتل ابن الحضرمي قضية مرشحة للحل السلمي، فهذا دم من المشركين وذاك دم من المسلمين لا فرق بينهما.

نعم الأول مدنس والثاني مقدس، ولكن على أي قياس وبلحاظ دماء أبي عمار وأم عمار (ياسر وسمية) فإن قريش قَتَلةً من قبل، عليهم أن يتوقعوا الرد في أي وقت ممكن خصوصاً أن ملّة الشرك والكفر واحدة.

---

(١) سيرة إبن هشام ٢: ٢٦٢ الطبعة الخامسة لدار الكتاب العربي.

ولما كانت الأسباب السابقة هي التي صعّدت الموقف ونفخت في الهشيم النار، نعلم إن استعداد قريش العالي للحرب كان محض عدوان سافر وموقفاً سياسياً مبيّتاً.

يضاف إلى كون الرسول ﷺ قال لأصحابه: «**عسى الله أن يغنمكموها أو ينفلكموها**» فهو يأتي من باب تعويض الخسائر الإقتصادية والأموال المنهوبة من المسلمين عندما كانوا بمكّة.

مضافاً إلى عدم خروج بعض المسلمين ظناً منهم في عدم وقوع الحرب (قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أنهُ حدّث: أن سعد بن معاذ قال: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُعِدّ عندك ركائبك.

ثم نلقى عدونا، فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأُخرى، جلست على ركائبك فلحقت بمن ورائنا، فقد تخلف عنك أقوام.

يا نبي الله، ما نحن بأشد حباً منهم، ولو ظنّوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير)[1].

ويضاف إليه: مارواه صاحب المغازي: (وكان ممن تخلف أُسيد بن حضير، فلما قَدِم رسول الله ﷺ قال له أُسيد: الحمد لله الذي سرك وأظهرك على عدوك! والذي بعثك بالحق، ما تخلفت عنك رغبةً بنفسي عن نفسك، ولا ظننت أنك تلاقي عدواً، ولا ظننتُ إلا إنها العير.

فقال له رسول الله ﷺ: «صدقت» وكانت أول غزوة أعز الله فيها الإسلام، وأذل فيها أهل الشرك)[2].

---

(١) سيرة بن هشام ٢: ٢٦٣.

(٢) المغازي ١: ٢١.

فهي في البداية لم تكن بنية المواجهة العسكرية والصدام الحربي، وقد وصف المولى تبارك وتعالى الموقف: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾[1] و ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[2] ولكن في حال خرجت قريش بغرورها، وكبرياءها، ونساءها، ورجالها انقلبت المواقف والنوايا، وصار الرسول ﷺ في قبال حرب واقعة لا محالة، وجيش كامل العدة والتجهيز.

ومما يدلك على عدوانية قريش في حربها مع الرسول ﷺ، أن أبا سفيان ندبهم للحرب أول مرة وحفظ المال مستأجراً لذلك ضمضم بن عمرو الغفاري محرضاً لقريش على ذلك.

لكنه لما رأى أن العِير سلمت والقافلة أمِنت، أرسل لهم مرة أُخرى بعدم الخروج، والشاهد قول بني زهرة عندما كان أبو سفيان يتجهز للحرب وقد كانت عير قريش جميعها عند أبي سفيان فعندما (حبس عِير بني زهرة لأنهم رجعوا من طريق بدر، وسلم ما كان لمخرمة بن نوفل ولبني أبيه وبني عبد مناف بن زهرة، فأبى مخرمة أن يقبل عِيره حتى يسلم إلى بني زهرة جميعاً.

وتكلم الأخنس فقال: ما لعِير بني زهرة من بين عِيرات قريش؟ قال أبو سفيان: لأنهم رجعوا عن قريش، قال الأخنس: أنت ارسلت إلى قريش أن ارجعوا فقد احرزنا العير، لا تخرجوا في غير شيء، فرجعنا)[3].

وقد تبين لك عزيزي القارئ الكريم: أن الذي أراد الحرب واستعد لها، وحاول أن يعرضها على ساحة الأحداث هم المشركون من قريش،

---

(١) الأنفال: ٤٢.

(٢) الأنفال: ٧.

(٣) المغازي للواقدي ١: ٢٠٠، شرح نهج البلاغة ١٤: ٢١٤.

فاضطر الرسول ﷺ وجنده الميامين للدفاع والوقوف بوجه الخطر المحدق بهم.

غزوة السّويق

تعريف مختصر

جاء في التنبيه والاشراف: (ثم غزوة رسول الله المعروفة بغزوة السويق، خرج في ذي الحجة في طلب أبي سفيان صخر بن حرب، وكان أقبل في مائتي راكب في أهل مكة ليبر نذره ان لا يمس النساء، ولا الطيب حتى يثأر بأهل بدر، فصار الى العريض، فقتل رجلاً من الأنصار، وحرق أبياتاً هناك.

فلما بلغه خروج رسول الله ﷺ وأصحابه في طلبه جعل وأصحابه يلقون جرب السويق تخففاً، فسميت غزوة السويق) [1].

أسباب الغزوة

السبب الأول:

وهذا السبب أشهر من أن يذكر وهو كون أبي سفيان هو الذي بدء بالإغارة على أطراف المدينة بقوة تقدّر بمئتي فارس، وإنما خرج الرسول الأعظم ﷺ فِي أثره طلباً له.

وإذا كان الخروج وراء المهاجم، المعتدي، القاتل، الحارق، المتجاوز على ذمم وأرواح الناس، وملاحقة الظالم لظلمه، إذا كان ذلك يُعد ظلماً

---

(١) التنبيه والإشراف للمسعودي: ٢٠٧

فسوف لن يبقى حجر على حجر وقد قلبت المقاييس بهذا المقدار المضحك للثكالى، والمؤنس للأيامى.

وإذا كان يُعد به النبيَ ﷺ نبياً للسيف، فلا خير في السيف إن لم يحمله النبي في مثل هذا الموضع، وعلى مثل هذا الصلف والعناد.

السبب الثاني:

إنما هجم الرسول ورد على أبي سفيان ليرفع المخاوف من نفوس المسلمين في كون عدم اتخاذهم موقفا هجومياً سيسمع به العدو فيستضعفهم، وليلغي طمع الأعداء فيهم، ويلغي شعور كونهم ضعفاء غير قادرين على رد الحيف.

لذلك ندب الرسول ﷺ المسلمين للخروج منطلقين وراء أبي سفيان، فوجدوه قد لاذ وجيشه بالفرار، وقد ألقى جيشه السويق تخفيفا لهم من أن يثقلهم فيبطيء بهم الهرب، ويلحق بهم الطلب.

السبب الثالث:

لكي لا تشعر قريش أن المسلمين ليس لهم رد فعل بإزاء هجومهم، فيمكن بذلك استهوانهم واستضعافهم، فتشمت بهم، وتتحدث بذلك في نواديها وأسواقها احتقاراً لهم، مما يقلل شأن المسلمين ويستصغرون أنفسهم بأعينهم.

فكأن لسان حال المسلمين إذ خرجوا ورائهم يقول:

إنما نحن المسلمون خرجنا في طلبكم حيث غدرتم وهجمتم وقتلتم وحرقتم، ففررتم من غضب رجالنا وسيوف فرساننا، فهلا وقفتم للمجالدة وصبرتم على المكابدة؛ لترون أنا عليكم قادرون، ولكن رجعتم سراعاً خائفين.

السبب الرابع:

المواصلة في بث روح العزم لدى المسلمين، وإعدادهم نفسياً وعسكرياً وإعلامياً لاحتمال مواجهة جديدة كما حصل فعلاً في أُحد وقبلها القردة وهكذا[١].

السبب الخامس:

لكي لا تشعر القبائل والأعراب أن الرسول ﷺ وجنده لا قبل لهم برد أبي سفيان، فسكتوا إذ أغار عليهم، ولاذوا بالحيرة إذ جال حول مدينتهم.

ومن ثمّ تَقَرُّ عيون الأعداء لضعف المسلمين، وتجيش نفوس الأحبة حزناً عليهم، خاصة أن للمسلمين إخواناً في مكّة، قد أسلموا فحبسهم قومهم وأهلوهم، يفرحون لفرح المسلمين، ويحزنون لحزنهم.

السبب السادس:

ليخيف اليهود والمتآمرين على الرسول مع كفار قريش، وخصوصاً مَن تعامل معهم أبو سفيان، وهم يهود بني النضير، كما هو مؤكد في الروايات التاريخية.

السبب السابع:

وأخيراً إن أبا سفيان لم يأتِ ليستعرض قوة عضلاته فحسب، بل قتل من المسلمين، وحرق نخلهم، وأثار أمنهم، فلابد من أخذ الثأر منه والرد عليه، والإقتصاص من جيشه بما كسبت أيديهم بحق المسلمين.

---

(١) لأن قريش سوف تطلق لسانها بإعلام خبيث في استثمار هذه المعركة مما يُخشى تأثيره على المسلمين.

ولهذا كله نرى كتب التاريخ تحدثنا: (فخرج رسول الله في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر[١] فرجع وقد فاته أبو سفيان، ورأوا زاداً من أزواد القوم قد طرحوها يتخففون منها للنجاء، فقال المسلمون حين رجع رسول الله ﷺ بهم: يا رسول الله، أنطمع ان تكون لنا غزوة؟

فقال ﷺ: «نعم»)[٢].

فسميت تلك الغزوة بغزوة السويق نسبة إلى السويق الذي ألقوه وهم هاربون طالبين النجاة من قبضة المسلمين.

إذن من الواضح جداً أن سبب هذه الغزوة هو الظلم والعدوان الذي شنه أبو سفيان شيطان قريش، والذي انتهك به الحرمة قاتلاً من المسلمين وحارقاً لمحصولهم ورغم كل هذا طلبه الرسول ﷺ ولكن فاته الرجل الأموي وجيشه المشرك، فلم تقع معركة، ولم يجرد سيف للمسلمين، ولم يطعنوا برمح، ولم يرموا بسهم، فهل القاتل ظالم سفاح، أم المقتول؟ وهل المقتول، مظلوم مستباح، أم القاتل يا أولي الألباب؟.

وهنا لا بأس أن نناقش الأسباب التي دعت أبا سفيان للإغارة والهجوم على المدينة، مع إغفال كونه حقق الأهداف التي قصدها أم لا.

الأسباب المتصورة هي كالآتي:

١ ـ ليبرّ أبو سفيان بيمينه وقسمه الذي حَلَف به حال عودته من بدر الكبرى مهزوماً مذموماً. يقول الشيخ الطبرسي في حديثه عن سبب

---

(١) قرقرة الكدر: القرقرة الأرض الملساء وليست ببعيدة، وهو موضع يقال له قرقرة الكدر جمع الكدرة من اللون (معجم البلدان ٤: ٣٢٦).

(٢) تاريخ ابن خلدون ق ٢ ج ٢: ٢٢، البداية والنهاية لابن كثير ٣: ٤١٦، تاريخ الطبري ٢: ١٧٦، عيون الأثر ١: ٣٩٠، المغازي للواقدي ١: ١٨١، السيرة النبوية ٣: ٧، إعلام الورى بأعلام الهدى ١: ١٧٣.

غزوة السويق: (وذلك أن أبا سفيان نذر أن لا يمس رأسه من جنابة[1] حتى يغزو محمداً، فخرج في مائة راكب من قريش ليبر بيمينه.

حتى إذا كان على بريد من المدينة أتى بني النضير ليلاً ، فضرب على حُيَيّ بن أخطب بابه، فأبى أن يفتحه له، فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم ـ وكان سيد بني النضير ـ فاستأذن عليه فأذن له وسارّه، ثمّ خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه، وبعث رجالاً من قريش، فأتوا ناحية يقال لها: العريض، فوجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له فقتلوهما، ثمّ انصرفوا ونذر بهم الناس وخافوا.

فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر فرجع وقد فاته أبو سفيان، ورأوا زاداً من أزواد القوم قد طرحوها يتخففون منها للنجاء، فقال المسلمون حين رجع رسول الله ﷺ بهم: يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة؟ فقال ﷺ: «نعم»)[2][3].

٢ ـ يهيج أهل المدينة ويخيفهم، ويشعرهم أن سطوة قريش لا زالت عامرة، غير منثلمة، وجيشهم لم تفككه الهزيمة في بدر فهو قادر على مباغتة المسلمين في عقر ديارهم وهم في المدينة رغم بعد المسافة، فمسافة الثلثمائة ميل تعتبر بعيدة[4] في وضعنا الحاضر فضلاً عن الماضي.

---

(١) القصد لا يمس رأسه من ماء الجنابة كما في المصادر الأخرى.

(٢) إعلام الورى ١:١٧٢، البداية والنهاية لابن كثير ٣: ٤١٦، تاريخ الطبري ٢: ١٧٥، وغيرها.

(٣) وهنا مناسَبة مناسِبة للتأكيد أن العرب كانوا يغتسلون من الجنابة وهي خصله حسنة لعلها من بقايا دين إبراهيم الخليل فيهم، كما إنهم كانوا يبرون بقسمهم إذا قسموا ولو كلفهم ذلك كثيرا، وهذه خصلة حسنة أُخرى فيهم.

(٤) وهي المسافة التقريبية بين مكة المكرمة والمدينة المشرفة كما في كتاب (موسوعة العتبات المقدسة ـ قسم المدينة) لجعفر الخليلي ٣: ٨.

فهي بعيدة جداً عند العرب آنذاك بالنظر إلى وسائل نقلهم، ومع كل هذا يأتيهم أبو سفيان قاطعاً هذه المسافات ليرهبَ المؤمنين، ويبعث الأمل في نفوس اليهود والمنافقين، ويشعر العرب وخصوصاً الذين من حوله أن قريش في ذروة عافيتها القيادية والعسكرية، وبإمكانها أن تتحدى رغم أمسها الهزيل.

٣ ـ ليستطلع قدرات المسلمين ومهاراتهم القتالية، وحجم اندفاعهم ودفاعهم، وفعلاً عرف أن درجة يقضتهم للأسف ضعيفة[1]، وقوتهم المطاردة خاوية، وهذا التشخيص أفادهم في معركة أُحد كثيراً حيث قال صفوان بن أمية في معرض تشخيصه لمستقبل المعركة: (وعندنا خيل ولا خيل لهم).

فمن أين جاءته هذه المعلومة الهامة، وما يدريهم أن المسلمين بعد بدر لم يشتروا خيلاً، وما يدريهم أنهم لم يغنموا خيلاً من سراياهم بعد بدرٍ وقبل أُحد.

إنما عرف ذاك بسبب غزوة السويق، حيث لم يُطارد أبو سفيان بنحو سريع، وهذا يكشف بالملازمة أن لا خيل عند المسلمين، ولا علة أُخرى لعدم اللحاق سوى عدم امتلاكهم الخيل.

فأهل الإسلام أهل حفاظ وغيرة ونجدة، وأهل ولاء للعقيدة، وهم بعد مايزالون بحماسهم الثائر، وعشقهم المستبد لمحمّد ﷺ، وهم أهل الأرض

---

(١) وليس قولنا أن يقضتهم ضعيفة، أنهم كانوا يغطون في سبات عميق، فالحق سرعان ما التفت المسلمون، واستماتوا رغم ماألفتنا إليه من الضعف، وقادوا هجوماً مضاداً مما يدل على حميتهم وتدارك موقفهم، بحيث لم يرجع الرسول ﷺ إلى المدينة من الغزوة هذه إلاّ بعد خمسة أيام من ذهابه منها وهذا يدل على أنهم طاردوا أبا سفيان في عمقٍ بعيد ولكن لم يدركوه.

والعرض وأهل الجد والضرب والحرب..

إذن ما عاقهم إلاّ أنهم لا يملكون الخيل التي لو كانت لأخذوا أبا سفيان من حجزته ونثروا بالسيوف جثته، إذ لم تتمكن من اللحاق به، كما سنذكر ذلك في أسباب غزوة أُحد.

بينما هو وقواته رغم المتاعب ورغم السفر، ورغم المخاوف التي قد تساهم في تعثر الفارس في طريق الفرار، تمكن ان يهرب سالماً دون أن يُمَسُّ بأذى إطلاقاً.

٤ ـ كما أنَّ أبا سفيان أراد إعلاة المعنويات إلى جيشه الذي لُطخ رأسه بالهزيمة في بدر، ولُفِّعتْ قامته بالإنكسار، فينهض من كبوته، وينسى نكبته.

٥ ـ ليستخبر أقوام اليهود، ومقدار تفاعلهم معه، اذ طرده قوم واستقبله آخرون فمدحهم في شعره كما سيأتي.

وإنما كان يرجوا أن يقيم معهم حلفاً، ويضمن موقفهم الآتي، ويأخذ منهم أسرار المدينة، ويدرس معهم خطة الهجوم، ويشعرهم بدوام مودّة قريش لهم، ويعيد الراحة إلى قلوبهم المكلومة.

ولقد مدح أبو سفيان صنيع سلام بن مشكم فيه بأبياته الشعرية التالية:

وإني تخيرتُ المدينة واحداً ... لحلفٍ فلم اندم ولم اتلَومّ

سقاني فرواني كميتاً مُدامَةً ... على عجلٍ مني سلام بن مشكم

ولما تولى الجيش قلت ولم أكن ... لأفرِحَه: أبشر بعز ومغنم

تأمل فان القوم سِرّ وإنهمُ ... صريح لُؤَي لا شماطيط جُرْهُم

وما كـان إلا بعض ليلة راكـبٍ   أتى ساعياً من غير خَلَّة مُعدِمِ[1]

إمتيازات تذكر لأبي سيفيان في هذه الغزوة من الناحية القيادية العسكرية:

منها: قدرته في مباغتة المسلمين رغم حماسهم في دفع المشركين ورغم زهوهم بنشوة الانتصار في بدر القتال، والانتصارات المتلاحقة التي ظفروا بها، بعد بدر الكبرى على صعيد تطهير الداخل وتصفيته من بعض الطفيليّات اليهودية النفاقية الضارة.

ومنها: تخطيطه الدقيق حيث جاء بسريّة وتحت جنح الليل، ثمّ استشار سلام بن مشكم زعيم يهود بني النضير، ثمّ أغار على أطراف المدينة وضواحيها فقتل وحرق وانسحب بشكل خاطف سريع.

ومنها: إستطاع من ذلك كله أن يجمع معلومات مهمة لمعركة الثأر التي تَعِدُّ لها قريش، كما استطاع أن يعيد بعض أنفاس قريش المقطعة إليها.

ولا ننسى أن الإستقرار الداخلي النسبي الذي حصل عليه الرسول الأكرم ﷺ في دولته الجديدة، والانتعاش الاقتصادي النسبي، ونمو العقيدة الإسلامية بالنفوس وتوسعها بشكل عريض في مجتمع المدينة حيث دخل في الإسلام من لم يدخل فيه قبل بدر من مشركي المدينة، كل ذلك داخل ضمن أسباب إثارة قريش على محمّد ﷺ.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣: ٤١٦، السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٥٦٠.

سرية محمّد بن مسلمة إلى كعب بن الأشرف

تعريف مختصر

ورد في التنبيه والإشراف: (سرية محمد بن مسلمة الأنصاري من بني حارثه بن الحارث بن جاء الخزرج بن مالك بن الأوس في أربعة نفر في الأنصار، إلى كعب بن الأشرف اليهودي. وكان رجلاً في طيء ثم من بني نبهان بن عمر بن الغوث بن طيء، وأمه من بني النضير من اليهود، وكان يشبب بنساء المسلمين ويحرض على النبي ﷺ ويرثي أهل القليب، فقتلوه في حصنه للنصف من شهر ربيع الأول) [1].

أسباب السرية

السبب الأول:

لإثارته الدعايات المضادة الباطلة على رسول الله ﷺ، وتكذيبه والطعن عليه في دينه وعقيدته، مع كونه يعلم أنه الحق وذلك مما تبقى عندهم من أحكام وتوجيهات التوراة التي لم يزل فيها شيء صحيح بعد.

وإذا سأل عن أحقية محمّد الرسول ﷺ في دينه وصدق دعوته وهداه، اتهم الرسول بالكذب والضلال، ومدح الكافرين المشركين بحسن طريقهم، وسلامة نهجهم، وأنهم على الهدى والحق المبين.

روى صاحب كتاب تاريخ المدينة: (حدثنا ابن أبي الوزير قال، حدّثنا سفيان عن عمرو، عن عكرمة قال: قدم كعب بن الأشرف وحُيّي بن أخطب مكّة، فقالت لهم قريش: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فاخبرونا

---

(١) التنبيه والاشراف للمسعودي: ٢٠٩.

عنا وعن محمّد ﷺ.

قالوا: ما أنتم وما محمّد؟ قالوا: نحن ننحر الكوماء[1] ونفلُ العناء، ونسقي اللبن على الماء، ونسقي الحجيج، ونصل الأرحام.

قالوا: فما محمّد؟ قالوا صنبور[2]، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج بنو غفار، فنحن أهدى أم محمّد؟

قالوا: أنتم، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾)[3].

فكعب وصاحبه حُيي بن أخطب يتظاهرون بعدم معرفة محمّد ﷺ وعدم معرفة قريش، وإذا كانوا لا يعرفون قريش ـ على الفرض ـ فمحمّدٌ ﷺ مكتوب عندهم بُشّروا به من قبل، وهم أسياد اليهود وعظماؤهم الذين يفترض بهم معرفة خبره قبل غيرهم فكيف فاتهم مَنْ محمّد ﷺ؟ فيسألون عنه.

نُضيف: أن أخباره ملئت الشعاب وعلت السحاب، فهل خفيت شمسه عليهم، أم سكّرت أبصارهم فهم لا يبصرون، ثم أي حكم يصح صدوره لمحض حوار مع أبي سفيان مدح به نفسه وقومه وذم محمّد ﷺ دون أنْ يعرفوا محمّداً ويسألوا عنه أو يتحققوا معه على فرض عدم معرفتهم له.

---

(١) الكوماء: الناقة العظيمة السنام (غريب الحديث لابن سلام ٣: ٨٥، تاج العروس ٤: ٢٣، اقرب الموارد ٢: ١١٤).

(٢) الصنبور: الابتر الذي لا عقب له (الفايق في غريب الحديث ٢: ٢٦٣).

(٣) تاريخ المدينة لابن شبه النمري ٢: ٤٥٢، الدر المنثور ٢: ١٧١، مجمع الزوائد ٧: ٥ ـ ٦، المعجم الكبير للطبراني ١١: ٢٠٠ ـ ٢٠١، والآية ٥١ من سورة النساء.

ثمّ هل الهدى إطعام الطعام، وسقي اللبن بالماء، أم الهدى الإنقاذ من الظلمات والقبائح والمنكرات، ومَن قال لهم أن محمّداً ﷺ ما كان يتحلى بتلك الصفات ـ من سقي وإطعام وإجارة ـ وهم الذين خاطبوه يوم فتح مكّة: «أخ كريم وابن أخ كريم» ؟

أمّا قطع الأرحام، فهذا الحوار وحده كاشف لقطيعتهم الرحم إذ لو صدقوا في دعوى صلتهم الرحم لما اتهموا محمّداً ﷺ بما ليس فيه، ولما هَجَرُوه وهجَّروه وطردوا أصحابه وعذبوهم وسجنوهم وسفهوا دينهم، فقد أمعنوا في ذلك قطعاً للرحم وجذاً للصلة التي أمر الله بها أن توصل.

ومحمّد ﷺ لا يزال باراً بهم، مشفقاً عليهم، وما أخبث كعب بن الأشرف، وحُيَي بن الأخطب في حكمهم العاجل والخالي من حق التميز الذي حكموا به على محمّد ﷺ وأتباعه بالضلال، لرغبتهم في نصرة قريش، وكسب ودّهم، وتحريضهم على محمّد النبي ﷺ، وحسداً منهم عليه.

أليس كل هذا ظلم؟ وشرائع الأرض فضلاً عن شرائع السماء تجيز للإنسان رفع الظلم عن نفسه وأحياناً تُوجبه.

وحيث كان حق الرسول ﷺ من أهل الكتب السماوية النصرة والتأييد لما يعرفون من أمره، وبما هو مودوع في كتبهم المقدسة، يكون العكس منهم تماماً حيث ينكرونه ويالّبون عليه، ويطالبون الأقوام برده وتكذيبه.

وقد كان هذا من أشد الأذى على رسول الله ﷺ، وأكثر إيلاماً لقلبه المقدس.

السبب الثاني:

تحريض كعب بن الأشرف قريش لمقاتلة الرسول محمّد ﷺ والمسلمين بعد وقعة بدر، فقد كان يُعلن لقريش ولاءه لهم ويهيج مشاعرهم وساكن لوعاتهم على قتلاهم في بدر الكبرى، ويلح على أفئدتهم بالثأر لهم.

وقد سخّر كل قواه لذلك فكان من الحقد على محمّد ﷺ أن لم يبق شيئاً مدخراً من شعوره لم ينفقه ضده ﷺ، فكان يخاطب قريش بكلامه ويخاطبهم بشعره، ويخاطبهم بشعوره وعواطفه، فيبكي عندهم ليذكرهم المصاب، ويجلبهم للسيوف والحراب.

يقول إبن هشام في سيرته: (قال إبن إسحاق: وكان من حديث كعب بن الأشرف: إنه لما أُصيب أصحاب بدر، وقدم زيد بن الحارثة إلى أهل السافلة، وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية بشيرين.

بعثهما رسول الله ﷺ إلى من بالمدينة من المسلمين بفتح الله عزّ وجلّ عليه، وقتل من قتل من المشركين، كما حدثني عبد الله بن المغيث بن أبي بردة الظفري، وعبد الله بن أبي بكر بن محمّد بن عمرو بن حزم، وعاصم بن عمر بن قتادة، وصالح بن أبي أمامة بن سهل، كلٌ قد حدثني بعض حديثه.

قالوا: قال كعب بن الأشرف، وكان رجلاً من طي ثمّ أحد بني نبهان، وكانت أمّه من بني النضير، حين بلغه الخبر:

أحقٌ هذا؟ أترون محمداً قتل هؤلاء الذين يسمي هذان الرجلان ـ يعني زيداً وعبد الله بن رواحة ـ فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس.

والله لئن كان محمداً أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خيرٌ من

ظهرها[١].

فلما تيقن عدو الله الخبر، خرج حتى قدم مكّة، فنـزل على المطلب بن أبي وداعة بن ضبيرة السهمي، وعنده عاتكة بنت أبي العيص بن أُمية بن عبد شمس بن عبد مناف، فأنزلته وأكرمته.

وجعل يحرض على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار، ويبكي أصحاب القَليب من قريش، الذين أصيبوا ببدر)[٢].

ثمّ ذكر صاحب تاريخ المدينة قول الرسول ﷺ وهو يحدد علة ذهاب السرية إليه وسبب قتلها له (ثمّ خرج مقبلاً قد أجمع رأي المشركين على قتال رسول الله ﷺ، معلناً بعداوته وهجائه.

فقال رسول الله ﷺ: **«من لنا من ابن الأشرف، قد استعلن بعداوتنا وهجائنا، وقد خرج إلى قريش فأجمعهم على قتالنا، وقد أخبرني الله بذلك، ثمّ قدم على أخبث ما كان ينتظر قريشاً أن تقدم فينا طبائعهم»)**[٣].

وكما قلنا فإن كعب ناصرهم بأشد الوسائل الإعلامية آنذاك وأكثرها فعلاً بالنفس، وأسرعها وصولاً للغاية وهو الشعر فقال:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تَستهلُ وتَدمعُ
قُتلت سَراة الناس حَول حِياضهم ... لا تَبعدوا إن الملوك تُصرَّعُ
كم قد أُصيب به من ابيض ماجدٍ ... ذي بهجة يأوي إليه الضيَّعُ

---

(١) وهذه الفقرة من كلامة تعني أن لا قيمة للحياة مع وجود النبي محمد ﷺ فيها، ليعبّر بها عن استحكام الحقد عنده على رسول الله ﷺ، ويعبر عن مقتهِ للدنيا وفيها محمد ﷺ ظل، إذن كم أُشرب في قلبه عداء النبي الأكرم محمد ﷺ وكراهيته.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣: ١٢ ـ ١٣، وتاريخ الطبري ٢: ١٧٧، البداية والنهاية لابن كثير ٤: ٧.

(٣) تاريخ المدينة لابن شبه النميري ٢: ٤٥٥.

طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت — حمّال أثقال يسود ويَربع
ويقولُ أقوامٌ أُسرُّ بسخطهم — إن ابن الأشرف ظلّ كعباً يجزعُ
صدقوا فليت الأرض ساعة قُتّلوا — ظلّت تسوخ بأهلها وتصدّعُ
صار الذي إثر الحديث بطعنه — أو عاش أعمى مرعشاً لا يسمعُ
نبئت أن بني المغيرة كلّهمُ — خشعوا لقتل أبي الحكيم وجُدّعوا[1]
وابنا ربيعة عنده ومنبّهٌ — ماانال مثل المُهلكين وتبعُ
نبئت أن الحارث بن هشامهم — في الناس يبني الصالحات ويجمع
ليَزُور يثرب بالجموع وإنما — يحمي على الحسب الكريم الأروع[2]

أليس تهييج الأعداء وتحفيزهم على حرب الثأر، ورثاء قتلاهم في قليب بدر، والذهاب لهم وهم في ديارهم قاصداً إبلاغهم ذلك، ثمّ الطعن برسول الله ﷺ الذي يُسر كعب بسخطه، والذي قتل الأماجد وحمالي الأثقال الصعاب، الملوك ذوي البهجة، الذين لم يخلفوا العطاء إن أخلفت الكواكب بنورها، والتي لم تُخلَقِ الأرضُ إلاّ لهم، لا ولا حتّى لمن تبقى من قريش، ولا لكعب بن الأشرف نفسه، ولا لقومه؛ لأنه يتمنى أن «تسوخ بأهلها وتصدع».

أليس هذا كله إلاّ إعلان الحرب ضد رسول الله ﷺ، والحرب بأعنف مراحل المواجهة فيها.

وإذا أُعلنت الحرب فمن حق الُمعتدى عليه أن يقتصَّ من المعتدي، ما دامت الحرب قائمة. إذا لم نقل حتى استرداد حقه.

السبب الثالث:

تشبيبه بنساء المسلمين فقد وصلت به حقارته النفسية أن يشبب بنساء المسلمين ويصفهن بشعره، وهذا انتهاك لشرف النسوة ولأعراض

---

(١) التجديع: قطع الأنوف، وهو كناية عن الذل.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٥٦٥، المغازي للواقدي ١: ١٨٥.

المسلمين كما لا يخفى.

وهو يعلم أن أهل مِلّةِ الإسلام أهل عفة والتزام، وحفظ وصيانة لناموس المرأة، واعتزاز برعاية سمعتها بشكل منقطع النظير.

وقد كانت نفس كعب مشبوبة بغرام النساء، وكان شبقَهُ الجنسي عارماً، فلا يمسكه عن الجنس شيء ولو على سبيل الخيال والمصاباة.

وهو يعرض بضاعته الفاسدة وشعره الموبوء بأمراض الغريزة ونواقص الذات في شوارع المدينة وأزقّة مكّة.

هذا وهو حديثُ عرسٍ بأمرأته، ويفترض في إنسان من هذا النوع أن ينصرف همه لعرسه وعروسه، وأن يتوجه بعنفوان غريزته إليها، ولا يشغله التشبيب بأعراض الناس ونساء المسلمين عن زوجته الجديدة وهو في غمرة الإستمتاع بها.

والظاهر أنّه كان معروف الشغف بالنساء وشدة التعلق بهن، ويَتَبين هذا أكثر، من جواب زعيم السرية المقاتلة له حيث طلب منهم رهن النساء عنده مكان ما ابتاعهم (قال ابن هشام: قال: أترهنوني نساءكم؟ قال: كيف نرهنك نساءنا، وأنت أشب أهل يثرب وأعطرهم.

قال: اترهنوني أبناءكم؟..)[1] الخ.

وفي تقديري أن الذي ساقه للتشبيب بنساء المسلمين ليس هو فورته الجنسية وحبه النساء أو الغزل بهن فقط، وإن كان هذا ملحوظاً، إنما السبب الأول هو إرادته الهتك لأعراض المسلمين، وإثارة نفوسهم بما يكرهون، وإيذاء رسول الله ﷺ على وجه التحديد، وفعلاً قال الرسول ﷺ .

---

(١) سيرة النبي ﷺ لابن هشام الحميري ٢: ٥٦٨، وفي المغازي (فماذا ترهنوني، أبناءكم ونساءكم).

كما في الشفى بتعريف حقوق المصطفى: (في الحديث الصحيح... «من لكعب بن الأشرف فانه يؤذي الله ورسوله»[١].

وتكرر منه القول ﷺ «من لي من ابن الأشرف»)[٢].

و «اللّهمّ اكفني ابن الأشرف بما شئت في إعلانه الشر وقوله الأشعار»[٣].

ومن تشبيبه أنه قال شعراً ماجناً كما عن تاريخ الطبري:

أراحلٌ انــــت أم تحلـــــل بمنقبةٍ	وتــارك أنــت أم الفـضل بالحرم
صفراء رادعة لو تعصر انعصرت	من ذي القـوارير والحناء والكتم
يرتج ما بين كعبـيـها ومرفــقها	إذا تأتـــت قيـاماً ثمّ لم تـــقم
اشباه أم حكيـم إذ تــواصلـنــا	والحبــل منــا متين غير منجذم
احدى بني عامر جــن الفؤاد بها	ولو تشاء شفت كعباً من السقم
فرع النساء وفرع القــوم والدها	أهل المحلـة والايــفاء بالذمـم
لم أر شمساً بليــل قبــلها طلعت	حتى تجلــت لنا في ليلة الظلم[٤]

ثمّ شبب بعدةٍ من نساء المسلمين حتى آذاهم فقال الرسول ﷺ فيه ما قال.

وإذا علمنا أن شعره بهذه الرقة العاطفية، وبهذه الدقة الوصفية، وبهذا المقدار من الدعوة إلى الفجور وارتكاب الفواحش، يتسنى لنا معرفة مقدار ما أصاب المسلمين من أذاه، ومقدار ما نال من غضبهم عليه.

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض ٢: ٢٢١.

(٢) تاريخ الطبري ٢: ١٧٩، المغازي ١: ١٨٧.

(٣) المغازي ١: ١٨٧.

(٤) تاريخ الطبري ٢: ١٧٨ ـ ١٧٩.

السبب الرابع:

تأديب اليهود وأقطابهم وكبارهم بالذات وكل من تسول له نفسه منهم بالإساءة للمسلمين إن كانت إيذاءاً لنبيهم ﷺ، أو تشبيباً بنسائهم او تحريضاً عليهم، او تآمراً ضدهم بغدرٍ أو قتال.

فقد كان اليهود على رأي كعب بن الأشرف.(فلما أبى ابن الأشرف أن ينـزع عن أذى النبي ﷺ وأذى المسلمين، وقد بلغ منهم، فلمّا قدم زيد بن الحارثة بالبشارة من بدر بقتل المشركين وأسر من أُسر منهم، فرأى الأسرى مقرنين، كُبِتَ وَذُلّ.

ثم قال لقومه: ويلكم لبطن الأرض خير لكم من ظهرها اليوم! هؤلاء سراة الناس قد قتلوا وأسروا، فما عندكم؟ قالوا: عداوته ما حيينا.

قال: وما أنتم وقد وطي قومه وأصابهم؟ ولكني أخرج إلى قريش فأحضهم وابكي قتلاهم، فلَعلّهم يندبون فلخرج معهم.

فخرج حتى قدم مكّة...الخ)[١].

فكان قتله مقدمة لتخويف اليهود وإنزال الفزع في نفوسهم بتواطئهم على عداء رسول الله ﷺ، واتفاقهم على دوام ذلك العداء في جوابهم لابن الأشرف حيث قال:(ما عندكم؟ قالوا عداوته ما حيينا).

قال صاحب تاريخ المدينة: (فلما قتلوه[٢]فزعت اليهود ومن كان معهم من المشركين)[٣].

وباعتبار هذه الأمور المذكورة والتي ستذكر لاحقاً، وباعتبار كون

---

(١) المغازي للواقدي ١: ١٨٥، وانظر سبل الهدى والرشاد ٦: ٢٥.

(٢) يقصد قتل المسلمين لابن الأشرف.

(٣) تاريخ المدينة ٢: ٤٦١، تاريخ الطبري ٢: ١٨٠.

اليهود يشكلون عقبة كُبرى في طريق السلام المحمدي، استوجب ذلك التوجّه الجدي لإخماد فِتَن اليهود.

فصار قتله مقدمة لقتل غيره من اليهود ممن على منهجه وسوء مسلكه.

جاء في مغازي الواقدي: (قالوا: فلمّا أصبح رسول الله ﷺ من الليلة التي قتل فيها ابن الأشرف، قال رسول الله ﷺ: **«من ظفرتم به من رجال اليهود فاقتلوه»**، فخاف اليهود فلم يطلع عظيم من عظمائهم ولم ينطقوا، وخافوا ان يُبيّتوا كما بُيّت ابن الأشرف)[1].

وفعلاً قُتِلَ ابن سُنينة من يهود بني حارثة، فزاد مقتله اليهود فزعاً وذعراً.

هذا مع العلم أن الرسول ﷺ لم يوسّع دائرة الحرب لتضم اليهود جميعاً بين جنحيها في بادي الأمر، إنما اكتفى بقتل كعب بن الأشرف في عملية عسكرية محدودة لكنها غنية بالأهداف.

ولعله بملاحظة الأهداف نرى قيمة هذه الدوافع والأسباب لمقتل كعب بن الأشرف اليهودي، والتي يمكن أن ندخل بعضها بصلب الأسباب والدوافع أيضاً.

١ ـ إن الخوف الذي أفرزه قتل المسلمين لكعب بن الأشرف جعل اليهود يسعون للعمل بالسلوكيات المسالمة، ويقبلون بذل السكوت عن ثأر صاحبهم الذي قتل، ويقبلون بكتابة صحيفة يتوقف الطرفان عند فقراتها وينتهون إليها عند الخلاف.

يقول الواقدي في مغازيه: (فجاءوا إلى النبي ﷺ حين اصبحوا

---

(١) المغازي للواقدي ١: ١٩١، تاريخ ابن خلدون ق ٢ ج ٢: ٢٣.

فقالوا: قد طُرق صاحبنا الليلة وهو سيّد من ساداتنا قتل غيلة بلا جرم ولا حدث علمناه.

فقال رسول الله ﷺ: «إنه لو قرّ كما قرّ غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل، ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر، ولم يفعل هذا أحد منكم إلاّ كان له السيف».

ودعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يكتب بينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه، فكتبوا بينهم وبينه كتاباً تحت العَذق في دار رَمْلة بنت الحارث.

فحذرت اليهود وخافت وذلت من يوم قتل ابن الأشرف)[1].

والحق لو أن اليهود احتفظوا بهذا المقدار مما توصلوا إليه بالإتفاق لحافظ عليهم الرسول ﷺ، لأنه حافظ للعهد، راعٍ للذمة.

ولكنهم أحدثوا ما أحدثوا، فاستحقوا بذلك النكال العظيم.

٢ ـ ثمّ إن الخوف بذاته، الذي كان يسكن أعماقهم إثر حادثة القتل لكعب، وحده كفيل أن يعيد الهدوء والطمأنينة والسكون إلى المدينة المنورة.

فالذي يخاف لا يجرؤ على الإجتراء، ولا يجرؤ على التعرض للأعراض، والذي يخاف يبقى يداري من أخافوه خشية أن يلحقوه بكعب الذي كان قتله باعثاً على هذا الوضع النفسي الرديء لهم.

والذي يخاف لا يسعه أن يفكر في شيء ناضج وتام، لأن التفكير الناضج والتام من ثمار الإستقرار والإتزان النفسي، ولا اتزان مع خوف وقوع الموت ساعة بعد ساعة، إلى درجة عدم خروجهم من البيوت والصياصي والحصون.

---

(١) المغازي ١: ١٩٢.

وإلاّ فالخروج والتأليب على الحرب، والتخطيط لها، وعقد الإتفاقات مع المحاربين، وهتك الأعراض، وزرع الخوف في نفوس المسلمين، يعني الاغتيال بعد ما شَرَّعَ الرسول الأكرم ﷺ للمسلمين ذلك.

٣ ـ إخافة قريش حيث أنّها تحسب كل حساب لتحركات محمّد ﷺ، وكل خطوة من خطواته وهو الان في مرحلة التصفية لمن يعين قريش في حال هجوماتها المستقبلية، ويكون لها عيناً على محمّد النبي ﷺ وجيشه وما يدور في مدينته مما يهيء لهم معرفة إستطلاعية هامة ومن داخل المدينة نفسها، ومن شاهد عيان يرقب الأحداث عن كثب وبنفس مترعة بالشوق للقضاء على محمد ﷺ وحزبه، فحتماً ستكون معلوماته دقيقة وعاجلة.

فإذا انقطعت هذه العيون، وكُمّت هذه الأفواه، وسكنت هذه الإنفاس، انقطعت قريش عن ما تحتاجه من علم بواقع المسلمين الميداني، وتحركاتهم وأفكارهم التي يمكن أن تصل إلى اليهود فينقلونها إلى مكة حيث قريش المتآمرة والراقدة على الجمر بانتظار حرب محمّد ﷺ.

٤ ـ إن مقتل كعب بن الأشرف رفع من معنويات المسلمين، وزاد في عزمهم، وأضاف لهم القدرة والتحمس في قتل سواه ممن يعادي المسلمين، والتخلص من عبئ اليهود، وشعروا بأنهم أخذوا ثأرهم من رجل يدس لهم السموم، وَيَعدّ لهم مخابيء الضغون، ويعين عليهم بالشاردة والواردة، ويَلقى نساءهم ماجنا مقذعاً ومشبباً مسرفاً، ويهود على رأيه ما دام فيهم.

فالناس على دين ملوكهم، فلما قتل ارتاح المؤمنون لغيظ اليهود عليه، وكدر أنفسهم لقتله، وشفى الله صدورهم مما كانوا يجدون بها على كعب بن الأشرف وأقرانه من اليهود.

وهذا ما يعبر عنه كعب بن مالك في قصديته التالية[1]:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣: ١٨، سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٣٠.

فغودر منهمُ كعبٌ صـريعاً ... فذلّت بعد مصرعه النضيرُ
على الكفّين ثمّ وقد عَلتْهُ ... بأيـدينا مشـــهّرة ذكـــورُ
بـــأمر محمد إذْ دسّ ليـــلاً ... إلى كـــعْب أخـا كعبٍ يَسير
فما كَـــرَهُ فـــأنـــزله بمكْـرٍ ... ومحمودٌ أخو ثِقةٍ جَســـورُ[1]

وفي كل هذا يتبين لهم حقهم، وحكمة نبيهم، وإسراف عدوهم، ونصرة الغيب لهم، ما تدنوا به نفوسهم إلى الرضى، وتشدهم إلى انتظار الهيجى.

ومن جهة ثانية شعرت المسلمات أن كراماتهن قد رجعت من المستبيح، لأن أهم أسباب قتل ابن الأشرف هو تشبيبه القبيح، وهذا أجمع لأنفسهن وأقرب لكرامة الإسلام فيهن، فقد قال الشاعر:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... إن لم يـــراق على جـــوانبـــه دم

وقال آخر:

تعدوا الذئاب على من لا كلاب له ... وتتقي صـــولة المســـتأســـد الحامي

٥ ـ ويضاف إلى هذا:

أ ـ أن الله استجاب دعوة نبيه، وخلصه من عدوه، حيث قتله الله على يد أصحاب محمّد ﷺ أعظم قتلة.

ولا ننسى أن الرسول ﷺ دعى عليه مرتين ولعله أكثر، مرة كما نقلناه في الحديث الذي يورده الواقدي: فلما بلغ النبي ﷺ قدوم إبن الأشرف قال: «اللهم، اكفني ابن الأشرف بما شئت في إعلانه الشر وقوله الأشعار»[2].

---

(١) وعلق عليه محقق الكتاب الدكتور عمرعبد السلام تدمري قائلاً: الأبيات في سيرة ابن كثير ٣: ١٥، وفي البدء والتاريخ ٤: ١٩٧ بيت واحد.

(٢) المغازي: ١٨٧، الطبقات الكبرى ٢: ٣٢، سبل الهدى والرشاد ٦: ٣٦.

وأُخرى حينما خرج معهم (أي مع محمّد بن مسلمة وجماعته المقاتلين في السرية) إلى بقيع الفرقد قال ﷺ: «**إنطلقوا على اسم الله، اللّهمّ أعنهم**»[1].

وفي المغازي: أنّه ﷺ قال: «**امضوا على بركة الله وعونه**» فما عادوا إلاّ ووجوههم تطفح بالبشر حيث تركوا خلفهم عدو الله كعب ودمه مسفوح على الأرض بعد أن هدره رسول الله ﷺ.

ب ـ صار مقتل كعب سبباً في إسلام بعض اليهود، وذلك لما سمع المسلمون نداء رسول الله ﷺ: «**من ظفرتم به من رجال اليهود فاقتلوه**» وثب محيصة بن مسعود على ابن سنينة التاجر اليهودي، والشخصية المالية المهمة فقتله.

ولما أن رأى أخوه حويصة لامه وأدانه وذكّره: أن شحم بطنك يا محيصة، من مال هذا الربوي اليهودي فرد عليه أنه لو أمره رسول الله ﷺ بقتل حويصة ـ أي أخيه ـ لقتله..

فتعجب حويصة لاستمكان الإسلام من قلب أخيه وبهذه الدرجة الوثيقة التي يمكن بها أن يقتل أخاه لمجرد دعوة رسول الله ﷺ لذلك، فبهره هذا التأثير، وبرق في قلبه التغير فأسلم.

قائلاً «والله إن ديناً بلغ بك هذا لعجب»[2].

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ١٨٠، مسند أحمد ١: ٢٦٦، مستدرك الحاكم ٢: ٩٨، مجمع الزائد ٦: ١٩٦، فتح الباري ٧: ٢٦٠، كتاب الدعاء للطبراني: ٣٣٠، المعجم الكبير للطبراني ١١: ١٧٧، تاريخ مدينة دمشق ٥٥: ٢٧٢، البداية والنهاية ٤: ٩، عيون الأثر ١: ٣٩٤، سبل الهدى والرشاد ٦: ٥.

(٢) السيرة النبوية ٣: ١٩، المعجم الكبير ٢٠: ٣١٢، كنز العمال ١٣: ٥٩٧، أسد الغابة ٢: ٦٦، و ج ٤: ٣٣٥، تاريخ الطبري ٢: ١٨١، البداية والنهاية ٤: ١٠، سيرة ابن هشام ٢: ٥٧٠.

ج ـ وكما ذكرنا كان تمهيداً لمقاتلة اليهود حيث بدء الرسول ﷺ بأكثر رجالهم خطورة وتأثيراً في القرار أو المال أو الدور العام.

ثمّ لَمّا ضعفت شوكة اليهود بدء بأقواها وأشجعها وأكثرها أموالاً في المدينة وأشدها خطراً: يهود بني قينقاع، طبعاً وبعد أن اجتمعت أسباب محاصرتهم أو مقاتلتهم بشكل كامل مما سوف نذكره بتوفيق الله تبارك وتعالى.

ويمكن القول ولو إجمالاً ـ أن حرب الرسول ﷺ مع اليهود المتآمرين والمحاربين مرت بمرحلتين: الأُولى مرحلة التصفية الفردية ـ وقد ذكرنا أسماء بعض المقتولين في موضع آخر ـ ثمّ التصفية الجَماعية بحرب شاملة وحصار ضُرب على كامل حصونهم.

وفي الخلاصة نجد من الواضح استحقاق كعب بن الأشرف لتزويد تلك السرية، وبعثها لقتله، لِما جنته يداه في حق رسول الله ﷺ ولِما سبَق ذكره من الأسباب.

وهل كان فيها ابن الأشرف إلاّ ظالماً فتاناً، مفسداً في الأرض مشجعاً للمشركين والمنافقين على الجُرم والرذيلة.

وحسبنا بكل هذا أسباباً لحربه وقتله ومطاردة قومه، وما النصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم.

فهل شط المسلمون عن الحق، وهل قصدوه في غير ذنب، وهل كان عاهدهم فغدروا به، أو وادعهم فخانوا به، أم العكس هو الذي كان على خلاف ذلك، إذ كان مستحقاً لهذه الهزيمة، ثم الإطاحة به.

غزوة بني قينقاع

تعريف مختصر

يهود بني قينقاع: هم واحد من الأقسام اليهودية الثلاثة التي كانت في يثرب ولكن هؤلاء اليهود كان وجودهم الفعلي داخل مدينة رسول الله ﷺ، وكان لهم حلف مع الخزرج قبل الإسلام، وقد عقد معهم الرسول المصطفى ﷺ عقداً تضمن فقرات اجتماعية مهمة، تضمن للجميع الحياة السلمية، والعيش الآمن في ظل دولة الرسول الجديدة.

ولكن الأمور لم تنتهِ على ما أراده الرسول ﷺ لهذه الفئة اليهودية من العيش الكريم الحر، بل حصل ما ينسف ذلك جميعاً، ويحل باليهود دار البوار.

أسباب الغزوة

السبب الأول:

قطعهم العهود المبرمة بينهم وبين الرسول ﷺ حيث جاء مهاجراً إلى المدينة يحف به الأنصار والمهاجرون، يذودون عنه ويحافظون عليه، ويتابعونه في أمر أو نهي.

ونقضهم الأمان الذي وادعهم الرسول الأمجد ﷺ عليه حيث كان من المفروض عليهم أن ينتهوا إلى شروطه، التي إحداها أن لا يظاهروا عليه عدوا، وقد ظاهروا قريش بعد إنكسارها في الحرب، بأن عجلوا إلى نقض العهد، وترك الأمان، والعمل على إبطال ما كان بينهم وبين المسلمين من الموادعة.

وفي المغازي أيضاً: (حدثني عبد الله بن جعفر، عن الحارث بن الفضيل، عن ابن كعب القُرظي، قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة،

وادعته يهود كلُها، وكتب بينه وبينها كتاباً.

وألحق رسول الله ﷺ كل قوم بحلفائهم، وجعل بينه وبينهم أماناً، وشرط عليهم شروطاً، فكان فيما شرط ألاّ يظاهروا عليه عدواً، فلما أصاب رسول الله ﷺ أصحاب بدر وقدم المدينة، بغت يهود وقطعَت ما كان بينها وبين رسول الله ﷺ من العهد)[1].

وقد كانوا قبل ذلك آمنين مطمئنين في كنف المسلمين، فلما خالفوا الله تعالى، والرسول الأعظم ﷺ، حاصرهم الرسول ﷺ.

وقد أيد القرآن تلك الخطوة المحمدية، ودعى الرسول الأكرم ﷺ لنبذهم وطردهم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [2].

السبب الثاني:

إتهامهم الرسول بالغرور، وعدم القدرة على مواجهة الشجعان، وهذا الكلام يستبطن إهانة ظاهرةً للرسول الأكرم ﷺ، واساءة أخلاقية لأخلاقه وشخصيته الجليلة الشريفة وهو ممدوح الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [3] بقول اليهود للرسول الأكرم ﷺ: (لا يغرنك من لقيت) [4].

ويستبطن النظر إلى المسلمين كونهم أناساً جبناء وإن لم يكونوا

---

(١) المغازي ١: ١٧٦سبل الهدى والرشاد ٤: ١٧٩.

(٢) الأنفال: ٥٨

(٣) القلم: ٤.

(٤) وهذا قول يهود بني قينقاع عندما جمعهم الرسول ﷺ ودعاهم للإسلام وحذرهم من سوء العواقب، كما في المغازي ١: ١٧٦.

جبناء فهم قليلوا الشجاعة، لأنّهم عللوا النصر في بدر أنه كان بسبب أناس لاخبرة لهم بالحرب، يقصدون أهل مكّة.

وهذا بذاته فيه شيء من الطعن، أو يفهم منه الطعن المباشر لرسول الله ﷺ أي أنّهم أرادوا أن يقولوا له لم تنجبك الفحول من العرب، وأهل العلم والدراية في الحرب[1]، ولم ينجبك أبطال الرجال إذ أنت من قوم هذه صفتهم (أغمارا).

أضف لهذا كله: أن كلامهم كان بمعنى أنّهم لا يقيمون للرسول وزناً، ويجرّونه إلى حلبة الصراع والتحدي والمواجهة (وإنّا والله أصحاب الحرب، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنّك لم تقاتل مثلنا)، فَهُم يدعونه إلى المطاعنة والقتال.

وهذا قول يهود بنى قيقاع عندما جمعهم الرسول ﷺ ودعاهم للإسلام وحذرهم في سوء العواقب كما في المغازي ١: ١٧٦.

والحقيقة أنّه ليس من المناسب للإنسان العادي أن يقف مكتوف الأيدي أمام كل هذا، وعلى تعبير يهودي منهم وهو كعب بن الأشرف مجيباً زوجته حيث نبهته ـ في وقت الهجوم عليه ـ أن صوت الذي ناداه صوت حرب لا سلم، ومحذرةً له من الخروج له، قائلاً لها في معرض الجواب: «إن الفتى إذا دُعي إلى طعنة أجاب»، فضلاً عن كون ذلك الإنسان نبياً رسولاً.

وفي الوقت الذي يعني هذا الكلام إظهار العداوة للمسلمين، والمجاهرة بكراهيتهم، واتهامهم بعيب ليس فيهم، يعني أيضاً مدحهم لأنفسهم بغرور ظاهر ممقوت.

---

(١) حيث كان خوض الحرب والعلم بها، وكل فنون الفروسية من المكملات الرئيسية لشخصية العربي آنذاك.

ومع كون هذا السلوك يؤدي إلى خلق الحزازة في النفوس بين فريقي الديانتين اليهودية والإسلاميّة، مع كل هذا فإنه من جهة أُخرى يعني خرقاً فاضحاً للزعامة الحاكمة، والشخصية المدنية الأُولى، والى رئيس دولة لا يصح في حال من الأحوال الإساءة إليه.

وخصوصاً باعتبارهم أقلية من جهة، وباعتبار أن الرسول الأكرم ﷺ لم يبادرهم بشر، وباعتبارهم قد وافقوه على ماشرط من قبل من جهة ثالثة.

ومع كل هذا لم يتخذ الرسول ﷺ إجراءاً فورياً وسريعاً، ولاحتمال أن يكون كل هذا الذي ذكرناه ممكن الورود في جماعة بخصوص الحاكم وادارته في ذلك الزمان.

أو رأى ﷺ أن السكوت عليهم إلى هذا الحد أحجى، وإلاّ فالحجة بإعتقادنا تامة عليهم، هذا مع الالتفات أن النبي لم يكن زعيماً حاكماً، أو قاضياً للتحقيق، أو قبلياً متعصباً، ولا صاحب عصابة تقطع طرق المسافرين، ولا مرجعاً لمشاكل الناس على نحو الكهان والعُراف، إنما كان نبياً مرسلاً، والفرق واضح بين هذا وذاك.

ولعل سكوته ﷺ كان بانتظار أفاعيل أُخرى منهم سيفعلونها؛ لتكون فيها الحجة أبلغ، وإن كانت قد تمت من قبل.

وإذا قبلنا أن قول النبي ـ على فرض المفروغية من نبوته كما قلنا مراراً ـ واجب التصديق، فيجب علينا أن نصدّق قول الرسول ﷺ: «يا معشر يهود أسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله»[1]، ليكونوا بذلك مخالفين للحق، ظالمين للحقيقة، مدلسين مكذبين على الناس، معطلين لأحكام الله الواجبة النفاذ والتطبيق.

مع العلم أن الرسول محمّداً ﷺ بالإضافة إلى وجوب تصديق كلامه

---

(١) المغازي ١: ١٧٦، البداية والنهاية ٦: ١٩٧، سبل الهدى والرشاد ٤: ١٧٩.

على إطلاقه، فإنه ﷺ أكد كلامه بالقسم وبلام التأكيد الداخلة على الفعل المضارع (تعلمون)، وبأنَّ المؤكدة لكلامه الشريف.

إن اشتماله على هذه النكات الثلاث مجتمعة في عبارة واحدة تكون مدعاة لقوة التصديق ولشدَّة قبح التكذيب، مع كونه ﷺ لا يحتاج إلى كل هذا بكلامه؛ لأنه الصادق الأمين، كما هو الثابت والمعروف عنه عند جميع من عاشره وعرفه ﷺ.

السبب الثالث:

علاقتهم الوثيقة مع عبد الله بن أُبي بن سلول، وهذا يعني أن هذه العلاقة مثار للريبة، فقد عُرف الرجل بكُرهه لِرسول الله ﷺ، وبغضه للدين وبتصريحاته المخالفة لمنهج الحق الجديد.

وعُرِف أنّ له زمرة من المنافقين ملتفين حوله، يأتمرون بأمره، ويطيعون قوله، حتى ولو كان فراراً من الزحف، وتخلفاً عن رسول الله ﷺ وخذلاناً للمسلمين، ومعونة للمشركين، كما حدث ذلك في غزوة أُحد.

وهذا يعني وجود عمل جبهوي موحد ضد الرسول الأكرم ﷺ وصحابته الأبرار، (رضوان الله عليهم)، على مستوى من التخطيط، والدراية، واتخاذ القرار، وإعداد المواقف، والتهيؤ للطوارىء، ومجابهة الأحداث.

وإنك تلحظ ذلك كله في موقف عبد الله بن أُبي عند ما تمكن الرسول ﷺ من يهود بني قينقاع، كيف كان اندفاع ابن أُبي ودفاعه، وكيف كان إصراره على الرسول ﷺ كي يطلق سراحهم، ويخلي سبيلهم، بقوله لعنه الله: (يا محمد، أحسن في موالي)[1].

---

(١) المغازي ١: ١٧٧، تفسير ابن كثير ٢: ٧٢، تاريخ الطبري ٢: ١٧٣، البداية والنهاية ٤: ٥، سيرة ابن هشام ٢: ٥٦٢، سبل الهدى والرشاد ٤: ١٨٠.

(فقال: أرسلني! فقال: لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة دارع وثلثمائة حاسر، منعوني يوم الحدائق ويوم بعاث)[١].

(يا محمد إني امرءٌ أخشى الدوائر)[٢] [٣].

فالرسول ﷺ إذاً يواجه خطراً داخلياً سببه اليهود من بني قينقاع، فلا بد من التوجه اليهم واقتلاع جذروهم.

ولكن كل هذا والرسول الأعظم ﷺ بعد لم يتخذ قراراً بحربهم وحصارهم.

السبب الرابع:

ليؤدب الرسول كل اليهود المحيطين بالمدينة كبني النضير وبني قريظة والبعيدين عنهم في تيماء وخيبر وغيرها.

وفعلاً أودع قلوبهم مخاوفاً بدرية وأحدية وغيرهن، وقهر أنفتهم المتعالية.

السبب الخامس:

ليتخلص المسلمون من هذا الضغط الداخلي المرهق، والمشوش لكل مخططاتهم، وليتفرغوا إلى ما بعد الحدود اليثربية.

وقد أمنوا كثيراً من قطاع مهم من الطابور الخامس، الجاثم على صدور المسلمين، والقابع على بوابة التاريخ لئلا يدخلها المسلمون.

---

(١) نفس المصادر.

(٢) نفس المصادر.

(٣) وسوف يأتي شيء من التعليق على هذه الحادثة في كتابنا اللاحق (الرسول المصطفى ـ قراءة في الدائرة الحمراء).

السبب السادس:

ليؤدب مشركي مكة ويخيفهم، وهو ﷺ يسجل انتصاراته الباهرة، ويتقدم خطوات واسعة في إرساء الإستقرار، ودعائم الأمن في دولته، ويهيء نفسه لأعداءه التقليديين أي الجيش السفياني المشرك.

وبهذا يكون الرسول قد أوغر صدورهم بذبابة السيف، وشَك في عيونهم شوكة بريّة فأدمَتها، وذلك أطيب لصدور المؤمنين وأشفى.

السبب السابع:

اعتداء اليهود على امرأةٍ من المسلمين بما يطعن سمعتها، ويمس شرفها وهذا هو السبب القادح والمهم في سياق مشكلة المسلمين مع يهود بني قينقاع.

فقد ورد: (فبينما هم على ما هم عليه من إظهار العداوة، ونبذ العهد، جاءت امرأة نزيعة[1] من العرب تحت رجل من الأنصار إلى سوق بني قينقاع، فجلست عند صائغ في حُلي لها.

فجاء رجل من يهود قينقاع فجلس من وراءها ولا تشعر، فخلّ[2] درعها إلى ظهرها بشوكة، فلما قامت المرأة بدت عورتها فضحكوا منها.

فقام إليه رجل من المسلمين فاتَّبعه فقتله، فاجتمعت بنو قينقاع، وتحايشوا فقتلوا الرجل)[3]

ولو لاحظنا الرواية لوجدنا فيها:

أ ـ إعتداءاً على أمرٍ يعتز به العرب مع جاهليتهم فكيف مع

---

(١) النزيعة: المرءة التي تُزَوج في غير عشيرتها فتُنْقَل.

(٢) وخلّ: جمع بين طرفي الشيء (النهاية ٣: ١٧٠) وفي مصدر آخر (وحل).

(٣) المغازي ١: ١٧٦، عيون الأثر ١: ٣٨٥ ـ ٣٨٦، سبل الهدى والرشاد ٤: ١٧٩.

إسلامهم، وإنما قامت عليه حروب في أزمانهم وغيرها من الأزمان، فالعربي يأبى الإعتداء بما هو إعتداء، فكيف لو كان على شرفهِ؟.

ب ـ تلفظ الإساءة على المرأة وايذائها كان ولا يزال خروجاً عن كل الأعراف وعند كل الأقوام، وإساءة فادحة لعشيرتها، ناهيك عن زوجها وذويها المقربين.

لذلك فعلوا بها كل هذا إساءةً منهم للمسلمين، وإثارةً لحفيظتهم، وإلا لما أقدموا على كشفها وإثارتها، بينما لم نرَ ولم نسمع أن مسلماً فعل ذلك بيهودية.

ج ـ إنهم لم يكتفوا بالإساءة إليها، وإنما (اتخذوها سخريا) وضحكوا عليها مما يزيد في وطئة الإساءة، ويهيج سَوْرَةَ الغَضَبِ، لما فيه من تحطيم لكرامة المسلمين، وتوهين لعزتهم وكبرياءهم.

د ـ إن اليهودي قُتل وهو معتدٍ على شرف المسلمين، والمسلم قُتِل وهو مدافع عن شرفه المجروح، وكرامته المهدورة.

هـ ـ إن المسلم اندفع نحو اليهودي؛ لأن غيرته أبت له السكوت إلاّ أن يثأر، واليهودي اندفع نحو المسلمة؛ لأن رذيلته أبت له السكوت إلاّ أن يُفْحِش ويَبْغي.

و ـ إن المسلم عندما قتل اليهودي كان عمله هذا فردياً حيث كان بهجومه وحيداً فريداً (فقام إليه، رجل من المسلمين فتبعه فقتله)[١] فديته على فرض وجوب الدية تقع على عاتق هذا الفرد المسلم، والتي سقطت بقتل اليهودي له، فلا تبعة على المسلمين من جهته.

بينما اجتمع اليهود على المسلم، وقتلوه كما صُرح به في الروايات

---

(١) المغازي ١: ١٧٧.

(اجتمعت بنو قينقاع، وتحايشوا فقتلوا الرجل)[1] فالدية تلزمهم جميعاً وتقع على أعناقهم دون شك.

ز ـ إن القَتْلَة مهما تكون شنيعة فهي من الفرد على الفرد أقل منها شناعةً من الجماعة على الفرد، وبهذا نعرف أن قَتْلة المسلم كانت حتماً شنيعة، والضربات التي تلقاها المسلم كثيرة والاّ لا معنى أن يقولوا:

اجمعت بنو قينقاع، ويقولوا: وتحايشوا، ويقولوا: قتلوا الرجل، اللهم إلا إذا عُبّر عن فعل الواحد منهم، بأنه فعل الجميع، أو يذكروا الفاعل بضمير الجماعة للتعظيم.

وهذا بعيد لأن الظاهر إن هذه الحادثة استدعت الهرج والمرج، وخاصةً أن المسلم بسوقهم (أي بسوق اليهود) دونما يوجد أحد من المسلمين فيكون الأمر في الاجتماع والإشتراك بالقتل سهلا، وقد تحصل معها المُثلَة أيضاً.

وأما قتلة المسلم لليهودي فهي بكل الأحوال، قتلة إنسان يريد أن يُنـزل الموت عاجلاً بيهودي ويهرب مسرعاً لئلا تلاحقه عيون الرقباء، وهو بينهم، فلا يحتمل أن تكون شنيعة فضلاً عن عدم المثلة باليهودي، لا لأن الإسلام يمنع ذلك ولو بالكلب العقور (كما ورد عن رسول الله ﷺ) فقط، وإنما لأن الوقت لا يسعفه لذلك.

فمع هذه النقاط المذكورة لا يبقي شك في ظلمهم، ولا يبقي شك في ضرورة مواجهتهم، وأن إنساناً ما مهما كانت ديانته وقوميته لَيَصعب عليه أن يرى امرأة من نساء قومه أو عشيرته.أو ذويه يُفعل بها ما فَعل اليهودي بالمرأة المسلمة ويسكت إلا إذا كان سليب الغيرة منزوع الشرف.

وإذ نقول أن هذا السبب هو السبب القادح فبلحاظ هذه المسائل

---

(١) المغازي ١: ١٧٧.

سالفة الذكر.

السبب الثامن:

وفوق هذا كله، أعلنوا الحرب، وتحصنوا، وكأن شيئاً لم يكن منهم، (ونبذوا العهد إلى النبي ﷺ وحاربوا، وتحصنوا في حصنهم)[١].

فلما فعلوا ذلك كله، وبدءوا الحرب بأنفسهم، وهربوا لحصونهم لِيَقوا بها أنفسهم ردع المسلمين لهم، بادرهم المسلمون بالرد.

وإرادة الحرب بظننا متحققة عندهم لا فقط من نبذ العهد إلى النبي ﷺ، وبدءهم حرب المسلمين وإنما أيضاً بتحصنهم، فلولا أنهم شنوا حرباً، وقادوا حدثاً قتالياً، لما تحصنوا بحصنهم وقلاعهم خشية وقوع الدائرة عليهم.

وهذا ظاهرٌ أيضاً من رد عبادة بن الصامت عليهم حيث كلفه الرسول ﷺ بإجلاءهم إذ قالوا له: (يا أبا الوليد، من بين الأوس والخزرج ـ وعن مواليك ـ فعلت هذا بنا)[٢].

ولو لم تكن لديهم إرادة القتال ومناجزة الرسول الأعظم ﷺ لما هجموا على الرجل المسلم القاتل هجمة رجل واحد وأردوه قتيلاً، ولو لم يريدوا حرباً إذاً لأخذوه كتافاً وسلموه رسول الله ﷺ، ليأخذ لهم بحقهم وفق ما سن لهم من شروط في صحيفة الوفاق الوطني الذي كتبها لهم الرسول ﷺ ووافقوه عليها جميعاً، ليأخذ لهم بحقهم ما دامت هذه الصحيفة سارية المفعول.

ولكنهم مع قتل الرجل نبذوا العهد، وحاربوا، وتحصنوا.

---

(١) المغازي ١: ١٧٧، بحار الأنوار ٢٠: ٥.

(٢) المغازي ١: ١٧٩.

وبعد كل هذا وكل هذه النقاط بتفريعاتها هل يبقى شك في حق الرسول الأكرم ﷺ والمسلمين من ورائه في ردع اليهود، وأخذ الحق منهم، وقتالهم على هذه الفتنة وعلى هذا الفساد الأخلاقي في الأرض وعلى هذا الظلم والنفاق، وقد أسس الرسول الأكرم ﷺ لحق الهجوم عليهم تلك الأسس المتينة الراسخة أو اعتمد عليها.

عن صاحب المغازي: (فسار اليهم رسول الله ﷺ فحاصرهم، فكانوا أوّل من سار إليه رسول الله ﷺ، وأجلى يهود قينقاع، وكانوا أوّل يهود حاربت)[1]، فأمكن الله منهم رسوله الكريم ﷺ، وقيل بعداً للقوم الظالمين.

سبب واحد لعدة غزوات

١ ـ غزوة قرارة الكدر.

٢ ـ غزوة غطفان بذي أَمَرَ.

٣ ـ غزوة بني سُليم (ببحران بناحية الفرع).

إن هذه الغزوات جميعها قادها الرسول المصطفى ﷺ في أماكن عدة وأزمان مختلفة.

وكان السبب المشترك بينها جميعاً، أن هذه القبائل هيأت جيشها واستعدت لغرض العدوان على مدينة رسول الله ﷺ. فخرج لها الرسول الأعظم ﷺ ليفاجئها بالرد قبل الفعل.

وإن استعراضاً روائياً سريعاً يبين لنا المعتدي، ويوضح لنا السبب في اندفاع المُعتدى عليه ودفاعه عن نفسه، كي ننصفه، ولا نغمطه حقه

---

(١) المغازي ١: ١٧٧.

متهمين له بالباطل.

غزوة قرارة الكدر:

كان السبب هو اتفاق قبيلتي غطفان وسُلَيم، يريدون غزو رسول الله ﷺ

جاء في مصادر التاريخ: (حدثني عبد الله بن جعفر، عن ابن أبي عَون، عن يعقوب بن عُتبة، قال: خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى قرارة الكدر، وكان الذي هاجه على ذلك أنه بلغه أن بها جمعاً من غطفان وسُليم.

فسار رسول الله ﷺ اليهم، وأخذ عليهم الطريق حتى جاء فرأى آثار النعم ومواردها ولم يجد في المجال أحداً، فأرسل في أعلى الوادي نفراً من أصحابه، واستقبلهم رسول الله ﷺ في بطن الوادي،....)[1].

غزوة بني غطفان (ذي أمَرّ):

ورد في المغازي: (حدثني محمّد بن زياد بن أبي هُنَيدة قال: حدثنا ابن أبي عتّاب، وحدثني عثمان بن الضحاك بن عُثمان، وحدثني عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر....قالوا:

بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من ثَعْلَبة ومحارب بذي أمرّ، قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله ﷺ جمعهم رجل منهم يقال له دعثور بن الحارث بن مُحارب فندب رسول الله ﷺ المسلمين، فخرج في أربعمائة رجل وخمسين، ومعهم أفراس)[2].

---

(١) المغازي للواقدي ١: ١٨٢، عيون الأثر ١: ٣٩١، سبل الهدى والرشاد ٤: ١٧٢.

(٢) المغازي ١: ١٩٤إعلام الورى بأعلام الهدى ١: ١٧٣، عيون الأثر ١: ٣٩٩، البداية والنهاية ٤: ٣، سبل الهدى والرشاد ٤: ١٧٦ و ج ١٠: ٢٥٧.

غزوة بني سُليم ببحران:

وفي المغازي أيضاً: (حدثني معمر بن راشد، عن الزُهري، قال: لمّا بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من بني سُلَيم كثيراً ببحران، تهيأ رسول الله ﷺ لذلك ولم يظهر وجهاً، فخرج في ثلثمائة رجل من أصحابه فأغَذُّوا السير حتى إذا كانوا دون بُحران بليلةٍ.

لقي رجلاً من بني سُلَيم فاستخبروه عن القوم وعن جمعهم، فأخبره أنهم قد افترقوا أمس ورجعوا إلى مائهم، فأمر به النبي ﷺ فحُبس مع رجل من القوم، ثم سار النبي ﷺ حتى ورد بحران، وليس به أحد، وأقام أياماً ثم رجع ولم يلق كيداً، وأرسل رسول الله ﷺ الرجل) [١].

إذن من الواضح أن هناك سبباً واحداً مشتركاً أدى إلى هذه الغزوات وهو كما رأينا تجيّش الجيوش عليه ﷺ، وإرادة العدوان على مدينته، وبنوايا معلنة.

ففي الأولى: اتفاق قبيلتين مهمتين للإغارة عليه ﷺ.

وفي الثانية: قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله.

وفي الثالثة: لما بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من بني سُليم كثيراً ببحران أو كبيراً ببجران يريد أيضاً العدوان عليه.

فهل يا ترى ينتظر الرسول المكرم ﷺ حتى يهجموا على مدينته، ويستقبلهم هناك بالأفراح والمسرات، وينثر لهم من ورد المدينة ورياحينها، ويُعدُ لهم غداءاً من بر المدينة وتمرها المنوع، ولحم مواشيها، ابتهاجاً بسلامة الوصول.

---

(٣) المغازي للواقدي ١: ١٩٦، سبل الهدى والرشاد ٤: ١٧٨، انظر عيون الأثر ١: ٤٠١.

أم أنها الحرب؟ نعم الحرب التي لا تُمهِل من تَمَهَّل، ولا تُبقي على من بقي دون أُهبة أو نفورا!.

إن الرسول الأعظم ﷺ ـ وهو أعلم بما يفعل، وأعرف بما يجب ـ يعرف الحرب، ويعرف أنفاس العرب، وإنه يعلم ماضي الأحداث ومستقبلها، وهو بعد ذلك مؤيد من باعثه ومولاه ومولى الخلق أجمعين الله رب العالمين.

معركة أحُد

تعريف مختصر

جاء في كتاب تاريخ الطبري: (وكانت قريش بعد واقعة بدر قد تآمروا وطلبوا من أصحاب العير أن يعينوهم بالمال ليتجهز به لحرب رسول الله ﷺ فأعانوهم.

وخرجت قريش بأحابيشها وحلفائها، وذلك في شوال من سنة ثلاث، واحتملوا الظعن التماساً للحفيظة وأن لا يفروا، وأقبلوا حتى نزلوا ذا الحليفة قرب أحد ببطن السبخة مقابل المدينة على شفير وادٍ هنالك.

وذلك في رابع شوال وكانوا في ثلاثة آلاف فيهم سبعمائة دارع ومائتا فرس وقائدهم أبو سفيان ومعهم خمس عشرة امرأة بالدفوف يبكين قتلى بدر، وأشار ﷺ على أصحابه بأن يتحصنوا بالمدينة ولا يخرجوا وإن جاؤا قتلوهم على أفواه الأزقة، وأقر ذلك على رأي عبد الله بن أبي ابن سلول.

وألح قوم من فضلاء المسلمين ممن أكرمه الله بالشهادة فلبس لامته وخرج، وقدم أولئك الذين ألحوا عليه وقالوا يا رسول الله إن شئت فاقعد

فقال ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل، وخرج في ألف من أصحابه واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة ببقية المسلمين بالمدينة، فلما سار بين المدينة وأحد انخزل عنه عبد الله بن أبي في ثلث الناس مغاضبا لمخالفة رأيه في المقام.

وسلك رسول الله ﷺ حرة بني حارثة ومر بين الحوائط وأبو خيثمة من بني حارثة يدل به حتى نـزل الشعب من أحد مستنداً إلى الجبل وقد سرحت قريش الظهر والكراع في زروع المسلمين وتهيأ للقتال في سبعمائة فيهم خمسون فارساً وخمسون رامياً)[١].

أسباب المعركة

السبب الأول:

ثأر المشركين لقتلاهم في بدر، وهذا ما أجمعت عليه المصادر التاريخية، فقد فقدت قريش في بدر الكبرى عيون القوم وساداتهم وأهل الحزم والرأي فيهم، فلم يكن الفقد في بدر فقداً كمياً فحسب ـ حيث وصل عدد المقتولين (٥٠ ـ ٧٠) مشركاً محارباً مقاتلاً لله ورسوله.

وهذا بالنسبة لحجم المعركة من حيث الإستعداد، ومن جهة عدم التكافؤ قد يعتبر عدداً كبيراً أصاب قريش بنكبة كبرى، ورزية أبكت عيونهم طويلاً ـ إنما بالاضافة إلى هذا الكم كان الفقدُ نوعياً أيضا، فإنه قُتِل رجالاً كانوا يعدونهم الأشراف وأهل التخطيط وعيون الطلائع، ولم تبق لهم الحرب إلا أبا سفيان بن حرب، زعيم حروب المستقبل بين قريش ورسول الله ﷺ، ورأسها المدبر، وكفرها المعلن المشهور.

وظلت قريش ذائبة الحشى، مذعورة البال، لا يهدأ لها نادب، ولا يقر

(١) تاريخ ابن خلدون ق٢:ج ٢ ابن خلدون ٢٤.

لها قرار، كلما سمعت صوت الحيسمان بن عبد الله الخزاعي يتردد أصداؤه في اذنها حتى وقعت أُحد.

وكان الحيسمان هذا، هو أول ناعٍ، نعى هلكى قريش ونقل أنباء الهزيمة المرة في بدر الكبرى للمشركين معدداً لهم أسماء قتلاهم [١]، ولهول الصدمة ما كانوا يقبلون لأنفسهم أن يصدقوا ذلك منه.

بل عدوه ثرثرة مجنون مخبول، وهذيان امرءٍ فقد عقله، لأنه ما كان يُتوقع أن تلحق بهم هزيمة ساحقة كهذهِ، وأن يقتل ـ فوق الخيبة والإنهزام والفرار من الحرب ـ أكابر القوم وذوو الشأن فيهم، حتى اختبروا الناقل، وسلامة عقله من اللوثات المحتملة.

ولكن لم يقل الرجل إلاّ حقاً، وإن كان عقله أصيب بدوار الهزيمة، وشرقت نفسه بهول الرزية، إلا أنه لا زال ينطق الصواب.

وجاءت الأخبار ورجعت الفلول منكسة الكتائب والرايات تقص عليهم ما لحق بهم في يوم لم ترَ قريش مثله.

فهذا كان سبباً أول وربما هو السبب الراجح والذي سعت من اجله قريش كل مساعيها، ورأت السكوت على قتلاها وعدم الثأر لهم عاراً لا يمكن قبوله، أو حمله، أو تجاوز آثاره.

عن كتاب الطبري: (وكان الذي هاج غزوة أُحد بين رسول الله ﷺ ومشركي قريش وقعة بدر، وقتل من قتل ببدر من أشراف قريش ورؤسائهم.

قالوا: لما أصيبت قريش ـ أو من قاله منهم ـ يوم بدر من كفار

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ١٥٩، البداية والنهاية ٣: ٣٧٥، سيرة ابن هشام ٢: ٤٧٣، عيون الأثر ١: ٣٤٨، سبل الهدى والرشاد ٤: ٦٦.

قريش من أصحاب القليب فرجع فَلُّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بن حرب، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة.

فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم، وقتل خياركم، فاعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك منه ثأراً ممن أصيب منا، ففعلوا، فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ حين فعل ذلك أبو سفيان وأصحاب العير بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة، وكل أُولئك قد استعووا على حرب رسول الله ﷺ)[1].

وقد أضاف الواقدي في مغازيه:

إستجابة أبي سفيان السريعة الفورية لنداء الحرب الذي أطلقه الوفد القادم اليه بقوله لهم: (فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي، فانا الموتور الثائر، قد قُتل إبني حنظلة ببدر وأشراف قومي)[2].

السبب الثاني:

وهناك سبب نفسي مهم وهو ذلك الغليان الذي بات يجيش في صدور المشركين غيضاً من المسلمين وغضباً عليهم، فلم تكن قريش قد غُلِبَت من قوم عُرفوا بكثرة العدد بحيث يفوق عددهم الجيش القريشي، أو يضاهيه، أو يساويه ولم تكن تُغلب من قوم ذوي عُدّة وتجهيز كبير بحيث يفوقهم، أو يضاهيهم، أو يساويهم.

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ١١٧، البداية والنهاية لابن كثير ٤:١٠، السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٠٥، وكذا في الكامل لابن الاثير ٢: ١٠٣.

(٢) المغازي للواقدي ١: ٢٠٠.

إنه جيش صغير وعدده قليل ولا يملك من الجنود الا ما يُنظَرُ له باحتقار، ومن السيوف ما لا يُعد بها الجيش من أهل الأخطار، فكيف يُغلبون وهم العدة العديدة، والأيدي الشديدة، والسيوف المجربة، والخيول الجاهزة للحرب والقتال.

قد كان بالإمكان أن ترضى قريش بالهزيمة، وتسكت عن قتلاها، وتكتفي بالذي حصل لو كان الجيش الذي قابلها له ما لها، وجاهها بما جاءته، أما أن يكون جيش المسلمين بتلك الحال ويكتب له النصر عليها فهذا ما أودع صدورهم حقداً لا يهدء، واهتزازاً للثأر لا يستقر، وشعوراً بالعار لا يمحى.

وفوق هذا وذاك أن هؤلاء الذين قاتلوهم كانوا بالأمس القريب معذبي قريش، وقد طردوهم، وكانوا ضعفاء، مستضعفين، الأمر الذي جعل قريش تأتي إلى بدر وهي بهم هازئة، والآن يقفون بوجه قريش بكل ما لها من تاريخ ومجد وجذور، ورجال لا تعرف المحذور.

إنها طامة قريش، وطالعها السيء المنحوس، الذي لا بد أن تُغَيَّر صورته، وتُستبدل محتواه.

هم الذين خرجوا وكانوا يعتقدون أن لا طاقة لرسول الله ﷺ بحربهم، ولكنهم رأوا أن يفعلوا شيئاً يعظم شوكتهم في المستقبل، ويخيف الجميع منهم (وكانوا قبل أن يلقاهم النبي ﷺ قد جاءهم راكب من أبي سفيان والركب الذين معه: أن ارجعوا ـ الركب الذين يأمرون قريشاً بالرجعة بالجحفة ـ فقالوا: والله لا نرجع حتى ننزل بدراً فنقيم به ثلاث ليال، ويرانا من غَشِيَنا من أهل الحجاز، فانه لن يرانا أحد من العرب وما جمعنا فيقاتلنا)[1].

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ١٠٩.

ويرجعون بعد الفرار من بدر بعد أن نزلوها فعلاً، وأقاموا فيها وبقليبها جيفاً نتنة أبد الدهر، ورآهم من غشيهم من أهل الحجاز وهم يتطايرون ذعراً من أخبار محمد ﷺ، ومن سيوف أصحابه ولم تتحقق غايتهم التي أرادوا (فإنه لن يرانا أحد من العرب وما جمعنا فيقاتلنا)، فقد قاتلهم الرسول المصطفى ﷺ والعرب معهم مراراً وتكرارا وهم خائبون.

وهذا بعدٌ نفسي يضاف كسبب لسعيهم وراء حرب الرسول الأكرم ﷺ والعمل من أجل إثارة القتال معه كما حصل فعلاً في أحد.

السبب الثالث:

الحروب التي نشبت بعد بدر الكبرى، والغزوات التي حدثت تعيد إلى ذهن قريش كابوسها المرعب، وهو احتمال تعاظم قدرة محمد، وهو احتمال يخيف قريش ويهز مضجعها.

فقد حدثت بعد بدر الكبرى من (٦ ـ ١٠) أحداث ما بين غزوة إلى سرية، وهذا معناه أن محمداً ﷺ ذو جيش مكين، وربما حصل على عتاد جديد، وأموال أخرى كما حصل في غزوة بني قينقاع، وكما في الخمسمائة من الإبل التي أخذها غنيمة في غزوته ﷺ لبني سليم وغطفان (غزوة قرقرة الكدر)، وكالقافلة من العير التي حصل عليها في سرية زيد بن الحارثة إلى القردة.

ومعناه أن محمداً ﷺ قتل رجالاً كانوا يمثلون مصدراً لازعاجه وايذائه، وهم بهذا المعنى شركاء المشركين من قريش في السعي لتحطيم محمد النبي ﷺ، وفقدانهم يعني عدم تحطيمه، أو تأخير ذلك.

أو لا أقل من حصول ارتياح له من جهات نفسية، واجتماعية، وعسكرية، كقتل المسلمين لكعب بن الأشرف وهو من أعاظم اليهود، وزعمائهم، الذي كان ينعى قتلى قريش ويبكي لهم ويحرض قريش على

الثأر لهم من النبي الأعظم ﷺ.

بل إن طرد بني قينقاع شكل خطراً آخر على قريش باعتباره شكل استقراراً داخلياً لمحمد ﷺ.

وقتل سلام بن الحقيق، وقتل ابن سنينة اليهودي في سرية مُحيصة بن مسعود، وقتل أبي عفك اليهودي في سرية سالم بن عمير العمري، وقتل العصماء بنت مروان الخطمية، التي كانت تعيب الإسلام وتنال من الرسول ﷺ وتؤذيه، وتحرض عليه، وتهجوا اتباعه من الأنصار بشعرها أفزع قريش؛ لأنه ﷺ أفقدها شركاءها في مهمة وخز النبي الأعظم ﷺ والمؤمنين من أتباعه.

ومعنى ذلك أن الرسول ﷺ أخاف قبائل برمتها كسليم وغطفان وقد حاولت سُلَيم أن تتجمع وأن تواجه الرسول الأعظم ﷺ، ولكن أفزعها خروج الرسول الأكرم ﷺ لها في غزوة بُحران وشتت جمعها دون أن تصمد في المواجهتين أمامه ولو للحظة واحدة.

وهذا يعني أيضاً بالإضافة إلى قوة المسلمين اقتصادياً، وتمركزهم الإجتماعي، واكتسابهم لشخصية المجتمع القادر والمدافع بل المهاجم، بالاضافة إلى هذا كله يعني أن معنويات المسلمين أصبحت قوية، واستعدادهم النفسي للقتال صار عالياً.

فعلى قريش أن تبادر قبل أن يكون الأمر أكبر وأخطر، طبعاً ويشاطرها بالخوف القبائل العربية المحيطة والمشاركة لها في نزعة العداء، وكذا اليهود (الحليف الدائم).

السبب الرابع:

ومن الأسباب التي لها قيمةٌ تذكر هنا، هو عدم قدرة قريش من تحقيق أهدافها التي جاءت من أجلها في معركة بدر، فهي أسباب تضاف إلى جملة

هذه الأسباب وتنشط حركتهم باتجاه تحقيقها عن طريق حرب ثانية، ولتكن أحُد محطة التحقيق.

وقد ذكرنا تلكم الأهداف في حديثنا عن أسباب معركة بدر فلا بأس بالمراجعة هناك.

السبب الخامس:

وقد شكلت ـ باعتقادنا ـ غزوة السويق الخاطفة والتي نجح أبو سفيان في ممارستها بشكل عسكري منظم، سبباً في تجرء المشركين على المسلمين، إذ شعروا أن الهدف الذي جاءوا به قد تحقق، وهو ماسنذكره فيما بعد.

وعرفوا أن المسلمين لم يكونوا على قدر عالٍ من النباهة والتيقض في وقت هم به في أشد الحاجة إلى التَيَقُض والحذر، إلى أن فزوا على نداء الرسول ﷺ يندبهم لمطاردة أبي سفيان وقواته، إذ وصل أبو سفيان ضواحي المدينة وقتل وحرق وهم في غفلة منه.

وعرفوا أيضاً أنه ليس لهم خيول تعينهم على مواجهة قريش في حرب الثأر القادمة، تكون بمثابة القوة المطاردة (المهاجمة) في ميدان القتال، والتي تتمكن من ايقاف الفرسان (أي فرسان قريش) أو التأثير على حركتهم، ومطاردتهم في حال الإنسحاب من المعركة، أو الفرار منها.

إذ لو كان لهم تلك الخيول لتمكنوا من اللحوق بأبي سفيان، ولكنهم لم يلحقوا به، صحيح أنهم غنموا أشياءً في غزواتهم وسراياهم الا أنهم لم يغنموا سوى الإبل والأموال، كما هو الظاهر.

أما ما كان من أمر بني قينقاع فلم يذكروا أن لهم خيل اخذها الرسول ﷺ، وحتى إن كانت لديهم خيل فيحتمل أن الرسول ﷺ ردها عليهم بعد مطالبة ابن أُبي لهم بذلك، وذلك في قصة توضح مقدار تجاسر هذا المنافق على رسول الله ﷺ.

وكما ترى:

روى الواقدي: (فوثب إبن أُبَي إلى النبي ﷺ، فأدخل يده في جنب درع النبي ﷺ من خلفه فقال: يا محمد: أحسن في مواليَّ! فأقبل عليه النبي ﷺ غضبان، متغير الوجه.

فقال: «ويلك أرسلني!»

فقال: لا ارسلك حتى تحسن في موالي[1] أربع مائة دارع وثلثمائة حاسر، منعوني يوم الحدائق ويوم بعاث من الأحمر والأسود، تريد أن تحصدهم في غداة واحدة؟.

يامحمد! إني امرؤٌ أخشى الدوائر! قال رسول الله ﷺ: **«خلوهم، لعنهم الله، ولعنه معهم!»** فلما تكلم ابن أُبَي فيهم تركهم رسول الله ﷺ من القتل، وأمر بهم أن يُجلوا من المدينة)[2].

---

(١) وانا لا أدري أين كان المؤمنون في تلك الساعة ولماذا سكتوا أمام هذا الموقف ورسولهم يتعرض للأذى والاساءة وعلى يد رجل منافق معروف وأن الرسول غاضب منه منزعج منه أشد الانزعاج بحيث لعنه في آخر المطاف، وهو يدعوه لكي يرسله واللعين يخاطب الرسول ويحاوره ويطالبه ويفرض عليه، ولا نجد اثراً لمؤمن واحد يجيب أو يرد أو يعزله عن رسول الله ﷺ. وحتماً هذه القضيه استغرقت زمناً معتداً به فاين هم جميعاً ياترى، هل سطوة إبن ابُي في قلوبهم منعتهم من الحراك، أم لا أصل للرواية، أم كانوا يعرفون عدم رضى الرسول ﷺ بتدخلهم، أم انهم ارادوا لمثل هذا الموقف أن يحصل، أم لم يوجد منهم احد، أم هي الحرية التي أعطاهم رسول الله ﷺ، أم ماذا....؟ لا أدري والله العالم وحده.

(٢) المغازي للواقدي ١: ١٧٧، سبل الهدى والرشاد ٤: ١٨٠، البداية والنهاية ٤: ٥، سيرة ابن هشام ٢: ٥٦٣، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ٧.

وروى أيضاً: (حتى نزلوا على صلح رسول الله ﷺ وحكمه، وأموالهم لرسول الله ﷺ، فلما نزلوا وفتحوا حِصنهم، كان محمد بن مَسْلَمَة هو الذي أجلاهم وقبض أموالهم.

وأخذ رسول الله من سلاحهم ثلاث قسي، قوس تدعى الكتوم كسرت بأُحد، وقوس تدعى الروحاء، وقوس تدعى البيضاء، وأخذ درعين من سلاحهم، درعاً يقال لها الصُغديّة، واخرى فِضّة، وثلاثة أسياف، سيف يقال له قَلَعي، وسيف يقال له بتار، وسيف آخر، وثلاثة أرماح.

قال: ووجدوا في حصونهم سلاحاً كثيراً وآلة للصياغة، وكانوا صاغة)[1].

وماغنموه في ميادين الحروب ليس بشيء، إذ لم يغنموا منهم خيلاً، إذن علمت قريش من خلال حربها الاستطلاعية هذه بقيادة أبي سفيان، بوجود ثغرات لا تزال قائمة في جيش المدينة من الناحية العسكرية.

فشجعتهم لخوض حرب لاحقة مع المسلمين لعلها تحقق المطامح.

السبب السادس:

ومن الأسباب الهامة أيضاً هو التهديد الاقتصادي الدائم الذي تشعر به قريش وهذا التهديد اسمه الحصار الإقتصادي الذي كان يفرضه رسول الله ﷺ عليهم حيث قطع طريق مكة الشام عليهم بعد وقعة بدر.

وتملكهم الخوف بعدها أن يتعرضوا إلى ما تعرضت له قافلة قريش بقيادة أبي سفيان قبلها، فصاروا يبحثون لهم عن طريق آخر آمن وهو طريق مكة ـ العراق بعد أن حرمهم الرسول ﷺ وقطع عليهم طريق الشام فهو لم يعد آمنا للتجارة قط.

خاصة أن المسلمين خرجوا من بدر منتصرين وأصبحت الحالة

---

(١) المغازي للواقدي ١: ١٧٨ ـ ١٧٩، سبل الهدى والرشاد ٤: ١٨٠.

العدائية في ذروتها بين الطرفين، فلامانع من ابتزاز أي قافلة لقريش تأتي عن طريقهم إلى الشام بعد الذي كان منهم ببدر وما قبلها، ولِنرى كم كان الأمر شاقاً على قريش، وكم كانت تعاني منه، وكم كانت تسعى للبحث عن سبيل لتصريف بضاعتها والمجيء بتجارة وأرباح تقيم أودها، من خلال هذا الحوار التاريخي الذي وثقته مصادر التاريخ ومراجعه.

جاء في المغازي: (حدثني محمد بن الحسن بن أسامة بن زيد، عن أهله، قالوا: كانت قريش قد حذرت طريقَ الشام أن يسلكوها، وخافوا من رسول الله ﷺ وأصحابه، وكانوا قوماً تجاراً.

فقال صفوان بن أُمية: إن محمداً وأصحابه قد عوّروا علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، لايبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن في دارنا هذه، ما لنا بها نِفاق[1]، إنما نـزلناها على التجارة، إلى الشام في الصيف وفي الشتاء إلى أرض الحبشة.

قال له الأسود بن المطلب: فَنكّب[2] عن الساحل، وخذ طريق العراق.

قال صفوان: لست بها عارفاً.

قال أبو زمعة: فأنا ادلُّك على أخبر دليل يسلكها وهو مغمض العين ان شاء الله.

قال: من هو؟

قال: فرات بن حيان العجلي [3]، قد دوخها وسلكها.

---

(١) نفقة.

(٢) ابتعد عنه.

(٣) انه من بكر بن وائل كما في السيرة النبوية.

قال صفوان: فذلك والله! فارسل إلى الفرات، فجاءه.

فقال: إني أُريد الشام وقد عوّر علينا محمد متجرنا لأن طريق عيراتنا عليه، فأردت طريق العراق.

قال فرات: فأنا أسلك بك في طريق العراق، ليس يطأها أحد من أصحاب محمد ، إنما هي أرض نجد وفياف.

قال صفوان: فهذه حاجتي، أما الفيافي فنحن شاتون وحاجتنا إلى الماء اليوم قليل. فتجهز صفوان بن أمية، وأرسل مع أبي زَمعة ثلثمائة مثقال ذهب ونُقَر[1] فضة، وبعث معه رجالاً من قريش ببضائع، وخرج صفوان بمال كثير، نُقَر فضّة وآنية فضّة وزن ثلاثين الف درهم، وخرجوا على ذات عِرق).

إلى ان قال مؤكداً سماع الرسول محمد ﷺ خبر القافلة، وخط مسيرها، وماذا تحمل (فأرسل رسول الله ﷺ زيد بن الحارثة في مائة راكب، فاعترضوا لها فأصابوا العير. وأفلت أعيان القوم وأسروا رجلاً أو رجلين، وقَدِموا بالعِير على النبي ﷺ فخمسها.....الخ)[2].

وهذه صخرة أُخرى يضعها الرسول محمد ﷺ في طريق قريش تعرقل على رَحلِهم المسير، وتفزعهم من مستقبل يملك محمد النبي ﷺ فيه أسباب الهيمنة على طرق التجارة، والإقتصاد، فيمكنه ذلك من التحكم بالحالة الإقتصادية، ويمكنه أن يفرض عليهم شروطه.

ثمّ يذيقهم تبعات أعمالهم السابقة بحق المؤمنين ـ من تعذيبهم المؤمنين، وتجويعهم، وقتلهم، ومطاردة الأحياء منهم، وتطويقهم بطوق الارهاب والسجن، وسلب الحريات، والتهجير، ومصادرة الأموال، وتهديم البيوت، وغير هذا الكثير ـ جزاءاً وفاقاً.

---

(١) النُقر: القطعة المذابه من الذهب والفضة.

(٢) المغازي للواقدي١: ١٩٧سبل الهدى والرشاد ٦: ٣٢، انظر عيون الأثر١: ٤٠٢ ـ ٤٠.

إنه المال والإقتصاد، إنه كل شيء بالنسبة إلى قريش، فمحمد الذي تعرض بالأمس إلى عير أبي سفيان وقافلته، وتعرض اليوم لصفوان بن أمية وتجارته، سيتعرض غداً لا محالة لكل من يقود رحلة يريد التجارة أو السفر ولو كان معه بعير واحد، إنه تهديدٌ خطيرٌ حقاً!!.

السبب السابع:

موادعة بعض القبائل للرسول وهذا نستكشفه من نفس الرواية السابقة: (وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه)، وربما كانت له أحلاف مع البعض الآخر.

وقد أسلم في هذه الفترة رجال يهم أمرهم أمر قريش، كاسلام حُوَيِّصة بن مسعود، وكان من أكابر اليهود، في قصة يذكرها أرباب التاريخ [1]، واسلم إبن حيان الدليل[2].

واسلم دعثور بن الحارث بن محارب[3] وقد خرج للرسول محارباً له في بني ثعلبة وغطفان.

السبب الثامن:

وجود الأسرى في أيدي المسلمين، فقد أُسر من المشركين يوم بدر سبعون شخصاً، وهذا يعني أن رجال قريش بقوا في ذل الأسر، وأن قريش غير قادرة على تخليص رجالها، ولو أن البعض فدى نفسه، وآخر مَنَّ عليه

---

(١) المغازي ١: ١٩٨، سبل الهدى والرشاد ٦: ٣٢.

(٢) أسد الغابة ٢: ٦٦ ـ ٦٧، البحار ٢٠: ١٢، وفي تاريخ الطبري ٢: ١٨٠ ـ ١٨١، البداية والنهاية ٤: ١٠، سيرة ابن هشام ٢: ٥٧٠ ـ ٥٧١، عيون الأثر ١: ٢٩٧ ،السيرة النبوية لابن هشام ٣: ١٦، بدل خويصة بن مسعود، حويصة بن مسعود.

(٣) وقد اختُلف في اسمه وقبيلته.

الرسول الأكرم ﷺ، وثالث أسلم إلا أنه بقي في يد القوم ما تأسف قريش لبقاءه، وتسعى لإطلاقه.

ثم هذا العدد، أو الأقل منه يمثل طاقة قتالية ووجوداً عدائياً يؤثر في موازين الأشياء.

ويضاف إلى هذا أن هؤلاء لهم عوائل وأبناء وعشائر وبيوت، وهؤلاء لا يخلون من حالة التشنج من أسر المسلمين لأبناءهم، ولا يغفرون لقريش سكوتهم على ذلك الأسر، والأسرى عادة يعتبرون مادة تذكير ببداية الأشياء، وإدامة الحسرة في النفوس، وعاملاً في تحريكها لأخذ الثأر.

ومن أسراهم في بدر كما في سيرة ابن هشام:

قال ابن إسحاق: وأُسِر من المشركين من قريش يوم بدر، من بني هاشم بن عبد مَناف: عَقِيل بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم؛ ونوفل بن الحارث بن عبد المطّلب بن هاشم.

ومن بني المطّلب بن عبد مَناف: السائب بن عُبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطّلب؛ ونعمان بن عمرو بن علقمة بن المطّلب. رجلان.

ومن بني عبد شمس بن عبد مَناف: عمرو بن أبي سفيان بن حرب بن أُميّة بن عبد شمس؛ والحارث بن أبي وَجْزَة بن أبي عمرو بن أُميّة بن عبد شمس، ويقال: ابن أبي وحْرة، فيما قال ابن هشام.

قال ابن إسحاق: وأبو العاص بن الربيع بن عبد العُزّى بن عبد شمس، وأبو العاص بن نوفل بن عبد شمس.

ومن حلفائهم: أبو ريشة بن أبي عمرو؛ وعمرو بن الأزرق؛ وعُقبة بن عبد الحارث بن الحضرمي.سبعة نفر.

ومن بني نوفل بن عبد مَناف: عدِي بن الخيار بن عدِي بن نوفل؛

وعثمان بن عبد شمس بن أخي غَزْوان بن جابر، حليف لهم من بني مازن بن منصور؛ أبو ثور، حليف لهم. ثلاثة نفر.

ومن بني عبد الدار بن قُصَي: أبو عَزيز بن عُمير بن هاشم بن عبد مَناف بن عبد الدار، والأسود بن عامر،حليف لهم. ويقولون: نحن بنو الأسود بن عامر بن عمرو بن الحارث بن السبّاق. رجلان.

ومن بني أسد بن عبد العُزَّي بن قُصي: السائب بن أبي حُبَيش بن المطّلب بن أسد، والحُويرث بن عبّاد بن عثمان بن أسد.

قال ابن هشام: هو الحارث بن عئذ بن عثمان بن أسد.

قال ابن إسحاق: وسالم بن شمّاخ، حليف لهم. ثلاثة نفر.

ومن بني مخزوم بن يقظة بن مُرَّة: خالد بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم؛ وأُميَّة بن أبي حُذيفة بن المغيرة، والوليد بن الوليد بن المغيرة؛ وعثمان بن عبد الله بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وصَيفي بن أبي رفاعة بن عابد بن عبد الله.

وأبو المنذر بن أبي رفاعة بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وأبو عطاء عبد الله بن أبي السائب بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، والمطّلب بن حنطب بن الحارث بن عُبيد بن عمر بن مخزوم، وخالد بن الأعلم، حليف لهم، وهو كان ـ فيما يذكرون ـ أول من ولّى فاراً منهزماً، وهو الذي يقول:

ولسنا على الأدبار تَدْمَى كُلومنا ... ولكنْ على أقْدامِنا يقطُرُ الدَّمُ

تسعة نفر)[1]

فهل ترى في هذه الأسباب إلاّ سعياً من قريش؛ لإيقاع الحرب حرب

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٥٣٢ ـ ٥٣٤، وانظر سبل الهدى والرشاد ٤: ٧٧ ـ ٧٨.

الثأر مع الرسول ﷺ وصحبه الابرار، وفعلاً وقعت أُحد وواجههم الرسول الأعظم في حديث يطول، سيأتي بعضه في بعض المباحث ان شاء الله.

إذن كان هناك ظلمٌ للرسول ﷺ، وكان هناك اعتداء، وكانت هناك فتنة يراد بها ارجاع المؤمنين إلى آلهة قريش، هبل، واللاّت، وعزى، ومناة، والثلثمائة وستين الأُخرى، وهناك إفساد في الأرض فقد رأينا أن قريش تركت إبلها وخيولها في أراضي المسلمين بالمدينة تريد استفزازهم حتى يخرجوا لها، وهناك منافقون يريدون الغائلة برسول الله ﷺ والطعن به.

فالملاكات جاهزة والحرب تبعاً لها واقعة ولا فرض آخر غير هذا، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

غزوة حمراء الأسد

هي الغزوة التي قادها رسول الله ﷺ أعقاب أُحد مباشرة رغم كثرة القتلى والشهداء وكثرة الجرحى في جيش رسول الله، وهي الغزوة التي طارد من خلالها رسول الله ﷺ جيش الشرك.

أسباب الغزوة

السبب الأول:

إستشراف الرسول ﷺ للحدث وآثاره، باعتباره ﷺ قائداً مدركاً لما يمكن أن يفكر به عدوه، وأول ما يتبادر إلى الذهن في هذا المجال من جهة قريش، أمران:

أولهما: نظري، وهو إحتمال أنها ـ أي قريش ـ تنتهز فرصة كون

---

(١) الشعراء: ٢٢٧.

المسلمين منشغلين بجرحاهم، ومنشغلين بدفن أو حمل قتلاهم، وتضميد أنفسهم وجراحهم، والمدينة لم تعد بعيدة على قريش. فربما فكرت قريش بالغارة على المدينة، وحمل نساءها وصبيانها، والعبث بكل شؤونها.

سيما أن المنافقين لا زالوا فيها، وهم بالاضافة إلى حقدهم على رسول الله ﷺ فإنهم ازدادوا كراهية له؛ لأنه ﷺ لم يعمل برأي (إبن أبي) في اسلوب المواجهة في أحد، وعمل بآراء الأخرين.

ثم جاءت كتيبة يهودية لنصرة حليفهم (إبن أبي) يعني في أُحُد، واستغنى عنهم الرسول قائلاً ﷺ: «لا نستعين بالمشركين على المشركين».

أو «باليهود على المشركين»[1].

فالمنافقون إذن لا زالوا على الضد من خط الرسول الأعظم ﷺ ويؤيد هذا تشفيهم برسول الله ﷺ والمسلمين عندما رجعوا.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[3]....الخ.

إذن على الصعيد النظري أو التصوري يمكن أن يتصور رسول الله ﷺ والمسلمون أن المشركين قد يُداهمونهم ويتعرضون لهم في غضون تلك

---

(١) انظر البداية والنهاية ٦: ١٨٢، سبل الهدى والرشاد ٩: ١٢١ و ج ١٠: ٤١٩.

(٢) آل عمران: ١٥٦.

(٣) آل عمران: ١٦٨.

الحال، ولربما لم يقفل المشركون راجعين الآ إلى مكان آخر قريب من المدينة دون مكة؛ لكي يلموا جراحهم وألويتهم المحطمة، ويغيروا على المدينة وهذا احتمال راجح.

خصوصاً أن الذي أثنى عزمهم عن ذلك صفوان بن أُمية في حوارهم التلاومي هذا، قائلاً لهم: (ياقوم، لاتفعلوا فإن القوم قد حربوا وأخاف أن يجتمع عليكم من تخلف من الخزرج، فارجعوا والدولة لكم فإني لاآمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم.

فقال رسول الله ﷺ: **«أرشدهم صفوان وما كان برشيد والذي نفسي بيده لقد سُومت لهم الحجارة ولو رجعوا لكان كامس الذاهب»**[(١)].

ولكنه يبقى احترازاً نظرياً افتراضياً يدل على أن القائد العظيم رسول الله ﷺ يغلق كافة الاحتمالات الواردة، ويعالج كل الموارد المفترضة. وهذه النقطة من جمله تلك الأمور.

وهو كون قريش تفكر الأن في مداهمة المدينة، وهناك أُمور تساعدها على هذه المداهمة، أو الإغارة والدليل أن الأنصار من الأوس والخزرج باتوا ليلة الرجوع من أُحُد على باب المسجد النبوي الشريف، خوفاً على رسول الله ﷺ أن يكر عليه القوم وعلى المدينة ويقضوا عليها وعليه ﷺ.

عن المغازي: (وكانت وجوه الخزرج والأوس في المسجد على باب النبي ﷺ يحرسونه فَرَقاً من قريش أن تكرّ)[(٢)].

وقد كان بلال ﷺ بالخصوص مرابطاً على باب بيت النبي ﷺ حتى صلاة الصبح.

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ٤: ٣٠٨، البداية والنهاية ٤: ٥٨، سيرة ابن هشام ٣: ٦١٧، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ١٠٢.

(٢) المغازي١: ٢٤٩.

وعنه أيضاً: (وجلس بلال عند بابه حتى ذهب ثلث الليل ثم ناداه: الصلاة يارسول الله ! فخرج رسول الله ﷺ وقد كان نائماً) [١].

ثانيهما: عملي، اي أنه ليس له منشأ واقعي على صعيد التفكير به فقط، كما في الأمر الأول، إنما هناك ما يصدقه على أرض الواقع من مصاديق عملية حيث سمع الرسول الأعظم ﷺ تصريحات قريش اللاهبة، وأنها تريد الرجوع لغزو المدينة وإيقاع أكبر البلاء بها، حتى تبلغ ما لم تبلغه في أُحُد، وهو واقع في مركز أهدافها، وحقيق غايتها.

إنها تريد أن تستأصل النبي ﷺ وتهلك أتباعه، وقد عادت ولم تحقق ما جاءت من أجله أو سعت إليه خلال هذه المدة المنصرمة، مع كونها هيأت الجيوش وأتت بالنساء، وامتلأت حباً للثأر حتى الهامة.

وقد رجعت الآن ومحمد ﷺ راس القضية وأُس المشكلة ـ في نظرهم ـ حي يرزق، وزعيم يحكم، ومستقبل لا يُعلم كم يكون بنفع محمد ﷺ، ولا يعلم مداه إلاّ الله.

فبدأت من هنا الملاومة فيما بينهم، والإستهانة بما كان منهم في يوم أحد، حيث رجعوا دون الغاية.

فكانت كلماتهم مطابقة لنواياهم، وجاءت عباثرهم موافقة لضغونهم ودليل آخر على أنهم لا زالوا موتورين، وانهم لم يلخذوا بثأرهم في أُحُد لرجالهم في بدر، وجاءت دليلاً آخر على أنهم لم يكونوا غالبين أو منتصرين.

ففي كتاب سبل الهدى والرشاد عن موسى بن عقبة، ومحمد بن عمر الأسلمي: (السبب أن رسول الله ﷺ بلغه أن أبا سفيان وأكثر من معه يريدون أن يرجعوا ليستأصلوا من بقي من أصحاب رسول الله ﷺ.

---

(١) نفس المصدر١:٢٤٨.

فحينئذ حثّ رسول الله ﷺ الناس على الخروج في طلب العدو.

ويؤيد هذا ما رواه الفريابي والنسائي والطبراني بسند صحيح، عن ابن عباس قال: لما رجع المشركون عن أُحُد قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، بئسما صنعتم، ارجعوا.

فسمع بذلك رسول الله ﷺ، فندب المسلين، فانتدبوا)[١].

ثم ينقل لنا صاحب الكتاب نفس الكتاب السابق ما يؤيد هذا: (فأتى عبد الله بن عمرو بن عوف المزني يطلب النبي ﷺ فلما خرج قام اليه وأخبره أنه أقبل من أهلهِ، حتى إذا كان بملل[٢] إذا قريش قد نزلوا، فسمعَ أبا سفيان وأصحابه يقولون: ما صنعتم شيئاً أصبتم شوكة القوم وحَدّهم ثم تركتموهم ولم تبيدوهم، فقد بقي فيهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا نستاصل من بقي)[٣].

وهذا محرك قوي يجعل الرسول الأكرم ﷺ يعجل في الأهبة غاية التعجيل، ويجد في طلب القوم قبل أن يحطوا ركابهم في المدينة، وحينها يصعب على المسلمين الرد، فبادرهم ﷺ وخرج إلَيهم.

---

(١) سبيل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ٤: ٣٠٨، وانظر فتح الباري ٨: ١٧٢، السنن الكبرى ٦: ٣١٧، تفسير ابن كثير ١: ٤٣٧، الدر المنثور ٢: ١٠١، فتح القدير ١: ٤٠١، مجمع الزوائد للهيثمي ٦: ١٢١، المعجم الكبير للطبراني ١١: ١٩٧، لباب النقول: ٥٠، تاريخ مدينة دمشق ١١: ٢٢١.

(٢) ملل: بوزن جمل ـ موضع بين مكة والمدينة، على سبعة عشر ميلاً من المدينة، النهاية في غريب الحديث ٤: ٣٦٢، وكذا لسان العرب ١١: ٦٣٢.

(٣) سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٠٨، انظر البداية والنهاية ٤: ٥٦، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ٩٧.

السبب الثاني:

إختبار رسول الله لأصحابه، في نفاذ درس أُحُد في النفس وعلمه، فقد كانت معصية الرسول الأعظم هناك أم المشاكل، فهل يخرجون الآن وهم مثخنون بالجراح فيكونون في طاعة رسول الله ﷺ رغم الحسرة والآه، أم لا؟

فقد عصوا الرسول وهم سالمون، فهل يطيعونه وهم في أشد الأذى ونزف الكلوم، وقد زحفوا نحو الدنيا وهم منتصرون، فهل يزحفون نحو الأخرة وهم بالجراح مثخنون، وزحفوا نحو الغنائم والجيش مولٍ هارب مذعور، قد قُتِل أصحابُ الألوية فيه شر قتلة، فهل يزحفون نحوَ المكارم وهم الفاقدون لبعض أصحاب الرايات، وبعض رجال الكريهة، كحمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير وآخرين.

إن أعظم إختبار يمكن أن يحصل عليه النبي الأكرم ﷺ عملياً في كون أصحابه مستفيدين مما كان أو لا، هو أن يخوض بهم حرباً مشروعة ضد عدوهم وهو يعلم ﷺ وهم يعلمون أيضاً أن عدوهم قادر على المواجهة، ونفسه عامرة بالحصيلة، وإن كانت قليلة لا يعد معها منتصراً.

بل قد يكون الأمر على خلاف ذلك، وهم جرحى، بما فيهم رسول الله ﷺ ورغم هذا كله ناداهم الرسول ﷺ للخروج إلى العدو المشرك المعتدي.

ففي المغازي: (فلما انصرف[1] رسول الله ﷺ من الصبح أمر بلالاً أن ينادي: إن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم، ولايخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس)[2].

---

(١) يعني من المسجد.

(٢) المغازي ١: ٣٣٤، شرح نهج البلاغة ١٥: ٥٥، الطبقات الكبرى ٢: ٤٩، سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٠٨.

وقد جاء في رواية أخرى: (فأمر رسول الله منادياً ينادي: **يا معشر المهاجرين والأنصار، من كانت به جراحة فليخرج، ومن لم تكن به جراحة فليقم**)[1].

وإن صحت رواية المناداة والخروج فقط في الجرحى ففي ذلك معنى بليغ لعله هو مراد الرسول ﷺ: أن ياقريش لم أجئكم إلاّ بالجرحى من قومي وجيشي وهم قلة مجهدون، وكلوم بعضهم مازالت شاخبةً، ولدينا العزيمة بأن نلحق بكم وننـزل السيوف فوق الهام، والرماح نضعها وسط الصدور، وعزيمتنا كما ترون نخرج مع الألم والكُلم والقلة، فاي همة لدينا، وأي نفوس بين جنحينا، ومن تكونون إذا فررتم منا.

ومسألة أُخرى مهمة في إختيار الجرحى للقتال، هي كون الجريح أشد مضاءاً في طلب الثار بسبب كونه قد نالوا منه، والنيل من الإنسان دون استرجاعه للحق المستلب والرد التام على المعتدي، يودع في نفسه الغيض والغضب ولا يطفئ منه ذلك إلا باسترجاع حقه، فكان إخراجهم بلحاظ هذه المسألة ذكيا موفقاً.

فزرع هذا الأمر الرعب في قريش، وزرع الرغبة عندهم في ضرورة الفرار من المسلمين، وجعلهم يحسبون لهذا الموقف حساباً، فَبدل أن يذهبوا وهم مُتبجحون بنصرٍ مزعوم، سيذهبون فراراً رغم الأنوف.

وإذا كانوا يذهبون ليملئوا الأسماع بأنهم ثأروا من محمد ﷺ وصحبه فسوف تلاحقهم الدعاية بأنهم لم يثبتوا له في حمراء الأسد، ولو كان محمدً ﷺ منهزماً لما لحق بهم يريد مناجزتهم وبجنده الجرحى لاغير، أو بجيشه المشارك في حرب أُحد ـ كما هي الرواية الأولى ـ لا غير.

---

(١) تفسير القمي ١: ١٢٥، بحار الأنوار ٢٠: ٦٤، تفسير الصافي ١: ٤٠ و ٤٩٦، تفسير نور الثقلين ١: ٤١٠ و ٥٤٦، تفسير كنز الدقائق ٢: ٢٣٩ و ٢٨٤.

وإذا علمنا أن الجرحى كانوا سبعين نفراً فهذا يعني أن النبي الزكي ﷺ لم يخرج بغير هذا العدد على رواية «من كانت به جراحة فليخرج، ومن لم تكن به جراحة فليقم».

فكانت استجابتهم الباهرة لرسول الله ﷺ تدل على نصرتهم لله ورسوله، واستعدادهم لملاحقة العدو، وتدل على أنهم بلغوا الذروة في الإستفادة من عظات أُحُد.

لأن جيشاً من هذا النوع، وبذلك الظرف يصعب توجيهه لمقاتلة عدوه، ويصعب أن تُضمن الطاعة منه، فهو يريد الخلود إلى الراحة ومداواة الجراح، واستعادة شيء من الجهد المفقود، والأذى المتصاعد في النفس، حتى يكون فيما بعد على استعداد للغزو.

ورغم هذا الإفتراض أطاعوا نبيهم ﷺ وذهبوا لتحقيق غايته ومناه واستحقوا بذلك مدح الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وكما ترى أن الآية تفيض عليهم ببشارات الأجر العظيم وزيادة الإيمان والفضل والنعمة من الله؛ لأن الله ذو فضل عظيم جزاءاً لطاعتهم وإيمانهم الراسخ بالله بقولهم حسبنا الله ونعم الوكيل، وهذا يعني أن ما أراده الرسول ﷺ قد حصل وفي أمثل حالة، وأجمل صورة وأبهاها، بعد أن أسرعوا في تلبية نداء رسول الله ﷺ أي إسراع.

---

(١) آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٤.

روى الواقدي: (فخرج سعد بن معاذ راجعاً إلى داره يأمر قومه بالمسير. قال: والجراح في الناس فاشية، عامة بني الأشهل جريحٌ، بل كلهم، فجاء سعد بن معاذ فقال: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تطلبوا عدوّكم.

قال: يقول أُسيد بن حُضير، وبه سبعة جراحات وهو يريد أن يداويها: سمعاً وطاعة لله ورسوله! فأخذ سلاحه ولم يعرج على دواء جراحه، ولحق برسول الله ﷺ.

وجاء سعد بن عُبادة قَومَه بني ساعدة فأمرهم بالمسير، فتلبسوا ولحقوا، وجاء أبو قتادة أهل خُربَى، وهم يداوون الجراح، فقال: هذا منادي رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم، فوثبوا على سلاحهم وماعرّجوا على جراحاتهم. فخرج من بني سَلِمة أربعون جريحاً...حتى وافوا النبي ﷺ بئر أبي عِنَبة إلى رأس الثنية ـ الطريق الأولى يومئذ ـ عليهم السلاح قد صفوا لرسول الله ﷺ.

فلما نظر رسول الله ﷺ اليهم والجراح فاشية قال ﷺ: «اللهم ارحَم بني سَلِمَة...الخ»[1].

السبب الثالث:

أراد الرسول ﷺ أن يمحي ما يمكن تسميته بظلال الهزيمة، أو ما يحتمل أن يكون في آراء بعضهم أنهم هزموا في أُحد ـ وإن لم يكن الأمر كذلك في الواقع ـ فتسكن في قلوبهم مشاعر الخيبة، ويؤز قلوبهم أسى كبير، قد توهن هذه المشاعر قواهم وتفت عزائمهم، فنهّضهم لمطاردة العدو.

ومعلوم أن الذي يطارد عدوه يفترض أن يكون[2] مهزوماً منه، وإنما

---

(١) المغازي ١: ٣٣٥، انظر سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٠٨.

(٢) ذلك العدو.

هو الغالب المنتصر، وأن المغلوب لا يفكر بحال في أن يطارد عدوه المنتصر لعدم القدرة وخشية التدمير التام، والإتيان على ما بقي مَن في الجيش، فمجرد أن يُثَبِّتَ الرسول ﷺ عندهم هذا الشعور، فإن له بالغ الأثر على نفوسهم التي تآكلت بفعل النكسة في نهاية حرب أُحُد. وإن كانوا منتصرين على الصعيد الستراتيجي.

ومن هنا ندرك عظمة شخصية الرسول ﷺ القيادية، ولياقته العالية في تلافي آثار تلك النكسة، ورفع بقايا تلك النكبة التي كانوا يعتقدون.

والطريف أن أبا سفيان وزمرته فكروا بنفس الطريقة وهموا بالرجوع إلى رسول الله ﷺ وإن كان تفكيرهم من منظار آخر، وهو القضاء على الرسول ومن بقي معه، ولكن في النتيجة فإن الغاية واحدة عند الطرفين كما يبدو.

ويمكن أن يكشف ذلك (مرة أُخرى) أن أُحد لا هزيمة فيها ولا نصر، ولا غالب ولا مغلوب. إذ أن الطرفين تقاسموا كلتا الحالتين (الهزيمة والنصر). وإن كنّا نتحفّظ على إطلاق الهزيمة على جيش الرسول ﷺ لا لقداسة الجيش وسوء اللفظة، وإنما لفقدانها الرصيد من الجهة الواقعية[1].

ومتحفظون أيضاً: على اطلاق الإنتصار لجيش أبي سفيان بنفس الملاك.

السبب الرابع:

لو ذهبت قريش بدعاية كونها هَزَمت جيش التوحيد وقتلت بعض صناديده، إذاً لأقامت الدنيا وأقعدتها، ولملئت الآفاق بتلك الدعايات.

ومعروف قصدها في ذلك فقد أوضحناه مرارا.

---

(١) وسنأتي على مناقشة ذلك إن شاء الله تعالى.

ومعلوم كم سوف يكون له تأثير على نفوس المؤمنين، خاصة جديدي العهد بالايمان، ومعلوم كم سوف يكون مشجعاً لأعداء الإسلام في الإستعداد لضربه؛ لأنه بات ضعيفاً منهكاً متعبا.

ومعلوم أيضاً كم سوف تُساهم هذه الدعاية في غسل آثار هزيمة المشركين في بدر وتمنحهم هيبة الغالب الجسور والأسد الهصور، فتعيد قريش هيبتها المفقودة وسؤددها الضائع.

بينما يذهب زهو الإنتصار من أيدي المؤمنين في بدر ويجعلهم أشد ما يكون في الضعف لما تحمل لهم الركبان من أخبار قريش وبوقها الذائع الصيت، والرسول ﷺ وجيشه يندبون سبعين قتيلاً من الكرام العظام، ويضمدون سبعين جريحاً أو أكثر، ويكفكفون دموع النكسة.

فكي يجعل الرسول الأكرم ﷺ تلك الفاعلية القريشية ضعيفة، وتلك الدعاية الباطلة واهية، ولا يصيب جيشه ما أصاب جيش المشركين بعد هزيمتهم في بدر، جعل يتابعهم إثباتاً للتحدي، ودلالة على الثبات، ومضاء العزيمة، والقدرة على إثبات الوجود، والسعي نحو مواجهة قريش التي تدعي النصر، والأهم من ذلك محاصرة نواياها الخبيثه كما قلنا.

إن مفردات مثل هجوم المسلمين، وثباتهم، وصبرهم رغم شدائد الحرب، والأهوال التي أصابتهم في أُحُد، وكونهم قادمين قاصدين القتال، إنها مفردات تذهل قريش التي تريد أن تزرع الإهتزاز في جيش الرسول ﷺ، وتريد أن ترعبه، وتنهي آماله في النيل من ظالميه (قريش وأحابيشها وغيرهم)، وآماله في تطبيق إرادة السلام الإلهي على البسيطة.

وبالتالي يتحول هذا الأُسلوب إلى الضد حيث هم الأجدر باليأس، وتحطم المعنويات، إنها سياسة الرسول المصطفى ﷺ الظريفة المحكمة.

أما لماذا قال الرسول ﷺ على صفوان: «أرشدهم صفوان وما كان

برشيد». ففي الواقع أن المسلمين سوف لن يكونوا بهذا المقدار من الضعف في المواجهة التي يريدها أبو سفيان في رجوعه إلى المدينة، صحيح أن جيشهم متعب، وقتلاهم كثير؛ لكنه ليس كثيراً جداً، إنهم (٧٠) شهيداً وجرحاهم (٧٠)جريحاً، وهذا معناه أن بقية الجيش جاهزة للقتال.

ثم إن الذي أصاب جيش أبي سفيان كان أمراً عظيماً فقد إنكسر لواؤهم ثلاث مرات، وقتل (٢٢) رجلاً منهم، منهم قادة الألوية من بني عبد الدار، وأصابتهم جروح وقروح.

قال الله تعالى عنها في القران الكريم: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾[1] فهي إذن ليست قليلة.

هذا بالإضافة إلى أن المؤمنين كانوا يقاتلون خارج المدينة بعدة أميال، أما الآن فداخلها، أو قريباً منها، وتدفعهم الحفيظة والثأر للقتلى. وهذا كله بالإضافة إلى أنهم لولا تلك الثغرة التي انفتحت عليهم من جهة الجبل حيث نزل الرماة، لما كان شيطان قريش يتمكن منهم، فالخلل الحاصل اذاً خلل عسكري فني لا غير، وإلاّ فهم أهلُ شجاعة، ومروءة وحمى.

كما قال أبو سفيان عنهم في لقاءه بسلام بن مشكم قبيل غزوة السويق:

تأمّل فان القوم سرّ[2] وانهم   صريح لؤي لاشماطيط جُرْهُم[3]

إن كان يقصد أصحاب محمد طبعاً. ولم يكن يقصد قومه بذلك المدح.

---

(١) النساء: ١٠٤.

(٢) سر القوم خالصهم، والشماطيط: المختلطون.

(٣) البداية والنهاية ٣: ٤١٦، سيرة ابن هشام ٢: ٥٦٠، السيرة النبوية لابن كثير ٢: ٥٤١.

بل كما وصفهم له معبد ابن أبي معبد الخزاعي[1]:

كادت تُهَدُّ من الأصوات راحلتي ... اذا سالت الأرض بالجرد الأبابيل
تردى بأسدٍ كرامٍ لاتنابلة ... عند اللقاء ولا ميل معازيل
فظلت عدواً أظن الأرض مائلة ... لما سمعوا برئيس غير مخذول
وقلت ويل لابن حرب من لقائكم ... إذا تغطمطت البطحاء بالخيل
إني نذير لأهل البسل ضاحيه ... لكل ذي إربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وخش تنابلة ... وليس يوصف ما أنذرت بالقيل[2]

هذا كله مع عدم نسيان ماهيأ لهم الغيب من عقوبه حاضرة فقد سُومت لهم حجارة الإبادة، وذلك بتصريح النبي الأكرم ﷺ كما في النص السابق.

أسباب سرية أبي سلمة بن عبد الأسد إلى قَطَن إلى بني أسد

لقد ذكرنا فيما سبق من غزوات الرسول الأكرم أنه ﷺ عندما كان يعرف أن قواتاً عسكرية تريد قتاله وقد تجمعت تشكّل جيشاً مستعداً وجحفلاً مقاتلاً يلبس لها لامة حربه ويتقلد لها سيفه ويندب أصحابه، ويُصعق القوم بزئير الأسود من حولهم، تجوب الثنايا، وتحوم بالمنايا.

وقد كان السبب في ما ذكرناه هو إرادتهم القتال مع تهيئة مقدماته

(١) الرجل الذي اخبر أبا سفيان باستعداد النبي وجيشة لملاحقة قريش.

(٢) تفسير مجمع البيان ٢: ٤٤٨، شرح الأخبار ١: ٢٨٤، بحار الأنوار ٢٠: ٤٠ ـ ٤١، جامع البيان ٤: ٢٣٩، تاريخ الطبري ٢: ٢١٢ ـ ٢١٣، سيرة ابن هشام ٣: ٦١٧ ، تفسير القرطبي ٤: ٢٧٨، تفسير ابن كثير ١: ٤٣٩، البداية والنهاية ٤: ٥٧، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ٩٩.

وتوفير مستلزماته، مما يوحي بل يؤكد أن القوم محاربون وللفرصة منتظرون.

وكان ذلك واضحاً جلياً في غزوة قرارة الكدر، وغزوة غطفان بذي أمر، وغزوة سُليم ببحران بناحية الفرع. وأوضح منه وأجلى في بدر، وأُحُد، والسويق وهؤلاء بنو أسد قد وقعوا بنفس المستنقع الذي برك به اخوانهم من قريش وبنو سُليم وغطفان ومحارب، فتجمعوا لملاقاة الرسول ﷺ ومحاولة استغفاله في وطنه وبين جنده.

لكنهم لم يفلحوا هم الآخرون، فكان رسول الله ﷺ أسرع لهم من البرق الخاطف وقد نزل بديارهم، ليس بنفسه الشريفة، وإنما بمبعوثه الشجاع الجريح في أُحُد والراجع تواً من حمراء الأسد، (أبو سلمة بن عبد الأسد) عاقداً له اللواء، معللاً له الذهاب إلى ما ذهبنا اليه من تحليل في (لماذا الرد قبل الفعل) في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

أن قال ﷺ له: «**سر حتى ترد أرض بني أسد، فأغِر عليهم قبل أن تلاقي عليك جوعهم**»[1] فليست المصلحة ـ كما أسلفنا ـ في تأخير الزحف اليهم، بل المصلحة والبركة هو لقاؤهم قبل تلاقي جوعهم على المسلمين. ثم (أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خير)[2].

فعلى أية حال، إنهم قد بدأوا العدوان، وكان حقاً على النبي الأشرف ﷺ أن يتصدى له، ويحبطه وهكذا لم يتخلف الرسول ﷺ عن الأمر بالخروج، ولم يتخلف المسلمون بتلبية ذلك الأمر.....(فخرج معه[3] في تلك السرية خمسون ومائة)[4].

---

(١) المغازي ١: ٣٤١، تاريخ مدينة دمشق ٢٥: ١٥١، سبل الهدى والرشاد ٦: ٣٤.

(٢) نفس المصادر.

(٣) يعني مع أبي سلمة بن عبد الأسد.

(٤) المغازي ١: ٣٤١، تاريخ مدينة دمشق ٢٥: ١٥١، سبل الهدى والرشاد ٦: ٣٤.

وهكذا يقضي الرسول ﷺ على الأفكار التي خلفتها معركة أُحُد عند الصحابة، وعند العرب (وهذه السرية تشترك في هذه النقطة مع غزوة حمراء الأسد وبنفس الغاية).

فلقد تركت معركة أُحُد وبشكل من الأشكال فهماً سلبياً، خاصة في نفوس من يريد الكيد ويضمر العداء لرسول الله ﷺ فجاءت هذه السرية كأختها حمراء الأسد؛ لتبرهن للملأ خلاف ما يعتقدون.

فليس أُحُد أكثر من كونها معركة حصل فيها خلل تعبوي، أو قل تَخلّي الرماة عن ما وضع لهم الرسول ﷺ من تكتيك عسكري رشيد ومحكم للغاية، فحصلت في نزولهم وتحركهم من الجبل الثغرة القاتلة، التي اندفع من خلالها خالد بن الوليد ليعيد إلى قريش خيالها الأسود، ومغامرتها الرعناء، ولوائها المنكس ـ بعد أن كان العدو تحت حوافر الخيول ـ مولّية هاربة.

إن الإنقلاب الذي حصل في أُحُد ليس أكثر من استثمار فرصة، لولاها لبقي التاريخ يصدح ليل نهار بمآثر المسلمين الخالدة، وبالنصر العسكري ـ على صعيد الميدان القتالي ـ الذي لم يأتِ مثيله، والذي لو حصل لكان أكثر من بدر أضعافاً مضاعفة من جهة الأهمية، ومن الجهة الستراتيجية.

لكنه حصل الذي حصل وهذا بمجرده لا يعني الشيء الكثير إذا ما لحظنا فرار القوم من المسلمين في أول الأمر.

فحتى لا يفكر أَحَدٌ في مثل ما فكرت به قريش عندما أرادت الرجوع متخيلة أن المسلمين أصابهم من الضعف بحيث لا يرُجى لهم من ورائه قيام، ولا يُلم بعده شعث، ولا يرتق معه فتق، بادرهم الرسول ﷺ في حمراء الأسد.

ولكي لا يفكر قوم كالذي فكر به بنو أسد من كون المسلمين أجهدهم القتال في أُحُد، واثخنتهم الجراح، فهم لا يقوون على مقاومة بني أسد، أرسل ﷺ لبني أسد وغزاهم في عقر دارهم، عن طريق سرية بعثها بنفسه الشريفة.

فبنو أسد لم يأتوا هنا بعنوان أن المسلمين أعداؤهم فقط، وإنما أعداء مهزومون، ضعفاء مقهورون، لايقدرون على دفع، ولا يثوب لهم جمع، وهذا أنكى لقلوب المسلمين وأقرح، فصار وجوب الرد عليهم أقوى وأحرى.

ولنستمع قصتهم وحوارهم في ما بينهم، لندرك أن الذي شخصناه صحيح كل الصحة: (والذي هاجه[١] أن رجلاً من طي قَدِم المدينة يُريد امرأة ذات رحم به من طيء متزوجة رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ.

فنزل على صِهره الذي هو من أصحاب رسول الله ﷺ فأخبره أن طُلَيحة وسَلَمَة ابني خويلد تركهما قد سارا في قومهما ومن أطاعهما بدعوتهما إلى حرب رسول الله ﷺ يريدون أن يدنوا للمدينه، وقالوا: نسير إلى محمد في عُقر داره، ونصيب من أطرافه.

فإن لهم سرحاً يرعى جوانب المدينة، ونخرج على متون الخيل، فقد أربعنا خيلنا، ونخرج على النجائب المخبورة، فإن أصبنا نهباً لم نُدْرَك وإن لاقينا جمعهم كنا قد أخذنا للحرب عدتها، معنا خيل ولا خيل معهم[٢]، ومعنا نجائب أمثال الخيل، والقوم منكوبون قد أوقعت بهم قريش حديثاً؛

---

(١) يعني هاج الرسول الأعظم ﷺ عليهم.

(٢) وهذه نفس العله أو نقطة الضعف عند المسلمين التي شخصها أبو سفيان في غزوة السويق، واعتمدها في أُحُد وعبر عنها صفوان بن أُمية قبيل احد: (عندنا خيل ولا خيل لهم).

فهم لا يستبلّون دهراً، ولا يثوب لهم جمع[1]) [2].

وهذا النص كفيل أن يوضح بشكل تام أنهم كانوا ينظرون إلى المسلمين وهم في غاية الانكسار بدرجة لايؤمل منهم قيام، وهم على هذه الحال أسهل فريسة، وأسوغ لقمة، ولو كانت بهم همة في دفاع، أو حمية من دين، فإنا عليهم منتصرون لهذه العوامل ولعوامل أُخرى من بعضها فقدانهم القوة المطاردة، أي الفرسان، أي الخيول بالتالي.

مع كون القوم ليس معهم قوة مطاردة فقط، وإنما اعتنوا بها غاية العناية: (فقد اربعنا خيلنا) أي رعوها وقت الربيع في وقت الوفرة والنماء والعشب والخير الكثير، فهي ليست صالحة فقط للعدْو بل للعدْو السريع وهذا ما يحتاجونه في حالتي الهجوم والإنسحاب بحيث لم يدركوا.

وبهذه النظرة كانوا ينظرون للمسلمين، ولَنقِس عليها نظرات باقي العرب، فضلاً عن قريش، فلا بد من غسل الأدمغة المشركة من مغبة التعرض للمسلمين بعنوان كونهم ضِعافاً، فهذا العامل لوحده يُجَرِّيء الجميع للإعتداء على مدينة رسول الله ﷺ.

فكانت سرية أبي سلمة مناسبة لأن تقوم بهذا الدور وقد أفلحت تمام الفلاح، وعادت وسيوفها تلمع بالنصر المبين.

وقلنا أنه ﷺ أراد أن يعالج نفوس المسلمين الظانين أنهم قد أصابهم الضعف، وأن سمعتهم العظيمة بعد بدر لم تَعد كذلك ـ فقد عصوا الرسول في أُحُد وعادوا أدراجهم وقد فقدوا الكثير ـ وهذا أمرٌ هامٌ.

فكانت لهم حمراء الأسد، درساً أول، ومحطة تعبئة بالروح والقوة واسترجاع الهيبة لمن يشعر أنه فقد هيبته المعهودة، وكانت سرية أبي سلمة

---

(١) وكأنهم لم يسمعوا بحمراء الأسد بعد.

(٢) المغازي ١: ٣٤١ ـ ٣٤٢، تاريخ مدينة دمشق ٢٥، ١٥١.

لمن لم ينتفع كثيراً من غزوة حمراء الأسد.

فالأول درس مؤخوذ من غزوة مع عدم القتال، والثاني من سرية مع القتال وإن لم يقع لكن آثاره ترتبت على المسلمين.

روى صاحب المغازي: (فبعث رسول الله ﷺ أبا سلمة، فخرج في أصحابه وخرج معه الطائي دليلاً فأغَذّوا السير، ونكب بهم عن سَنَن الطريق، وعارض الطريق وسار بهم ليلاً ونهاراً، فسبقوا الأخبار وانتهوا إلى أدنى قَطَن ـ ماء من مياه بني أسَد، هو الذي كان عليه جمعهم ـ فيجدون سرحاً فأغاروا على سرحهم فضمّوه، وأخذوا رعاءاً لهم، مَماليك ثلاثة، وأفْلت سائرهم فجاءوا جمعهم فخبروهم الخبر وحذروهم جمعَ أبي سلمة، وكَثّروه عندهم فتفرق الجمع في كل وجه.

وورد أبو سَلَمَة الماء فيجد الجَمع قد تفرق، فعسكر وفرق أصحابه في طلب النَّعَم والشاء....الخ)[١].

غزوة الرجيع

أسباب الغزوة

لقد ذكر المؤرخون غزوة الرجيع، فجاءت في غاية الإضطراب والتناقض الذي لا يخفى على القاريء العابر فضلاً عن المدقق المحقق.

وقد أشار لذلك العلامة العاملي أيضاً في صحيحه[٢] تحت عنوان: (مأساة الرجيع في نصوصها المتنافرة)، مشكّكا حتى في أصل الرجيع.

---

(١) المغازي ١: ٣٤٢ ـ ٣٤٣، تاريخ مدينة دمشق ٢٥: ١٥٢، سبل الهدى والرشاد ٦: ٣٤.

(٢) انظر الصحيح من السيرة ٧: ١٥٣ ـ ١٨١.

وهنا نذكر طرفاً من نص حادثة الرجيع كبداية مهمة للتعرف عليها كما جاءت في المغازي: (حدثني موسى بن يعقوب، عن أبي الأسود، عن عروة، قال: بعث رسول الله ﷺ أصحاب الرجيع عيوناً إلى مكة ليخبروه خبر قريش، فسلكوا على النجدية، حتى كانوا بالرجيع فاعترضت لهم بنو لِحيان)[١].

ثم يردفها بنص آخر يبين سبباً آخر للغزوة. فقال: (بعد حذف سند الرواية ورجالها): (قالوا: لمّا قُتل سُفيان بن خالد بن نُبيح الهُذلي مشت بنو لحيان إلى عَضَل والقارة، فجعلوا لهم فرائض على أن يَقدموا على رسول الله ﷺ فيكلموه، فيُخرج اليهم نفراً من أصحابه يدعونهم إلى الأسلام. فَنَقتلُ من قتل صاحبنا ونخرج بسائرهم إلى قريش بمكة فنُصيب بهم ثمناً، فإنهم ليسوا لشيء أحبّ اليهم من أن يُؤتَوا بأحد من أصحاب محمّدٍ، يمثلون به ويقتلونهَ بمن قُتل منهم ببدر...الخ)[٢].

حيث غدروا هؤلاء بأصحابِ رسول الله ﷺ فقتلوا جماعة وأسروا أُخرى وباعوا منهم اثنين في مكة على أهلها.

ولدينا تعليقٌ على ما ورد في الروايات بخصوص أصحاب الرجيع. إذ إن نقلهم سلوك هذه الجماعة يثير الإستغراب والإستفهام والتَعجُب. أنظر إلى الرواية تقول عنهم.

كما في المغازي: (فخرجوا حتى إذا كانوا بماء لهذيل ـ يقال له الرجيع قريب من الهَدّة ـ خرج النُّفر فاستصرخوا عليهم أصحابهم الذين بعثهم اللّحيانيّون فلم يرع أصحاب محمد ﷺ إلاّ بالقوم مائة رام وفي أيديهم السيوف فاخترط أصحاب النبي ﷺ أسيافهم ثم قاموا.

فقال العدو: ما نريد قتالكم، وما نريد إلاّ أن نصيب منكم من أهل

---

(١) المغازي ١: ٣٥٤ مجمع البيان للهيثمي ٦: ١٩٩، المعجم الكبير ٥: ٢٥٩.

(٢) المغازي ١: ٣٥٤، سبل الهدى والرشاد ٦: ٤٣.

مكّة ثَمَنًا، ولكم عهد الله وميثاقُه لا نقتلكم. فاما خُبَيب بن عَدي، وزيد بن الدَثنة، وعبد الله بن طارق، فاستأسروا.

وقال خبيب: إن لي عند القوم يداً. وأما عاصم بن ثابت، ومَرْثَد، وخالد بن أبي البُكير، ومعتب بن عُبيد، فأبوا أن يقبلوا جوارهم ولا أمانهم.

وقال عاصم بن ثابت: إني نذرت ألاّ اقبل جِوار مُشرك أبداً)[1].

وتعليقنا على هذه الحادثة بطولها وعرضها هو ما يلي:

التطبيقة الأولى:

ما كان لخُبَيب بن عَدي، وزيد بن الدُثِنَة، وعبد الله بن طارق، أن يتركوا اخوانهم في ميدان الموت دون نصرة، وهم يصارعون الردى، ويدفعون الغدر بكل ما أوتوا من قوة وسبب.

وهؤلاء المؤمنون الذين استأسروا يؤمنون بالله، وبتعاليم نبيّه محمد ﷺ التي تحرم خذلان المؤمنين لبعضهم، وتمنع أن يكونوا إلاّ جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. أم أنَّ مواجهة حدثٍ من هذا النوع تُنسيهم ما اعتنقوه، وأيدوه، وضحوا من أجله، وجاءوا الآن يحملون معانيه السامية الرفيعة، لغرض الإبلاغ والتبليغ.

ليس من المعقول أن يترك الإنسان صديقه وهو يواجه الحرج والشدة، وهذا في المقياس العرفي العام وفي مختلف المجتمعات حتى التي لا دين فيها ولا عقيدة، وهم أصدقاء، أما كيف يكون الخذلان عند أهل الدين الذي يحرم ذلك، والذي تربطهم وشائج عظيمة، وأسباب رحيمة، ومهمة كريمة،

---

(١) المغازي ١: ٣٣٥، وانظر تاريخ الطبري ٢: ٢١٤، البداية والنهاية ٤: ٧٣، سيرة ابن هشام ٣: ٦٦٧، عيون الأثر ٢: ١٣، الطبقات الكبرى ٣: ٤٦٣.

معقولاً؟، فهذا مالا أدركه حقاً.

ولقد نقل لنا التأريخ صوراً حية رائعة عن تعاضد المؤمنين وإيثارهم كل واحد منهم أخاه على نفسه في ساعة العسرَة والهكات الخشنة ما سوف نأتي على ذكره في المستقبل، إن شاء الله.

خصوصاً أنهم في بداية الدعوة حيث وهج الحماس، وقوة الإلتفاف على الرسول الأكرم ﷺ وأنهم من أهل البذل، والقراءة، والفقه، وهؤلاء أدرى بالشريعة وأعرف بمضامينها.

أُنظر إلى طلب الوفد من عَضَل والقارة ـ وهما حيّان إلى خُزَيمة، وهم الوفد الذين جاءوا إلى رسول الله ﷺ (فقالوا لرسول الله ﷺ: إن فينا إسلاماً فاشياً، فابعث معنا نَفَراً من أصحابك يقرئوننا القرآن ويفقّهوننا في الاسلام. فبعثَ معهم سبعة نفر...)[1].

ونقلوا عن خبيب كرامته على الله تعالى إذ يؤتيه برزقه في محبسه دون أن يكون نوعه موجوداً في أسواق مكة، فيملك ماوية العجب لِما ترى.

وهذا ماثبته الرواة: (والله ما رأيت أحداً خيراً من خبيب. والله لقد اطلعت عليه من صير[2] الباب وإنه لفي الحديد، ما أعلم في الأرض حَبة عنب تُؤكل، وإن في يده لَقِطفَ عِنَبٍ مثل رأس الرجل يأكل منه، وما هو إلا رزقٌ رزقه الله)[3].

وأنه ﷺ كان لقربه إلى الله وتعلقه بكتابه ذا صوت جميل حسن يتهجد بالقرآن فيذيب القلوب، وترقّ له الدموع (وكان خبيب يتهجد

---

(١) المغازي للواقدي ١: ٣٥٤.

(٢) الصير: شق الباب.

(٣) المغازي ١: ٣٥٧.

بالقرآن وكان يسمعه النساء فيبكين ويرقفن عليه)[1].

وكان لكرامته يوضع عند قتله بعكس القبلة، ولكن عندما يطعن تقع الخشبة ويكون وجهه نحو القبلة قبل أن يستشهد، وقد طالبوه الرجوع عن دينه والإسلام فأبى بقوة وإصرار، وكانوا يُمَنّوه باخلاء السبيل لو رجع وهو عند كلمة الرفض لا يحيد عنها قط، وهو يستعذب الموت في سبيل الله ويراه قليلاً بجنبه الأقدس، ويطلق سلامه إلى الرسول الكريم قبل قتله طالباً من الله تعالى أن يبلغه نبيُه ﷺ.

وكم أرادوا أن ينالوا من محمد النبي ﷺ، باجبار خبيب في إعلان أمنيته في أن يكون محمد ﷺ فقط مكانه، وهو لايطيب له أن تمس محمداً ﷺ شوكة فضلاً عن حراب قريش.

وغير هذا الكثير، ثم لا يطلب شيئاً من حطام الدنيا إلاّ ركعتين يُصَلِيهما في آخر ساعة من حياته، وهما طبعاً من ذخائر الأخرة.

ولا يطيل بهما خشية أن يعيبه القوم بكراهية الموت (دعوني أصلي ركعتين، ثم أنصرف إليهم فقال: لو لا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت)[2].

ولقد كان أهل مكة يخافون دعوته التي دعاها: (اللّهم أحصهم عددا، واقتلهم بَدَدا، ولا تغادر منهم احدا)[3].

---

(١) نفس المصدر ١: ٣٥٨، سبل الهدى والرشاد ٦: ٤٣.

(٢) البداية والنهاية ٣: ٢٠٣، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ١٢٤، سبل الهدى والرشاد ١٠: ٢٤٧.

(٣) المغازي ١: ٣٥٩، البداية والنهاية ٤: ٧٢، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ١٢٤، سبل الهدى والرشاد ١٠: ٢٤٧.

حتى أن معاوية بن أبي سفيان نقل آثار تلك الدعوة على نفوس قريش قائلاً: (لقد حضرت دعوته ولقد رأيتني وإن أبا سفيان ليضجعني إلى الأرض فرقاً من دعوة خُبيب)[١].

ونقلوا عنه وعن زيد بن الدَثِنَة:

عن كتاب المغازي: (ثم جعلوا يقولون لزيد: إرجع عن دينك المُحدَث واتبع ديننا ونرسلك! قال: لا والله، لا أفارق ديني أبداً! قالوا: أيسرّك ان محمداً في أيدينا مكانك وأنت في بيتك؟ قال: ما يسرني أن محمداً أُشيك بشوكة وأني في بيتي!

قال: يقول أبو سفيان بن حرب: لا، ما رأينا أصحاب رجل قط أشد له حباً من أصحاب محمّد بمحمد)[٢].

ومثل هؤلاء الأصحاب يشهد لهم العدو بعلو الهمة وارتفاع الكرامة، كيف يقبلون بالأسر وعَدم النصر لإخوانهم؟، ويرضون بعرض القوم عليهم....إذا كان خوفاً من الموت فقد رأينا حالهم عند الموت، وإذا كان حب الدنيا فإنهم من رجالات الآخرة كما ذكرناه سابقاً، أم أنهم أهل خوف وجبن فحاشا لمثل هؤلاء أن يكونوا كذلك.

التطبيقة الثانية:

ما كان أصحاب محمد بهذا التهافت والصغار، بحيث يؤثرون دنيا زائلة وحياة ذليلة، وعيشاً رخيصاً، على موتٍ كريم، ومصارع شريفة،

---

(١) المغازي ١: ٣٥٩، سيرة ابن هشام ٣: ٦٧٠، البداية والنهاية ٤: ٧٦، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ١٣٠، سبل الهدى والرشاد ٦: ٤٤. وقد كانوا يعتقدون ان الاضطجاع يمنع تأثير الدعاء.

(٢) المغازي ١: ٣٦٢.

تورثهم عزاً في الدنيا، ومقاماً محموداً عند مليك مقتدر في الآخرة.

ولقد ذكروا أن الدفاع عن الحمى، ورعاية الحفيظة، والسعي للمكارم، من خصائص العربي فضلاً عن المسلم المؤمن الملتزم، فيجب أن يكونوا أكثر من غيرهم عناية بالاخلاق، وانجذاباً لاصولها.

ونقلوا أيضاً أن منافقاً قاتل في أُحُد لمّا عيّرته النساء بالتخلف والقعود فذهب لقتال العدو المشرك من قريش خوف العار، وللذب عن الحسب.

عن الواقدي: (فأُتي إلى قُزمان فقيل له: هنيئاً لك يا أبا الغيداق الشهادة! قال: بِمَ تبشرون؟ والله ما قاتلنا إلاّ على الأحساب.

قالوا: بشّرناك بالجنة.

قال: جنة من حَرْمَل؛ والله ما قاتلنا على جنّة ولا على نار، إنما قاتلنا على أحسابنا!)[1].

فهذا المنافق (قزمان) له هذا المقدار من الإهتمام بالحسب رغم استهجانه الجنة والسخرية بها، ورغم عدم إيمانه بهما (بالجنة والنار)، فما بالك بمن يسعى لهما ليل نهار، يحذر النار ويرجو الجنة ورحمة ربه.

ولقد دوّنَ لنا الرواة: أن الأسرى خُبَيب بن عَدي وزيد بن الدَّثِنة، لهم من المواقف المشهودة العظيمة، فهم لا يغدرون وكان بمقدورهم ذلك فقد طلب خبَيب بن عَدي من المرأة التي كان في بيتها: (إبعثي لي بحديدة أستصلح بها.

قالت: فبَعثت إليه موسى مع إبني أبي الحسين، فلما ولى الغلام قلت أدرك والله الرجل ثأره، أي شيء صنعتُ؟ بعثت هذا الغلام بهذه الحديدة،

---

(١) المغازي ١: ٢٦٤.

فيقتله ويقول (رجل برجل).

فلما أتاه إبني الحديدة تناولها منه ثم قال ممازحاً له: وأبيك إنك لجَريء!

أما خشيت أمك غدري حين بعثت معك حديدة وأنتم تريدون قتلي؟.

قالت ماويّة [1]: وأنا أسمع ذلك فقلت: يا خُبيب، إنما أمنتك بأمان الله وأعطيتك بإلهك، ولم اعطك لتقتل إبني.

فقال خُبيب: ما كنت لأقتلَهُ، وما نستحل في ديننا الغدر)[2].

إذا كان الأمر كذلك. أليس ترك أخوَته تحت بوارق السيوف طلباً للعافية، نوعاً من أنواع الخيانه والغدر، أو قل عدم الوفاء للخلة والصحبة، فضلاً عن الإشتراك بالمهمة والإيمان.

فكيف تركوهم وجاءوا!!

التعليقة الثالثة:

ما كان ظنهم عندما يأسرهم القوم؟ هل القوم أهل عهد وميثاق ومظنة حسنة، أم أنهم سيغدرون بهم ويقتلونهم؟.

وهذا وحده يجلعهم لا يعطون بأيديهم إعطاء الذليل، ولا يقروا للقوم إقرار العبيد، وهم مبعوثوا محمّد رسول الله ﷺ ومُختاروه لمهمة هداية الناس وتبيان السبيل، وتوجيههم نحو الله ورسوله.

هذا والقوم صرّحوا أنهم سيتقاضون مكانهم ثمناً من أهل مكة،

---

(١) وهي المرءة التي كان خبيبٌ حبيساً في بيتها.

(٢) المغازي ١: ٣٥٨، سبل الهدى والرشاد ٦: ٤٣.

وهل يقبل الحر أن يُباع ويُشترى؟ ثم ما الذي تصنعه قريش معهم وهم أهل ثأر، ووتر، وهل يُؤثر هؤلاء الأصحاب الأجلاء السَوْق إلى سُوق قريش وبهذا المقدار من الذلة والاحتقار، وتحت هذا العنوان الكريه المهين، على الهامة العالية والسمعة الغالية.

التعليقة الرابعة:

ألم يعلموا أن هذا (أي الذي رضوا به) سيغيض النبي المصطفى ﷺ، ويلحق العار بالمسلمين؛ لأن المسلمين قبلوا الدخول في أسواق قريش يُباعون ويُشترون حفظاً مؤقتاً لمصائرهم، وهم يَدْعُون الأنفة والبطولة والصلة بالسماء.

وأخيراً يساقون كما يساق العبيد والإماء والسبايا في سوق النخاسين، لابل أولئك أفضل إذ إنهم لا عيش لهم إلا بهذا البيع والشراء، مع كونهم من أقوام غرباء، ومع كونهم يقبلون ذلك ويرضون به.

أما هؤلاء المؤمنون فيعرفون الجنة والشهادة، ويعرفون أن بيعهم يعني هلاكهم بأقبح قتلة وأسوء مثلة، وأكثرها جرأة على الله تعالى ورسوله الأكرم ﷺ، كما وقع ذلك لهم فعلاً.

لننظر في كتاب المغازي: (ثم دعوا أبناءاً من أبناءِ مَن قُتل ببدر فوجدوهم أربعين غلاماً، فأعطوا كلّ غلامٍ رمحاً ثم قالوا: هذا الذي قتل آباءَكم. فطعنوه برماحهم طعناً خفيفاً، فاضطرب على الخشبة فانقلب، فصار وجهه إلى الكعبة، فقال: الحمد لله الذي جعل وَجهي نحو قبلته التي رضي لنفسه ولنبيه وللمؤمنين.

وكان الذين أجلبوا على قتل خُبَيب: عكرمة بن أبي جَهل، وسعيد بن عبد الله بن قيس، والأخنس بن شَريق، وعبيدة بن حكيم بن أمية بن الأوقص السُلَمي.

وكان عقبة بن الحارث بن عامر ممن حضر، وكان يقول: والله ما أنا قتلت خُبيباً إن كنت يومئذٍ لغلاماً صغيراً. ولكن رجلاً من بني عبد الدار يقال له أبو مَيسَرَة من عوف بن السَّبّاق أخذ بيدي فوضعها على الحربة، ثم أمسك بيدي ثم جعل يطعُن بيده حتى قتله، فلما طعنه بالحَربة أفْلتُ.

فصلحوا: يا أبا سَرْوَعَة، بئس ما طعنه أبو مَيْسَرَة ! فطعنه أبو سَرْوعة حتى أخرجها من ظهره، فمكث ساعة يوحّد الله ويشهد أن محمّداً رسول الله)[1].

التعليقة الخامسة:

ثم ألم يكن لهم من إخوانهم السابقين في بعثة القرآء الشهداء أقصد بعثة (بئر معونة) عِظَة كاملة حيث غدر بهم عرب نجد وقتلوهم شر قتلة مع عهد الأمان وأخذ الذمة لهم، والتي لم تنفعهم بشيء قط[2].

التعليقة السادسة:

وكيف يكون في يد عبد الله بن طارق سيفاً مع كونه أسيراً وقد ربطوه برباط قوسه؟ أم كان العرب لايأخذون سلاح الأسير؟ أم أنهم ما كانوا يهابون سيوف الأسرى؟.

وهل كانوا كراماً بهذا القدر ولم يطمعوا بسلاح الرجل فيأخذوه ليبيعوه وقد طمعوا بصاحب السيف؟.

وقد ثاب عبد الله بن طارق إلى رشده حيث اختار طريق أصحابه

---

(١) المغازي ١: ٣٦١، وانظر سبل الهدى والرشاد ٦: ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) طبعاً هذا على رواية كون بئر معونة سبقت الرجيع.

الشهداء، وإخوانه خُبَيب، وزيد ـ ورغم هذه الحادثة الجديدة ـ لم يثوبوا بعد (حتى إذا كانوا بمر الظهران، وهم مُوَثقون بأوتار قِسِيِّهم.

قال: عبد الله بن طارق: هذا أول الغدر ! والله لا أصاحبكم، إن لي في هؤلاء لأُسوة ـ يعني القتلى ـ فعالجوه فأبى، ونزع يده من رباطه ثم أخذ سيفه، فانحازوا عنه فجعل يشدّ فيهم وينفرجون عنه، فرموه بالحجارة حتى قتلوه)(١).

ثم لَمّا رأوا إخوتهم خُبَيباً وزيداً، أمَا علموا أنهم سيقتلون مثلهم، ولِمَ لم ينصروا أخاهم، وهل هم إلاّ جماعة واحدة يهمها أمرٌ واحد، وتهدف إلى نقطة واحدة محددة، أما أخذتهم غيرة الدين ونخوة الإسلام، وحمية العِرق، وكيف قبلوا لهؤلاء أن يفعلوا بصاحبهم ما فعلوا وهم أحياء يرزقون.

أم أنهم تذوقوا حلاوة طعم الخيانة ـ حاشاهم ـ في المرة الأُولى حيث كانوا قد أسلموا عاصم بن ثابت ومرثد ومُعَتِّب وخالد إلى أيدي القوم دون ما يدفعون عنهم بقول أو فعل.

فلُحبوا هنا أن يتذوقوه مرة أخرى لعذوبته عندهم، حاشا إنه لإحدى الكُبَر، ولا يقدم مثل هؤلاء على مثلِه.

التعليقة السابعة:

ثم هل يعقل أن رجلاً بهذا الاستبسال والاستماتة وقوة الجرأة في القتال، بحيث يقاتلهم بالسهام والرماح حتى إذا نفذت الأُولى وانكسر

---

(١) المغازي ١: ٣٥٧، وانظر البحار ٢٠: ١٥٢، الطبقات الكبرى ٣: ٤٥٥، أُسد الغابة ٣: ١٨٨، تاريخ الطبري ٢: ٢١٤، البداية والنهاية ٤: ٧٤، سيرة ابن هشام ٣: ٤٤٩، عيون الأثر ٢: ١٣، سبل الهدى والرشاد ٦: ٤١.

الثاني برز لهم بسيفه .

عن كتاب المغازي: (فرماهم بالنُبل حتى فنيت نبله، ثم طاعنهم بالرمح حتى كُسر رمحُه، وبقي السيف فقال: اللهم حميتُ دينك أول نهاري فلحم لي لحمي آخره! وكانوا يجردون كل مَن قُتل من أصحابه.

قال: فكسر غِمْد سيفه ثم قاتل حتى قُتل، وقد جَرح رجلين وقَتل واحداً.....الخ)[1].

ونجد آخر أو آخرون يستسلمون بأول إشارة للأمان دون أن يقع منهم دفعاً أو غضباً أو هِزةً لِمَقاتِل الأصحاب.

أيُعقَل أن يكون عاصم بن ثابت وأخوه مرثد والآخرون بهذا القدر من الشجاعة؟ (وهم أهل لها)، ويكون أصحابهم خُبَيب وعبد الله وزيد الذين رضوا فكرة البيع والشراء بهذا القدر من الإسراف والجبن، وقد عرفنا من مواقفهم ما ينفي هذه التهمة عنهم بشكل تام.

التعليقة الثامنة:

وإذا يقول أحدٌ، إنهم رأوا المصلحة بقبول ذلك، حتى يأمنوا ويهربهوا، فهذا قولٌ في غاية الفساد.

إذ أي مهرب من قوم أشرار، وأي تمكُن لأعزَل من سيافين مبارزين جزارين. ولِمَ لم يحاولوا ذلك في طريقهم إلى مكة بعد الأسر، أو في مدة حَبسهم، ثم لماذا لم يُورّوا ويتقوا القوم عند خشية قتلهم، بأن يعطوهم سؤلهم لّما طلبوا منهم التنازل عن دينهم في مقابل الإفراج عنهم.

ولِم لَم يطعنوا بمحمد النبي ﷺ ولو على سبيل محبة أن يكون

---

(١) المغازي ١: ٣٥٦، الطبقات الكبرى ٣: ٤٦٣.

الأذى الذي حَلَّ بهم حالَ بمحمّد ﷺ دونهم، وهي مجرد أُمنية لا غير وهم يستنكرون حتى هذا المقدار، وقد حَمَّ القضاء بهم، ودنت المنيّة منهم، ليخرجوا من جبال القوم وأخشابهم بهذه التّورية سالمين غير مقتولين.

خاصة أن التشريع يسمح لهم بذلك تقيةً، كما سمح لعمار بن ياسر من قبل ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[1] حيث نال من النبي محمّد ﷺ ومن دينه.

التعليقة التاسعة:

ثم نرجع إلى فكرة الطعن برسول الله ﷺ حيث لم يختر لبعثته المهمة هذه أصحاباً لهم تلك المؤهلات الكافيه في إدارة المواقف، ومواجهة التحديات، إلاّ أن نقول ليس في أصحاب محمّد ﷺ أفضل منهم ـ فاختارهم على علاتهم ـ ولا أظن أن هذا القول يجرؤ أحد على قبوله فضلاً عن إطلاقه.

التعليقة العاشرة:

كيف يقول عبد الله بن طارق، عندما ربطوهم بأوتار قسيّهم: (هذا أول الغدر)، إذن أين ذهب غدرهم الأول بأصل الجماعة حيث أرادوهم للتبليغ، ثم آل أمرهم للإحاطة والمحاصرة وأخذ الثأر، بالرمح والنبال، والبيض الصقال؟

وهّلا أخذ عبد الله بن طارق البَلَوي عبرة من ذلك الغدر باعتباره يتحسس من هذه المسأله أكثر من أصحابه، حيث لم يعترضوا على ربطهم كما اعترض هو، فكان عليه أن يتخذ قرار المقاومة لهم من غدرهم الأول بأصل الجماعة طبقاً لحساسيته من الغدر.

---

(١) النحل: ١٠٦.

التعليقة الحادية عشرة:

وإذا اعتذروا لعاصم بن ثابت كونه نذر ألاَّ يقبل جوار مشرك فقاتلهم لذلك، فما بال جماعته - وليس في عهدتها نَذرٌ ولا عهد - يرفضون الذمة وعهد الله في الأمان، ثم إذا كانوا هؤلاء الثلاثة ليس في ذمتهم نذرٌ في عدم قبول أمان المشركين إنّما رفضوا ذلك الأمان منهم؛ لأنهم مشركون.

كما جاء في بعض كتب التاريخ والسيرة: (فأمّا مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البُكير، وعاصم بن ثابت فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولاعقداً أبدا)(١)

فمابال إخوانهم الآخرين قبلوا ذلك فأسلموا يدهم للقيد المهين، وأنفسهم لسُوق الغُبن والثمن البخس، فساروا مع العدو ووفق هذا الأمان المزعوم، خبيب وزيد وعبد الله بن طارق، دون بقية الأفراد المبعوثين من قبل سيد المرسلين ﷺ.

التعليقة الثانية عشرة:

وإذا اعتذروا لخُبَيب في قبوله الأسر بأن له يداً في القوم، فنحن نتسائل أي القوم يقصد أولئك الذين له عليهم يد؟ هل هم بنو لحيان؟ فقد غدروا بهم ولا يصلح أن يفكر عاقل بقبول الأمان بعد الغدر.

وإذا كانت المقصودة قريش، كما هو المفروض باعتباره نزل بعقد الأمان مع إبلاغه بالبيع دون القتل، فإنّ تلك داهية كبرى أن يرضى عقل خُبيب الراجح بتلك الأطروحة الغبية، مع كونه من أصحاب محمّد ﷺ، ومشترك في حروبه، وقاتل لبعض رجال قريش ، ومبعوث النبي محمّد ﷺ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٦٦٨.

الآن، يعني من بعض الخيرة المختارة من أصحاب محمد ﷺ وواحد من أعاظمهم.

وقد رأى بأُم عينيه ماذا فعلت قريش ـ ولو عن طريق نساءها ورضى رجالها ـ بشهداء أُحُد، وبحمزة بالذات من المثلة، هذا سلوكهم مع رجال الرسول ﷺ وأبطاله وأهل المهمات منهم على وجه التحديد، وهم من أصحاب تلك المُواصفات!!.

فعلى فرض قبولنا لعذرهم بخصوص قبول خُبَيب لهذا الأسر المُذِل والبيع المنتظر، لوجود يد له عندهم، فما تقول بأخويه وليس لهما يدٌ على القوم أو فيهم مثله، وهم (عبد الله بن طارق وزيد بن الدَّثِنَة).

فلا اعتقد أنهم يخلصون لهم بخالصة رأي، أو صريح عذر.

التعليقة الثالثة عشرة:

ثم لماذا لم يعمل الجميع بما عمله أمير البعثة مع كونه عاصم أو مرثد؟ إذ الإثنان فضّلا الموت على البقاء، والمواجهة على الأسر، أولَيس على الآخرين أن يسلكوا سلوكهم من باب الإِمارة؟ واذا كان هذا الباب غير مُلزِم فما قيمته عند الأمر والنهي؟

وحتى لو تنـزلنا في كونه غير ملزم، وللآخرين حرية اختيار الموقف، أو ليس عليهم التزام مواقفه من باب الاقتداء والتأسي به، إذ لم يكن أميراً، ولِمَ يجعله الرسول ﷺ أميراً إذا لم يكن أهلاً لِبلوغ الأُسوة الحسنة والمثال النموذجي المقبول، وإلا ما ميزة كونه مُختاراً للأمارة دون غيره، وبدون جملة امتيازات مستحسنة ومقررة فيه.

ثم إذا صح لهم أن يسلموا بعضهم، فكيف يصح لهم أن يسلموا أميرهم؟، أليس الدفاع عن القائد والمحافظة عليه أمر يقبله الإنسان بالبداهة والوجدان؟ وهو بالتالي يمثل تنفيذاً لرغبة القائد الأعلى النبي الأكرم ﷺ.

والخلاصة باعتقادنا: إنّ كلّ القرائن التي حفت هذه الحادثة ابتداءاً من الاختلاف التاريخي في كثير من جوانبها وانتهاءاً بهذه النقاط المطروحة بخصوصها، لا تساعد على قبول الرواية التي نصت على وجود جماعة رضوا بالقتال، وآخرين بالاعتزال.

وأغلب الظن ـ ودون الدخول في إحتمالات كثيرة للإجابة على هذه القضية أو بحثها ـ أن الجماعة برمتها قاتلت وأفنت ما عندها من ذخيرة واعذرت إلى الله ورسوله ﷺ فقَتَل القوم من قُتل، وأسروا البقية وبهذه الكيفية.

وبعبارة ثانية: إن القوم المسلمين السبعة أو الستة [1]، رفضوا الأمان وصبروا للمجالدة، وصابروا على القتال، رغم الغَدر الذي يوخز النفس بقوة، ويفاجئ القَلب بقسوة، ورغم قلة عددهم، أمام المئة، أو السبعين الغدرة الفجرة، الموتورة الظالمة، وأمام هذا الحصار ونتائجه المجهولة.

فقرروا المواجهة الباهضة، وخوض الهيجاء، وإن علموا أن العاقبة الموت، ولكنه الموت المشرّف، وإن كرام النفوس ليتطلعون إليه بزهو وشمم.

وكأن الشاعر يقصدهم بقوله:

فكن رجلاً إن تنضى أثوابَ عيشه ... رثاثاً وثوب الفخر منك جديدُ
وليس فقيداً من يموت بعزةٍ ... وكل فتى بالذل عاش فقيدُ

ولكن ما انجلت الغبرة عنهم، إلا وثلاث أو أربع شهداء عانقوا الأصيل الدامي، والرحيل المر.

وكأن الشاعر أبا تمام الطائي يقصد كل واحد منهم بقوله:

فأثبت في مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحتِ أخمصك الحشرُ
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقوم مقام النصر إن فاته النصرُ

---

(١) على اختلاف الرواية.

ووقع الآخرون الثلاثة رهن الأسر، وأخذوهم إلى مكة بقصد بيعهم لغرض تحقيق النفع المادي الدسم المرتقب، وللتشفي بهم أكثر وهم يُقتلون بيد أشد الناس عداوة لمحمّد ﷺ، ولغرض أن يكون أمرهم ذائعاً بين الناس فيعلموا ما أصاب محمّداً ﷺ بأصحابه[١].

وهذا التفسير ـ باعتقادنا ـ يتسق وروح الصحابة الكرام، ومع مهمتهم، ومع غدر الآخذين لهم، ومع الكلام الذي أورده الواقدي في مغازيه والذي ينقل به نية القوم الغادرين وقصدهم من تلك الغدْرة، وبنص تعبيرهم وهذا من أقوى الأدلة، على ما ذهبنا اليه.

عن المغازي: (فنقتل من قتل صاحبنا ونخرج بسائرهم إلى قريش بمكة فنُصيب بهم ثمناً، فإنهم ليسوا لشيء أحب إليهم من أن يُؤتوا بأحد من أصحاب محمّد، يمثلون به، ويقتلونه بمن قُتل منهم ببدر)[٢].

إذن ألا تعجب ـ أخي القارئ ـ من كون بني لحيان (من هذيل) يعلمون أن قريشاً سوف تفعل الأفاعيل بأصحاب محمّد إذا مسكت بهم، وأصحاب رسول الله ﷺ لا يدركون ذلك؟ وهم أهل القضية وأهل المعرفة التفصيلية ـ وَلو من خلال الأحداث ـ بقريش ونواياها.

أما كان علمهم بذلك يجب أن يكون عندهم قبل غيرهم من باب أولى، وأولى من جهات عديدة وكثيرة، لا نريد إحصائها الآن..

أو لا محالة نرضى بتفسير الحادثة بقول قريب من هذا، أو نقبل أنهم أرسلوا كعين استطلاعية على قريش ومسك بهم بنو لحيان إلى آخره من

---

(١) مع كون الاخبار تصدق ذلك حيث لم ينقل التاريخ لنا أن الرسول ﷺ بقي ردحاً من الزمن يندب أحداً ويأسى على فقده كما كان لمبعوثيه في بئر معونة والرجيع وأُحُد ومؤتة.

(٢) المغازي١: ٣٥٤، سبل الهدى والرشاد ٦: ٤٠.

التفاسير المفترضة، ولكل واحد من تلك التفاسير ما يعين عليه ويؤكده...

وأخيراً نقول أليس بعث الرسول الأكرم ﷺ هذين البعثين الذين قتلوا في بئر مَعونة وأصحاب الرجيع لهداية الناس وتوضيح سبل السلام لهم، دليلاً على أن مهمة الرسول الأولى هو إيصال الرسالة المباركة إلى خلق الله، لأنه: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[1].

وأنه ﷺ سلمي المنحى والاتجاه، ولا يريد إيقاع الحرب بأحد وإنما يضطر لها إضطراراً، وإنه ﷺ لم يألف من القوم ومع بعثاته السلمية والتي طلبوها بأنفسهم، إلا الغدر والغيلة.

وأنه ﷺ لما رأى الوجوب متوجهاً إليه من جهة إرسال الخِيرة من بعض الأصحاب حفظاً وفقهاً وعلماً وبياناً وإقداماً وشجاعة، لم يتأخر خطوة في إيصال النور اليهم، مع علمه ﷺ أن أهل نجد قد يغدرون بهم.

ثم أليس يعطينا دليلاً آخر على تمسك القوم بجلافتهم وجاهليتهم التي يدانون من خلالها أقوى إدانة، ويؤاخذون بها بكل مؤاخذة.

ولعله من المناسب أن نذكر كلام محمّد حسين هيكل وما جاء به على هذه البعثة المأخوذة غدراً وغيلة.

في كتابه حياة محمد: (لا يقف المستشرقون من هذا الحادث وقوفهم عند أسيري بدر اللذين قتل المسلمون، ولا يحاولون أن يستنكروا هذا الغدر برجلين بريئين لَمْ يُؤخذا في حرب، وإنما أُخذا خداعاً، وسارا بأمر الرسول ليعلما من غدروا بهما ومن أسلموهما إلى قريش بعد أن قتلوا زملاءهم غيلة وبغياً.

وهم لا يستنكرون ما صنعت قريش بالرجلين الأعزلين، مع أن ما

---

(١) النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨.

صنعته بهما مَثلٌ للجبن وللعدوان الدنيء، ولقد كانت أولى مبادئ الانصاف تقتضي المستشرقين، الذين أنكروا ما فعل المسلمون بأسيري بدر، أن يكونوا أشد استنكاراً لغدر قريش وغدر الذين أسلموا إليها الرجلين لقتلهما، بعد أن قتلوا أربعة الرجال الذين جاءوا وإياهم إجابةً لطلبهم ليدلوهم على الحق ويفقهوهم في الدين)[1].

غزوة بني النضير

تعريف مختصر

وهي الغزوة التي قادها رسول الله ﷺ ضد يهود بني النضير الذين كان موقعهم قريباً من مركز المدينة المنورة، وذلك على انقاض غدرهم برسول الله ﷺ ونقضهم العهد الذي برمه معهم ومع بقية اليهود، وذلك أن ذهب ﷺ هو وبعض أصحابه إليهم ليشاركونه في دية كان على المسلمين دفعها.

ولكن لما استقر به المجلس عندهم (إلى جدار من جدرانهم، وأراد بنو النضير رجلاً منهم على الصعود إلى ظهر البيت ليلقي على النبي ﷺ صخرة فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب منهم، وأوحى الله بذلك إلى نبيه فقام ولم يشعر أحداً ممن معه واستبطأوه واتبعوه إلى المدينة.

فأخبرهم عن وحي الله بما أراد به يهود وأمر من أصحابه بالتهيؤ لحربهم، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، ونهض في شهر ربيع الأول أول السنة الرابعة من الهجرة فتحصنوا منه بالحصون فحاصرهم ست ليال وأمر بقطع النخل وإحراقها.

---

(١) حياة محمد ﷺ لمحمد حسين هيكل: ٣٠٦.

ودس إليهم عبد الله بن أبي والمنافقون إنا معكم قتلتم أو أخرجتم فغروهم بذلك ثم خذلوهم كرهاً وأسلموهم، وسأل عبد الله من النبي ﷺ أن يكف عن دمائهم ويجليهم بما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، واحتمل إلى خيبر من أكابرهم حيي بن أخطب وابن أبي الحقيق فدانت لهم خيبر.

ومنهم من سار إلى الشام وقسم رسول الله ﷺ وسلم أموالهم بين المهاجرين الأولين خاصة، وأعطى منها أبا دجانة وسهل بن حنيف كانا فقيرين، وأسلم من بني النضير يامين بن عمير بن جحاش وسعيد بن وهب فأحرزا أموالهما بإسلامهما)[١].

أسباب الغزوة

السبب الأول:

نقض العهد مع رسول الله الأكرم ﷺ وهو السبب الأول المقدم، والذي يُرتكز عليه في مجال الهجوم على يهود بني النضير، ومحاصرتهم حتى النزول على حكم رسول الله، وإجلائهم أذلاء مخذولين.

فقد كان اتفاقهم السابق مع رسول الله ﷺ يقضي أن لا يعتدوا عليه وعلى أصحابه، كما ينص على عدم التآمر عليه سراً وجهراً، وأنه يترتب على أي نوع من التآمر والغدْر ونقض العهد تعرضهم لسيف رسول الله ﷺ ولعقوبته التي يراها، وقد كان هذا الاتفاق بطلبٍ من يهود بني قُريضة وبني قَيْنُقاع، وفعلاً وافقهم الرسول الأكرم عليه ونص فيما بعد وبنفس وثيقة الاتفاق.

روى الشيخ الطبرسي: (ألا يعينوا على رسول الله ﷺ ولا على أحد

---

(١) تاريخ ابن خلدون ق٢ ج٢: ٢٨.

من أصحابه بلسان ولا يد ولا سلاح ولا بكراع[1] في السر والعلانية لا بليل ولا بنهار، الله بذلك عليهم شهيد[2]، فإن فعلوا فرسول الله في حِلٍ من سفك دمائهم وَسبي ذراريهم ونسائهم، وأخذ أموالهم، وكتب لكل قبيلة منهم كتاباً على حدة، وكان الذي تولى أمر بني النضير حُيي بن أخطب...)[3].

فلما غدروا برسول الله ﷺ، ونقضوا عهده، جاء دور تنفيذ فقرات الاتفاق عملياً وأن يخضعهم الرسول ﷺ لشروط المعاهدة، ويلزمهم بما ألزموا به أنفسهم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[4].

فان الحق الطبيعي لهذه الخيانة الكبرى هو أن يكون اليهود أمام ما اتفقوا عليه، وهذا الذي جعلهم سكوتاً لا ينطقون بشيء لمحمّد بن مَسلَمة حيث نقل لهم عزم رسول الله ﷺ على إجلائهم.

وذلك لأنهم يعرفون ماذا صنعوا مع الرسول ﷺ ويعلمون خطورة ذلك التصرف وخروجهم به من اللائحة الأخلاقية والقانونية، ويعرفون أيضاً خطورة الرد عليه وفقاً لنصوص الاتفاق والمعاهدة المشتركة.

---

(١) الكراع اسم الخيل، إذا قال الكراع والسلاح فإنه الخيل نفسها ـ كتاب العين ١: ٢٠٠، النهاية في غريب الحديث ٤: ١٦٥.

(٢) قال ﷺ: «عليهم» ولم يقل علينا لأن الشروط متوجهة عليهم وهم منظورون بها. هذا أولاً، وثانياً أنه ﷺ مطمئن من نفسه بالوفاء فيما إذا كان مشمولاً بالشروط، بل مطمئن ﷺ أن سيرته معهم وفق ضوابط الأخلاق والشريعة حتى بدون ذلك الاتفاق.

(٣) إعلام الورى بأعلام الهدى ١: ١٥٨، البحار ١٩: ١١١.

(٤) النحل: ١١٨.

السبب الثاني:

إحباط المؤمرات اليهودية النفاقية التي ما انفكت تحاك ضد رسول الله ﷺ، وضد منهجه، وحرم المدينة. فكما يبدوا أن المنافقين وبعد ما لحق رسول الله من فاجعة بسبب بئر معونة والرجيع، قويت شوكتهم، واشتد جمعهم، وتمركز هدفهم.

صحيح أن الرسول ﷺ أخافهم في أكثر من وقعة، وأودع الرعب في قلوبهم، ولكنهم على سبيل أصل وجودهم، وعلى سبيل اقتران الخطر بذلك الوجود، فهم لا زالوا قائمين وهذا مما لا محيد عنه، وأن عبد الله بن أبَي وزمرته أرسلوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصرة ويؤكدون لهم الاشتراك الحتمي معهم وحتى النفس الأخير.

فقد جاء في السيرة النبوية: (وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج، منهم عدوّ الله عبد الله بن أُبَي بن سلول، ووديعة، ومالك بن أبي قوقل، وسُويد، وداعس، قد بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم)[١]

والطريف أن اليهود تعرف أن هذا الرجل منافق رعديد، يخذل حليفه ويسلمه للحتوف عندما تأتي ساعة الضراب، فقد علمنا ما صنع مع يهود بني قينقاع وكان قد طمّعهم بالنصرة من قبل، ولكن لم ينفذ ما قال.

وهذه المعرفة لهذا الرجل كانت واضحة مشخصة عند يهود بني النضير وصاحبهم حيي بن أخطب، وزعيم آخر منهم وهو أكبرهم سلام بن مشكم يُمنّي إبن أخطب فيه إبن مشكم بعدم قدرة محمّد على محاصرتهم، ويمنّيه بنصرة ابن أبي سلول الموعودة، وتكشف هذه المحاورة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٦٨٣، تاريخ الطبري ٢: ٢٢٥، البداية والنهاية ٤: ٨٦، عيون الأثر ٢: ٢٤، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ١٤٧.

علمهم اليقيني بأن محمّداً ﷺ هو رسول الله وهو النبي المنتظر.

عن الواقدي في مغازيه: (قال سلام بن مشكم: منتك نَفسُك والله يا حُيي الباطل، إني والله لو لا أن يُسَفَّه رأيك أو يُزرى بك لاعتزلتك بمن أطاعني من اليهود، فلا تفعل يا حُيي، فوالله إنك لتعلم ونعلم معك أنه لرسول الله وأن صفته عندنا.

فإن لم نتبعه وحسدناه حيث خرجت النبوة من بني هارون! فتعال فنقبل ما أعطانا من الأمن ونخرج من بلاده، فقد عرفت إنك خالفتني في الغدْر به، فإذا كان أوان التمر جئنا أو جاء من جاء مِنا إلى ثمرة فباع أو صنع ما بدا له، ثم انصرف الينا فكأنّا لم نخرج من بلادنا إذا كانت أموالنا بايدينا إنا إنما شَرُفنا على قومنا بأموالنا وفعالنا، فاذا ذهبت أموالنا من أيدينا كنا كغيرنا من اليهود في الذلة والإعدام.

وإن محمّداً إن سار الينا فحصرنا في هذه الصياصي يوماً واحداً، ثم عرضنا عليه ما أرسل به إلينا، لم يقبله وأبى علينا.

قال حُيَي: إن محمّداً لا يحصرنا (إلاّ) إن أصاب منّا نُهْزَة، وإلاّ انصرف، وقد وعدني إبن أُبَي ما قد رأيت.

فقال سَلاّم: ليس قول إبن أبي بشيء، إنما يريد إبن أُبي أن يورطك في الهلكة حتى تحارب محمّداً، ثم يجلس في بيته ويترك.

قد أراد من كعب بن أسد النصر، فابى كعب وقال: لاينقض العهد رجلٌ من بني قريظة وأنا حي [1]. وإلاّ فإن إبن أبي قد وعد حلفاءَه من بني قينقاع مثل ما وعدك حتى حاربوا ونقضوا العهد، وحصروا أنفسهم في صياصيهم وانتظروا نُصرة إبن أبي، فجلس في بيته وسار محمّد اليهم، فحصرهم حتى نزلوا على حُكمِه.

---

(١) لكن نقضه فيما بعد هو بنفسه كما سترى.

فابن أبي لا ينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس كلهم، ونحن لم نزل نضربه بسيوفنا مع الأوس في حربهم كلها، إلى أن تقطعت حربهم فقدم محمّد فحجز بينهم وابن أبي لا يهودي على دين اليهود، ولا على دين محمّد، ولاهو على دين قومه، فكيف تُقبلُ منه قولاً قاله؟.

قال حُيي: تأبى نفسي إلا عداوة محمّد وإلا قتاله)[١].

ولم يقتنع إبن اخطب بهذا التشخيص الدقيق للأحداث ونتائجها، وجعلهم يُعلنون العصيان على أمر رسول الله ﷺ ويلاقوا ما لاقوا، والذي يهمنا هنا وجود نوع من التنسيق بين اليهود ورأس النفاق في المدينة إبن أبي، وفعلاً أرسل عليه إبن أخطب لما رأوا طلائع جيش النبي المصطفى ﷺ تعسكر قبال حصنهم أو على مقربة منه.

عن الواقدي: (فقال جُدَي[٢]: لما رأيت ابن أُبَي جالساً في ناحية البيت وابنه عليه السلاح[٣]، يئست من نصره...إلى أن قال....

قال: وما رد عليك ابن أُبَي؟

فقال جُدَي: لم أرَ عنده خيراً.

قال: أنا أرسل إلى حلفائي فيدخلون معكم)[٤].

السبب الثالث:

بامكاننا القول أن بني النضير من حيث الموقع وكذا بنو قريظة، كانا يمثلان فكي كماشة بالنسبة لوضع الرسول ﷺ في المدينة، ويمكنهما أن

---

(١) المغازي ١: ٣٦٩ ـ ٣٧٠، سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٢) وهو مبعوث حُيي بن اخطب إلى المنافق عبد الله بن ابي.

(٣) حيث نادى رسول الله بالخروج لحرب بني النضير.

(٤) المغازي ١: ٣٧٠، سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٢٢.

يؤديا دوراً مهماً واستراتيجياً من جهة التأثير على واقع المدينة الإقتصادي والاجتماعي والعسكري بل والسياسي أيضاً، حيث بمقدورهما أن يصنعا حصاراً مشتركاً يطوق عنق المدينة في أوقات الحاجة إلى ذلك.

فرفع أحدهما من الوجود المكاني يعني الإطمئنان النسبي لمستقبل المدينة من جهة ما يمكن أن يمثله يهود بني النضير ويهود بني قريظة إذا اتفقوا على شيء.

فجاءت الحرب معهم أو حصارهم لرفع هذا الذراع الضاغط على خصْر المدينة، مما يتيح لأهلها مستقبلاً أكثر أمانا واطمئنانا بالقياس إلى إستمرار وجود بني النضير في أماكنهم، وبقائهم فيه مع استمرارهم على نَفَس العداء والغيلة بمحمد الرسول ﷺ وأصحابه الميامين.

ويتيح لجيش التوحيد المدني حرية أكثر في التحرك والمواجهة، وحرمان العدو من مواضع التآمر، وثغرات الدخول، وقواعد التنسيق الإستخباراتي، كما فعل ذلك كله بنو النضير مع أبي سفيان في تعرضه للمدينة في غزوة السويق.

كما يتيح لنفوس المسلمين رغبة أكثر في مسك الحق والإنتقام من الباطل حيث ينحسر الوجود العدواني الذي يخطط مع المنافقين في ضرب الرسول ﷺ وصحبه الأبرار.

وأحسبها خطوة استراتيجية لإبعاد اليهود وقشع أخلاقياتهم الملتوية اللعينة عن أجواء المسلمين، الذي لا بد أن تتأثر ببعض عفونة هذه الأخلاق مع افتراض استمرار وجودها.

إن إبعاد اليهود يأتي في الحقيقة تطهيراً للنفس الإنسانية من بؤر الإنحدار الأخلاقي والهبوط النفسي، لأن رحيل وإجلاء اليهود يعني بالضرورة إجلاء تلك الأخلاقيات عن مناخ المسلمين، وعن أجيالهم الآتية التي هي

بلحوج ما يكون إلى الطهر النفسي، والسلامة الأخلاقية، والبراءة من العيوب، حتى تستطيع الرسالة أن تستمر بهم، وتمتد إلى أعماق جديدة ومساحات أخرى.

أرأيت انسجام الأخلاق الرذيلة مع اليهود، بدلالة اشتراكهم أو اشتراك عبد الله بن أبي دائماً في محاولة الدفاع عنهم، وإبعاد شفرة الإستئصال عنهم؛ وذلك للسنخية الأخلاقية بينه وبين اليهود، فنراه وقف مع يهود بني قَينقاع، ووقف مع يهود بني النضير، وسنرى مواقفه القادمة وهي تزيح اللثام عن معدنه الخبيث والمتجانس مع طبائع اليهود، وقديماً قيل (شبيه الشيء مُنجذبٌ إليه).

فالإحباط الذي مثلته غزوة بني النضير ليهود بني النضير ليس إحباطاً على صعيد تآمرهم ومكرهم في الليل والنهار للفتك برسول الله ﷺ، بل إنها مثلت إحباطاً آخر وهو دك هذه الأخلاقيات المستوطنة في نفوسهم، والتي هي في الواقع وباء خطير لو قدر له أن يسري في فئات المجتمع المدني الجديد.

السبب الرابع:

إنها حتماً ستحتوي الأزمات التي أصابت المسلمين في الماضي القريب، والتي كان بعضها قد جاء بسبب ما أصاب المسلمين في غزوة أُحد وناجم عنها أو كنتيجة لها، وما أصابهم بعد هذه الغزوة في بئر معونة والرجيع.

بينما جاءت غزوة بني النضير وهي تعيد اللواء إلى كف الرسول ﷺ مهاباً منصوراً.

وكانت يهود بني النضير تدرك مدى وعظمة هذا النصر الذي كسبه الرسول ﷺ والمسلمون، فخرجت من حصنها بعد الهزيمة المنكرة على يد

الرسول الأكرم ﷺ، ونزولهم على حكمه الذي أراد.

فقد خرجوا وقد لبست نساؤهم أرقى الثياب والحلي ومعهم الدفوف والمزامير، لكي لا يمنحوا المسلمين نشوة النصر، أو يخافوا منها لو ظهرت، ولكي يُغطّوا على الذلة والمسكنة التي ضربت عليهم فظهروا بهذا المهرجان المبهرج.

ففي السيرة النبوية: (انهم استقلوا بالنساء والأموال، معهم الدفوف والمزامير، والقيان يعزفن خلفهم...)[1]، تغطيةً منهم على تلك الذلّة التي ضُرِبَت عليهم وذلك الانكسار الذي حَطّم أُنوفهم ولف وجودهم.

غزوة ذات الرقاع

تعريف مختصر

ورد في السيرة النبوية: (ذات الرقاع في سنة أربع، قال ابن إسحاق:

ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد غزوة بني النضير شهر ربيع الآخر وبعض جمادي، ثم غزا نجدا يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري، ويقال: عثمان ابن عفان، فيما قال ابن هشام:

قال ابن إسحاق: حتى نزل نخلا، وهي غزوة ذات الرقاع.

قال ابن هشام: وإنما قيل لها غزوة ذات الرقاع؛ لأنهم رقعوا فيها راياتهم، ويقال ذات الرقاع: شجرة بذلك الموضع، يقال لها: ذات الرقاع.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٦٨٤، تاريخ الطبري ٢: ٢٢٦، البداية والنهاية ٤: ٨٧، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ١٤٨.

قال ابن إسحاق: فلقي بها جمعا عظيماً من غطفان، فتقارب الناس، ولم يكن بينهم حرب، وقد خاف الناس بعضهم بعضاً، حتى صلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف، ثم انصرف الناس) [١].

أسباب الغزوة

السبب الأول:

لقد ورد النبأ إلى رسول الله بوجود تجمع من بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، تريد هذه القوات الإئتلافية المشركة، الغدر بالرسول ﷺ وقتاله.

فما كان من رسول الله ﷺ إلاّ أن غزاهم بغتة في عقر دارهم هو ومن معه من المسلمين، ليقضي على ذلك الصلّف الذي ما زالت قبائل نجد تجاهر به وتظهره.

السبب الثاني:

ليقتص الرسول الأكرم ﷺ من هذه القبائل على ما فعلته من الغدر بأصحابه غداة ذهبوا لهم هادين وأدلاء لهم على دين الله.

فقتلوهم دونما رحمة. وما كان منهم قبال سريه القرّاء الشهداء في بئر معونة[٢].

وإن كان هذا القصاص جاء على سبيل إرعابهم، وتحطيم تعنتهم، وإشعارهم ما عليه المسلمون من الهيبة والقوة والمنعة.

وكما هو الظاهر أن السببين مرتبطان باعداء رسول الله ﷺ لا به ﷺ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٦٩٢.

(٢) ينظر أسباب غزوة الرجيع، وأسباب غزوة بئر معونة.

وإنما كان الرسول ﷺ في موضع الدفاع، ولكن على قاعدة الهجوم خير وسيلة للدفاع.

غزوة بدر الموعد

تعريف مختصر

روى ابن كثير: (بدر الآخرة وهي بدر الموعد التي تواعدوا إليها من أُحد كما تقدم.

قال ابن إسحاق: ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من غزوة ذات الرقاع أقام بها بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجباً، ثم خرج في شعبان إلى بدر لميعاد أبي سفيان.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول.

قال ابن إسحاق: فنزل رسول الله ﷺ بدرا وأقام عليه ثمانياً ينتظر أبا سفيان. وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنة من ناحية الظهران. وبعض الناس يقول: قد بلغ عسفان ثم بدا له في الرجوع فقال: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، فإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا. فرجع الناس فسماهم أهل مكة جيش السويق يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق)[1].

أسباب الغزوة

السبب الأول:

رد التهديد السفياني الذي أطلقه أبو سفيان في معركة أُحد، فقد عرفنا سابقاً أن أبا سفيان وفي أعقاب معركة أُحد أطلق وعيداً وتهديداً

---

(١) السيرة النبوية ابن كثير ٣: ١٦٩.

للمسلمين، مفاده أن قريش ستأتيهم في العام القادم؛ لغرض القتال معهم.

فما كان من الرسول الأعظم ﷺ إلاّ المواجهة لهذا التحدي، ورده بقوة رغم مايمر فيه المسلمون من ظرفٍ عصيب.

فإن هذه (الإستجابة) كانت ضرورية جداً للمسلمين، لأنه بخلاف خروجهم لمواجهة أبي سفيان وقد أعطوه جواباً إيجابياً عندما فرض موعداً قادماً للقتال يكونوا قد تراجعوا عن كلمتهم، ولا يمكن تبرير هذا التراجع إلاّ بالخوف والجبن وعدم الجرءة في مواجهة المشركين، حتى وإن كانت المبررات غير هذه وكانت وجيهة ومقبولة، إلاّ إن مجال الإجتراء مفتوح.

وإن الرسول ﷺ لا يريد أن يقود جيشاً يشعر بالتراجع والتهيب أمام قوى الظلام والعدوان القريشي، فإن الأمّة سوف تبقى منتكسة إن أعطت كلمتها في التحدي والرد على الجبابرة ومن ثم تنكص عندما يحصل الموعد ويحين اللقاء.

إن مجرد شعور الأمة التي يقودها النبي ﷺ - حتى ولو في ما يأتي من الزمن البعيد - أنها هُزمت أمام التهديد وبدون لقاء ومواجهة الأعداء، فإنها سوف تستسهل الفرار من الحرب وتقبل مسألة الجبن، وتبرر لنفسها العيش في ذل وهوان.

أما لو أطلقت عِقالها وباشرت عدوها، وأصابت منه، وكانت عند التزامها الذي أطلقته - أو حتى إن لم تطلق إلتزاماً بمجرد أنها تَردّ التهديد وتشعر الجبار بوجوب تأديبه - فهذا كله يشعرها بالإعتزاز ويشعرها بالعظمة والفاعلية والشجاعة والإباء، حتى وإن أُصيب منها شيء أو غلبها العدو، أو أصابتها هزيمة في تلك المعركة.

إن الذي يستجيب للتحدي ويواجه الغرور والصلف ويقف أمامه بصلابة الأبطال ونفوس الأحرار، ليس كالذي يقعد وقد أصابه الخور

والارتجاف من مجرد تهديد وتحدي العدو.

حتى مع فرض الهزيمة في الأول ـ أي مع فرض المواجهة ـ، فتلك هزيمة مع إستنفاذ الطاقة واستفراغ الوسع، ومحاولة الرد والصد، أما الثانية ـ في حال القعود وعدم المواجهة ـ فهي هزيمة مع العدم لهذه المفردات، وهذا أمر بشع مرفوض.

صحيح أن كليهما هزيمة، ولكن في الحالة الأُولى هزيمة فقط، وأما الهزيمة في الحالة الثانية فهي هزيمة وزيادة، بل حتى التاريخ سيروي لنا حدثاً لتراجع المسلمين وجبنهم المنقطع النظير.

أما مع المواجهة فإن أبا سفيان وصفوان بن أُمية وأضرابهم، فسيكون موقعهم مدعاة للخجل وهبوط الهمة، والتلجلج أمام كل من يذكر هذه الحادثة وإلى الآن، لأنها مؤشر أخلاقي غاية في السوء والسَلب بالنسبة لهم.

لذلك كانت الإستجابة للتحدي استجابة للتاريخ، وصناعة للمكان المجيد الذي يجب أن تتبوّه أمة محمّد ﷺ وتدافع عنه بروح أولئك المدافعين عنه في الماضي حيث الرسول ﷺ وأصحابه الأبرار.

وكان الرفض للخروج معناه إنعدام لثقة الأمة بنفسها، وفقدان لتلك المكانة المجيدة واعطاؤها للأعداء والمشركين على طبق من ذهب.

لذلك نرى الرسول ﷺ أبى إلاّ أن يخرج لهذا التحدي ويقابله بالسيف ويرفع له شعار القتال بكل عزيمة وإصرار (وأقبل رجل من بني ضَمْرَة يقال له مَخشي بن عمرو وهو الذي حالف رسول الله ﷺ على قومه في غزوة رسول الله ﷺ الأولى إلى وَدّان.

فقال والناس مجتمعون في سوقهم وأصحاب رسول الله ﷺ أكثر أهل ذلك الموسم: يامحمّد، لقد أُخبرنا أنه لم يبقَ منكم أحد، فما أعلمكم إلاّ أهل الموسم، فقال رسول الله ﷺ، ليرفع ذلك إلى عدوه من قريش: «ما

أخرجنا إلاّ موعد أبي سفيان وقتال عدونا»[(١)] .

فهذا توثيق من الرجل الأول في جيش المسلمين والقائد العسكري العام لقواتهم يحدد فيه سبب خروجه إلى بدر الآخرة، ويؤكد هذا الخروج ولهذا الغرض.

ولو لم يكن هذا الموعد إذن لما تجشم رسول الله الأكرم ﷺ العناء وسار إلى هذا المكان وأصحابه معه، ولباشروا أعمالهم وتبليغاتهم التي أراد الله (ولو تُرِكَ القطى لنام)، ولكن هناك من يهيجه ولأسباب عديدة.

ثم يؤكد ﷺ نغمة التحدي هذه ويُثبتها لدى السائل والسامع؛ ليسمعها أهل الموسم ومن جاء من العرب إلى بدر للتجارة والبيع والشراء، إنه ﷺ مستعد لأن ينقض الحلف بينه وبين هذا الرجل وقومه، وهذا معناه أنه قوي ولا يحتاج إلى مُعين يشد ساعده ويمسك ظهره، مع كونه قادماً لمناجزة قوم مشركين.

وفي هذا الكلام دلالة على سياسة النبي ﷺ وطريقة إخافته العدو القادم حيث شعر الرسول ﷺ أن في كلام مَخشيّ نبرة استضعاف للمسلمين واستغفال لعظمة وجودهم: ولكي يرفع ذلك التوهم الذي وقع به مخشي بن عمرو.

وإلاّ فالرسول ليس داعية حرب كما هو معلوم، وليس في رغبته أن يُقحم جُنده في بحر من دماء، ولا حتى الآخرين الذي جاء لإنقاذهم ورفع غمامة الظلم عنهم، وإن كانوا أعداءه بالفعل، ولذلك قال ﷺ: **«وإن شئت مع ذلك نبذنا إليك وإلى قومك العهد، ثم جالدناكم قبل أن نبرح من منزلنا هذا»**[(٢)].

---

(١) المغازي ١: ٣٨٨، انظر سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٣٨.

(٢) المغازي ١: ٣٨٨.

فجيش له القدرة أن يقاتل قوماً يلقاهم في الطريق وهو ماضٍ إلى قتال عدوه الذي لم يلقه بعد، لَحري أنْ يُهاب وتُعظمه العيون والأسماع، وتخافه النفوس لأنه مجالد صبور شجاع متحدي.

السبب الثاني:

ليقتل التردد الذي عبث بنفوس المسلمين، حيث إن المسلمين لما سمعوا أن جيش قريش مستعد هذه المرة إستعداداً تاماً لحرب المسلمين ولاقبل لأحدٍ به، وأنه متوجه بقوة كبيرة نحو بدر الآخرة حتى يلقى المسلمين للمِدَة التي أعطاها لهم في أُحد، باتوا والقلق يرهق نفوسهم، والتردد ينال من عزيمتهم، وآثروا البقاء على الخروج.

فجيش العدو سيأتي بزهوه يطمع أن يحصل من المسلمين على غرة كالتي حصل عليها في أُحد، فيسجل عليهم إنتصاراً تاريخياً.

فإن كان قد فاته في أحد أن يمسك بقصب السبق، وكأس النهاية بإحكام، فإنه في هذه المرة سيشرب نخب النصر على جماجم المسلمين، وإن كان النصر حليفاً للمسلمين في أحد رغم الذي حل بهم [١]، فلن يَدعهم أبو سفيان هذه المرة يعودون ولهم لواءٌ يخفق بالنصر والظفر.

هكذا تهيأ للمسلمين أو الضعفاء منهم، هذا مع كونهم خاضوا حروباً بعد بدر وكسبوا جولات، ولكن كما يبدوا فإن شبح ملحمة أحد لا زالَ متسلطاً على خيالهم فصاروا يطمعون بالعافية والسلام على ما في أيديهم من نتائج جهادية مرموقة.

ولكن فاتهم أن خطر نتائج مثل هذه الأمور وخيم جداً (لقد رأيتنا وقد قُذِف الرعب في قلوبنا، فما أرى أحداً له نية في الخروج، حتى أنهج

---

(١) انظر بحثنا (في أحد من انتصر على من) في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

الله تعالى للمسلمين بصائرهم، وأذهب عنهم تخويف الشيطان)[١].

ونحن إن قبلنا هذه الرواية أو لم نقبلها، وسواءاً قبلنا تقييم عثمان بن عفان فيها للمسلمين أم لم نقبل[٢]، لا بد لنا من القبول أن هناك تخوفاً عند المؤمنين وترددا في الخروج للحرب في الجملة.

إذ ينقل لنا الواقدي في مغازيه قولاً لرسول الله ﷺ فيه دلالة على هذا القعود عن الحرب، والتراخي أمام الموعد: (قال ﷺ: **«والذي نفسي بيده، لأخرجنّ وإن لم يخرج معي أحد!»**.

قال: فلما تكلم رسول الله ﷺ تكلم بما بصّر الله عَز وجل المسلمين، وأذهب ما كان رعبهم الشيطان)[٣].

فالخروج للحرب قتل هذه الظاهرة الجديدة في كيان المسلمين، ولتخوفهم من العدو بمجرد أنه أذاع دعاية مفرضة، أراد أن يهزمهم بها نفسيا وإن كان هو المهزوم في الواقع.

لماذا نشك؟

والذي يجعلنا نشك في رواية عثمان بن عفان، هو كلامه المطلق هذا، وهذا أمر لا يمكن قبوله، إذ في جيش المسلمين من الشجعان الصناديد، ومن الأبطال وحملة الألوية والرايات من لا يُشق له غبار، ومن يخجل من دعاية كونه خائفاً، وإن كان جيش الشرك بقدر عدد أهل الأرض.

فهل نسينا الصامدين عند رسولهم العظيم ﷺ في يوم أُحد الذين

---

(١) المغازي ١: ٣٨٧. وهذا القول لعثمان بن عفان.

(٢) سنتعرض لهذا الكلام فيما بعد.

(٣) المغازي ١: ٣٨٧، سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٣٧، وانظر السيرة الحلبية ٢: ٥٨٠.

أبلوا من أجل الدفاع عنه وعن حياض رسالته بلاءً حسنا، دون أن يفكروا بالهزيمة. أو يذهبون بها عريضة[١]، ودفعوا الكتيبة تلو الكتيبة عن وجه رسول الله ﷺ، وقتلوا أصحاب الرايات القريشية تباعاً دون كللٍ أو مللٍ، ووقفوا بجنب رسول الله ﷺ في تلك الوقفة التاريخية المُشَرفة، والناس قد فروا شرقاً وغرباً حباً بالسلامة، ورسول الله ﷺ يدعوهم في أُخراهم.

فيجب أن لا نغمط حق الشجعان وأصحاب البطولات والصولات، ومن كانت لهم الهيجاء عيداً، هؤلاء لا يخافون من جمع غاشم وسطوة معتدٍ آثم، والحق أن بدون هؤلاء يمكننا أن نصدق نقل عثمان وتقييمه، وأن لا يوصم بصفة يأنف الحر من ذكرها. هذا أولاً.

وأما ثانياً: ليس ببعيد كما يقول علماء النفس أن عثمان قد استحوذ عليه الخوف الشديد والرعب الأكيد، فصار ينظر للناس ـ بعين طبعه ـ كلهم خائفين خائرين لا عزيمة لهم ولا همة، حتى قال: (لا أرى أحداً له نية في الخروج).

أما كلمة الرسول الأكرم ﷺ التي أوردناها والتي قد يعتقد أحد أنها تؤكد كلام عثمان بحيث قال ﷺ: **«والذي نفسي بيده، لأخرجنّ وإن لم يخرج معي أحد»**.

فهذه الكلمة لاتعني أنه ليس من أحد يريد الخروج، وإنما يعني أن هناك من المسلمين من لم يرد الخروج.

وقال ﷺ هذه الكلمة حتى يحفزهم للخروج، ويقتل نقاط التثبيط في نفوسهم ويدفنها، وفعلاً أفلح الرسول المصطفى ﷺ في ذلك وخرج في جيش قوامه ألف وخمسمائة صحابي.

---

(١) معناها في فرار عثمان يوم أُحد، كما في الكامل في التاريخ

السبب الثالث:

الرد على قريش، على ما فعلتهُ بأصحاب الرسول ﷺ ممن أخذته في بعثة الرجيع ونالت منهم، وقتلتهم، وقد جاءوا مسالمين مبلغين ولم يكونوا[1] لقريش قاصدين، إنما أسلمهم القوم لهم، وكان ذلك الفعل منهم مع خُبيب وزيد بن الدَّثنة، مما تقشعر منه الجلود.

فلو لم يخرج المسلمون إلا لواحدة من هذه الثلاث لكفاهم مبرراً في قتال المشركين، علماً أن المشركين هم الذين ضربوا الموعد الزمني وحددوا المكان القتالي، وقد خرجوا فعلاً لملاقاة المسلمين.

وهذه النقاط الثلاث مجتمعة تؤدي غرضاً مهماً هو المحافظة على هيبة الإِسلام والمسلمين، وتعزز من موقعهم الإجتماعي بين القبائل، وتعزز بقوة ثقتهم بأنفسهم، وتقضي على مواطن الضعف والتردي في النية والقلب.

وتعزز موقعهم في نفس المدينة، حيث أُمنيات المنافقين تذهب سدىً إذ كانوا لا يرغبون في خروج المسلمين، حتى يُتّهموا بالجبن وتسهل الإغارة عليهم فيما بعد، وإن خرجوا فلا يرغبون أن يعودوا منتصرين، وقد خشيهم عدوهم فلم يجرؤ على لقائهم متذرعاً بأوهى من خيوط العنكبوت.

السبب الرابع:

لغرض بناء المسلمين، حيث تعويد المسلمين على روح التوكل على الله واعتباره جل شأنه هو سر النصر ومفتاحه، فالمتوكل قوي بالله، والفاقد للتوكل فاقد بالضرورة لقوة تعينه وتكون بجنبه في المزاهز والمكاره هي قوة

---

(١) على بعض الروايات.

الله تبارك وتعالى.

وإن اعتبار الجيش قوياً في عدده وعدته مقياسٌ وإن كان مؤثراً في موازين القوى ومعادلة الصراع، إلا أنه يجب علينا أن نفهم أن هناك مقياساً مهماً يجب أن لا يُفقد، وأنه من الضروري جداً التعويل عليه، وهو مسألة نصر الله، والتوكل على الله، والإرتباط به أشد الإرتباط.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[1]، وقال كذلك تبارك اسمه: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2] فلا ننسى إذن نصرة الله ولا ننسى أنه مع الصابرين المتوكلين.

غزوة بئر معونة

تعريف مختصر

جاء في تاريخ الطبري: (عن أنس بن مالك قال: بعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو في سبعين راكباً فساروا حتى نزلوا بئر معونة، وهي أرض بين أرض بني عامر وحرة بني سليم كلا البلدين منها قريب، وهي إلى حرة بني سليم أقرب.

فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا لن نخفر أبا براء قد عقد لهم عقداً وجواراً.

---

(١) آل عمران: ١٢٣.

(٢) البقرة: ٢٤٩.

فلما رأوهم أخذوا السيوف ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد أخا بني دينار ابن النجار فإنهم تركوه وبه رمق فارتث من بين القتلى فعاش حتى يوم الخندق، وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار أحد بني عمرو ابن عوف، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر، فقالا والله إن لهذه الطير لشأناً، فأقبلا لينظرا إليه فإذا القوم في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة.

فقال الأنصاري لعمرو بن أمية ماذا ترى.

قال أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر فقال الأنصاري: لكني ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو وما كنت لتخبرني عنه الرجال.

ثم قاتل القوم حتى قتل وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً فلما أخبرهم انه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه) [1].

لقد اختلفت واضطربت الروايات في بئر معونة إلى الحد الذي لم يبق فيها مورد من مواردها تقريباً إلا وورد فيه ذلك الإضطراب في النقل والإختلاف بالتوثيق.

وقد كفانا مؤنة البحث في ذلك السيد العاملي في صحيحه، فقد قدم بحثاً إستقصائياً مفصلاً عن تلك البعثة التي يمكن أن نسميها بعثة الشهداء، وبيّن أن هناك إختلافاً تاريخياً في عددها وسببها وبقية أنحاءها، والغرض منها، وما إلى ذلك مما يدور حولها عادة في مجال البحث والنظر والتدقيق.

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٢٢٠.

ويبقى القول:

أنه مع كل تلك الإختلافات يبقى أمرٌ مهمٌ في المقام، وهو الذي يهمنا هنا، هو أن هناك بعثاً من رسول الله ﷺ قُتل بأجمعه، وكان السبب الغالب للقتل الغدر بهم وخفر ذمة من أجارهم.

وإنهم خرجوا بطلب من الرسول ﷺ بمهمة مسالمة أو سلمية لتبليغ رسالات الله، حيث طلب منه ﷺ رجل اسمه عامر بن مالك بن جعفر وكنيته أبو البراء ذلك، وكان الهدف العام لهذه البعثة توصيل صوت الله تعالى ورسالة رسول الله ﷺ إلى أهل نجد وبالذات قوم عامر بن مالك، الذي كان يرجوا لقومه إجابة الدعوة، واتباع الأمر.

ولكن حصل الأمر بعكس المطلوب، ولم يأت إلى الرسول الأعظم ﷺ إلا نعيُهم وخبر شهادتِهم، وقتلهم غدراً، وبطريقة تثير الألم والأسى والسخط في آنٍ واحد.

وعلى أية حال:

لم تقل المصادر أن الرسول الأكرم ﷺ بعث بقوم إلى قومٍ ليقاتلوهم، ويغمدوا السيف فيهم، وإنما بهذه المهمة السلمية لا غير.

ولكنهم لاقوا حرباً طاحنة أتت على آخرهم أو نجا منهم أحدهم بعد أسره، ولاقوا كيداً لا قبل لهم به فذهبوا ضحية غدر الشرك وخفر الذمة.

إن بئر معونة تضيف لنا دليلاً بيناً أن الرسول ﷺ كان يريد إيصال صوته ونشر دعوته بالأساليب السلمية، ومع علمه ﷺ بما يكمن في نفوس أهل نجد من العقد، بقوله لعامر بن مالك حيث طلب منه تلك

البعثة: «إني أخاف عليهم[١] أهل نجد»[٢].

ويريد ﷺ أيضاً أن يجتنب السيف والرمح والسهم والقوس في تلك الدعوة؛ لأنه سيد العارفين في أن القوة لا تصنع فكراً، وإنها لا تدخل عقيدة إلى أدمغة الناس، إنما الذي يفعل ذلك قُرآنه الشريف، والكلمات الإحتجاجية المؤثرة المقنعة.

لذلك اختار رجالاً من خيرة أصحابه لهذه البعثة، وأهل العبادة وقراءة القرآن حتى أنهم كانوا يسمونهم بالقراء؛ لانشغالهم بقراءة القرآن ودراسته والتعبد به وبالصلاة طول الليل.

نعم صحيح أن أولئك العبّاد لم يعوزهم ضرب السيف، وطعن الرمح إذا جد الجد واستعرت الحرب فهم أبناء المعارك، وأبناء المقاتلين، ولكن صلب مهمتهم كانت الإبلاغ لرسالات ربهم.

وإن بعثهم يضيف لنا دليلاً آخر أن الحرب عند رسول الله ﷺ كانت إضطرارية على هذا النحو الذي لايرى معه سبيل آخر، إلا الدفاع عن نفسه من هؤلاء الذين لا يعرفون قيمة الحوار ولغة تبادل الرأي، وضرورة التوصل إلى الحلول بالطرق السلمية.

إنهم يعرفون الرد بالسيف، ولا شيء سواه، إلاّ نفرٌ منهم قليل، لذا نقول أن بئر معونة كانت من الأدلة البينة والساطعة في ذلك، أي بيان منهج رسول الله ﷺ في العمل بمبدء السلام وفي بيان منهج أهل الشرك في التعسف والظلم ومباشرة الحرب.

حيث: (قدم عامر بن مالك بن جعفر أبو البراء مُلاعب الأسنة على

---

(١) عليهم: على اصحابه.

(٢) المغازي للواقدي١: ٣٤٦، سبل الهدى والرشاد ٦: ٥٧، وانظر تاريخ ابن خلدون ٢: ٢٧.

رسول الله، فأهدى لرسول الله ﷺ فرسين وراحلتين، فقال رسول الله ﷺ: «لا أقبل هدية مشرك» فعرض رسول الله ﷺ عليه الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد.

وقال: يا محمّد إني أرى أمرك هذا حسناً شريفاً، وقومي خَلْفي، فلو أنك بعثت نَفَراً من أصحابك معي لرجوت أن يجيبوا دعوتَك ويتبعوا أمرك، فان هم اتّبعوك فما أعَزَّ أمرك! فقال: رسول الله ﷺ: «إني أخاف عليهم أهل نجد» فقال عامر: لا تخف عليهم، أنا لهم جائرٌ أن يعرض لهم أحد من أهل نجد.

وكان من الأنصار سبعون رجلاً[1] شَبَبَةً[2] يُسَمَّون القُرّاءَ، كانوا إذا أمسَوا أتوا ناحية من المدينة فتدارسوا وَصَلَّوا، حتى إذا كان وجه الصُبْحِ استعذبوا من الماء وحطبوا من الحَطَب فجاءُوا به إلى حُجَر رسول الله ﷺ، وكان أهلوهم يظنُّون أنهم في المسجد، وكان أهل المسجد يظنُّون أنهم في أهليهم.

فبعثهم رسول الله ﷺ، فخرجوا فأصيبوا في بئر مَعونة. فدعا رسول الله ﷺ على قَتَلَتهم خمس عشرة ليلة.

وقال: أبو سعيد الخُدْري: كانوا سبعين، ويقال: إنهم كانوا أربعين، ورأيتُ التَّبْت على أنهم أربعون. فكتب رسول الله ﷺ معهم كتاباً، وأمّر على أصحابه المُنذِر بن عمرو الساعدي، فخرجوا حتى كانوا على بئر مَعونة، وهو ماءٌ من مياه بني سُلَيم، وهو بين أرض بني عامر وبني سُلَيم، وكِلا البَلَدَين يُعَدّ منه.

---

(١) ولقد ذكرنا ان مصادر التأريخ تختلف في ذكر عدد الصحابه، وحتى في كونهم فقط من الأنصار.

(٢) الشيبة: الشبان، واحدهم شاب (النهاية ٢: ٢٠١).

فحدثني مُصْعَب بن ثابت: عن أبي الأسود، عن عُروة، قال: خرج المُنْذِر بدليل من بني سُلَيم يقال له المطَّلب، فلمّا نزلوا عليها عسكروا بها وسرّحوا ظَهْرَهم. وبعثوا في سرْحهم الحارث بن الصِّمَّة، وعمرو بن أُمَيّة.

وقدّموا حَرام بن مِلْحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطُّفيل في رجال من بني عامر، فلمّا انتهى حَرام إليهم لم يقرأوا الكتاب، ووثب عامر بن الطُّفَيل على حرام فقتله؛ واستصرخ عليهم بني عامر فأبَوا.

وقد كان عامر بن مالك أبو بَراء خرج قبل القوم إلى ناحية نَجْد فلخبرهم أنه قد أجار أصحاب محمّد، فلا يَعرضوا لهم، فقالوا: لن يُخْفَر جِوار أبي بَراء.

وأبت عامر أن تنفر مع عامر بن الطُّفيل، فلمّا أبت عليه بنو عامر استصرخ عليهم قبائل من سُلَيم ـ عُصَيَّة ورِعْلاً ـ فنفروا ورأسوه، فقال عامر بن الطفيل: أحلف بالله ما أقبل هذا وحده! فاتّبعوا إثره حتى وجدوا القوم، قد استبطأوا صاحبهم فأقبلوا في إثره، فلقيهم القوم والمُنْذر معهم، فلحاطت بنو عامر بالقوم وكاثروهم، فقاتل القوم حتى قُتل أصحاب رسول الله ﷺ.

وبقي المُنذر بن عمرو، فقالوا له: إن شئت آمنّاك. فقال: لن أُعطي بيدي ولن أقبل لكم أماناً حتى آتي مَقتلَ حَرام، ثم برئ منّي جِواركم. فآمنوه حتى أتى مصرع حَرام، ثم برئوا إليه من جِوارهم، ثم قاتلهم حتى قُتل، فذلك قول رسول الله ﷺ: «أعْنَق ليموتَ»[1].

وأقبل الحارث بن الصِّمَّة وعمرو بن أُمَيّة بالسرح، وقد ارتابا بعكوف الطير على منـزلهم أو قريبٍ من منـزلهم، فجعلا يقولان: قُتل والله أصحابنا، والله ما قتل أصحابنا إلاّ أهلُ نجد! فأوفى على نَشَزٍ من

(١) أعنق ليموت: أي إن المنية أسرعت به وساقته إلى مصرعه. (النهاية ٣: ١٣٣).

الأرض فإذا أصحابهم مقتولون وإذا الخيل واقفة.

فقال الحارث بن الصِّمَّة لعمرو بن أُميّة: ماترى؟ قال: أرى أن الحقَ برسول الله ﷺ فأخبره الخبر. فقال الحارث: ما كنت لأتأخَّرَ عن مَوطنٍ قُتل فيه المنذر.

فأقبلا للقوم فقاتلهم الحارث حتى قَتل منهم اثنين، ثم أخذوه فأسروه وأسروا عمرو بن أميّة، وقالوا للحارث: ما تحب أن نصنع بك، فإنّا لا نحبّ قَتْلك؟ قال: أبلغوني مَصرع المُنْذِر وحرام، ثم برئت منّي ذمتكم.

قالوا: نفعل. فبلغوا به ثم أرسلوه، فقاتلهم فقتل منهم اثنين ثم قُتل، فما قتلوه حتى شرعوا له الرماح فنظموه فيها.

وقال عامر بن الطُّفيل لعمرو بن أميّة، وهو أسير في أيديهم ولم يُقاتل: أنه قد كانت على أمّي نَسَمَة، فأنت حُرٌ عنها! وجزّ ناصيَتَه...... إلى أن قال:

فلمّا جاءَ رسولَ الله ﷺ خبر بئر معونة، جاء معها في ليلة واحدة مُصابهم ومُصاب مَرْثَد بن أبي مرْثَد.

وبعث محمّد بن مَسْلَمَة، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «هذا عَملُ أبي براء، قد كنت لهذا كارهاً»[1].

---

(١) المغازي للوقدي ١: ٣٤٧ ـ ٣٤٩، وانظر تاريخ الطبري ٢: ٢١٩ ـ ٢٢١، إعلام الورى بأعلام الهدى ١: ١٨٦ ـ ١٨٧، سيرة ابن هشام ٣: ٦٧٨ ـ ٦٨٠، عيون الأثر ٢: ١٦ ـ ١٧، البداية والنهاية ٤: ٨٣ ـ ٨٤، سبل الهدى والرشاد ٥٧ ـ ٥٩.

أسباب معركة دومة الجندل[١]

السبب الأول:

قد نَقَلَت لنا كتب السيَر والتاريخ أن السبب الرئيسي لهذه الغزوة هو سماع الرسول الأعظم ﷺ أن جمعاً ظالماً قاطعاً للسبيل، ناهباً للمارة، مفزعاً لأصحاب المتاع والميرة، ينوي ـ علاوة على هذا الجمع ـ الإقتراب من مدينة رسول الله ﷺ.

ومعلوم ماذا يعني دنو شرذمة من هذا النوع من المدينة، أنه ليس إقتراب رحمة وموادعة، وقد عُجنت طينتهم بالجريمة وقطع السبيل، وبنيت أنفسهم على السحت الحرام.

إنه إقتراب تخريب، وظلم، وإفساد، وعبث ليس له طائل، وتآمر حتى الهامة، وتهديد لكل قيمة خيرة وفضيلة حسنة بناها النبي الأكرم ﷺ.

جاء في كتاب المغازي: (وقد ذكر له[٢] أن بدومة الجندل جمعاً كثيراً، وأنهم يظلمون من مرّ بهم من الضافِطة[٣]، وكان بها سوق عظيم وتجار، وضَوى اليهم قوم من العرب كثير، وهم يريدون أن يدنوا من المدينة)[٤]

---

(١) ورد في معجم البلدان للحموي ج٢ ص٥٥٤ : (وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل وقال أبو عبيد السكوني: دومة الجندل حصن وقرىً بين الشام والمدينة قرب جبلَي طيئ، كانت به بنو كنانة من كلب) ، ومعلوم أن الشام يحكمها القيصر عن طريق الغساسنة القاطنين فيها.

(٢) للرسول الأعظم ﷺ.

(٣) الضافطة: جمع ضافط: وهو الذي يجلب الميرة والمتاع إلى المدن، والمكاري الذي يكري الاحمال، وكانوا يومئذٍ قوماً من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت). النهاية ٣: ٢٢.

(٤) المغازي١: ٤٠٣، وانظر البداية والنهاية ٤: ١٠٥، عيون الأثر ٢: ٣٢، السيرة

لذلك ندب الرسول ﷺ قواته وجنده للخروج لهم واستئصال شأفتهم.

السبب الثاني:

أراد الرسول ﷺ أن يجس نبض ملك الروم، ويعرف ردود فعله بإزاء فعل الرسول ﷺ وهل يضمر العداء للمسلمين بحيث يَرِدُ عليهم أم أنه ليس له مساس بشأنهم.

قال في البداية والنهاية: (قالوا أراد رسول الله ﷺ أن يدنو الى أداني الشام، وقيل له أن ذلك مما يفزع قيصر....) [1]

وعلى أية حال: فإن الدنو من الشام أمر يحمل الفزع لقيصر الروم، وقيصر الروم يقف على رأس حضارة مناوئة للإسلام، ودولة يتحكم بها دين وعقيدة لها أهمية وسمعة وكيان وحاكمية، ولم تقر الإسلام بعد كونه دين سماء، وخطاب وحي، وناسخ لما هم عليه.

ولعله بدرت منه مواقف معادية للإسلام، مما يعني أن الجيش الذي توجه به الرسول الأعظم ﷺ إلى أدنى الشام سيمثل حالة استفزاز، وحالة من الإستفهام الكبير والنظر المحير أمام عظيم الروم.

ما الذي كان يقصده محمّد ﷺ من هذه المناورة العسكرية، هل لغرض إيداع القلق في قلب القيصر، أم استعراض لعضلات العسكر، أم أنها خطة سياسية يرمي بها محمّد ﷺ المستقبل البعيد. أم ماذا؟.

إن مجرد ايداع هذه التساؤلات، وإبقاءها دون أجوبة واضحة تدعوا الروم لإن يحسبوا حساباً لمحمّد النبي ﷺ وجيشه، وهذا معناه أن الرسول محمّداً ﷺ خرج دعائياً من إطار جزيرة العرب وما حولها وصار يطرق جُدُر

النبوية لابن كثير ٣: ١٧٧، سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٤٢.

(١) البداية والنهاية ٤: ١٠٥.

الأمبراطوريات العظمى ويقرع أبوابها.

إنها الكارثة !!

وهذا طرفٌ من سياسة الرسول ﷺ الخارجية، الذي يُعلن من خلالها للعالم أجمع، أنه موجود وأن إغماض الطرف عنه سياسة تعتبر واقعة تحت لعنة الغباء، ولا يتمكن رجل كمحمّد ﷺ أن يجوب الصحراء ومعه جنده دون أن يكون له نفوذ، أو خطر غير ذي بال.

إنه إذن محمّد المستقبل الذي سيبني، أو بني له الآن أسس لامبراطورية التوحيد ولحضارة الإسلام الجديدة.

وهذا عين التهديد والخطورة وإن لم يتحرك الرسول الأعظم ﷺ من موضعه، فكيف وقد تناقلت أخبار هجومه الأخير الركبان إلى بلد الفرس والرومـان؟.

وما نريد قوله أن هذه الغزوة إنما جاءت لتدفع ظلماً واقعاً وفتنة لاقحة، وإن الدفع للظلم والفتنة أمرٌ بالاضافة إلى مشروعيته، فإنه لا بد منه وإلاّ فلا يترك الظلم أحداً إلاّ سبله، والفتنة أحداً إلاّ ظلّلته.

وإذا كان الأمر دَفع العدوان والظلم والفتنة العمياء فالأمر في قبول الحرب واضح، كما قبلناه من قبل وبنفس العلل والملاكات.

سبب غزوة بني المصطلق (المُرَيسيع)

وهذه الغزوة لا تختلف عن أخواتها السابقات في السبب المحرك لحرب الرسول ﷺ لهؤلاء القوم من خزاعة، فقد كانوا يعدون العدة والعدد ويسيرون في العرب؛ ليجمعوا منهم لحرب رسول الله ﷺ.

وقد نقل صاحب كتاب المغازي في توضيح السبب ما يغنينا عن

اطالة الحديث عن هذه الغزوة.

جاء في كتاب المغازي: (إن بني المصطلق من خزاعة كانوا ينـزلون ناحية الفُرْع، وهم حلفاء في بني مدلج، وكان راسهم وسيدهم الحارث بن أبي ضِرار، وكان قد سار في قومه ومن قدر عليه من العرب، فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ، فابتاعوا خيلاً وسلاحاً وتهيأوا للمسير إلى رسول الله ﷺ)[1].

وقد أمكن الله رسوله المكرم ﷺ منهم إذ جمع الأنصار والمهاجرين وساروا لهم ونزلوا بساحتهم فساء صباح المنذرين، وانتهت الدائرة للمسلمين ومغنماً كثيراً في حوزتهم.

هكذا تقول كتب التاريخ: (فرمى المسلمون ساعة بالنبل، ثم إن رسول الله ﷺ أمر أصحابه أن يحملوا، فحملوا حملة رجلٍ واحد فما أفلَتَ منهم إنسان، وقتل عشرة منهم وأسر سائرهم.

وسبى رسول الله ﷺ الرجال والنساء والذرية، وغنمت النعم والشاء، وما قُتِل أحدٌ من المسلمين إلاّ رجل واحد)[2].

أسباب غزوة الخندق

تعريف مختصر

قال الطبري في تاريخه: (أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي في نفر من

---

(١) المغازي ١: ٤٠٤، وانظر إعلام الورى بأعلام الهدى ١: ١٩٦.

(٢) المغازي للواقدي ١: ٤٠٧، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ٢٩٨، سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٤٥، وانظر إعلام الورى بأعلام الهدى ١: ١٩٧، عيون الأثر ٢: ٨٠.

بني النضير ونفر من بني وائل، هم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ.

وقالوا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه؟

قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه، قال فهم الذين أنزل الله عزوجل فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا - إلى قوله تعالى - وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما قالوا ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فأجمعوا لذلك واتعدوا له، ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً تابعوهم على ذلك وأجمعوا فيه فأجابوهم فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب.

وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر في بني فزارة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري في بني مرة، ومسعود ابن رخيلة بن نويرة بن طريف بن سحمة بن عبد الله بن هلال بن خلاوة بن أشجع ابن ريث بن غطفان فيمن تابعه من قومه من أشجع، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وبما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة)[1].

من أوضح الواضحات أسباب الغزوة في الخندق، وتجمّع ما يمكن تسميته بقوات التحالف المشركة وبهذا العدد الهائل والإستعداد الكبير.

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٢٣٣.

ومن أشكل الإشكالات القول بأن الخندق كانت إعتداءً من المسلمين أو تجاوزاً من طائفة المؤمنين فهذا خلاف الإنصاف، وخلاف وثائق ومنطق التاريخ، وكل ما يمكن قوله هنا ولوضوح ذلك طبعاً أن الرسول الكريم ﷺ إنما خرج لمحض الدفاع عن المدينة، وصرف قوات الشرك عنها[1].

فلم يكن الرسول المصطفى ﷺ مبتزاً لِعير قريش كما يحلوا للبعض أن يسميه، ولا محاصراً لإقتصادهم، ولا قاتلاً لأشرافهم، وماكان داعية حرب، إذ لم يحشد الجموع ويجيش الجيوش، ويقطع المسافات تلو المسافات نحو مكة، ولم يذهب في القبائل والشعوب يدعوهم للقتال والتحزّب، ولم يتآمر مع اليهود ويكيد معهم على فئة ما وإن كانت عادية معادية.

إن ذلك إنما واجهه رسول الله ﷺ من قومه ومن تحالف معهم، ووقف بكل قوة للدفاع عن مبادئه وحياض منهجه، دافعاً للكيد اليهودي، والغزو القريشي، والتآمر العشائري، والتنسيق القبلي بين رؤساء وزعماء القبائل العربية المجتمعة عليه هذه المرة، لترميه من قوس واحد.

نعم إنه اتخذ كافة التدابير الممكنة لدفع هذه الغائلة العُظمى والنازلة الكبرى، وأجهد نفسه الشريفة في التخطيط والتنسيق، وتوظيف كل الطاقات، وتنفيذ كل فقرة من برنامجه الدفاعي هذا، من حفر الخندق ومن مقاتلة أبطال المشركين، ومن حراسة أبواب الخندق، ومن بث العيون، ومن تلافي الأحداث على مختلف انواعها، ومن المحافظة على أمن

---

(١) ولعل الخندق من أوضح المصاديق في الاستدلال بأن الحرب قد قامت ويراد منها السلام، إذ لو لم يواجه الرسول الأكرم ﷺ هؤلاء القادمين العابثين، لأحالوا منهجه الديني، وعقيدته في توطيد السلام والامن بين البشر إلى أطلال، أو آثار مندرسة تحت ظِلال الضلال.

المدينة، والتحوط من يهود بني قريظة، ومن وضع النساء والذراري في الأطام، وإلى غير هذا الكثير الكثير....

واحسب أن كل هذا كان أمراً طبيعياً لمن يُغار عليه في عقر داره، أن يندفع بكل جهده لتلافي فكرة الإستئصال التي جاء بها أبو سفيان شيطان المشركين وقائد الفتنة، وحلفاؤه بتحريض من يهود بني النضير ويهود خيبر.

وأن يسعى بكل ما في وسعه لمنع وقوع الحرب في إطار الخطة القريشية واستفراغ همتهم وهجمتهم، وتشتيت جمعهم وتثبيط عزائمهم، وإفراغ كل وجودهم الحربي (في منطقة الرسول الأكرم ﷺ) من محتواه، فيشعرون بالخواء وانعدام قيمة هذا التواجد فينصرفون راحلين.

وكفى بفكرة الرحيل لوحدها إنهزاماً وانكساراً !!.

وإذا أمكن أن نناقش أسباباً ما فلابد من مناقشتها من زاوية النظر لقوات الشرك.

فقد أجهدهم محمّد ﷺ أيّما جهد، وقد أثقل كاهلهم بوجوده ﷺ أيما إثقال، ولم يعهدوا في تاريخهم خطراً كالذي يواجهونه الآن، إنه لم يعد خطراً عسكرياً أو اقتصادياً، إنه دين جديد!!.

والدين الجديد معناه فكر جديد، وقناعات جديدة، وعقيدة أخرى لها مقومات وركائز وأهداف وغايات، ومراحل وأدوار، ورجال وقتال، وصراع من أجل البقاء.

ومعناه منهج جديد يضع لكل شيء نظراً ويحدد التعامل مع كل شيء وفق قانون، ويسيّر الأمور كبيرها وصغيرها في إطار نظام، وبالضرورة سوف يكون هذا النظام ضارباً لكل ماهو قائم وسائد لأنه ـ ببساطة ـ مخالف للفطرة والوجدان والنظم الغيبية والأخلاقية التي ينادي بها هذا

الدين الجديد.

ولمزيد من التفصيل نقرء الخندق عبر هذا النص، ونقرء معه طرفاً من وقائع القوم في مقاتلة النبي محمّد ﷺ والخروج له بهذا الحجم الضخم والمد البشري المترامي.

جاء في المغازي: (لمّا أجلى رسول الله ﷺ بني النضير ساروا إلى خيبر، وكان بها من اليهود قوم أهل عَدَدٍ وجَلَدٍ، وليست لهم من البيوت والأحساب ما لبني النضير، كان بنو النضير سِرّهم، وقريظة من ولد كاهن من بني هارون.

فلما قدموا خيبر خرج حُيَي بن أخطب، وكنانة بن أبي الحقيق، وهوْذَة بن الحقيق، وهوْذَة بن قيس الوائلي من الأوس من بني خَطْمَة، وأبو عامر الراهب في بضعة عشر رجلاً إلى مكة يدعون قريشاً واتباعها إلى حرب محمّد ﷺ .

فقالوا لقُريش: نحن معكم حتى نستأصل محمداً.

قال أبو سفيان: هذا الذي أقدمكم ونزعكم؟

قالوا: نعم، جئنا لنحالفكم على عداوة محمّد وقتاله.

قال أبو سفيان: مرحباً وأهلاً، أحبُ الناس إلينا مَن أعاننا على عداوة محمد.

قال النضر: فأخرج خمسين رجلاً من بطون قريش كلها أنت فيهم، وندخل نحن وأنتم بين أستار الكعبة حتى نلصق أكبادنا بها. ثم نحلف بالله جميعاً لا يخذل بعضنا بعضا، ولتكونن كلمتنا واحدة على هذا الرجل ما بقي منا رجل.

ففعلوا فتحالفوا على ذلك وتعاقدوا)[١].

إذن جاءوا لتحطيم أمن المدينة، ولخلع الناس عن دينهم، وجاءوا لردم حالة السلام التي عمل الرسول المصطفى ﷺ طويلاً من أجل تثبيت أركانها.

كانت فكرة السلام المحمدية تقض مضاجع قريش واليهود وكل القبائل الأخرى؛ لأنها تعني إعطاء الحرية للعبيد، وارجاع الحق للمرءة، وتقديس الإرادة الحرة، وطرد الأفكار الدموية القاهرة الناجمة من رغبه الطغيان، والتحكم بمحتوى الانسان، وكل ما له فيه حق وتحويلها إلى جهدٍ ضائع وطاقة كاسدة محتقرة محترقة.

فكان أفضل فكرة للقضاء على سلام الرسول محمد ﷺ هو الحرب عليه بكل الوسائل وكل القبائل.

ولنؤكد موضحين:

ولأن الله السلام ويحب السلام، جعل سبحانه وتعالى كل أدوات الرسول ﷺ الدفاعية والبدائية ـ طبقاً لعصره، وقلة عدد أصحابه ـ منصورة بالغيب ومدعومة بتعزيز السماء؛ لتنتصر إرادة السلام المحمدي على نوايا الحرب الطاحنة والموت الذريع الذي جاءت بها قريش ومن حركها (اليهود) والتف حولها من الأعراب.

ولأن الله يدعو إلى دار السلام سلبهم قدرة المساس بصرح السلام الإسلامي في المستقبل، واعجزهم من النيل منه، **(اليوم نغزوهم ولا يغزونا)**.

---

(١) المغازي ٢: ٤٤١ ـ ٤٤٢، وانظر سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٦٣.

وسيأتي الكلام في الجزء الثاني إن شاء الله، وفيه أكثر من دراسة حول حرب الخندق.

غزوة بني قريظة

ها قد جاءت النوبة ليهود بني قريظة عن استحقاق يندر مثيله إلاّ عند أمثالهم من بني الجلدة اليهودية، والخسة التآمرية، فقد سعوا بالنفس إلى الحبس، وبالقدم إلى العدم، ولاضير أن يفعل بهم رسول الله ﷺ ـ بعدما فعلوا هم معه الأفاعيل ـ ما يرغم أنوفهم، ويخنق نفوذهم، ويريهم عاقبه أمرهم ذلاً.

إن الأسباب التي قامت بها الحرب مع اليهود باتت واضحة أيضاً، بعد ما عرفنا أن حرب الأحزاب قد كشفت كل شيء بوضوح وأعطت انطباعاً نهائياً لذوي العقول والبصائر في إدراك الأشياء بشكل حاسم ولمسة ختامية، وإن كان ذلك كله مقروء عند النبي الأكرم ﷺ وأصحاب الحصافة والدراية من أهل بيته ﷺ وصحبه الأبرار ﷺ.

أسباب الغزوة

السبب الأول:

قد عرفنا سابقاً أن الرسول الأكرم عقد اتفاقاً مشتركاً، وأجرى مصالحة وطنية، وأسس ميثاقاً للتعاون السلمي والتعايش على أسس من الإحترام المتبادل والنظر إلى كل الأطراف باعتبارهم أقليات لها حق العيش بأمان واستقرار في دولة الرسول الأعظم ﷺ.

وكان بعض بنود هذه الإتفاقية ـ بين الرسول ﷺ من جهة وجميع اليهود الذين في المدينة ومن حولها من جهة أخرى ـ هو عدم الإعتداء والإعانة على الرسول الأكرم ﷺ وجميع المسلمين سراً أو علناً ليلاً أو

نهاراً ومن أعان على رسول الله محمّد ﷺ والمسلمين فعليه لعنة السيف، ولنساءه السبي، ولذراريه نفس المصير، وتؤخذ أمواله وتصادر حقوقه، على أن لهم على الرسول ﷺ كافة الحقوق المنصوصة في لائحة الإتفاق والتي تحفظ لهم الحقوق والمكاسب والعيش الكريم.

وكان الأمر كذلك إلى أن نقضت قينقاع، وكان الأمر كذلك إلى أن نقضت بنو النضير. وكان الأمر كذلك إلى أن نقضت بنو قريظة.

والحديث هنا عن بني قريظة فقد كان السبب الأول لحصارهم وحربهم هو أنهم غدروا برسول الله ﷺ وأهل الإسلام جميعاً في قضية الخندق، وأعانوا على رسول الله وتآمروا عليه مع علمهم بكونه رسولاً، ومع علمهم بما قاله لهم إبن الخراشة اليهودي، ومع كون زعمائهم يرونه رسولاً نبيا، مبعوثاً بالحق والصدق، كما يرون ويعرفون أبناءهم.

ومع كونهم يعرفون أن سبب عدم اتباعهم له هو حقدهم على خروج النبوة من أبناء إسحاق إلى أبناء إسماعيل.

السبب الثاني:

وليقلع الرسول الأعظم ﷺ بحربه هذه آخر قلاع الإمدادات، والقواعد التآمرية الداخلية أو القريبة من مدينته والنافعة لأهل الشرك في جميع أحوالهم السلمية والحربية، والتي يمكن أن يستفيد منها العدو في التنسيق وأخذ المعلومات، والمشاركة المباشرة والعبور من خلالها إلى دولة الرسول المصطفى ﷺ وكما فعل أبو سفيان مع بني النضير في غزوة السويق، والأحزاب مع بني قريظة في الخندق.

ومع إنهاء هذه القواعد تكون قريش فاقدة لأسباب كانت متيسرة

ونافعة لها بلا إشكال.

السبب الثالث:

وليقضي على أمل تعاوني وسند محتمل لمنافقي المدينة، فضرب اليهود بالواقع إنما هو ضرب لأملٍ ولتعويلٍ كان لا يزال غير مفارق ذهن المنافقين وصاحبهم العتيد المارد المارق عبد الله بن أُبَي بن سلول.

السبب الرابع:

تطهير المنطقة بشكل عام ـ وقد ذكرنا أهمية ذلك سابقاً ـ من الأخلاق اليهودية إذ إن أخلاقهم فقط هي مثار فتنة وإزعاج وسبب إلى إيداع الخراب والفرقة والتّلون في المجتمع.

فقلع جذور اليهود يعني تطهير المجتمع من احتمال اصابتة بهذه الأمراض، ويعني خلق جو من الوقاية الأخلاقية، والحصانة النفسية التربوية لمجتمع الإيمان المدني، والوقاية خير من العلاج.

ولعله في نداء أمير المؤمنين لقواته ساعة الهجوم على حصن بني قريظة بـ : (يا كتيبة الإيمان) إشارة إلى ذلك، ودلالة واضحة على السعي في تثبيت أركان الإيمان، وأسبابه الأخلاقية وآثاره الروحية، وأبعاده التاريخية الاجتماعية.

وإنه نداء يتضمن بمفهومه أن اليهود على خلاف ذلك فهم أهل فساد وفتنة وظلم ورذيلة وابتعاد عن الله تعالى في كل ممارسة لهم.

السبب الخامس:

وحتى لو افترضنا أنهم سيعتذرون عن خسة التواطؤ وجرم الخيانة والتجسس لصالح الأعداء باعتبار كل هذه خلاف الإتفاق المذكور، وافترضنا أنهم يرجعون إلى الموادعة والعهد، ولكن لا طمأنينة باتجاه الفرد اليهودي!

ولا مصداقية لما يقوله، وقد سلبت الأحداث كل ماله من شأن واعتبار وما يمكن أن يكون موجوداً في شخصيته ولو افتراضاً.

وقد تعرت بناهم الأخلاقية، بحيث صار الوثوق بوعود اليهود أو اعتقاد إصلاحهم ضرباً من الخيال، إن لم نقل هو السفاهة والحماقة، ولا نعتقد أن بين المسلمين الصالحين رجلاً بهذه البلاهة في قبول فكرة الإصلاح اليهودي المحتمل.

إلا أن يفترض ذلك في آحادهم كأفراد متدينين قولاً وعملاً بالتوراة الأصلية التي كانت توصي باتباع النبي العربي، وفعلاً حدث ذلك حيث تمرّد البعض على مجتمعهم اليهودي المغلق واعتنقوا دين الإسلام.

إذن ليس لوجودهم الاجتماعي ككيان يهودي محارب الا السلْب، وافتعال الازمات وتلويث الأخلاق، وإثارة الفتن، والتآمر والغدر المستمر بالاسلام ورسوله الأكرم ﷺ رغم تصريحهم بأنهم لم يروا من محمّد ﷺ إلاّ وفاءً وصدقا.

إن هذا التقلب وهذا التلون الحربائي يسلخ منهم أي لون من التعامل المُطَمئِن، ويجعلهم فاقدي الرصانة والرصيد في أي خطوة وإن كانت بنفسها محتملة الإيجاب عقلاً.

إلا أن انطباعهم بهذا الطابع قادر على قذفهم في سلة المهملات التاريخية دون اكتراث وأهمية.

وهذا لا يعني ـ كما قلنا قبل قليل ـ أنه ليس في اليهود أفراد يحتمل فيهم أن يثوبوا إلى رشد، ويطمعوا في إيمان، فمن صحى ضميره وتنورت فضاءات نفسه، وقبل محكمة العقل، واقتنع بما رواه عن دينه ونبيه، واندفع باتجاه قبول الحق ولو على حساب الخلق سوف يصل الى الإسلام لا محالة، كما كان مخيريق وامثاله.

ولكن لا ننسى أنهم أفراد.

السبب السادس:

إن غزوة بني قريظة جاءت بسبب العامل الغيبي والتوجيه الرباني العِلوي لرسول الله ﷺ بعدم وضع راية القتال ولواء المواصلة في الحرب[١]، فرجع الرسول المُفدى ﷺ ولبس لامة حربه من جديد واستعد للغزو، وهتف ناديه بالجهاد بين ديار المسلمين، فكان عمله استجابة لداعي الله، ولرغبة السماء في القضاء على بؤر الخيانة وبُرك الغدر الآسنة.

ولعل هذا السبب وحده يستحق رجوع جميع الأسباب السابقة الأخرى إليه، وجعلها مفسرة له.

سبب سرية عبد الله بن أنيس إلى بني نبيح سفيان بن خالد

إن السبب الرئيسي في هذه الغزوة هو أن سفيان بن خالد بن نُبَيح الهُذَلي اللُحياني جمع قومه وأعراباً آخرين من حوله يريد المدينة وغزوها.

فأمر الرسول الأعظم ﷺ عبد الله بن أنيس لمواجهة أمره بأن يقتله ويقضي عليه، وفعلاً ذهب عبد الله بن أنيس ونفذ المهمة الموكلة له وقُتل سفيان بن خالد.

قال الواقدي: (بلغ رسول الله ﷺ أن سفيان بن خالد بن نُبَيح الهُذَلي، ثم اللحياني، وكان نزل عُرَنَة[٢] وما حولها في ناس من قومه

---

(١) وهذا الأمر وأمثاله في بقية الحروب لمغنينا عن الإطالة في بحث وتحليل مشروعية حروب الرسول، فقد قلنا أنه رسولٌ مأمورٌ مطيع لا يسعهُ غير الاستجابة لأمر الله، وهذا الكلام في النقطة السادسة بعض من الأدلة على ذلك. فهو إذن يعمل بحكم الله، ولا راد لحكمه تعالى.

(٢) وعُرَنة: موضع بقرب عرفة، موضع الحجيج (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٢: ٧).

غيرهم، فجمع الجموع لرسول الله ﷺ، وضوى اليه بشرٌ كثير من أفناء الناس.

فدعا رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس، فبعثه سرية وحده إليه ليقتله)[١].

غزوة بني لحيان

تعريف مختصر

ورد في كتاب تاريخ الطبري: (وخرج رسول الله ﷺ في جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من فتح بني قريظة إلى بني لحيان يطلب بأصحاب الرجيع خبيب ابن عدي وأصحابه وأظهر أنه يريد الشأم ليصيب من القوم غرة فخرج من المدينة فسلك على غراب جبل بناحية المدينة على طريقه إلى الشأم ثم على مخيض ثم على البتراء ثم صفق ذات اليسار ثم على يين ثم على صخيرات اليمام.

ثم استقام به الطريق على المحجة من طريق مكة فأغذ البتراء سريعاً حتى نزل على غران وهي منازل بني لحيان وغران واد بين أمج وعسفان إلى بلد يقال له ساية فوجدهم قد حذروا وتمنعوا في رؤس الجبال فلما نزلها رسول الله ﷺ وأخطأه من غرتهم ما أراد.

قال: **«لو أنا هبطنا عسفان لرأي أهل مكة أنا قد جئنا مكة»** فخرج في مائتي راكب من أصحابه حتى نزل عسفان ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم ثم كرّا وراح قافلاً)[٢].

---

(١) المغازي للواقدي ٢: ٥٣١، سيرة بن هشام ٤: ١٠٣٦ ـ ١٠٣٧، سبل الهدى والرشاد ٦: ٣٦، وانظر تاريخ المدينة ٢: ٤٦٨، البداية والنهاية ٤: ١٦٠.

(٢) تاريخ الطبري ٢: ٢٥٤.

أسباب الغزوة

السبب الأول:

هو معاقبة لحيان والثأر منها على ما فعلوا في سرية الرجيع، وهو فعل شنيع حيث قتلت منهم جماعة أربعة أو خمسة وبعثت باثنين منهم إلى مكة، لتبيعهم على قريش فيصلبوهم ويقتلوهم بطريقة تقشعر لها جلود الذين آمنوا والذين لم يؤمنوا.

فكان تعرضهم لهذا النوع من الغزو أمرٌ محتمل جداً، حيث قاموا بتلك الفعلة. (قالوا: وَجَدَ رسول الله ﷺ على عاصم بن ثابت وأصحابه وجداً شديداً، فخرج في مائتي رجل ومعهم عشرون فرساً.....)[١].

السبب الثاني:

إخافة قريش والنيل منهم معنوياً ونفسياً، وإيداع المخاوف في قلوب رجالها.

وهذا التأثير المعنوي له أهمية بطبيعة الحال لما يخلّفه من آثار سيئة في نفوسهم.

فبالأمس القريب تجمعوا لمحمّد ﷺ بتحالفٍ يتعذر تكرار جمعه وَلَمُّ شمله بالصورة التي كان بها يوم الأحزاب.

وقد هُدَّ ذاك الجمع، وهزمت الأحزاب، ولم تتمكن من تحقيق حتى ولو هدف جزئي واحد.

والآن وبعد ما كان يواصل الرسول محمّد ﷺ التأثير على إستقرارهم

---

(١) المغازي للواقدي ٢: ٥٣٥، سبل الهدى والرشاد ٥: ٣٠.

ويستمر في الطرق والضرب على أوتارهم النفسية والروحية.

إنه شيء لا يحتمل!!

وبمجرد كون قريش تشعر أن هذا إهانة لها وتهديداً دائماً لوجودها، وظهور الرسول ﷺ وهو غير مكترث منها وأحزابها التي كانت معها يوم الخندق، سيجعلها في اضطراب نفسي وفكري ما الذي تفعله معه أكثر مما فعلت في يوم الأحزاب.

وهل بمقدورها أن تُرِيَه مثل ذلك اليوم جمعاً مسلحاً، وحشداً حاقداً، وكل الظن أن الرسول الأَعظم ﷺ أراد لقريش أن تبقى في دَوّامتها هذه تترنح حتى يصبح أمر محمّد ﷺ أمراً واقعاً لا بد من قبوله، والإستسلام له بكل إنسيابية في آخر المطاف.

فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «**إن هذا يبلغ قريشاً فَيذْعَرهم، ويخافون أن نكون نريدهم**»[1].

السبب الثالث:

أراد أن يُهَدِّء الرنة في نفوس المؤمنين على مصابهم بإخوانهم في بئر معونة وأصحاب الرجيع، ويرقئ دمعة أصحاب المصاب.

فان النفوس تغلي، والأرواح تستعر لما أصاب البعثة النبوية المسالمة والمستشهدة بأيدي أعداء الله في آخر الأمر غدراً وخيانة.

ولا يخفى ما لهذا الأَمر من رفع لمعنوية المؤمنين، وترميمٍ لما أصابهم نفسياً

---

(١) المغازي ٢: ٢٣٦.

من قبل بسبب شهادة إخوتهم في سرية عاصم بن ثابت رحمة الله عليهم.

سبب غزوة الغابة أو (ذي قرد)

وسببها أن صيح بخيل المسلمين وسُرِق لقاح[1] النبي الأكرم ﷺ من مرعاها، أغار عليها عُيَيْنَة بن حصن وقد سرقها بعد أن قَتل ولداً لأبي ذر الغفاري الصحابي الجليل لرسول الله ﷺ وأخذوا امرأته معهم. فكان الرد من الرسول الأعظم ﷺ أن عقد اللواء للمقداد بن عمرو، لاسترجاع اللقاح وتطويق عصابة عيينة بن حصن السارقة المتجاوزة.

وخلاصتها هي رد الظلم، والعدوان، والقتل، والنهب الذي وقع على المسلمين، ووضع حَد لتجاسرهم على سرح المدينة.

ولكي لا يفكر أحد مثل ما فكر به عيينة بن حصن، وسلوك سبيله استسهالاً لشأن المسلمين، واستصغاراً لقدرهم.

ولكي لا تذهب ثروات المسلمين وقواعدهم الإقتصادية بيد أُناس تسوّل لهم أنفسهم الإقدام على ذلك بدوافع شتى.

خاصة أن هؤلاء وغيرهم قد يمرون بضائقة إقتصادية، وعوز مادي لجفافٍ أو افتقار، فيجتمع هذا العامل مع حقدهم على الرسول المصطفى ﷺ فيغيرون على مدينة رسول الله ﷺ مجدداً.

ولا ننسى احتياج المسلمين لبقاء هذه الملكية في أيديهم، لا لأن أخذها يمثل إذلالاً للمسلمين فقط.

بل لما تمثله هي من أهمية في:

أ: كون المدينة كبقية المناطق في الجزيرة فيها سنوات جدب.

---

(١) اللقاح: الإبل الحوامل ذوات الألبان، (شرح أبي ذر: ٣٢٩).

ب: ولكثرة ما يحتمل أن يواجهه المسلمون من حروب تحتاج إلى هذه الإمدادات بشكل كبير، وكل هذا وغيره يعني ضرورة المحافظة عليها والدفاع عنها.

ج: كما أن المسلمين يعانون من صعوبة معاملاتية في قضية البيع والشراء مع بقية القبائل؛ للخلافات القبلية المعروفة.

سبب سرية عكاشة بن محصن إلى الغمر[1]

وهي غارة لسرية عقد رايتها رسول الله ﷺ لعكاشة بن محصن، حتى ورد بني أسد فهربوا منهم، وأصابت السرية منهم نعماً - مائتي بعير - وعادوا إلى المدينة لم يُصَب منهم أحدٌ ولم يلقوا كيدا.

وأخال أن هذه السرايا التي جاءت بعد معركة الأحزاب، إنما أرادها الرسول ﷺ تأديباً لبعض من شارك في الأحزاب حيث حملت بعض القبائل الوزر في مشاركة قريش في أحلافها وأحزابها على رسول الله ﷺ، إذن تأتي هذه السرايا في سياق رد العدوان على المسلمين ومدينتهم الآمنة.

وكان بعض من شارك في تحزيب الأحزاب هم بنو أسد، فيكون غزوهم من قبل سرايا رسول الله ﷺ لهذا السبب على أغلب الظن.

وهو سبب كافٍ لردع هؤلاء، وصفعهم بما كسبوا بالأمس.

هذا فضلاً عن تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وإعلان الحرب عليه كحالة دائمة فهم كبقية الأعراب الذين أعلنوا عدوانيتهم على الحق وأهله، فوجود ردود فعل قتالية من هذا النوع أمر ليس بالمستبعد ولا بالمستغرب.

---

(١) الغمر: هو ماء لبني اسد على ليلتين من فهيد، كما قال ابن سعد (الطبقات ٢: ٦١).

سبب سرية محمّد بن مَسْلمة إلى ذي القصة

هي سرية عقد لوائها الرسول المصطفى ﷺ لمحمّد بن مَسْلَمة فغار على بني ثعلبة في ذي القَصة.

وأسباب هذه السرية مترتبة على الخلفيات السابقة لثعلبة وما كان منها من مواقف عدوانية كثيرة قبال رسول الله ﷺ.

والحرب كانت بينهم سجال.

وفيها قتل جميع أفراد السرية إلاّ قائدها فإنه جُرِح وسلم من الموت ثمَّ مَرَّ به أحد المسلمين وذهب به إلى المدينة.

سبب سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصَّة

جاء في كتاب سبل الهدى والرشاد: (في سرية أبي عبيدة بن الجراح ﷺ الى ذي القصة أيضاً روى محمد بن عمر عن شيوخه ﷺ قالوا:

أجدبت بلاد بني ثعلبة وأنمار.. ووقعت سحابة بالمراض الى تغلمين، فسارت بنو محارب وبنو ثعلبة وأنمار الى تلك السحابة، وكانوا قد أجمعوا أن يغيروا على سرح المدينة، وسرحها يرعى يومئذ ببطن هيفاء.

فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في أربعين رجلاً، صلّوا المغرب ليلة السبت لليلتين بقيتا من ربيع الآخر سنة ست، فباتوا ليلتهم يمشون حتى وافوا ذا القصة مع عماية الصبح، فأغاروا عليهم فأعجزوهم هرباً في الجبال، وأخذ رجلاً واحد.

ووجد نعماً من نعمهم فاستاقه ورثة من متاع القوم، فقدم به المدينة، وغاب ليلتين، وأسلم الرجل فتركه رسول الله ﷺ وخمّس رسول الله ﷺ ما

قدم به أبو عبيدة وقسم الباقي عليهم)[١].

سبب هذه السرية هو مباغتة بني ثعلبة ومحارب وإنمار الذين باتوا يعدون العدة ويجمعون الأمر للإغارة على سرح المدينة.

وذلك لأنهم أجدبوا فأرادوا أن يعالجوا جَدبَهم بظلم المسلمين والعدوان عليهم ونهب أموالهم فأتاهم الردع من حيث لم يتوقعوا، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن الخلفيات السابقة لهذه القبائل مع المسلمين تعطي الإغارة عليهم وجهاً آخر للمشروعية.

سبب سرية زيد بن حارثة إلى العيص

وسببها ملخصاً يذكره الواقدي في مغازيه: (لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة الغابة بَلَغَه أن عِيراً لِقريش أقبلت من الشام.

فبعث زيد بن حارثة في سبعين ومائة راكب، فأخذوها وما فيها. وأخذوا يومئذٍ فضة كثيرة لصفوان، وأسروا ناساً ممن كان في العير معهم، منهم أبو العاص بن الربيع، والمغيرة بن معاوية بن أبي العاص)[٢].

والملاحظ أن الرسول الأعظم ﷺ كان:

أولاً: يستمر في سياسة إشعار قريش بعظيم ظلمها وجرمها معه، ومع أصحابه ومدينتهم. مع علمنا أنها هي التي تقود أهم الأحداث ضده ﷺ.

ثانياً: يقصد إنهاكَهُمْ إقتصادياً ومالياً ومحاولة جعلهم والشحُ

---

(١) سبل الهدى للصالحي الشامي ٦: ٨١.

(٢) المغازي ٢: ٥٥٣، عيون الأثر لابن سيد الناس ٢: ٩٩.

يكتنفهم. ويضطربون بالعوز، ويؤثّر على استعداداتهم المستقبلية، ومخططاتهم في حرب الرسول الأعظم ﷺ.

فأحد أهم العوامل التي تساعد على استمرار المقاومة والمواصلة في الحرب هو القدرة على إدامة عجلتها الإقتصادية، وغلق كل فجواتها المادية، وردم ثغراتها الناجمة من الخسائر، أو الناجمة من الحاجة الأولية لمعدات الحرب.

ثالثاً: ولما طرحنا من أسباب سابقة وكثيرة وخصوصاً مع قريش مما نسميه بخلفيات الأحداث، ورواسبها المتراكمة لدى الطرفين.

فأي رد، أو إغارة، أو هجوم، أو أخذ لقوافلهم، يأتي مُبَرّراً بتلك الأسباب وما أكثرها وما أوجهها.

وهذا الكلام كله يتفق وأصل قضية السَرية ولكن من الملاحظ أن الرسول ﷺ رد جميع هذه الأموال إلى صاحبها الذي جاء بها إلى قريش وهو أبو العاص بن الربيع، ورجع إبن الربيع بالأموال إلى أهلها.

عن الواقدي: (فلمّا انصرف النبي ﷺ إلى منزله دخلت عليه زينب فسألته أن يردَّ إلى أبي العاص ما أخذ منه من مال، ففعل وأمرها ألاّ يَقْرَبها، فانها لا تحل له مادام مشركاً.

ثم كلَّم رسول الله ﷺ أصحابه، وكانت معه بضائع لغير واحد من قريش، فادوا إليه كل شيء، حتى أنهم ليردّون الإداوة [1] والحبل، حتى لم يبق شيء ورجع أبو العاص إلى مكة فأدّى إلى كل ذي حق حقّه)[2].

وهذا كله لا يتعارض وأصل الأسباب، إذ بقيت النقطة الأولى والثالثة على حالها، نعم النقطة الثانية تضررت بذلك الرد ولكنه على الصعيد النظري بقيت قريش تشعر أنها مشروع دائم لأن يَضغط عليها

---

(١) الاداوة: المطهرة التي يتوضأ بها. (شرح ابي ذر. ١٦٧).

(٢) المغازي ٢: ٥٥٣، سبل الهدى والرشاد ١١: ٣١.

الرسول محمد ﷺ من الناحية الإقتصادية، وأن الرسول الأكرم ﷺ قادر على إرباك وضعهم التجاري بمحاولاته المستمرة.

سبب سرية دومة الجندل

هي سرية بعثها رسول الله ﷺ بقيادة عبد الرحمن بن عوف.

وهي سرية كانت مهمتها مهمة سلميّة حيث لا يعدوا كونها بعثت بعنوان الدعوة إلى الإسلام وتحرير عقول الناس، ومهمة من هذا النوع تكون محترمة وجديرة بالإجلال.

وفعلاً نجحت هذه السرية في مهمتها وأدت الرسالة التي حمّلها الرسول المصطفى ﷺ.

جاء في المغازي: (عن إبن عمر قال: دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف فقال ﷺ: **«وتجهز فإني باعثك في سريةٍ من يومك هذا، أو من غدٍ إن شاء الله...»**

قال: فخرج عبد الرحمن حتى لحق أصحابه فسار حتى قدم دومة الجندل، فلما حلّ بها دعاهم إلى الإسلام، فمكث بها ثلاثة أيامٍ يدعوهم إلى الإسلام. وقد كانوا أبوا أوّل ما قدم يُعطونه إلاّ السيف، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانياً وكان رأسهم. فكتب عبد الرحمن إلى النبي ﷺ يُخبره بذلك) [1].

سبب سرية علي بن أبي طالب عليه السلام إلى بني سعد بفدك

وهذه السرية كانت مهمتها مبنيَّة على أساس أن بني سعد قد تجمعوا يريدون أن يمدوا يهود خيبر، ليغرّوهم بحرب رسول الله ﷺ والهجوم

(١) المغازي ٢: ٥٦٠ ـ ٥٦١، سبل الهدى والرشاد ٦: ٩٣ ـ ٩٤.

عليه[١].

فبعث لهم الرسول الأعظم ﷺ علياً عليه السلام؛ ليقطع دابر ذلك فيهم، وفعلاً فعل، إذن هذه الغزوة مصداق لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٢]. وحسبنا أن هذه السرية جاءت رداً على ظلم بني سعد وخططهم في غَزو المدينة، مع بُعد الرسول ﷺ عنهم، وعدم تعرضه لهم.

فقد ورد في المغازي: (حدثني عبد الله بن جعفر، عن يعقوب بن عُتبة، قال: بعث رسول الله ﷺ عليّاً عليه السلام في مائة رجلٍ إلى حيّ سعد، بفَدَك، وبلغ رسول الله ﷺ أنّ لهم جمعاً يُريدون أن يُمدّوا يهود خيبر، فسار الليل وكمن النهار حتّى انتهى إلى الهَمَج[٣] فأصاب عيناً فقال: ما أنت؟ هل لك علم بما وراءك من جمع بني سعد؟

قال: لا علم لي به.

فشدّوا عليه فأقر أنه عينٌ لهم بعثوه الى خيبر، يعرض على يهود خيبر نصرهم على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم ويقدمون عليهم، فقالوا له: فأين القوم؟

قال: تركتهم وقد تجمع منهم مائتا رجل، ورأسهم وبر بن عُليم.

قالوا: فسِر بنا حتى تدلّنا.

قال: على أن تُؤمنوني!

قالوا: إن دللتنا عليهم وعلى سرحهم أمّنّاك، وإلاّ فلا أمان لك.

---

(١) على أن يأخذوا من اليهود في مقابل هذه النصرة من تمور خَيبر.

(٢) النحل: ١١٨.

(٣) الهمج: ماء بين خيبر وفدك.(طبقات بن سعد ٢: ٦٥)

قال: فذلك !فخرج بهم دليلاً لهم حتى ساءَ ظنهم به، وأوفى بهم على فدافد وآكام، ثم أفضى بهم إلى سهولة فإذا نَعَم كثيرٌ وشاءٌ، فقال: هذا نَعَمهم وشاءُهم. فأغاروا عليه فضمّوا النعم والشاء.

قال: أرسلوني!

قالوا: لا حتى نأمن الطلب! ونذر بهم الراعي رعاء الغنم والشاء، فهربوا إلى جمعهم فحذروهم، فتفرقوا وهربوا، فقال الدليل: علامَ تحبسني؟ قد تفرقت الأعراب وأنذرهم الرعاء.

قال علي عليه السلام: لم نبلغ معسكرهم. فانتهى بهم إليه فلم ير أحداً، فأرسلوه وساقوا النعم والشاء، النَّعم خمسمائة بعير، وألفا شاة)[1].

ويشهد على نواياهم العدوانية هذه:

حدثني أبير بن العلاء، عن عيسى بن عليلة، عن أبيه، عن جده، قال: إني لبوادي الهَمَج إلى بديع، ما شعرت إلاّ ببني سعد يحملون الظعن وهم هاربون، فقلت: ما دهاهم اليوم؟ فدنوت إليهم فلقيت رأسهم وَبر بن عليم، فقلت: ما هذا المسير؟

قال: الشر، سارت إلينا جموع محمّد وما لا طاقة لنا به، قبل أن نأخذ للحرب أهبتها؛ وقد أخذوا رسولاً لنا بعثناه إلى خيبر، فأخبرهم خبرنا وهو صنع بنا ما صنع.

قلت: ومن هو؟

قال: ابن أخي، وما كنا نعدّ في العرب فتىً واحداً أجمع قلبٍ منه[2].

---

(١) المغازي ٢: ٥٦٢ ـ ٥٦٣.

(٢) المغازي ٢: ٥٦٣.

سبب سرية زيد بن الحارثة إلى أمّ قِرْفة بوادي القرى

وقد كانت رداً على عدوان أُناس من بني فزارة من بني بدر قاموا به ضد زيد بن حارثة الذي كان خارجاً في تجارة للشام، ومعه بضائع لأصحاب رسول الله ﷺ فضربوهم حتى ظنوهم قُتِلوا وماتوا، وأخذ كل ما كان معهم.

فلما شفي زيد وبرء من أذاه الذي لقي منهم، بعثه رسول الله ﷺ على رأس سرية لهم.

وإن هذا البعث كان يمثل تأديباً لكل مَن يهم في إيذاء أصحاب رسول الله ﷺ والتعرض لتجارتهم وأموالهم، مع كون الرسول ﷺ وأصحابه لم يبادروهم بسوء ولا يضمروا لهم شراً.

يقول الواقدي: (خرج زيد بن حارثة في تجارة إلى الشام، ومعه بضائع[1] لأصحاب النبي ﷺ، فأخذ خُصيتي تَيس فدبغهما ثم جعل بضائعهم فيها، ثم خرج حتى إذا كان دون وادي القرى ومعه ناس من أصحابه، لقيه ناسٌ من بني فزارة من بني بدر. فضربوه وضربوا أصحابه حتى ظنوا أن قد قتلوا، وأخذوا ما كان معه.

ثم استبل[2] زيد فقدم المدينة على النبي ﷺ فبعثه في سرية)[3].

سبب سرية عبد الله بن رواحة إلى أسير بن زارم

وهنا في الحقيقة سريتان:

السرية الأولى: كانت استطلاعية لمعرفة ما يدور بين بني اليهود وسماع ذلك ونقله إلى مركز القيادة في المدينة؛ لكي تأخذ بإزاءه التدابير

---

(١) البضاعة: جمعها بضائع، هي من المال ما أُعِدّ للتجارة.

(٢) أي برأ (الصحاح: ١٦٤٠).

(٣) المغازي ٢: ٥٦٤، عيون الأثر ٢: ١٠٨، سبل الهدى والرشاد ٦: ٩٩.

اللازمة.

وذلك لما كان معروفاً ومشهوراً من عداء اليهود للنبي الأكرم ﷺ ولرسالته السمحة (فأقبل[1] حتى أتى ناحية خيبر فجعل يدخل الحوائط، وفرق أصحابه في النطاة، والشّق، والكتيبة ووعوا ما سمعوا من أُسَير بن زارم أوغيره. ثم خرجوا بعد إقامة ثلاثة أيام، فرجع إلى النبي ﷺ.....)

السرية الثانية: هي سرية بعثها رسول الله ﷺ أيضاً بقيادة عبد الله بن رواحة وسببها ظاهر من هذا الحوار الدائر بين أُسير بن زارم وقومه يهود خيبر.

في المغازي: (كان أُسَير رجلاً شجاعاً، فلما قتل ابو رافع امّرت اليهود أُسيَر بن زارم، فقام في اليهود فقال:

إنه والله ماسار محمّد إلى أحدٍ من اليهود إلاّ بعث أحداً من أصحابه فأصاب منهم ما أراد، ولكنّي أصنع ما لا يصنع اصحابي.

فقالوا: وما عسيت أن تصنع ما لم يصنع أصحابك؟.

قال: أسير في غطفان فاجمعهم فسار في غطفان فجمعها، ثم قال: يا معشر اليهود، نسير إلى محمّد في عقر داره، فانه لم يُغْزَ أحدٌ في داره إلاّ أدرك منه عدوه بعض ما يريد.

قالوا: نعم ما رأيت. فبلغ ذلك النبي ﷺ.

قل: وقدم عليه خارجة بن حُسَيل الأشجعي، فاستخبره رسول الله ﷺ ما وراءه، فقال: تركت أُسَير بن زارم يسير اليك في كتائب اليهود.

قال إبن عباس رضي الله عنه: فندب رسول الله ﷺ الناس. فانتدب

---

(١) أي عبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

له ثلاثون رجلاً..... الخ) [١]

فالسرية الثانية جاءت رداً على هذه القناعة اليهودية، والتحزيب الجديد الذي أراد أن يقوده أُسير بن زارم اليهودي غازياً للمدينة ورادعاً لأهلها مما يؤكد أن سرية عبد الله بن رواحة هذه جاءت إلى قبر الظلم في أول أمره، ورده من حيث نجم.

ملاحظة:

وهنا لا بد من ملاحظة مهمة وهي:

إن هذه السرية لم تباشر مهامها العسكرية، ومواجهاتها المسلحة مع يهود خيبر، إلا بعد ما غدر اليهود ـ كعادتهم ـ بالمسلمين وغدر زعيم اليهود أُسير بن زارم برجال السرية.

حيث إن عبد الله بن رواحة دعا أُسير بن زارم للقاء رسول الله وأنه ـ أي: الرسول الأكرم ﷺ ـ سوف يستعمل إبن زارم على قومه.

فلما ذهبوا بنية لقاء رسول الله ﷺ في المدينة، وفي منتصف الطريق ندم أُسير بن زارم على مجيئه وحاول الغدر بالسرية، ولكن حيل بينه وبين ذلك بفعل يقضة بعض رجال السرية ونباهتهم.

وهنا ملاحظة أخرى نأخذها من رحم هذه الحادثة وهي: التأكيد على قولنا السابق بأن اليهود لم يكن بإستطاعتهم التخلص من الصفات الخسيسة في أنفسهم وكأنهم جبلوا عليها، بل هم جبلوا عليها، وبالخصوص صفة الغدر التي باتت مخالبها ناشبة في عروقهم.

وملاحظة ثالثة: هي أن المسلمين لم يكونوا ليطمأنوا ليهودي ويأمنوا غدره، ونلاحظ هذا كله من هذه السرية التي كان يترقب بها عبد الله بن

---

(١) المغازي ٢: ٥٦٦ ـ ٥٦٧، وانظر قريباً منه في عيون الأثر ٢: ١٠٩.

انيس تصرفات أُسير بن زارم، وذلك للخزين القديم من التجارب في نفوس المؤمنين مع اليهود.

إنَّ الحوادث التي تصلح للإستدلال على ذلك كثيرة جداً، وما هذه الحادثة إلاّ واحدة من ذلك الكم الكبير.

وهذا كله داخل في الفتنة والظلم والنفاق والعدوان، أليس كذلك؟

(قال عبد الله بن انيس: فكنت فيهم[1]، فاستعمل علينا رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة.

قال: فخرجنا حتى قدمنا خَيْبر فأرسلنا إلى أُسَير: إنا آمِنون حتى نأتيك فنعرض عليك ما جئنا له؟

فقال: نعم، ولي مثل ذلك منكم؟

قلنا: نعم، فدخلنا عليه فقلنا: إن رسول الله بعثنا إليك أن تَخرج اليه فيستعملك على خيبر ويحسن اليك. فطمع في ذلك، وشاور اليهود فخالفوه في الخروج.

وقالوا: ما كان محمّد يستعمل رجلاً من بني إسرائيل.

فقال: بلى، قد مللنا الحرب.

قال: فخرج معه ثلاثون رجلاً من اليهود مع كل رجل رديف من المسلمين.

قال: فسرنا حتى إذا كنا بِقَرْقَرَة ثِبار ندم أُسير حتى عرفنا الندامة فيه.

قال عبد الله بن أُنيس: وأهوى بيده إلى سيفي ففطنت به. فقلت:

---

(١) اي كنت واحداً من افراد تلك السرية.

غدراً أي عدوّ الله. وقلت: هل من رجل ينزل فيسوق بنا؟ فلم ينزل أحد، فنزلت عن بعيري فسقت بالقوم حتى انفرد أُسير، فضربته بالسيف فقطعتُ مؤخرة الرَّحلِ وأندرت[١]عامة فخذه وساقه، وسقط عن بعيره وفي يده مِخْرَش[٢]. من شَوْحَط[٣] فضربني فشجني مأمومة[٤] وملنا على أصحابه فقتلناهم كلهم غير رجل واحد أعجزنا شداً، ولم يصب من المسلمين أحد[٥].

والغدر بما هو فعل سيء، وطعن بظهر السرية يكون بذاته سبباً لتلك الهجمة من السرية على اليهود.

سرّية أميرها كُرز بن جابر

تعريف مختصر

في كتاب البداية والنهاية: (وبعث كرز بن جابر لقتل أولئك النفر الذين قدموا المدينة وكانوا من قيس من بجيلة، فاستوخموا المدينة واستوبؤها فأمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى إبله فيشربوا من أبوالها وألبانها، فلما صحوا قتلوا راعيها وهو يسار مولى رسول الله ﷺ ذبحوه وغرزوا الشوك في عينيه واستاقوا اللقاح. فبعث في آثارهم كرز بن جابر في نفر من الصحابة

---

(١) اندره: اسقطه، ويقال ضرب يدَه بالسيف فأندرها. (الصحاح: ٨٣٥).

(٢) المخرش: عصا معوجة الرأس. (النهاية ١: ٣٨٨).

(٣) والشَوحَط: ضرب من شجر الجبال. (الصحاح، ١١٣٦).

(٤) يقال شجة مأمومة، أي بلغت أم الرأس. (القاموس المحيط ٤: ٧٦).

(٥) المغازي ٢: ٥٦٧، وانظر البداية والنهاية ٤: ٢٥١ ـ ٢٥٢، إعلام الورى بأعلام الهدى ١: ٢١٠ ـ ٢١١، عيون الأثر ٢: ١٠٩، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ٤١٨.

فجاؤوا بأولئك النفر من بجيلة مرجعه عليه السلام من غزوة ذي قرد)[1].

أسباب الغزوة

السبب الأول:

هو ضرورة ردع مثل هذا التوجه اللا أخلاقي واللا إنساني واللاديني. وهو أن يُحسن الرسول الأكرم ﷺ لجماعة من الناس فيطعمهم ويسقيهم ويداويهم ويسكنهم المدينة ويستجيب لهم، ويكون جزاء الرسول المصطفى ﷺ منهم أن يفعلوا فعلتهم الفادحة.

أُنظر ما يقول الواقدي: (قدم نفرٌ من عُرينة ثمانية على النبي ﷺ فأسلموا، فاستوبأوا[2] المدينة فأمر بهم النبي ﷺ إلى لقاحه، وكان سرح المسلمين بذي الجَدر، فكانوا بها حتى صحّوا وسمنوا.

وكانوا استأذنوه يشربون من ألبانها وأبوالها، فأذن لهم فغدوا على اللقاح فاستاقوها[3]، فيدركهم مولى[4] النبي ﷺ ومعه نَفَرٌ فقاتلهم، فاخذوه فقطعوا يَده ورجله، وغرزوا الشوك في لسانه وعينيه حتى مات)[5].

فكان لا بد لهذه الأخلاقيات أن تُردَع، ولهذه النفوس أن تعاقب، وقد قابلوا جميل الرسول الأكرم ﷺ بنكرانه وزيادة.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٥: ٢٤١.

(٢) استوبأوا المدينة: أي وجدوها وبئة. (الصحاح: ٧٩).

(٣) وكفروا بعد اسلامهم.

(٤) اسمه يسار.

(٥) المغازي ٢: ٥٦٩، وانظر البداية والنهاية ٥: ٢٤١، سيرة ابن هشام ٤: ١٠٥٥، السيرة النبوية لابن كثير ٤: ٤٤٠.

السبب الثاني:

لِغرض إرجاع إبل رسول الله، وقد عرفنا أهمية هذه الأموال في غير موضع من هذا الكتاب، وكون هذه النعم تشكل رافداً إقتصادياً حيوياً مع افتراض ديمومة الحاجة إليها في الحرب والسلم.

ثم كي لايتعود المسلمون على تضييع حقوقهم، والسكوت على سلب ممتلكاتهم فيملكهم الضعف ويغدوا نَهب الأقوام.

وقد تابع الرسول المصطفى ﷺ أمر اللِّقاح بنفسه الشريفة وكأنه يؤكد أهمية هذه النقطة التي أشرنا لها.

روى الواقدي: (فلما أقبل رسول الله ﷺ إلى المدينة من الزّغابة وجلس في المسجد، إذا اللقاح على باب المسجد، فخرج رسول الله ﷺ فنظر إليها فتفقدَ منها لِقْحَة له يقال لها الحناءُ.

فقال: **«أي سَلَمَة! أين الحِناءُ؟»**

قال: نحرها القوم ولم ينحروا غيرها.

ثم قال رسول الله ﷺ: **«أنظر مكاناً ترعاها فيه»**.

قال: ما كان أمثل من حيث كانت بذي الجَدر.

قال: **«فردّها إلى ذي الجَدر»**[1].

السبب الثالث:

الرد عليهم على ما فعلوه بيسار مولى رسول الله ﷺ حيث قتلوه شر قتلة، والواقع لا أدري لماذا هذه الطريقة في القتل الشنيع المروع؟، أما كان يكفيهم السيف؟.

---

(١) المغازي ٢: ٥٧٠ ـ ٥٧١.

وإذا كان لا بد من قطع الرجل واليَد، فلماذا سمل العيون، ولماذا ذر الشوك فيها، ولماذا كل هذه الأفعال الحاكية عن حقد عظيم.

لا أدري ما هو منشأ كل هذا، هل هو إكرام الرسول المصطفى ﷺ لهم؟، أم هو جعلهم في وضع أمين مريح؟، أم هي الصحة والسمنة التي لم يألفوها من قبل إلا حيث تغذوا على لقاح رسول الله ﷺ؟.

أم إنها أحقاد دفينة غُلِّفَت بالإسلام، وانفجرت حيث وجدت لها متنفساً ومسلكا؟ فكانت قتلاً للنفس، وسملاً للعيون، وتركاً للمسلم يتشحط بدمه دون رحمة أو قلب لين رقيق، وكانت سرقة، وهروباً وغدراً بعد أمان، وكفراً بعد إسلام.

وهذه السرية مصداق واضح وتام لردع العدوان، واجتثاث الفساد، وقمع الظلم[1].

غزوة الحديبية

تعريف مختصر

قال الحموي: (الحديبية: وهي قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها.

وقال الخطابي في أماليه: سميت الحديبية بشجرة حدباء كانت في ذلك الموضع، وبين الحديبية ومكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل، وفي الحديث: إنّها بئر.

وبعض الحديبية في الحل وبعضها في الحرم، وهو أبعد الحل من

---

(١) وسيأتي ماله علاقة بهذا الموضوع في كتابنا: (الرسول المصطفى ـ قراءة في الدائرة الحمراء)

البيت وليس هو في طول الحرم ولا في عرضه، بل هو في مثل زاوية الحرم، فلذلك صار بينهما وبين المسجد أكثر من يوم، وعند مالك بن أنس أنّها جميعاً من الحرم.

وقال محمّد بن موسى الخوارزمي: اعتمر النبي ﷺ عمرة الحديبية، ووادع المشركين لمضي خمس سنين وعشرة أشهر للهجرة النبوية)[1].

إذن من الواضح مكان هذه القرية أو هذه البقعة من الأرض، ومعلوم مما سبق كيف اكتسب إسمها أهميةً، بناءً على أهمية الحدث الذي حصل عليها، وَعُقِدَ فوق صعيدها، وهو الصلح الذي عقده رسول الله ﷺ مع المشركين من قريش وسمّي بصلح الحديبية نسبة إلى هذه البقعة من الأرض.

وبعد هذا التعريف العام بها نحاول أن نقف على السبب الواقعي لهذه الغزوة، ويمكن القول أنها جاءت لتنفيذ أمر الله حيث رأى رسول الله ﷺ في منامه رؤيا كانت بمثابة الباعثة له والمحركة لغزوته هذه.

عن صاحب المغازي: (قالوا: كان رسول الله قد رأى في النوم أنه دخل البيت، وحلّق راسه، وأخذ مفتاح البيت، وَعرَّف مع المُعرِّفين[2]، فاستنفر أصحابه إلى العمرة، فأسرعوا وتهيّئوا للخروج)[3]

وعلى اعتبار أنّ رؤيا النبي ﷺ صادقة وهي عنده بمثابة الوحي الإلهي، أو هي وحي إلهيٌّ؛ لذلك عمل الرسول ﷺ بهذه الرؤيا وسعى للذهاب إلى بيت الله تبارك شأنه.

---

(١) معجم البلدان للحموي ٢: ٢٦٥.

(٢) اي وقف على عرفة.

(٣) المغازي للواقدي ٢: ٥٧٢، سبل الهدى والرشاد ٥: ٣٣.

وقد أخذ أصحابه معه ومعهم البُدن[1]، وقطعوا المسافات الطويلة والمراحل العديدة قاصدين الاعتمار في بيت الله الحرام.

ولقد وَثّق القرآن الكريم هذه القضية وثبّتها في آيات الله المباركة من سورة الفتح: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[2].

وهذه الرؤيا لوحدها تصلح علة تامة لغزوة الحديبية وسؤالنا هل يمكن البحث عن أسباب مناسبة لهذا الأمر الإلهي، وما هي تلك الأسباب؟.

أسباب الغزوة

السبب الأول:

فراغ محتوى البقاء على الركود، مع الإعتراف بضعف قريش وتدهور وضعها السياسي بعد غزوة الأحزاب، وخاصة أن الرسول ﷺ قال: «الآن نغزوهم ولا يغزونا»[3] بناءً على عوامل استند إليها الرسول ﷺ في ذلك

---

(١) النياق.

(٢) الفتح: ٢٧.

(٣) تاريخ الطبري ٢: ٢٥٣، البداية والنهاية لابن كثير ٤: ١٣٣، إعلام الورى بأعلام الهدى، الشيخ الطبرسي ١: ٣٨٢، عيون الأثر لابن سيد الناس ٢: ٤٥، كشف الغمة للأربلي ١: ٢٠٥، السيرة النبوية لابن كثير ٣، ٢٢١، سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ٤: ٣٨٩، بحار الأنوار للعلامة المجلسي ٢٠:

الحين.

فرأى ﷺ أن يستثمر حالة الضعف القريشية هذه فيبادر في تنفيذ التزاماته الدينية، وأحكامه الشرعية وهي أحكام الله الواجبة عليه، في الدعوة إلى الدين بالسبل المتاحة والمشروعة، والتبليغ له[1].

وَلِيُقَوّي جذور العقيدة الإيمانية في قلوب أصحابه وهم آمّين البيت الحرام يريدون الاعتمار به والتقرب إلى الله تعالى، فيكوّن هذا الشد في نفوسهم إلى الله وبشكل عملي بمظهر جديد من مظاهر الدين وممارساته العملية.

السبب الثاني:

لِيُشعر العرب وخصوصاً قريش عِزّ الدولة المحمدية، وعظمة الرسالة السماوية، التي نقلت أنفاراً من قريش وهم أهل ضعف وقلة، وفي ظروف قاهرة إلى هذا الموقع العظيم وقد واجهوا صدوداً ورفضاً وتعذيباً، ويأتي بهم الرسول الأكرم محمّد ﷺ وقد أحاطوه مع المئات من رجاله وأصحابه غيرهم.

كم تطور هؤلاء وتصاعد عدد الأنفار إلى هذه الدرجة من الهيبة والمنعة بحيث يحيطون بمحمّد ﷺ من كل مكان بعد أن كان وحيداً يجوب

---

٢٠٩ ـ ٢٥٨، مسند أحمد ٤: ٢٦٢ و ٦: ٣٤٩، صحيح البخاري ٥: ٤٨، فتح الباري لابن حجر ٧: ٣١١ و ٨: ١١٧، تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي ٨: ١٣٦، الميزان للعلامة الطباطبائي ٦١: ٣٠٠.

(١) ومعلوم ان من حق الرسول الأعظم ﷺ أن يبادر قريش بالهجوم لقيام حالة الحرب بينهما، ولكن رغم هذا الحق ذهب مسالماً غير محارب، يريد إقامة الشعيرة وتبليغ الدين وفرائضه.

أحياء مكة لا ناصر له ولا معين إلاَّ الله وعمه أبو طالب وأولئك الأنفار من المؤمنين، وفعلاً رأوا منه ومن أصحابهِ العجب في سفرته هذه على النحو الذي قالوا فيه ما قالوا، ما سوف يأتي ذكره إن شاء الله.

ولا ينبغي الإِعتراض في أن الرسول الأعظم ﷺ خرج بسلاح الراكب المسافر وهو سلاح بسيط، فكيف تظهر عزته وهيبته بذلك؟

ونحن نقول إن هذا المظهر عنصر قوة وهيبة لا عنصر ضعف؛ لانه أراد ﷺ أن يقول لهم نحن جئنا مسالمين، ولم نأتِ لحرب.

ورجل يأتي إلى أعداءه بسلاح بسيط دون أن يهابهم ويخافهم أحق بالإكبار والإجلال وهو يحتمل منهم الابتزاز والرد.

ثم إنهم خبروا شخصية الرسول ﷺ وجنده في المعارك السابقة وعلموا كم هي هيبة محمّد ﷺ في قومه، وكم هم شداد غلاظ في ميادين اللقى، فليسوا هم بحاجة الآن إلى ما يؤكد هذه الهيبة لمحمد ﷺ، مع وجود سجل حافل بالمآثر القتالية ومزدحم بها.

نعم في أن يروا محمّداً ﷺ بهذا الجمع وهو قريب من مكة وله هذه الجلبة والعدد وهم يريدون البيت الحرام، إن في ذلك لحكمة بالغة.

ولا يخفى أخيراً كون مجيء رسول الله ﷺ كان في شهر حرام وهذا يظهر أن الرسول المصطفى ﷺ محترم لهذا العرف المقدس عند الجميع، ويظهر لهم أنه يشترك معهم في تعظيم حرمة هذا الشهر وحرمة القتل والقتال فيه، مما يحملهم على تعظيم محمّد المصطفى ﷺ الذي يعظم ما عظمه أسلافهم بخلاف ما نشر عنه في مخالفة ذلك، وهذا عنصر قوة أيضاً.

السبب الثالث:

أراد الرسول الأعظم ﷺ أن يثبت له وجوداً في مكة، فيرجع

بالمسلمين إلى الحضيرة الدولية حيث مكة ملتقى أقطار الأرض، وينهي فكرة مقاطعتهم من قبل القبائل المحيطة باعتبارهم أناساً كبقية البشر، يؤدون شعائرهم كالآخرين حق التأدية للشعائر، ويبرزون أنهم أناس ذوي إعتقاد راسخ، لا ذوي أطماع تطفو على السطح ثم تُغيبها الأمواج، وحتماً سيؤدون شعائرهم بطرقهم الخاصة بهم، وبعقائدهم التي يعتقدون، وهذه وحدها لها تأثيرها الخاص.

ففك العزلة والعودة بالمسلمين إلى رحاب التعامل العالمي كان خطوة مهمة لكسر كل السياسات البالية السابقة التي تريد إبعاد المسلمين وعزلهم عن ساحة الفعل والتأثير والتعامل مع الآخرين، والإندماج الطبيعي مع تيار الحركة.

فقد نال الرسول ﷺ من هذا الهدف، الكثير وهو في الطريق، بل وجدت قريش نفسها أن تقبل بعودة المسلمين إلى مكة ولو على صعيد التفاهم لهذا العام والحج الفعلي في العام القادم.

السبب الرابع:

كون هذه الغزوة تمثل دورة تدريبية عملية لمسح الأرض الشاسعة، وقطع المسافات الطويلة، وكسب لياقة التحدي للوضع الجديد والانعطافة الراهنة، وتهيئة الأرضية النفسية في مقابلة قريش وغزوها بعد أن كانت هي التي تقصد وتغزو.

ولنلاحظ أنهم قصدوا الرسول ﷺ مراراً وهم غزاة محاربون، وقصدهم الرسول لاول مرة وجاءهم مسالماً لا غازياً.

وهذا يعني:

أنّ حركته باتجاه البيت ولِنَقُل باتجاه مكة أو قريش فيه دلالة على إرادة السلام، وإرادة السلام في كل الأحوال أقوى من إرادة الحرب؛ لأن في

السلام تجاوزاً لمحن الماضي المعقدة، والتي ليس من السهل أن يتجاوزها الإنسان، وفيها تحكيم للعقل والإرادة ورغبة التفاهم والإحترام للاخرين.

فالسلام فيه مؤنة على الحرب إذ الحرب قد تناسب إنفلات الإنسان العصبي وطيشه السافر، ورغبته في تدمير عدوه، وعدم قدرته على نسيان ما كان، بل تعتمل النفس دوماً بجموح الثأر والإنتقام، وتختلج في أعماقها أبجدية الغضب لتنسج لغةً تمسخ بها العدو بنيران الحقد، دون خضوع أو قبول لإرادة حرة خالية من ضغوط النفس الوحشية الهائجة، فالفرق بين إرادة الحرب وإرادة السلام واضح وشاسع.

أسباب غزوة مؤتة

السبب الأول:

مقتل رسول رسول الله ﷺ: فالسبب الرئيس الذي أدى إلى نشوب حرب مؤتة هو قيام الرجل الحاكم بأمر الروم في بلاد الشام - حيث كان يقطن الغساسنة - بقتل مبعوث رسول الله ﷺ إلى ملك بصرى، وكان مبعونه ﷺ إلى هذا الملك، الصحابي الحارث بن عُمَير الأزدي.

والمبعوث هذا كانت مهمته سلمية للغاية، يريد أن ينقل رسالة النبي الأكرم ﷺ إلى هذا الملك يدعوه فيها للإسلام، كما بعث صلوات الله عليه واله إلى غيره من الملوك في فترة ما بعد صلح الحديبية.

والمعروف أن الرُسُلَ ما كانت تُقتَلُ بل تُجَلُّ وتُحتَرمُ، حتى وإن كانت مبعوثة بمهمة خطيرة، ومن قبل رجل معادٍ، بل حتى لو كان الزمن زمن حرب وقتال.

ثم إنه رجل واحد وليس جيشاً جراراً يُخاف منه على ملك بني الأَصفر، أضف إلى هذا أنه بعيد الديار.فلا ناصر له ولا معين إلاّ الله

تبارك شأنه، وَلعَله كان يحمل أمراً حسناً يستحق لأجله الإكرام والتقدير، فضلاً عن تقدير كونه رسولاً فعلام القتل إذن؟.

إن هذه الحادثة الدنيئة، والتجاوز الإجرامي لم يكن ليَسكُت عليه النبي المصطفى الأعظم ﷺ، وغضب له المسلمون.

قال الواقدي: (بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عُمَير الأَزدي، ثم أحد بني لَهب إلى ملك بُصرى بكتاب، فلما نزل مؤتة عرض له شُرَحْبيل بن عمرو الغساني فقال: أين تريد؟

قال: الشام.

قال: لعلّك من رُسل محمدٍ؟

قال: نعم، أنا رسول رسول الله. فامر به فأُوثِق رباطاً، ثم قدّمه فضرب عُنُقَه صَبْراً. ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسولٌ غيرُه، فبلغَ رسولَ الله ﷺ الخبر فاشتد عليه، ونَدَب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث وَمن قَتله، فأسرع الناس وخرجوا فعسكروا بالجُرْف)[1].

السبب الثاني:

لِتأديب وتخويف القبائل العربية في ذات أطلاح من الشام، فإنه لما فَرَغَ رسول الله من المخاطر في جنوب مدينة الإسلام، وأسكت تلك الصيحات الصاخبة بوَجه الدين، ما بين انتصار بالسيف على أهلها، وما بين كم أفواهها عن طريق المصالحة والهدنة، صار توجهه ﷺ إلى إكمال سيرته في الدعوة السلمية إلى الله عز وجل متوجهاً إلى الشمال، فبعث كعب بن عمير الغفاري في خمسة عشرَ رجلاً؛ لتبليغ رسالات الله.

لكنهم ـ كما هو معلوم ـ رشقوهم بالنبل، وأنهوهم على آخرهم

---

(١) المغازي ٢: ٧٥٥، عيون الأثر ٢: ١٦٥.

إلاّ أمير السرية، فقد تمكن من التحامل والرجوع.

فكان توجّه الرسول للشمال إشعاراً لهؤلاء وتعريفاً لهم بأن الجيش الإسلامي ليس خمسة عشر نفراً وإنما جيش يقابل جيوش الروم على عظمتها في العدَدِ والعُدَدِ والتسليح والمهارة في فنون الحرب.

السبب الثالث:

هناك جمله من الأسباب المتداخلة المفيدة التي ترجع إلى:

١ ـ معرفة الجيش الروماني، وقابلياته، وردود فعله بازاء جيش الإسلام.

٢ ـ تعريف الجيش الروماني ببطولات رجال الإسلام، ومواقفهم الشجاعة، وبسالتهم في ساحات الصمود والذب عن حياض الرسالة.

٣ ـ كما أنها تنفيذ لسياسة الرسول ﷺ في عدم السكوت على الظلم، وعدم التراجع في نصرة الحق، والعمل الجاد لاسترجاع حق المؤمن وإن كلف ذلك حرباً ضاريةً.

السبب الرابع:

وهناك سبب يذكر: هو أن والي الشام والقائم بشؤونها أخذ من أسلم في تلك البلاد بعد أن ضاقت بهم صدور النصارى على قلة عددهم فكان ذهاب رسول الله ﷺ يُمثلُ حماية لأولئك المؤمنين، ودفاعاً منه ﷺ لحرية الإعتقاد، والحفاظ على سلامة المعتقدين بالإسلام.

خاصة وأنهم عرضة للإفتتان في قبال إرهاب النصارى وحاكم بلادهم في الشام.

وخلاصة هذه النقاط أن الرسول ﷺ أراد أن يدفع الظلم بغزوته

هذه، مستثمراً ذلك في الدعوة الى الدين.

غزوة خيبر

تعريف مختصر

جاء في مجمع البلدان: (خيبر: الموضع المذكور في غزاة النبي ﷺ وهي ناحية على ثمانية بُرُد من المدينة لمن يريد الشام، يطلق هذا الإسم على الولاية وتشتمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير.

وأسماء حصونها: حصن ناعم وعنده قتل محمود بن مَسلَمة أُلقيت عليه رحى، والقموص حصن أبي الحُقَيق، وحصن الشِّق، وحصن النَّطاة، وحصن السُّلالم، وحصن الوَطيح، وحصن الكتيبة.

وأما لفظ خيبر فهو بلسان اليهود الحصن: ولكون هذه البقعة تشتمل على هذه الحصون سُمِّيت خيابر.

وقد فتحها النبي ﷺ كلها في سنة سبع للهجرة وقيل سنة ثمان، وقال محمّد بن موسى الخوارزمي: غزاها النبي ﷺ حين مضى ست سنين وثلاثة أشهر وأحد وعشرون يوماً للهجرة.

وقال أحمد بن جابر: فتحت خيبر في سنة سبع عنوة، نازلهم رسول الله ﷺ قريباً من شهر ثم صالحوه على حقن دمائهم وترك الذريّة على أن يخلوا بين المسلمين وبين الأرض والصفراء والبيضاء والبزّة إلاّ ما كان منها على الأجساد وأن لا يكتموه شيئاً ثم قالوا:

يا رسول الله! إن لنا بالعمارة والقيام على النخل عِلماً فأقِرّنا،

فأقرّهم وعاملهم على الشطر من التمر والحب....)[١].

ونحن نعلم أن هذه الغزوة كان سببها الهام هو الإنفاذ لوعد الله الذي وعد به رسوله الأكرم ﷺ عند رجوعه من صلح الحديبية، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ...﴾[٢].

فقد وردَ في تفسير المغانم الكثيرة التي عجلها الله تعالى لعباده المسلمين أنها مغانم خيبر كما في تفسير الميزان: ﴿وأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الخ. والمراد بالفتح القريب فتح خيبر على ما يفيده السياق وكذا المراد بمغانم كثيرة يأخذونها، غنائم خيبر)[٣].

وقال: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ الخ، المراد بهذه المغانم الكثيرة المغانم التي سيأخذها المؤمنون بعد الرجوع من الحديبية أعم من مغانم خيبر وغيرها فتكون الإشارة بقوله: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ إلى المغانم المذكورة في الآية السابقة وهي مغانم خيبر منزلة الحاضرة لاقتراب وقوعها)[٤].

إذن كانت قضية فتح خيبر بوعد إلهي وتوجيه غيبي للرسول الأعظم ﷺ وما الله مُخلف وَعْدِه رُسُله.

وهذا السبب الهام الذي قام على أساسه الرسول الأكرم ﷺ في

---

(١) معجمع البلدان لياقوت الحموي ٢: ٤٦٨.

(٢) الفتح: ٢٠.

(٣) تفسير الميزان ١٨: ٢٨٥، التبيان ٩: ٣٢٨، مجمع البيان ٩: ١٩١ و ١٩٤.

(٤) الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي ١٨: ٢٨٥، جامع البيان لابن جرير الطبري ٢٦: ١١٥، تفسير القرطبي ١٦: ٢٧٨.

التحرك نحو خيبر إنما له أسباب يقف عليها، أو تعتبر منشأ له، أو قل أسباب إضافية تعتبر مبرراً واقعياً لقيام الحرب.

أسباب الغزوة

السبب الأول:

إنسياق يهود خيبر مع نوايا زعيمهم الجديد سلام بن مشكم الذي أعلن عن يأسه من عقد الأحلاف، وقنوطه من ثمارها، إذ لم تأته بخير.

بل كانت وبالاً على اليهود فلا عبد الله بن أُبي والخزرج نَفعوا يهود بني قينقاع في المدينة، ولاغطفان نَفَعت بني قريظة في حصارهم مع وجود الحلف، ولا صمَد العرب بأحلافهم في يوم الأحزاب.

وحيث نفض سلامُ بن مشكم زعيم اليهود يده من حلفائه العرب وخرج بائساً من تجارب مرة معهم، رأى أن تعمل اليهود لوحدها، بعد أن يعقد فيما بينها وحدة قوية متكونة من يهود خيبر (طبعاً مع من آوى اليهم من يهود قريظة) ويهود تيماء وَفَدَك ووادي القرى.

فيكوِّنون جميعاً جبهة يهودية ذات جدار صلب أساسه العقيدة الواحدة، والهدف المشترك في القضاء على الدين الإسلامي، والانتصار لعقيدتهم اليهودية، ويضمنون من خلال هذه الوحدة عدم الوقوع بالمثبطات السابقة التي دفعوا بها مع العرب من أهل الشرك ـ وفي مواقف شتى ـ ضرائب باهظة لا تنسى.

فهم يجمعهم الدين، ويجمعهم المكان، ويجمعهم وحدة الهدف، ووحدة الاسلوب، والوحدة الثقافية، والبيئية، وحب العزلة والإنطواء على عقيدتهم، وتجمعهم روابط الرحم، والصلب، والنَسب، والجذور، وهذا جميعه غير متحقق لهم مع العرب، مما يجعل دفاع بعضهم عن بعض وحماية بعضهم

لبعض، والتزام بعضهم للبعض ليس كما هو مع العرب.

وهذا أمرٌ ظاهر، فبعد أن هُزمت بنو قينقاع وهُزمت بنو النضير كانت آخر القلاع اليهودية حصون بني قريظة المحاصرة أشد الحصار من الجيش الرسالي الإسلامي بقيادة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

فلما آل الحصار إلى ما آلَ اليه، شرقَتْ يهود خيبر بالمرارة وأُصيبت في أكبادها، وتقنَّعت بالويل والكمد، وفزعت إلى سلام بن مشكم وهذا بدوره الحى باللوم على حُيَي بن أخطب، واعتبره سبباً في كل ما أصاب اليهود وأنه شؤم عليهم.

جاء في كتاب المغازي: (قال سلام بن مشكم: هذا كله عمل حُيَيّ بن أخطَب، شأَمَنا أوّلاً وخالفنا في الرأي، فأخرجنا من أموالنا وشرفنا وقتّل إخواننا، وأشد من القتل سباءُ الذريّة، لا قامت يهودية بالحجاز أبداً، ليس لليهود عزمٌ ولا رأي.

قالوا: وبلغ النساء فصيَّحن، وشَقَقْنَ الجيوب، وجززن الشُعور وأقمنَ المآتِم، وضَوَى إليهن نساء العرب.

وفزعت اليهود إلى سلام بن مشكَم فقالوا: فما الرأي أبا عمرو؟ ويقال أبا الحكم.

قال: وما تصنعون برأي لا تأخذون منه حَرفاً؟

قال كنانة: ليس هذا بحين عتاب قد صار الأَمرُ إلى ما ترى.

قال: محمّد قد فرغ من يهود يثرب، وهو سائر إليكم، فنازل بساحتكم، وصانع بكم ما صنع ببني قريظة.

قالوا: فما الرأي؟

قال: نسير إليه بمن معنا من يهود خَيبَر، فلهم عدد، ونستجلب يهود

تَيماء، وفَدَك، ووادي القُرى، ولا نستعين بأحدٍ من العرب، فقد رأيتم في غزوة الخندق ما صنعت بكم العرب بعد أن شرطتم لهم تمر خَيبر نقضوا ذلك وخذلوكم وطلبوا من محمّد بعض تمر الأوس والخزرج، وينصرفون عنه، مع أن نُعيم بن مسعود هو الذي كادهم بمحمد، ومعروفهم إليه معروفهم ! ثم نسير إليه في عقر داره فنقاتل على وتر حديثٍ وقديم.

فقالت اليهود: هذا الرأي.

فقال كنانة: إني قد خبرت العربَ فرأيتهم أشدّاءَ عليه، وحصونُنا هذه ليست مثل ما هناك، ومحمّد لا يسير إلينا أبداً لما يعرف.

قال سلام بن مشكم: هذا رجلٌ لا يقاتل حتى يؤخذ برقبته)[1].

وهذه النية هي التي تقود اليهود للتوحد فيما بينهم، ثم الحرب مع الرسول الأعظم ﷺ بوترين: وترٌ قديم لما أصاب بني قينقاع وبني النضير وغيرهم من يهود المدينة، ووتر حديث هو ما أصابهم في سرية عبد الله بن رواحة، ومقتلة بني قريظة، ومقتل سيدهم الباغي الغادر أُسَير بن زارم مع ثلاثين نفراً من يهود خيبر كانوا معه.

وللرسول الأكرم ﷺ ـ كما سوف يأتي في الجزء الثاني ـ عيونه الإستخبارية التي تمكن من خلالها استقراء كل التحركات المشبوهة، ومهما كان مصدرها، واتخاذ الإجراءآت السريعة والفاعلة بشأنها.

وعندما يعرف الرسول معلومة من هذا النوع وبهذا المقدار من الخطورة على مستوى التخطيط وعلى مستوى التنفيذ، خصوصاً أن اليهود يحسبون الأمور بدقة وبالذات القتالية والحربية، وبالذات مع الرسول ﷺ والمسلمين وإن كانت نتائجهم دائماً فاشلة ومساعيهم مكللة بالخيبة، فإن ذلك لاشك سيجعله ﷺ يمسك بعنق الموقف بقوة، ثم توجيهه كيف أراد.

---

(١) المغازي ٢: ٥٣٠.

إلا إن ذلك لايمنع أن نقول أن جِبَلَ اليهود ليس فقط في الحسابات المادية والتجارية والتخطيطية، وإنما هي كذلك ممتدة إلى الحرب والقتال، وينبيك عن هذا أن اليهود ملحلّوا بمنطقة الا محصنة أو حوّلوها إلى حصون وقلاع، أو لا يحلون إلا بحصونها وجبالها وقلاعها، لتمنع عنهم عادية الزمن وداهية القَدر.

السبب الثاني:

عدم اتعاظ اليهود من المواقف السابقة واستمرارهم على سياسة الغدر بالمسلمين، وعدم قدرة المسلمين على التفاهم معهم بأي لغة أخرى، فلا العهد بنافع، ولا لهجة السلام والموادعة بنافعة، ولا الترك بنافع.

كل شيء يحوله اليهود إلى طاقة تدمير في كيان المسلمين، قد استغلوا من قبلُ المواثيق والعهود والإتفاقيات المشتركة، وانقلبوا بقوة على المسلمين بعد أن أمنهم المسلمون وإن كان ذلك الأمن مشوباً بالحذر والترقب.

واخيراً مَرَّ معهم المسلمون بتجربة أخيرة كما اطّلعنا في سرية عبد الله بن رواحة، والروح الخبيثة الغادرة التي تَحرك بها أُسير بن رازم سيد خيبر مع السرية.

السبب الثالث:

إن يهود خيبر آوَوا اليهود الذين أجلاهم رسول الله ﷺ من بني النضير، وليس بعيداً أن جاءهم أفراد من بني قينقاع الذين أجلاهم رسول الله من بطن المدينة المنورة أول الأمر.

لقد جاء بالمصادر التاريخية: (فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، فكان أشرافهم ممن سار منهم إلى خيبر سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحُيَيّ بن أخطب فلما نزلوها دان لهم

أهلها)[1].

وهذا التجمع الجديد له تأثير على يهود خيبر وتيماء وفَدَك ووادي القرى فإنه يؤثر على نفوسهم، ويلهب حماسهم، ويؤجج مشاعرهم، ويحرك عواطفهم دائماً؛ لكي يكونوا على أهبة تامة لطعن محمّد النبي ﷺ والتآمر عليه.

إذ إنهم موتورون، وأصحاب جرحٍ عميق، وفقدٍ لأكابر مازال جرح فقدهم فاغراً يَنـزُ مطالبةً بالثأر، ويهتف بهم للقتال.

فان لم يكونوا هؤلاء القادمون مؤججي حربٍ فهم عوامل مساعدة على تأجيجها، أو عوامل مساعدة على عدم إخمادها إذا اشتعلت.

فلا يأمن الرسول الأكرم ﷺ شر اليهود في خيبر مع ما كان من الأحداث ومع بُعدهم عن الأحداث، فكيف يأمنها؟ وهو يعلم أن فيها من الأفاعي الجدد ما له طاقة بأن ينشب حرباً ولا يخمدها كسلام بن مشكم، وبقيّة رجال الرجل الأخطر منه حيُي بن أخطب الذي كان صاحب الأحزاب، وصاحب قضية بني قريظة، فضلاً عن قضية بني النضير قومه وعشيرته؟.

إن خيبر أصبحت بهم أكثر خطرا من الماضي، وأكثر استعداداً للمنازلة، وأكثر دبلوماسية في التخطيط إلى حرب طويلة الأمد.

السبب الرابع:

المواقف التحريضية السابقة ليهود خيبر على رسول الله ﷺ إلى الحد الذي انتهت جهودهم إلى جمع قريش مع احابيشها، وفزارة، وأسد، وأشجع، وغطفان، والقبائل الأخرى في مُجمَّعِ أحزاب، وحرب حلفاء لم

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٢٩٨، البداية والنهاية ٤: ٨٧، المغازي ٢: ٤٤١.

يلد التاريخ أخطر منها في عصر الإسلام قبل الفتح.

كل ذلك كان بفضل سعي اليهود المتواصل وفنّهم الخطير المخادع، وقدرتهم على تأليب هذه الجيوش جميعاً[1]، فقد استطاعوا تحشيد ما يربوا على عشرة آلاف فارس أو يزيد بوجه رسول الله ﷺ.

كما استطاعوا التأثير على كعب بن أسد زعيم بني قريظة، ودفعه لينقض عهد رسول الله ﷺ بأقذع الألفاظ وأسوء المواقف، مع ما عرف من تشدده في الرغبة باستمرار الإتفاق، وعدم ميله إلى النقض (حتى ولو في الظاهر)، لكن حِيَل ومناورات حُيَي بن أخطب جعلته يبادر لدخول المعركة من عدة أطراف وعدة جبهات:

١ ـ سياسي: فينقض عهد رسول الله.

٢ ـ واقتصادي: فيمد الجماعة المشركة والقوات المشتركة بقافلة كاملة من العِير والطعام.

٣ ـ وعسكري: بحيث يكون يهود بني قريظة مستعدين لدخول الحرب.

وحتى نعرف الدعم الروائي لهذا الرأي نرجع إلى كتاب المغازي وننصت إلى حديثه.

(فلمّا قدموا[2] خيبر خرج حُيَي بن أخطب، وكنانة بن أبي الحقيق، وهوذة بن الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي من الأوس من بني خَطمَة، وأبو عامر الراهب في بضعة عشر رجلاً إلى مكة يدعون قريش واتباعها إلى حرب محمّد ﷺ.

---

(١) كما هو سعيهم في الوقت الراهن والعصر الحاضر.

(٢) أي يهود بني النضير بعد الجلاء.

فقالوا لقريش: نحن معكم حتى نستأصل محمداً.

قال أبو سفيان: هذا الذي أقدمكم ونزعكم؟

قالوا: نعم، جئنا لنحالفكم على عداوة محمّد وقتاله.

قال أبو سفيان: مرحباً وأهلاً، أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمّد.

قال النفر: فلخرج خمسين رجلاً مِن بطون قريش كلها أنت فيهم، وندخل وأنتم بين أستار الكعبة حتى نلصق أكبادنا بها، ثم نحلف بالله جميعاً لا يخذل بعضنا بعضا، ولتكوننَّ كلمتنا واحدة على هذا الرجل ما بقي منا رجل.

ففعلوا فتحالفوا على ذلك وتعاقدوا)[1].

فاستحقوا بتحزيبهم الأحزاب ومحاولة جلب الخراب إلى مدينة رسول الله ﷺ هذا الرد المناسب لهم من رسول الله ﷺ.

ولو نظرنا إلى هذه الأسباب منفردة وجدناها كافية لشحن الموقف ضد اليهود والخروج لهم بالسيف، وإمطارهم سهام الموت، فكيف لو كانت هذه الأسباب مجتمعات غير مفترقات.

فتكون الحرب أولى لهم ثم أولى، خاصة أن النقاط السابقة كانت تلتقي بنقطة واحدة مهمة ومنبوذة ومحاربة من المسلمين ألا وهي الظلم، نعم الظلم الذي مارسه اليهود، بل الفتنة والنفاق والغدر والإفساد في الأرض.

فعزم الرسول الأعظم ﷺ على غزوهم بنفسه الشريفة، ومنلجزتهم الحرب إلى أن ينسحبوا عن تكبرهم، ويتركوا ممارسة الغدر والحِيَل

---

(١) المغازي ٢: ٤٤٢، سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٦٣.

والكذب والدجل على المسلمين، فكانت خيبر وما أدراك ماخيبر؟.

فتح مكة المكرمة

وأخيراً طوى التاريخ نفسه، أو طواه النبي المرسل ﷺ بعقله ورشده وسيفه وجهاده، وطوى التاريخ ولفُ الأيام على مضاضتها بصبر أجلُ من صبر جبل رضوى على صرير العاديات، وفوادح الخطوب، وتقادم الزمن العتيق.

طوى التاريخ صناع التاريخ، وأنقلبت الأُمور، بل واعتدلت الأُمور، فصار طريد مكة وشريد أهلها، فاتحاً ظافراً، يلقاهم بالحنو وقد جَفوه، وبالمودة وقد صدوه بالغضب والإحن والشنآن.

إبن مكة قلب الموازين، ودخل مكة فاتحاً منتصراً، شاكراً حامداً، إنه قلب الأحداث والتوقعات، فقد ظنوا بحقيق أنفسهم حتمية الفتك بهم، وإذا هو الأب البر العظيم والنبي الرؤوف الرحيم، والكريم إبن الكريم.

ظنوا أن لاحرمة تبقى لهم؛ لأنهم أهل القبائح، والتجاوز على الحُرُمات، والتجار بالذمم الطاهرات، فقال ﷺ: «اليوم يوم المرحمة، اليوم تحفظ فيه الحرمة»[1].

ظنوا أن الإنتقام شعاره، والحقد دثاره، وإذا به يطلقها مع رياح مكة، كلمة أبوية رحيمة، من دخل بيت الله فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن.

بل من دخل بيت أعدى أعداء الله، والملعون على لسان رسوله ﷺ،

---

(١) المبسوط للسرخسي ١٠: ٣٩، شجرة طوبى ٢: ٣٠٣، فتح الباري ٨: ٧، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٧٢، كنز العمال ١٠: ٥١٣، أسد الغابة ٢: ٢٨٤، عيون الأثر ٢: ١٩٠، سبل الهدى والرشاد ٥: ٢٢١.

أبي سفيان فهو كذلك آمن!!!

هنا توقفت عقارب الساعة في مكة، كي تبدء دورة الزمن فيها من جديد فقد انتحرت أزمان الظلام أمام أمواج النور المحمدي البهي، وولت دنيا المشركين إلى غير عودة.

دوّت كلمات الله في ربوع مكة، وكبّر بلال بأذان الفتح المبين، وأقامَ لصلاة الإنتصار.

كان كل شيء في مكة يدعوا لفتحها، لم يكن هناك شيء له تلك المانعية المعتبرة من الفتح، لا شيء يستحق الذكر!!.

إن بهلوانيات أبي سفيان، ومكابرة صفوان بن أُمية، وتبَجحات عكرمة بن أبي جهل، باتت لا تسمن ولاتغني من جوع، لاترد سيفاً ولاتمنع جحافل الظافرين، إنها مجرد استعراض لرجولة ميتة، وسلاً لسيف كان لا بد له أن يغمد بل يكسر، إنها أُمنية الميت بانفاسه المقطعة رجاء البقاء.

لا شيء يمنع من فتح مكة، سوى جمود الطغاة على أفكارهم الصنمية البالية، كل شيء في مكة بات يشجع على الفتح، ولا أقول يدعوا فقط، لأن كل ما كان سبباً في عدم الفتح، تحول بلطف الله إلى سبب يدعوا ويحثُّ على الفتح.

أجل: إن الإسلام لايريد أن يغزوا أناساً آمنين، وإن كانت هناك أسبابٌ عديدة لا تدع لهؤلاء الناس أي إستحقاق للأمن حيال الإسلام، ويصبحون بسببها مستحقين للغزو بقوة.

لكن الإسلام العظيم، ونبيه المصطفى الأمين ﷺ، ما كانا لينقضا عَهداً عاهداه، ولا يتركا وثيقة كتباها، ولا يَهدرا دماً أحاطاه بشرعية الحفظ والصيانة والاحترام، هما في كل شيء واحد، لا إثنينية بينهما، الإسلام هو

محمّد ﷺ، ومحمد ﷺ هو الإسلام فلا بد إذن من سبب قادح ـ كما قلنا ـ يرفع المانع الأكبر من فتح مكة.

مكة التي أصبحت مهيئة لاستقبال المستضعفين من أبناءها المهاجرين، ومهيئة لاحتضان أبناء لها جدد، هداهم ولدُها البار لدينه الحنيف، إنهم الأنصار!

الأنصار الذين شاركوا إخوانهم اللظى، وقاسموهم شظف العيش، وصعوبة المواقف، وتقرير المصير، وبكل شيء، وبكل ما تحمله الكلمة من معنى؛ لأنهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

كان لا بد لمكة أن تذكر صمودها العظيم، عندما هتف محمدها ﷺ بالرسالة، فكانت مدينة الانتصارات الروحية الأولى معَ الصابرين الأوائل، والتي حان لها الوقت بأن تكمل مسيرتها اللاحقة معهم وبنَفَس جديد.

مكة التي زهت بمحمّد ﷺ، واعتدلت قامتها بعد ما أذلتها أكابر البطون القريشية بالشرك والخمر والزنا، ووئد البنات، لتنتصر عليهم بداعي الله محمد ﷺ.

ولكنها سرعان ما تجلببت بالسواد لفراق محمّد ﷺ، وأجرت عينها دموع الوجد والإغتراب لبعدك يا رسول الله، حيث هجرك أهلها الى المدينة.

أما الآن فمكة شموخ لا تطاوله الجبال، ولا تطمع بمثله باسقات النخيل، قد عاد محمّد ﷺ، وفي كفه قرآن، وسنبلة، وغصن زيتون، وعلى جبهته ضياء اللقاء، وفرح الظامئين بالماء.

---

(١) الحشر: ٩

وهاهي مكة تفتح ذراعيها بحرقة، وحنين، لتحتضن وليدَها وصحبه العائدين، قائلة مع علي عليه السلام، وعمارٍ، وبلال: أشهد أن محمداً رسول الله...!

أسباب فتح مكة

السبب الأول:

أهمية إنهاء الهجرة والرجوع الى الوطن وأرضه الحبيبة، الوطن بما فيه الأهل، والحرم الشريف، وتاريخ الدعوة التليد، وذكرى الإنطلاق.

إنها مهمة التبليغ الذي جاء بها الرسول ﷺ: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾[1] والتي لا بد من إيصالها إلى مكة المكرمة، وإنهاء الضلالة فيها، بل هي أحق من غيرها في ذلك للأسباب التالية:

١ ـ مركزها الديني الإلهي المعروف، حيث فيها بيت الله المشرَّف، وكعبته، وهي قبلة المسلمين، وهي موضع اهتمام الغيب، وجهود الأنبياء السابقين، والحديث عن قداستها طويل.

٢ ـ مركزها الصنمي الذي تَلْتَفُّ حوله قبائلُ العرب جميعاً، وإذا كان لا بدَّ للهداية أن تنتشر، فلا بدَّ للضلالة أن تُقبر، وإذا كانت الهداية تبدء من حيث بدءت الضلالة فلا بد من التوجه لمكة باعتبارها مركز ضلال وانحراف وتخريب عالمي واسع.

إنها حكومة المؤسسة الصنمية، ونظام العمل الإشراكي، وطريقة التوجه الهابط الرخيص.

---

(١) المائدة: ٦٧.

٣ ـ كونها أصلب جهة وقفت بوجه الإسلام، ونبيه الأقدس ﷺ، وجنده الميامين، فخاضت حروباً، وجندت جيوشاً، وحرضت قبائل، وتآمرت في السر والعلن على شرع الله ودينه.

وكان لا بد لهذه الصلابة من التصدع ثم الإنهيار والتحطيم، ليستمر دين الله في تعاليمه وبث روحه بين الناس دونما صخرة صماء في طريق دعوته المباركة.

٤ ـ إن العودة إليها عودة إلى الجذور والأسس، فقد كان الإنتصار في مكة له حلاوته الخاصة، ولعل هذه الحلاوة الخاصة، ناشئة من كون مكة مدينتهم التي أقصتهم، وعذبتهم، وهدرت دماءهم، حتى استشهد البعض، تحت السياط وأسنة الحراب.

لأنها كانت مدينة صاخبة بأهلها، لا تقبل أن تتنفس فيها الأفكار نسائم الحرية، وها قد روضها محمّد ﷺ بعد طول المعاناة والمحنة وجعلها تهش وتبش للإسلام الحنيف.

إنه لون من ألوان الربط بين الحلقات، الحلقات الفكرية والروحية، إنه لون من ألوان التحدي، واجتياز الظروف، وتخطي الموانع، إنه لون من ألوان التفرد بالإنتصار، الإنتصار بالتي هي أحسن.

فمحمّد ﷺ الساحر الشاعر الكذاب الصابيء كما زعموا، عادَ نبياً مكرماً، ورسولاً معظماً، وقائداً مُتَّبَعَاً، وزعيماً لا يُخْرَجُ عن إرادته في شيء.

وهرعوا اليه يطلبون الأمان بعد شهر السنان، ويمدون الأعناق معتذرين بعد أن كانوا ينغضونها جلفاً وكبراً.

إنه حق إثبات الحق، وحق إثبات الوجود، ولو لم يفتح الرسول ﷺ مكة لبقي ذلك الطريد الشريد، ولو فتح الأرض بأكملها دون مكة.

وهم أولئك الصامدون المتحدون القاهرون، ولكن ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[1].

٥ ـ ولأن الأقربون أولى بالمعروف: فإذا كان النبي ﷺ جاء ليستنقذ البشر من وهدة الظلم، وصلف الشرك، وضياع المفترين، فان قومه وأهله وعشيرته أحق بذلك من باب أولى، فهم أهل العلقة وأهل البيئة، وأهل الرحم، وأهل الحمى.

وقد أمره الله تعالى بأن يبدء بهم الدعوة، ولعل هذا هو أحد الأسباب، إنهم ذوي رَحِمِه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[2].

فلذا سعى النبي المصطفى ﷺ، لهدايتهم، والعفو عنهم، ورعاية حالهم، والتأليف بينهم، بل وأعطاهم من نفسه وروحه وخلقه ﷺ الكثير الكثير.

السبب الثاني:

كثرة من أسلم من أهل مكة، وبسبب صلح الحديبية، حتى فشي الدين، وظهر أمره بينهم، وصار رموز الكفر القريشي يبحثون لهم عن مناطق آمنة يلجئون إليها في ساعة العسرة مما يعني أنهم عرفوا حتمية انتصار الإسلام عليهم، وزوال إمبراطورية الأصنام الحاكمة.

فكان لا بد من التفكير بجدية في ضرورة تخليص المؤمنين الموجودين في ديار الشرك القريشي، وانقاذهم من مخالب لم تزل تنهش أجسادهم ودينهم الغض الفتي.

لا أظن بحال أن متابعة المشركين ـ ورغم ضعفهم ـ للمؤمنين قد

---

(١) الأنفال: ٤٢.

(٢) الشعراء: ٢١٤.

أنتهت، وطوتها أمواج المؤمنين، إن شيئاً ما لازال في سلة قريش، وهراوة ساخطة لا زالت تعربد في يدها.

لكن لا يُخاف جنابهم ولا تُهاب سطوتهم بالنسبة للمسلمين، فقريش اليوم ليست قريش الأمس، وعكرمة، وصفوان، وسهيل بن عمرو، ليسوا أبا جهل وأمية بن خلف...وعتبة، وأبا لهب!؟

أنظر كلام عائشة لرسول الله ﷺ وهي تُسلط فيه الضوء على ضعف قريش، بحيث أن موقفاً حدياً قتالياً واحداً يؤدي إلى نقض الصلح لا يمكن أن يُتصور اتخاذه من قريش.

تقول متسائلة من رسول الله وهو ﷺ يفكر في أمر خزاعة: (يا رسول الله أترى قريشاً تجترئ على نقض العهد بينكم وبينهم وقد أفناهم السيف؟) [١].

إلى هذا الحد كلَّت مخالب قريش، وهرم بناءُها، ووهن عظمها، ونلاحظ نفس الرأي يطرحه زعيم خُزاعة شعراً على رسول الله ﷺ حيث يقول في معرض استنهاضه لرسول الله ﷺ وإثارة حمية رجاله مُعَرِّضاً بقريش:

(وهم أذَلُّ وأقَلُّ عَددَا) [٢].

وعلى هذا فَقِس!.

---

(١) المغازي ٢: ٧٨٨، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧: ٢٦١، سبل الهدى والرشاد ٥: ٢٠٢.

(٢) المغازي ٢: ٧٨٩، العمدة لابن البطريق: ١٦٤، فتح الباري ٧: ٣٩٩، شرح معاني الآثار ٣: ٣١٣ و ٣١٦، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧: ٢٥٨، تفسير القرطبي ٨: ٦٥، اسد الغابة ٤: ١٠٤، تاريخ الطبري ٢: ٣٢٥، سيرة ابن هشام ٤: ٨٥٤، عيون الأثر ٢: ١٨٢.(زعيم خزاعة هو عمرو بن سالم).

نضيف إلى ذلك إيمان بعضهم، وممن يحسب له عندهم حساب، والتحاقه بالمسلمين في مدينة الهجرة، كخالد بن الوليد، أحد قادتهم، والمعتمد في الحرب عليه، وعمرو بن العاص، صاحب الرأي الخبيث، والدهاء الكبير، والمقولة المحتالة، وهكذا جماعة آخرون، وقد كان بعضهم يفكر في ذلك لما رأى الأمور وقد أخذت منحى آخر، ففكر أن يحفظ مركزه، ويَصون موقعه، عن طريق خلطِ الأوراق واللعب بها.

السبب الثالث:

كثرة عدد المسلمين بشكل واسع وكبير، بحيث لا يخاف معه من هزيمة، ولا يحذر معه خسران[١].

فقد أسلمت القبائل المعادية سابقاً للإسلام، وقد كان وجودها الجغرافي مانعاً من التوجه إلى قريش (أي إلى مكة)، أما الآن فهي بوجودها البشري العريض، أصبحت مناصرة لمحمد النبي ﷺ، وبوجودها المكاني قواعد عسكرية لانطلاق النبي ﷺ، ومحطات استراحة لجيشه الفاتح.

روى الواقدي في مغازيه: (فلمّا أبان رسول الله ﷺ الغزوة أرسل إلى أهل البادية والى مَن حوله من المسلمين، يقول لهم: مَن كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليحضُر رمضان بالمدينة.

وبعث رسولاً في كلّ ناحية حتى قدموا على رسول الله ﷺ أسلم، وغفار، ومُزَينة، وجُهينة، وأشْجَع. وبعث إلى بني سُلَيم، فأما بنو سُليم فلقيته بقُدَيد، وأمّا سائر العرب فخرجوا من المدينة)[٢].

---

(١) طبعاً نقصد مع قريش وفي حالتها آنذاك وإلا فكون الكثرة لا يصاحبها هزيمة وخسران بقول مطلق، أمرٌ لا يصح.

(٢) المغازي ٢: ٧٩٩، انظر الهدى والرشاد ٥: ٢١١.

فالإسلام الذي كان تعداد جيشه في صلح الحديبية(١٥٠٠) نفراً أصبح الآن ـ عدا من بقي في المدينة ـ عشرة آلآف رجلاً أو يزيد على ذلك، وهذا عدد كبير لا طاقة لقريش به.

خاصة مع ضعفها وتوسع الشقّ فيها، وتبعثر آراءها، وانفكاك حلقات التحالف معها، هذا كله مع عدم نسيان فكرة القضاء على فاعلية اليهود وبالذات في خيبر.

ولعل تصريح أبي سفيان يوضح لنا حقيقة الوضع العسكري الإسلامي وعظمة شوكة جيش التوحيد (وجعل يصرخ[1] بمكة: يا معشر قريش، ويحكم ! إنه قد جاءَ ما لا قِبَل لكم به ! هذا محمد في عشرة آلافٍ عليهم الحديد، فأسلموا!

قالوا: قبّحك الله وافِدَ قوم! وجعلت هند تقول: أُقتلوا وافدكم هذا، قبحك الله وافد قَوم.

قال: يقول أبو سفيان: وَيلَكم، لا تغرنّكم هذه من أنفسكم! رأيت ما لم تَرَوا! رأيت الرجال والكراع والسلاح، فلا لأحد بهذا طاقة!)[2].

فأمام هذه الطاقة المهاجمة، وهذا الخميس الجارف، تُرى ماذا عسى أن تكون قريش وإن كَثُرت حتى تقف أمام طوفانه المهيب.

السبب الرابع:

بات من الضروري التفكير في إنهاء هذه المرحلة، وحرق جميع خنادقها التي لا زالت تحمل القلق لرسول الله ﷺ، وتحمّله العبىء الثقيل من جهة استمرار قريش بحياكة مؤامراتها في الظلام الدامس.

---

(١) اي ابو سفيان.

(٢) المغازي ٢: ٨٢٣، انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧: ٢٧٢.

ولابد للرسول الأكرم ﷺ أن يبدأ ـ بعد إنهاء ملف قريش ـ بفتح مرحلة جديدة اسمها مرحلة ما بعد الفتح.

إنّ مرحلة ما بعد الفتح توفر له ﷺ انطلاقة مفعمة بالقوة، وتهيء له قاعدة غاية في الأهمية، وتنهي من حوله دعاية سلبية، وتبليغاً جائراً.

ومرحلة ما بعد الفتح تضيف له جنداً آخرين، وزخماً معنوياً هاماً، وعمقاً ستراتيجياً ذا أثر في نشر قواته المحاربة، ومحاصرة أعدائه، وإنهاء فكرة التعويل على قريش، والتعليق عليها بالمهام الصعاب، من قبل باقي القبائل العربية في الجزيرة.

فقد أسلمت قريش، وانتهت بإسلامها كل النوايا المبطنة، والمساعي الخبيثة، والتأليب المسعور على رسول الله ﷺ.

وإن بقي شيئ ما بين الحنايا والسطور، لكنه ليس بذي بالٍ في هذه المرحلة.

السبب الخامس:

ثم فتح مكة جاء على أنقاض نقض الصلح مع رسول الله ﷺ الذي كان بحكم الحدث القادح لهذا الفتح الميمون.

وكان لا بد لقريش ـ على ضوء ذلك ـ أن تُؤدُّب لنقضها هذا، وأن تنال جزاءاً على موقفها بالعون على رسول الله ﷺ، أو العون على حلفائه من بني خزاعة، وقريش كانت مطمئنة لوقوع ذلك، لأنها تعرف أن الخرق منها والعلاج من محمد ﷺ، وكان الأمر كما توقعت.

ولأن نقض الصلح، والغاء الإتفاق يعني عودة حالة الحرب بين الطرفين لا محالة، وبمجرد عودتها فلا أعتقد أن الأمر يحتاج للبحث عن أسباب فتح مكة لوضوح ذلك.

وللمزيد أقول:

إن التاريخ يحدثنا على أن القوم تلاوموا، وندموا، وسرى أحدهم إلى الآخر يوبخه على ما صنعوا في نصرهم لحليفهم أو أحلافهم بني بكر ضد خزاعة، وأدانوا المشاركين الأوائل في هذه النصرة غير المشروعة.

ففي المغازي: (وجاء الحارث بن هشام، وابن أبي ربيعة إلى صفوان بن أُمية، وإلى سهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، فلاموهم فيما صنعوا من عونهم بني بكر، وإن بينهم وبين محمد مُدَّة، وهذا نقضٌ لها)[1].

ومشى الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة إلى أبي سفيان فقالا:

هذا أمرٌ لا بد أن يصلح، والله لئن لم يُصلح هذا الأمر لا يروعكم الاّ محمد في أصحابه!)[2].

ولنستمع إلى ما يحدثنا التاريخ أيضاً عن رأي زعيم قريش وتحليله للموقف السياسي فيما بعد، وكيف أنّه يستقرء الحدث الذي لابد من نزوله بساحتهم وكأنه يعطي للباحث التاريخي فرصة إلتقاط الأنفاس عند إرادته استكناه الحقائق في بحثه.

حيث يعطيه أبو سفيان مراده في سبب فتح مكة جاهزاً طازجاً، ويريح عنه عناء التأمل وإطالة التفكير، مُعطياً كامل الشرعية للرسول ﷺ في حال غزوه مكة، أو شنه للحرب ضدها، حيث رأى أبو سفيان من الشر ما رأى قال:

وفي المغازي أيضاً: (هذا والله أمرٌ لم اشهده ولم أغب عنه، لا حُمل

---

(١) المغازي٢: ٧٨٤، سبل الهدى والرشاد ٥: ٢٠١.

(٢) المغازي٢: ٧٨٥، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧: ٢٥٩، سبل الهدى والرشاد ٥: ٢٠٥.

هذا إلاّ عليٌّ، ولا والله ما شُوورت ولا هويت حيث بلغني! والله ليغزونا محمد إن صدقني ظني وهو صادقي.

وما لي بدٌّ أن آتي محمداً فأكلمه أن يزيد المدة في الهدنة ويُجدِّد العَهد قبل أن يبلغه هذا الأمر.

فقالت قريش: قد والله أصبت الرأي! وندمت قريش على ما صنعت من عون بني بكر على خزاعة، وعرفوا أن رسول الله ﷺ لن يَدَعْهُمْ حتى يغزوهم)[1].

السبب السادس:

وفاءً من رسول الله ﷺ بذمة خزاعة، وحلفها مع رسول الله ﷺ وقد وقع ما يوجب الذب عنها ونصرتها، والرد على عدوها.

روى الواقدي: (وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة يستنصرون رسول الله ﷺ ويخبرونه بالذي أصابهم وما ظاهرت عليه قريش ـ فأعانوهم بالرجال والسلاح والكراع، وحَضر ذلك صفوان بن أُمية في رجال من قومهم متنكّرين، فقتلوا بأيديهم ـ ورسول الله ﷺ جالسٌ في المسجد في أصحابه، ورأس خزاعة عمرو بن سالم)[2].

ويحسن الإشارة هنا الى وجود عهد نصرة بين بني خُزاعة وبين آل هاشم، لعله يُكْسِب الموضوع أهمية خاصة، وقد اصطحبته خزاعة معها عند زيارتها للرسول ﷺ.

---

(١) المغازي٢: ٧٨٥، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٥٩ ـ ٢٦٠، سبل الهدى والرشاد ٥: ٢٠٥.

(٢) المغازي٢: ٧٨٩، سبل الهدى والرشاد ٥: ٢٠٢، انظر الطبقات الكبرى ٢: ١٣٤، الإصابة لابن حجر ١: ٢٧١، عيون الأثر ٢: ١٨٢.

ففي مصادر التاريخ: (ولقد جاءته خُزاعة يومئذٍ بكتاب عبد المطلب فقرأه عليه أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ وهو:

(باسمك اللهم، هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة، إذا قدم عليه سرواتهم وأهل الرأي، غائبهم مُقرٌ بما قاضى عليه شاهدهم.

إن بيننا وبينكم عهود الله وعقوده، وما لا ينسى أبداً، اليد واحدة، والنصر واحد، ما أشرف ثبير، وثبت حراء مكانه، وما بل بحر صوفة ولا يزداد فيما بيننا وبينكم إلا تجددا أبد الدهر سرمدا))[1].

فقد اجتمع لِنصرة خزاعة من قبل رسول الله ﷺ عهدان.. عقدان.. حلفان، وجائت خزاعة مؤكدة لما كان ومطالبة به فأستأذن شاعرهم ورأسهم الرسول ﷺ؛ ليقول أمامه، والرسول ﷺ يستمع له.

فأذن الرسول واستمع ﷺ:

اللــّهم إنّــي ناشــدٌ محمّدا ... حلــف أبينــا وأبيك الأتلَدَا

قد كُنــتُم وُلْداً وكنــّا والِدا ... ثُمَّتَ أســلمنا ولم تَنــزع يَدَا

إنَّ قُريشــاً أخلَفــوك المَوْعدا ... ونقضــوا ميثــاقك المؤكــّدا

فانصرْ هداك الله نصراً أعتدا ... وادعُ عبــاد الله يــأتــوا مددا

فيهــم رســول الله قد تَجرَّدا ... في فيلقٍ كالبَحْرِ يجري مُزبِدا

قَرْمٌ لِقَــرمٌ من قــروم أصــَيدا ... هــم بيتــونا بــالوتير هــُجّدا

نتــلو القــرآنَ ركّعاً وسُجّدا ... وزعموا أن لســت أدعوا أحدا

وهم أذلُّ وأقَلُّ عددا[2]

---

(١) المغازي٢: ٧٨١، سبيل الهدي والرشاد ٥: ٢٠٠.

(٢) المغازي٢: ٧٨٩، وهو بتفاوت يسير في العمدة لابن البطريق: ١٦٤، فتح الباري ٧: ٣٩٩، شرح معاني الأثر ٣: ٣١٣ و ٣١٦، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧: ٢٥٧، تفسير القرطبي ٨: ٦٥، اسد الغابة ٤: ١٠٤، تاريخ الطبري ٢: ٣٢٥، سيرة ابن هشام ٤: ٨٥٤، عيون الأثر ٢: ١٨٢.

وذكروا أيضاً بعد هذا كله مقولة مهمة للرسول الأكرم ﷺ تثبت التزامه الأخلاقي بكلمته، وتمسكه الشديد بقانون الصلح ومواثيق الإتفاق: (فعن إبن عباس رضي الله عنه، قال: قام رسول الله ﷺ وهو يَجُرُّ طَرَف ردائه، وهو يقول: «لا نُصِرتُ إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي!»)[١].

السبب السابع:

ولا ننسى أن هذه الأسباب جميعها تقف متضامنة تحت مظلة سبب أهم وأعظم، ما هي إلاّ وليدة له، ومنتسبة إليه، ألا وهو الوعد الإلهي للرسول المصطفى ﷺ بفتح مكة، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾[٢].

فقد ذهب أغلب المفسرين إلى القول بأن المعاد المقصود في الآية مكة المكرمة، وإن كان ورد في معنى ذلك أقوال متعددة لكن يخلص صاحب تفسير الميزان في بحثه بخصوص هذه الآية: بأن المقصود هو العود إلى مكة المكرمة دون بقية الآراء التي يعتبرها في إستدلاله العلمي أنها بعيدة عن هدف الاية وسياقها.

قال ﷺ: (فمعنى الآية: أن الذي فرض عليك القرآن لتقرأه على الناس وتبلغه وتعملوا به سيردك ويصيرك إلى محل تكون هذه الصيرورة منك إليه عوداً ويكون هو معاداً لك، كما فرض التوراة على موسى ورفع به قدره وقدر قومه.

ومن المعلوم أنه ﷺ كان بمكة على ما فيها من الشدة والفتنة ثم

---

(١) المغازي٢: ٧٩١.

(٢) القصص: ٨٥.

هاجر منها ثم عاد إليها فاتحاً مظفراً، وثبت قواعد دينه واستحكمت أركان ملته وكسرت الأصنام، وانهدم بنيان الشرك. والمومنون هم الوارثون للأرض بعد ما كانوا أذلاء معذبين.

وفي تنكير قوله: ﴿مَعَادٍ﴾ اشارة إلى عظمة قدر هذا العود وأنه لا يقاس الى ما قبله من القطون بها والتاريخ يصدقه)[1]

معركة حنين

تعريف مختصر

معركة حنين من المعارك الفاصلة المهمة جداً والتي حصلت فيها أحداث تعطيها تلك الأهمية، وتميزت بأمور جعلتها من الخطورة بمكان بحيث (ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما مر بالنبي ﷺ يوم كان أشد عليه

---

(١) تفسير الميزان ١٦: ٨٧. يؤيده ما جاء في تفسير الإمام العسكري عليه السلام ص٥٥٥، تفسير التبيان للشيخ الطوسي ٢:٣٦١، تفسير مجمع البيان للطبرسي ٧: ٤٦٣ وقال في سبب النزول: (قيل لما نزل النبي ﷺ بالجحفة في مسيره الى المدينة، لما هاجر إليها، اشتاق الى مكة فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال: أتشتاق الى بلدك ومولدك؟ فقال نعم. فقال جبرائيل فإن الله يقول عز وجل: إن الذي فرض عليك القران لرادك الى معاد يعني مكة ظاهراً عليها. فنزلت الآية بالجحفة، وليست بمكية ولا مدنية، وسميت مكة معاداً لعوده اليها)، تفسير جوامع الجامع ٢: ٧٥٧، جامع البيان للطبري ٢: ١٥٢، معاني القران ٥: ٢٠٦، زاد المسير لابن الجوزي ٦: ١١٧،تفسير القرطبي للقرطبي ٣١: ٣٢١ قائلاً(ختم السورة بشارة نبيه محمد برده الى مكة قاهراً لاعدائه)، تفسير ابن كثير ٣: ٤١٣، تفسير الجلالين: ٥١٩، وكذافي الدر المنثور ٥: ١٣٩.

من يوم حنين وذلك إن العرب تباغت عليه)[١].

وقعت هذه المعركة في وادٍ اسمه حنين يقع بين مكة والطائف فسميت باسمه وسميت معركة هوازن ومعركة أوطاس وكانت الدائرة على هوازن وثقيف حيث فروا في نهاية الأمر في كل وجه.

أسباب المعركة

السبب الأول:

إن الرسول المصطفى ﷺ سمع باجتماعهم لحربه، وعرف نيتهم من ذلك وكانوا قد قرروا المسير إلى الرسول ﷺ قبل أن يسير إليهم حسب زعمهم، فاستعجل الرسول ﷺ الأمر وحسم الموقف قبل بلوغ قوات هوازن وثقيف مكة حيث كانت مقصدهم.

عن مغازي الواقدي: (لما فتح الله لرسول الله ﷺ مكة مشت أشراف هوازن بعضها إلى بعض، وثقيف بعضها إلى بعض، وحشدوا وبغوا وأظهروا أن قالوا:

والله ما لاقى محمداً قوماً يحسنون القتال، فأجمعوا أمركم فسيروا إليه قبل أن يسير إليكم. فأجمعت هوازن أمرها وجمعها مالك بن عوف ـ وهو يومئذٍ إبن ثلاثين سنة ـ وكان سيداً فيها، وكان مُسبلاً[٢]، يفعل في ماله ويُحمد. فلجتمعت هوازن كلها.

وكان في ثقيف سيّدان لها يومئذ: قارب بن الأسود بن مسعود في الأحلاف، وهو الذي قادها، وفي بني مالك ذو الخِمار سُبَيع بن الحارث ـ وهو

---

(١) علل الشرائع ٢: ٤٦٢ ح ٣، البحار ٢١: ١٣ و١٨٠ ١٠ و ١٦.

(٢) المُسْبِل: هو الذي يطول ثوبه ويرسله الى الأرض اذا مشي، وإنما يفعل ذلك كبراً واختيالاً (النهاية ٢: ١٤٥).

الذي قادها موالياً ثقيفاً، فأوعبت كلها مع هوازن، وقد أجمعوا المسير إلى محمّد، فوجد ثقيفاً إلى ذلك سِراعاً.

فقالوا: قد كنّا نهم بالمسير إليه، ونكره أن يسير إلينا، ومع ذلك لو سار إلينا لوجد حصناً حصيناً نقاتل دونه، وطعاماً كثيراً، حتى نصيبه أو ينصرف، ولكنّا لا نريد ذلك، ونسير معكم ونكون يداً واحدة. فخرجوا معهم)[1].

فترى أن الرسول ﷺ لم يجيّش جيشاً، ولم يعلن حرباً، ولم يصرح بما يوحي إلى ذلك، ولم يأمر فرداً، أو رهطاً، أو سرية للتعرض لهؤلاء القوم وهم يتأهبون للعدوان والإغارة على مكة؛ للقضاء على رسول الله ﷺ ومن فيها بناءاً على إحتمال كون الرسول ﷺ يتحرك لمقاتلتهم بعد فتح مكة.

إنه مجرد إحتمال!!

بينما مسك الرسول ﷺ الأدلة القوية بيده والدالة على نوايا هوازن وثقيف العدوانية، بل وتحركاتهم الفعلية ومحاولتهم سبق الأحداث كما يزعمون وجاءوا ليس فقط بأنفسهم بل بكل ما يمتلكون وكذا نساؤهم معهم، والتي أرادوا أن يعلنوا عن طريقها بأن لا بقاء لنا إن لم نقض على محمد ﷺ، وإلاّ لماذا أخرجوا كل هذه الخليقة معهم.

هذا مع العلم إن عدد جيشهم وحده (ثقيف وهوازن) يساوي ثلاث أضعاف جيش المسلمين تقريباً فإحتمال النصر على المسلمين قوي جداً بلحاظ مسألة الكثرة[2] لكن كل ذلك يُفسر أن دلالة الإنتقام من رسول

---

(١) المغازي٣: ٨٨٦، انظر تاريخ دمشق ٥٦: ٤٨٥ ـ ٤٨٦، سبل الهدى والرشاد ٥: ٣١٠.

(٢) كما إن لدى ثقيف حصناً آمنا قوياً مزوداً كما يدعون، فلا يحتاجون مع وجوده الى التعرض للآخرين ما داموا آمنين منهم غير قادمين عليهم.

الله ﷺ في نواياهم وضمائرهم كانت قوية للغاية.

السبب الثاني:

محاولة إنهاء آخر القواعد المعادية للرسالة الإسلامية المباركة في شبه الجزيرة العربية، حيث إن هوازن وثقيف والقبائل الأخرى الموالية لهما كانت تمثل وجوداً صلباً، وقلاعاً للتحدي ما دامت موجودة.

هذا مع ما عرف من مواقفهم السابقة مع رسول الله ﷺ حيث ذهب إليهم مهاجراً معتقداً منهم النصرة فإذا هم يأمرون صبيانهم وعبيدهم ليطاردوه بالحجارة في شوارع الطائف، وبين ديار ثقيف.

إن موقفهم العدائي كان مستحكماً مع رسول الله ﷺ منذ بداية الدعوة الى أن رجعوا إلى حصنهم فارين من سيوف المسلمين المشرعة، فكانت مناسبة إعلانهم العداء السافر وتوجههم إلى مكة معلنين الحرب على رسول الله ﷺ، فرصة لزعزعة هذه القاعدة المشركة إن لم يكن نهايتها في القضاء عليها بالكامل.

أما غزوة الطائف أو حصار الطائف:

فهو يكاد يكون إدامة لمعركة حنين أو هو كذلك، حيث تمت هزيمة المشركين من هوازن نحو أوطاس والنخلة، وهروب قوات المشركين من ثقيف نحو حصنهم بالطائف فتابعهم المسلمون حتى الوقوف عند الحصن، ثم تم بعد ذلك الإنسحاب عنه.

فالسبب الظاهر الواضح هو أن المعركة الحنينية لم تزل قائمة مستمرة بمطاردة القوات المعتدية وملاحقتها حتى دخولها في الجحور وتمنعها بالحصون، فالأسباب هي الأسباب في حنين وزيادة، والزيادة وقوع العدوان فعلاً وحصول المعركة ووقوع قتلى وجرحى وغير ذلك.

غزوة تبوك

تعريف مختصر

جاء في معجم البلدان: (تبوك: بالفتح ثم الضم، وواو ساكنة، وكاف: موضع بين وادي القرى والشام، وقيل بركة لأبناء سعد من بني عُذرة، وقال أبو زيد: تبوك بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر نصف طريق الشام، وهو حصن به عين ونخل وحائط إلى النبي ﷺ.

ويقال إن أصحاب الأيكة الذين بعث اليهم شعيب عليه السلام، كانوا فيها ولم يكن شعيب منهم، وإنما كان من مَدين، ومدين على بحر القلزم على ست مراحل من تبوك، وتبوك بين جبل شَرَوَرَي، وحسْمي غربيها وشروري شرقيها.

وقال أحمد بن يحيى بن جابر: توجه النبي ﷺ في سنة تسع للهجرة إلى تبوك من أرض الشام، وهي آخر غزواته، لغزو من انتهى إليه أنّه قد تجمع من الروم وعاملة ولخم وجُذام، فوجدهم قد تفرقوا فلم يلق كيدا.

ونزلوا على عينٍ فأمرهم رسول الله ﷺ أن لا أحد يمس من مائها، فسبق إليها رجلان وهيٍ تبض[1] بشيء من ماءٍ فجعلا يدخلان فيها سهمين ليكبر ماؤُها فقال لهما رسول الله ﷺ:
ما زلتما تبوكان منذ اليوم، فسميت بذلك تبوك والبوك: إدخال اليد في شيء وتحريكه)[2].

---

(١) تبض: (هو قلب تبض أي تسيل وتقطر) لسان العرب ١: ٥٤٢.

(٢) معجم البلدان للحموي ٢: ١٧.

أسباب الغزوة

السبب الأول:

معلوم من هذا التعريف ما هو سبب معركة تَبُوك وما هو سبب خروج الرسول الأكرم ﷺ إليها غازياً بجيشه جيش العسرة. إذ إنه ﷺ قاد هذا الجيش ليعالج موقفاً عسكرياً، كان قد سمع بحصوله وهو أن الروم أجمعت تريد قتال المسلمين ونبيهم الأعظم ﷺ.

كتب الواقدي في توثيق الغزوة ما يلي: (كانت الساقطة ـ وهم الأنباط ـ يقدمون المدينة بالدُّرْمَك[1] والزيت في الجاهلية وبعد أن دخل الإسلام، فإنما كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم، لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط.

فقدمت قادمة فذكروا أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأنَّ هِرَقل قد رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معه لَخْمٌ وجذامٌ وغسان، وعاملة. وزحفوا وقدّموا مُقَدِّماتهم الى البلقاء وعسكروا بها، وتخلف هِرَقل بحِمْص.

ولم يكن ذلك، إنما ذلك شيء قيل لهم فقالوه)[2].

السبب الثاني:

ليُري الرسول الأعظم ﷺ هِرَقل ملك الروم وجيشه استعداد الجيش الإسلامي لمواجهته وتحديه، والظهور له بتلك المنعة والقوة وبمجرد

---

(١) الدرمك: دقيق الحواري (الصحاح: ص ١٥٨٣)، وتأويل الحواريين في اللغة الذين اخلصوا ونقوا من كل عيب، وكذلك الحواري في الدقيق سمي به لأنه ينقى من لباب أكبر، قال: وتأويله في الناس الذي قد روجع في اختياره مرة بعد مرة فوجد نقياً من العيوب (لسان العرب ٤: ٢٢٠).

(٢) المغازي٣: ٩٩٠، تاريخ دمشق ٢: ٣٣.

سماع النبي ﷺ أن هناك تحركات رومانية هرقلية تريد الوقيعة بالمسلمين.

ولا ننسى الموقف السابق والأثر الذي لايزال حياً في قلب الرسول المصطفى ﷺ وقلوب المسلمين من بقايا غزوة مؤتة التي صعد بها شهداء ثلاثة إلى روح الله وجنانه وهم من أعز الخلق على رسول الله ﷺ.

جعفر بن أبي طالب الطيار.

زيد بن الحارث.

عبد الله بن أبي رواحة.

ولا ننسى أيضاً ما يمثله هجوم الرسول ﷺ وغزوه لجيش الروم من أثر في إضعاف القوى العربية المناصرة له والتي تشكل عبئاً على مستقبل الرسالة وأثراً مهماً فيما لو شاركت مع هرقل الحرب.

وفي ختام هذا القسم:

وبعد أن استطلعنا ومن خلال إستعراض أسباب أكثر الحروب التي شنها العدو على الرسول المصطفى ﷺ، أو خاضها هو (نفسي فداه) من بداية جهاده ومقاومته لأعداء الله، إلى آخر غزوة غزاها بنفسه الشريفة وهي غزوة تَبُوك، مروراً بالملاحم الخالدة والمعارك الكبرى التي رسمت تاريخ الإسلام والمسلمين، بل رسمت تاريخ العالم إلى يوم الدين، فهل وجدنا روحاً عدوانية، أو تآمراً على النوع الإنساني، أو ارادة للتسلط، ورغبة في الظلم والإجحاف، وفي لوي أعناق البشر، أم وجدناه دفاعاً مستميتاً عن حق مضيع، ومواجهة عارمة لأجل تثبيت عقيدة يرون أنها صحيحة ومن حقهم اعتناقها والدفاع عنها؟

وهل وجدنا حرباً من الجهة المقابلة إلاّ وهي قائمة على أسباب ظالمة، وفتنة عمياء، تريد أن تستهلك الآخرين بعنوان أن البقاء لا يصح لغيرها؟

وهل وجدنا المسلمين عند التحدي إلاّ لِرَدّ تلك الفتنة من أن تردهم جهالاً مشركين، عبيداً خاضعين؟

وهل وجدنا المسلمين متصلبين إلاّ بوجه حالة نفاقية مقيتة تريد أن تخلط الأوراق وتقطع الأعناق بما يحلو للمنافقين من مصانعة ومداهنة وأساليب زائفة، ومعاملات وسلوكيات منفرة، يأباها العقل، ويمجها الذوق، وتستهجنها الأنفس الشهمة والطباع الكريمه؟

وهل وجدنا المسلمين يستحضرون للقاء عدو إلاّ وذلك العدو قد تَجمع يريد الإغارة عليهم أو غار فعلاً؟

وهل واجه المسلمون وهم قلة معدمة تلك الجموع الغازية والتحالفات المشتركة والقبائل المتحدة، إلا وهم مدافعون عن أنفسهم، رادون الظلم عن ساحتهم، ناهضون بمهمة نبوية يريدون من خلالها تلقين الباغي درس الإنصاف ويسمعونه لغة الإعتدال، وشعار العدل، ومنهج الإسلام؟

لقد قدمّنا قراءة في أسباب جميع أو أغلب تلك الحروب فلم نجد منها ما يُتهم به الإسلام بما يُتَهم به العدو.

لم نجده ظالماً أو معتدياً أو مريداً للفتنة، أو أبرم مع قوم عهداً وميثاقاً ثم عدى يغدر بهم كما فُعل به أو معه.

وحتى في تلك الأحوال الحربية، وتلك اللقاءات العسكرية، لم نجده إلاّ شهماً غيوراً، يفوح منه شذى الإنسانية، ويفيض من ضفافه رحيق الكرامة، ويسلك مع عدوه سلوك الإنسان الشريف الذي يقيم للذمم قدراً، وللمخلوق وزنا.

فيعفو ويصفح، ويلتقي ويصالح، ويعاهد ويوافق، وينجد ويكرم، ويفعل الخير ما وجد إليه سبيلا.

نعم هو مع من طغى وتكبر، ورفع أنفه تجبراً وغروراً، لا يرى في السيف إلاّ علاجا، وفي الرمح إلاّ شفاءاً وفي السهام إلاّ ماءاً ثجاجاً.

وزبد المخض:

إن الأسباب التي قامت عليها حروب الرسول المصطفى ﷺ، والركائز التي استندت اليها كانت بالواقع أسباب دفاعية وركائز وقائية راجعة بحقيقتها إلى دفع الفتنة والبغي والنفاق والظلم.

وان كُنّا نُدرك كون هذه الركائز جميعاً يمكن أن يكون مرجعها الأساسي واحد ومهم جداً الا وهو الظلم.

قال تعالى في أول بيان إلهي قرآني يجيز فيه للمسلمين القتال واستخدام القوة مع العدو: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1].

موضحاً تعالى أن الحروب التي يخوضها المسلمون هي حروب دفاع، لأنهم قوتلوا ولم يكونوا قد قاتلوا ابتداءاً، وأن المسوغ لهذا الدفاع هو كون تلك المقاتلة قائمة على دفع الظلم.

وفي تمام هذا الكلام يتم الجزء الأول من هذا الكتاب الذي كتبناه رغم ضغط الحياة وصعوبة المشكلات خصوصاً الصحية منها، ولولا كل ذلك لأتينا بما يرضي طموحنا في الكتابة بشكل أدق وأروع، ولكن قضى الله أمراً كان مفعولا.

فلله الحمد والمنة على حسن التوفيق، وبركة الإتمام، وكرامة المدد وألطاف العون، وأسئله المزيد من عونه وكرمه لإتمام الجزء الثاني والذي يفوق بأهميته هذا الجزء أفكاراً وإثارات وموضوعات تكاد تكون الفريدة في مجالها.

---

(١) الحج: ٣٩.

تم تحرير هذا الجزء من كتاب (جهاد الرسول المصطفى ﷺ والسلام العالمي) بيد العبد الخاطئ والراجي لرحمة ربه البر الرحيم (ستار الزهيري)، في يوم الإثنين ١٠ جمادى الآخرة من سنة ١٤٢٣ هجرية قمرية على هاجرها ماهو أهله من التحية والصلوات وعلى آله الأبرار وصحبه المنتجبين الأخيار.

كتب في دار الهجرة والمقام

مشهد المشرفة /

جوار المشهد المقدس للإمام الهمام علي بن موسى الرضا المرتضى عليه الصلاة والسلام وعلى آبائه وأبنائه الكرام.



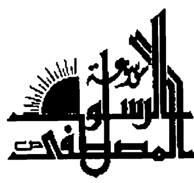
فهرس المواضيع

أوجه المشروعية للحرب

ملاكات الحرب والجهاد عند الرسول ﷺ

دراسة تطبيقية في جهاد الرسول ﷺ

أسباب حروب الرسول الأعظم ﷺ



Mausouat Al-rasool Al-Mostafa

(12)

Address in Lebanon:
P.O.Box 25/138
Al-Ghobairi - Beirut

Address In Iran:
P.O.Box 91375/4436
Mashhad
Fax:(0098-511) 2222483

E-mail: almawsouah@hotmail.com
almawsouah@yahoo.com
Website: www.almawsouah.org

Published In Lebanon by: Dar - Alathar

Published In Iran by: Jarf Publisher
Enqelab St. Fakhre Razi St. #111
Tehran - Iran
Tel: (0098-21) 6401727 P.O.Box: 13445-533

First print: 1423 - 2002

دار الأثر
للطباعة والنشر والتوزيع
Dar Al-Athar, Publisher

Shahrur bldg. Dakkash St. Bir Al-Abed - Beirut Lebanon
Tel: 01-270574 - 03/349237

E-mail: alathar2002@hotmail.com

MAWSOUAT AL-RASOOL AL-MOSTAFA

A highly informative encyclopedia of Prophet Mohammad's life

Administered by: Mohsen Ahmad Al-Khatami

PROPHET MOHAMMAD'S JIHAD (ISLAMIC HOLY WAR) AND INTERNATIONAL PEACE

By: Sattar Jabbar Al-Zohairi

(Volume one)